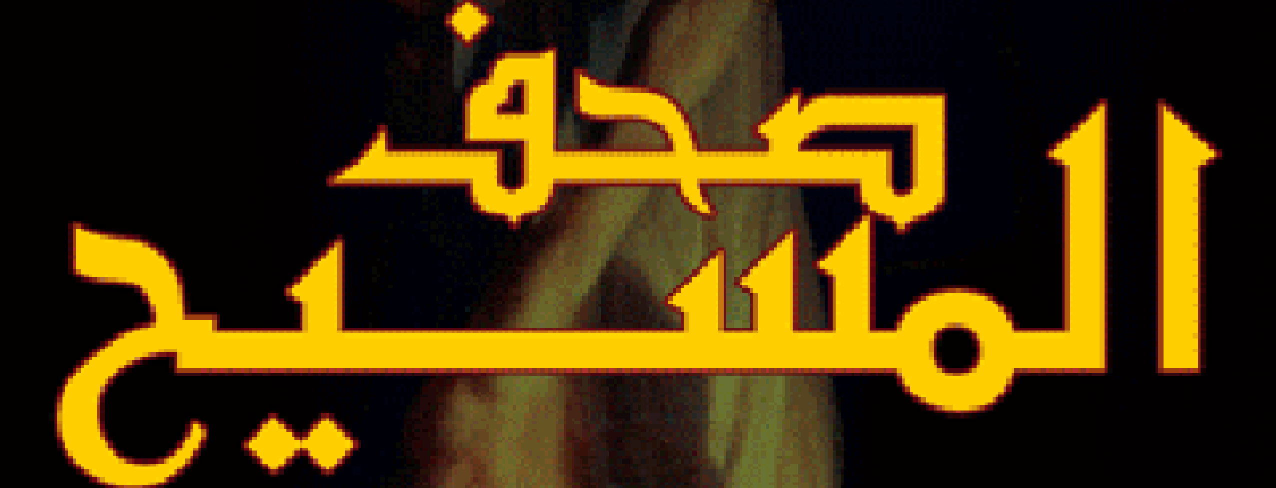


الكتاب الأكثر مبيعاً

الكتاب الأكثر جدلاً



صحف المسيح

THE JESUS PAPERS

كَشْفُ السِّرِّ الأعظم في التاريخ

MICHAEL BAIGENT

ميشيل بيجنت

ترجمة وتعليق

محمد الواكد

ميشيل بيجنت المؤلف المشارك بكتاب الدم المقدس الكأس المقدسة

صُحُف المَسيح

تكشف السِّرَّ الأعظم في التاريخ

الكتاب : صُحُف المسيح تكشف السِّرَّ الأعظم في التاريخ

التّأليف : ميشيل بيجنت

الترجمة والتعليق : محمد الواكد

الإخـراج الفنـِّي : عبـد الله الكـردي

التّـدقـيق العـامّ: إسـمـاعـيل الكـردي

الطّبعة الأولى : كانون الثاني 2008

النَّاشر : دار الأوائل للنَّشر والتَّوزيع والخدمات الطّباعيَّة

سورية - دمشق - ص ب 10181

هاتـــف : 00963 11 44676270/1/2

فـاكـس : 00963 11 44676273/4/5

جـــوَّال : 00963 933 411550 / 00963 933 327951

00963 988 629948

البريد الإلكتروني : ***alawael@scs-net.org***

موقع الدَّار على الإنترنت : ***www.daralawael.com***

تأليف: ميشيل بيجنت

المُؤلِّف المُشارك بتأليف كتاب

الدّم المُقدَّس الكأس المُقدَّسة

الكتاب الأكثر مبيعاً

والأكثر جدلاً عالمياً

صُحُف المَسيح

تكشف السِّرَّ الأعظم في التاريخ

ترجمة وتعليق: محمد الواكد

الأوائل

2008

تنويهٌ مُهمٌّ

من أجل تواصل أكثر مع السَّادة القُرَّاء، فقد خَصَّصْنَا آخر (16) صفحة من هذا الكتاب لمنشورات **الدار**؛ حيثُ يجد السَّادة القُرَّاء قائمة بمنشورات **الدار**، ولمحة إلى كُلِّ كتاب أصدرتْهُ **دار الأوائل**.

هذه القائمة تعطي انطباعاً عامَّاً عمَّا تنشرُهُ **دار الأوائل** من آراء، كما تُعطي لمحة عامَّة إلى الخطِّ الذي تنتهجه **الدار**، وهذا – بلا شكٍّ – سيجعل التَّواصل أسرعَ، وأقربَ، وأصدقَ.

فنرجو من السَّادة القُرَّاء قراءةَ هذه الصّفحات بتأنٍّ، وتدبُّر، ونرجو مُراسلتنا بمُلاحظاتكم، واستفساراتكم، عن الكُتُب التي تنشرها **دار الأوائل**.

الفهرس

الدّم المُقدَّس الكأس المُقدَّسة

الكتاب الأكثر مبيعاً والأكثر جدلاً عالمياً

تأليف: ميشيل بيجنت - ريتشارد لاي - هنري لينكولن، تر: محمّد الواكد، نَشْر دار الأوائل، دمشق، ط1 2006 وط2 2008.

إنّه الكتاب المُروِّع، الحاصل على أفضل المبيعات عالميّاً.

هل المخطوطات القديمة التي وجِدَتْ في فرنسا تكشف الحقيقة المروعة؟!

الكتاب كافٍ لتحدّي العديد من المعتقدات المسيحيّة التّقليديّة، إنْ لم يكن تغييرها أيضاً.

هل وجهة النّظَر التّقليديّة المقبولة لحياة السّيد المسيح هي ناقصة بطريقة ما؟!

هل من المحتمل أنّ السّيد المسيح لم يمتْ على الصّليب؟!

هل من المحتمل أنّ السّيد المسيح كان متزوّجاً، وأباً، وأنّ سلالته ماتزال موجودة؟!

هل من المحتمل أنّ المخطوطات التي وجِدَتْ في جنوب فرنسا قبل قرن من الزّمن تكشف أحد أكثر الأسرار خطورة في المسيحيّة؟!

هل من المحتمل بأنّ هذه المخطوطات تحتوي – تماماً – على جوهر لغز الكَأس المُقدَّسة؟! مَنْ هم الكَاثَار؟ مَنْ هم الرُّهبان المُحاربون؟ مَنْ هم فُرسان الهيكل؟ ما هي الوثائق السِّرِّيَّة؟ ما هو دَيْر صهيون؟ مَنْ هم الرُّوزيكرُوشيّون؟ ما هي برُوتُوكُولات صهيون؟ مَنْ الميروفيّون؟مَنْ الكَارُولينيّون؟ مَنْ هي زوجة المسيح؟! هل هي مريم المجدليَّة؟ مَنْ هم سلالة المسيح؟!مَنْ هو بَاربَارا؟! هل حَدَثَ الصّلْب، أم لم يحدث؟! ما هي القَبَلانيَّة؟!

ما هو السِّرُّ الخطير الذي حَرّمَتْه الكَنيسَة؟! ما هو الزّيلوت؟!

ما هو تاريخ الإنجيل؟ ما هي التفاصيل الدقيقة عن سيناريو حادثة الصّلْب!!

طبقاً لمُؤلِّفي هذا الكتاب المثير، والمُعتمِد على أبحاث غاية في الدِّقَّة، هذه الأمور ليست ممكنة فحسب؛ بل هي – ربّما – حقيقة!!

ثَوْرِيٌّ جداً، أصليٌّ جداً، مُقنِعٌ جداً، لدرجة أنّه سيثير أكثر المسيحيين إيماناً؛ هذا هو الكتاب الذي أثار الخلافَ العالميّ.!

شُكر

أخيراً؛ خرجتُ من الظلمة، والعينـان حمـراوان، والبـشرة شـاحبة، ممـسكاً بمخطوطـة، وأتساءل في أيّ يوم أنا؟! لم يكن بإمكاني القيام بذلك، لولا حصولي على مساعدة:

قبل كلّ شيء، أودّ أن أشكر زوجتـي «جـين» لـدَعْمها لي، ولقـدرتها عـلى العـيش حيـاة طبيعية، بينما كانت حياتي تسقط نحو الغروب بـسرعة متزايـدة، نجـم النهـار سـطع أخـيراً؛ كنتُ أتمسّك بذيله.

أودّ – أيضاً – أن أشـكر عـائلتي، التـي تحمّلـت الكمبيـوتر المحمـول، الـذي أصـبحتُ – على ما يبدو – مدمناً عليه؛ هم لم يقترحوا – أبداً – أنني بحاجة إلى مساعدة احترافية.

بالطبع؛ تلك المساعدة الاحترافيـة كانـت مـن مـساعدتي ذات الشخـصية الرائعـة، إنهـا «آن إيفانس»، من شركة «جوناثان كلاوس» المحدودة في لندن. شكراً لكِ «آن».

المساعدة الأخرى جاءتني من أفضل محرّر عرفتُهُ؛ إنـه «هـوب إنـيلي»، المحـرّر التنفيـذي في «هاربركولينز» في «نيُو يُورك». شكراً لكَ «هوب».

أودُّ – أيضاً – أن أشكر «كلوديا ريمر بـاوتوت»، زميلـة تعمـل نـاشرة في «هـاربر سـان فرانسيسكو»، مبتدئة في الألغاز العظيمة للدعاية والإعلان. شكراً لكِ «كلوديا».

أخيراً؛ كما سيبدو واضحاً لكلّ مَنْ سيقرأ هذا الكتاب، ومنذ فترة طويلة، كانـت تقـودني الأعجوبة نحو الاحتمالات الإنسانية، رغم أن ذلك كان يتمُّ بحذر (ليس بـشديد) تجـاه قـوّة أولئك الذين يحاولون – بثبات – تقييد حريتنا في الاقتراب من الأشياء التي نتنبَّـأ بهـا بـشكل مناسب وفق اعتقادنا.

حقيقة؛ هناك العديد من الطُّرُق للوصول إلى قمَّة الجبل. مَنْ يخبرنا أيّها هو الأفضل؟!

المقدّمة

في 28 مايو/ مايس 1291، في الأرض المُقَدَّسَة: هُدمت عَكَّا، التي كانت ميناء آخر مدينة للمملكة الصليبية. البرج البَحْري العظيم لفُرسَان الهَيْكَل هو الوحيد الذي بقى واقفاً.

لسبعة أسابيع، الجيوش العربية بقيادة خليل الأشرف، سلطان مصر الشابّ، كانت الأولى في الحصار، ومن ثمَّ؛ مهاجمة المدينة. العاصمة الأخيرة للمملكة المَسيحية انتهت. شوارعها - التي كانت ـ يوماً ـ تعجُّ بالمحاربين والنبلاء والتُّجَّار والمُتسوِّلين - امتلأت بالأبنية المُحطمَّة، والجثث. لم يكن هناك إحساس بالخجل تجاه «الأضرار العَرَضية» في تلك الأيام العنيفة؛ عندما سقطت المدينة، تمَّ التساهل - بحرية - في الذبح، والسرقة.

العرب كانوا مُصمِّمين على إجبار كلّ أثر للصليبيين بالتَّوجُّه نحو البحر؛ الصليبيون - على حدّ سواء - صمَّموا على بالنجاة؛ متأمّلين بقدرتهم على إحياء مملكتهم من جديد، بغَضِّ النظر عن درجة اليأس التي كانت تنتابهم، لكن هذا الأمل تلاشى عندما سقطت عَكَّا. ما وراء الدخان والخراب الدامي للمدينة، فقط؛ البرج العظيم لفُرسَان الهَيْكَل وقف سليماً. حُشر داخل ذلك المبنى أولئك الذين بقوا حتى الآن - سوية مع خمسين أو ستّين فارس - البقايا الأخيرة لما كانت يوماً قوّة قتال عظيمة، الجيش الدائم في المملكة المَسيحية المُقَدَّسَة. انتظروا، ولم يكن هناك شيء بإمكانهم أن يقوموا به. لا أحد كان سيأتي لإنقاذهم. بضعة سفن عادت، وبعض من الفرسان والمدنيين لاذوا بالفرار. الآخرون انتظروا مجيء النهاية، ولأسبوع بعد ذلك؛ صدّوا الاعتداءات المستمرَّة.

كان القتال حادَّاً جدَّاً؛ لدرجة أن فُرسَان الهَيْكَل أُصيبوا باليأس. عندما صرَّح السلطان بأن كلّ الفرسان والمدنيين سيغادرون سالمين، إنْ هم تخلّوا عن القلعة، وافق مستشار فُرسَان الهَيْكَل، الذي كان مسؤولاً عن توجيه المقاومة. سمح ذلك المستشار لمجموعة من المحاربين العرب تحت قيادة الأمير بدخول القلعة، وبرَفْع راية السلطان عليها. لكن القوّات العربية السيئة الانضباط بدأت سريعاً بإيذاء النساء، والأطفال. بغضب؛ قام فُرسَان الهَيْكَل بقَتْلهم جميعاً، وأنزلوا راية السلطان.

السلطان عدَّ ذلك خيانة، وبدأ - شخصياً - بانتقامه الوحشي: في اليوم التالي، كـرّر عرضـه بالمرور الآمن. ثانية؛ قُبِل ذلك العرض. مستشار فُرسَان الهَيْكَل، سوية مع عـدّة فرسـان، قـاموا بزيارة السلطان في هدنة لمناقشة الشروط. لكنْ؛ قبل أن يـصلوا إلى الـسلطان، وعـلى مـرأى مـن أعين المدافعين المحتشدين، الذين كانوا يحيطون بجدران قلعة فُرسَان الهَيْكَل، تمَّ اعتقالهم جميعاً، وإعدامهم. لم يكن هناك المزيد من عروض الاستـسلام المُـنظَّم مـن قِبَـل الـسلطان، وبالمقابـل؛ لم يكن هناك أيُّ شيء يمكن تقديمه من قِبَل فُرسَان الهَيْكَل: كانت معركة حتى النهاية.

في ذلك اليوم الحاسم؛ انهارت جدران قلعة فُرسَان الهَيْكَل، التي تـمَّ إضـعافها مـن قِبَـل عمّال المناجم العرب، وبدأ العرب هجومهم. ألفان من محاربي المماليك بالزّيّ الأبـيض شـقّوا طريقهم عبر الثغرة التي صُنعت في برج فُرسَان الهَيْكَل. بناء البرج - الـذي أُضـعف بأسـابيع من الهجوم - فسح لهم المجال للـدخول، وبـزئير مفـاجئ انهـارت علـيهم الحجـارة بـشكل مفاجئ، وقامت بسحق المهاجمين والمدافعين كلَيْهما. وعندما توقّفت الحجـارة عـن التحـرّك، واستقرّ الغبار، أعلن الصمت بأنّ كـلَّ شيء انتهـى. بعـد مئتَـيْ سـنة تقريبـاً، حلـم المملكـة المَسيحية في الأرض المُقَدَّسَة قد سُحِقَ.

حتى فُرسَان الهَيْكَل هجروا - في تلك الأثناء - قلاعهم القليلة الباقية، وانـسحبوا مـن الأرض التي حضنت حوالي عشرين ألفاً من إخوتهم على مدى 173 سنة من القتال المرّ، في أغلب الأحيان.

فُرسَان الهَيْكَل أصابوني بالدهشة لمدة طويلة. ليس - فقـط - لـدورهم كجـيش محـترف، ولمساهمتهم العظيمة والمُهمَلَة بشدة في بداية عالمنا الحديث - قدّموا سلطة المال عـلى الـسيف، بواسطة عمليات الشيكات والحوالات المالية الآمنة من مدينة لأُخرى، ومن بلد لبلد؛ أثـاروا النزاع بين الأرستقراطية المهيمنة وبين طبقة الفلاحين المُستَغَلَّة، ممَّا ساعد على فتح نطـاق وجـود الطبقة المتوسّطة؛ لكنْ؛ دائماً، كان هناك هالة من اللغز تحـيط بهـم. بـشكل خـاص، عـلى الأقـلّ البعض منهم بدوا أنهم متمسّكين بالدِّين الذي عـارض ديانـة رومـا. بـشكل صريـح، يبـدو أن الهرطقة كانت ضمن صـفوفهم، ولكـن القليـل كـان يعـرف عـن ذلـك. لقـد كنـتُ فـضوليَّاً، وصمّمتُ على البحث عن بعض الأجوبة. بدأتُ بالبحث في الجانب الغامض لفُرسَان الهَيْكَل.

في أحد الأيام؛ بينما كنت أجلس في مكتبة في لندن، قال لي أحد أصدقائي - وهو مالك تلك المكتبة - بأنه عليّ أن أجتمع بشخص ما، شخص ما كان لديه معلومات قد تثير اهتمامي، متعلّقة بفُرسَان الهَيْكَل. وتلك كانت الطريقة التي قابلتُ بها زميلي «ريتشارد لِي». وانتهينا بكتابة سبعة كُتُب سوية، على مدى السنوات العشرين التالية.

ريتشارد كان - بالتأكيد - يمتلك بعض المعلومات المثيرة؛ وهي المعلومات التي كانت قد نُقلت إليه من قِبَل هنري لنكولن. أنا وريتشارد أدركنا - بسرعة - بأنّنا يجب أن نُوحِّد قوانا. بعد شهور قليلة؛ هنري وصل إلى النتيجة ذاتها. وقُمنا بتشكيل فريق، وكما يقولون نحنُ اخترناه. **النتيجة، بعد ستّ سنوات، كانت النتيجة الكتابَ الحاصلَ على أفضل المبيعات؛ وهو: «الدَّم المُقَدَّس، الكَأس المُقدَّسَة»**[1].

تضمّنت فرضيتنا الرئيسة نظرة إلى الحملات الصليبية وأساطير الكَأس المُقدَّسَة، موضوعان قلما تمَّ الربط بينهما من قِبَل المُؤرّخين. خلف هذَيْن الموضوعَيْن اكتشفنا بأنه تنطوي سلالة هامة، سلالة حاكمة: سلالة النَّسَب المَلَكي اليهودي، سلالة داود.

أساطير الكَأس المُقدَّسَة جمعت بين عناصر من العُرْف الكلتي الوثني القديم وعناصر صوفية مَسيحية. رمز طاسة، أو كأس الوفرة، الذي يضمن الخصوبة المستمرة للأرض اشتُقّ من العُرْف الكلتي، بينما من المَسيحية الصوفية جاء صفات الكَأس المُقدَّسَة وفقاً للتجربة الباطنية. ولكنْ؛ بشكل ملحوظ بالنسبة لنا، شدّدت الأساطير بأنّ فارس الكَأس المُقدَّسَة «بيرسيفال»، أو «بارسيفال» كان من «النَّسَب الأكثر قداسة»، وهو النَّسَب الممتد عبر التاريخ إلى القُدْس، وإلى الصليب. بشكل واضح، هذا كان إشارة إلى سلالة داود. هذه النقطة قد تغيّب عنها كلّ المعلّقين على الكَأس المُقدَّسَة قبلنا.

جادلنا بأنّ التعبير الدالّ على الكَأس المُقدَّسَة «Sangraal» أو «Sangreal» الذي فُصِّل ليكون «San Graal»، أو «San Greal» ؛ أيْ «Holy Grail» (الكَأس المُقدَّسَة)، كان تلاعباً بالألفاظ:

(1) أُنوِّه إلى أن دار الأوائل كلَّفتْني بترجمة الكتاب عام 2006، وبأن أحد المصادر العالمية عدَّتْهُ كأعظم إنجاز أدبي في مجاله للقرن العشرين، وشخصياً؛ أعدُّه كذلك، كذلك كان تكليفي من الدار نفسها بترجمة هذا الكتاب. المُترجم.

لو قمنا بفصل تلك الكلمات بشكل مختلف بعض الشّيء لتكون «Sang Real» سيُفضَح السّرّ: «Sang Real»؛ ترجمتها تُصبح «Blood Royal»؛ أيْ « الدّم المُقَدَّس»؛ أيْ الدّم المَلَكي لسلالة داود. حقّاً، في العصور الوسطى، هذا كان «النَّسَب الأكثر قداسة».

بالنسبة للعثور على سلالة لداود في جنوب فرنسا في الفترة المبكّرة من القرون الوسطى هو أمر لا شك فيه. إنها لحقيقة تاريخية.

عندما كان شارلمان يؤسّس مملكته، عيّن أحد رفاقه المقرّبين - غليوم، الذي كان حاكم تولوز، وبرشلونة، و ناربون - كحاكم لإمارة صغيرة تفصل بين المملكة المَسيحية لشارلمان والإمارة الإسلامية للأندلس - بكلمة أُخرى: إسبانيا الإسلامية. غليوم، الأمير الجديد، كان يهوديّاً. كان - أيضاً - من سلالة داود.

بنيامين رحَّالة يهودي في القرن الثاني، من تيوديلا1 كشف في سجلِّ رحلته من إسبانيا إلى الشرق الأوسط بأنّ الأمير أعلى طبقة نبلاء حاكمة لمنطقة ناربون كانت «من سلالة عائلة داود كما هو مُدوَّن في شجرة عائلته». حتى «موسوعة الثقافة اليهودية» نوّهت إلى «هؤلاء الملوك اليهود» في ناربون، لكنها أهملت سلالتهم. بالطبع، لا أحد أحبَّ أن يسأل من أين جاءت تلك السلالة التي ذكرها بنيامين التيوديلاني. في الحقيقة، كما اكتشفنا، كانت الحالة معقّدة تماماً.

عند البحث في علْم أنساب هؤلاء الأمراء من سلالة داود في جنوب فرنسا، اكتشفنا بأنّهم كانوا الشخصيات نفسها كأسلاف أحد زعماء الحملة الصليبية الأولى، غودفروي دو بلويون، الذي أصبح ملك أورشليم. لقد كان هناك أربعة زعماء نبلاء عظماء في تلك الحملة الصليبية. لماذا عُرض العرش على غودفروي دو بلويون وحده؟! ولماذا تمَّ ذلك العرض بطريقة غامضة عبر اجتماع سرّيّ لناخبين مجهولين حتى الآن، كانوا قد تجمّعوا في القُدْس للبتِّ في تلك المسألة؟! ما الشروط التي خضع لها أولئك اللوردات الفخورون؟! وما هو السبب الذي جعلهم يتخذون ذلك القرار؟! ناقشنا بأن سلالة الدّم أخذت الأسبقية في منح اللقب، وبأنّ غودفروي كان يستردّ تراثه الشرعي كأحد أفراد سلالة داود.

---

(1) تيوديلا: منطقة شمال أسبانيا. المُترجم.

وما هو مصدر هذه السلالة؟ حسناً، من القُدْس، من السَّيِّد المَسيح، كنتيجة لزواج السَّيِّد المَسيح ومَريَم المَجْدَلِيَّة، كما ناقشنا ذلك في كتاب *«الدّم المُقَدَّس، الكأس المُقَدَّسة»*. في الحقيقة، تساءلنا:

أَليس الزواج الذي حصل في قانا كان للسَّيِّد المَسيح ومَريَم؟!

على أقلّ تقدير، ذلك يُوضِّح سبب دعوته إلى الزفاف، وتحمّله - بعد ذلك - مسؤولية ضيافة النبيذ! بشكل طبيعي؛ بنَشْر كتابنا، انفجر خلاف حول العالم بأسره.

«سيِّدتي، سيِّدي المَسيح»، هكذا كتب - مرة - أحد المعلّقين؛ إذْ كان يبحث عن تعليق قصير، وذكي. ومن بين التعليقات القصيرة التي كُتبت، بالأحرى؛ كان هذا تعليقاً جيِّداً.

كان ذلك في عام 1982. في 2002، نشر **دان براون** روايته «**شيفرة دافنتشي**»، والتي اعتمدتْ - جزئياً - على النظريات التي وردت في كُتُبنا. تغطية إعلامية كثيفة انطلقت مرة أُخرى. «سيِّدتي، سيِّدي المَسيح» عادت إلى الأخبار.

كان من الواضح أن الناس مازالوا متشوّقين للوصول إلى الحقيقة المختبئة وراء أساطير الأناجيل الإلهية.

مَنْ كان - حقّاً - السَّيِّد المَسيح؟!

ماذا كان يُتوقَّع منه؟

العالم مازال يصرخ اليوم للوصول إلى توضيح حول يهودية، أم مَسيحية، السَّيِّد المَسيح، وحول الأحداث التي وقعت قبل ألفَيْ سنة.

منذ نُشر كتاب «**الدّم المُقَدَّس، الكأس المُقدَّسَة**» كان لديَّ 22 عاماً زيادة للبحث، والوصول إلى إجابة لهذه الأسئلة بالذات، ولأقوم بأبحاث أكثر، ولأقدِّر ثانية التاريخ، ونتائج تلك الأحداث.

بكلمة أُخرى، أقدّم لكم عقدَيْن إضافيَّيْن من البحث فوق ما هو مُستكشف في «شيفرة دافنتشي». هنا؛ أسعى لإعادة بناء رحلتي التي دامت 22 عاماً من الاكتشاف، آخذاً معي القرَّاء في كلِّ طريق.

بعض الطُّرُق تؤدّي إلى نهايات مسدودة، أُخرى تؤدّي إلى العوالم العظيمة من الإمكانية. الطُّرُق كلُّها تؤدِّي إلى فَهْم أوسع لحياة الرجل الذي ندعوه السَّيِّد المَسيح، الحياة التي أثبت التاريخ أنه عاشها، وليس الحياة التي يتحدَّث عنها الدِّين.

المعلومات التي أقدّمها هنا من الضّروري أن تُقرَأ وفق سرعتك الخاصة.

كلّ كتلة من البناء التفسيري الذي أقدّمه يجب أن يُؤخَذ بعين الاعتبار وفقاً لوقتك الخاصّ.

هذا مُهمّ جدّاً، لكي يتمَّ تحدِّي الاعتقادات المحصَّنة منذ أمد طويل، فمن الضروري أن نكون قادرين على تفسير كلّ خطوة على طول الطريق، الذي سنعبره؛ لكي نكون واضحين حول السبب الذي جَعَلَنَا نسلكُ ذلك الطريق، ونخطو تلك الخطوات.

بتلك الطريقة، سيكون بإمكاننا الوثوق بالقضايا التي اسْتَنَدْنَا عليها في النهاية.

القراءة الاستجوابية والتأمُّلية ستسمح لكَ بالخوض عبر النتائج الجديدة بطريقة ستجعلكَ تقوم - في النهاية - باختياراتكَ الخاصة، وتتمسَّك باعتقاداتكَ الخاصة.

إنْ كنت جاهزاً لتلك الرحلة، فدعنا نبدأ الآن.

الفصل الأول

الوثائق المَخفيَّة

هاتفي رنَّ. كانت الساعة حوالي العاشرة صباحاً. أتذكَّر أشعّة الشمس التي كانت تخيط الحائطَ أمامي. كانت متألّقة. كان اليوم المثالي لأكون في قرية إنجليزية.

«هل بإمكانكَ أن تأتي بالقطار القادم إلى لندن؟ لا تسأل لماذا».

تأوَّهتُ بشكل صامت: السيارات المزدحمة، سيارات الأجرة النادرة، الضوضاء، التَّلوُّث، الممرّات الأرضية الحاشدة. اليوم سيُهدَر إمَّا داخل الغُرف، أو بالسفر بينها، الشمس ذاكرة بعيدة.

«مُؤكَّد»، أجبتُ؛ لأنني على يقين بأنّ صديقي لن يطلب مني هذا الطلب ما لم يكن مُهمّاً.

«وهل بالإمكان أن تجلب معكَ آلة تصوير؟».

«متأكِّد»، أجبتُ ثانية، وقد أصابني إرباك بشكل مُبهَم.

«وهل بالإمكان أن تخفي آلة التصوير؟».

فجأة؛ حظي بانتباهي. ماذا كان في الأمر؟ صديقي كان عضواً في مجموعة صغيرة ورصينة من التجَّار والسماسرة ومشتري القطع القديمة القيّمة والباهظة الثمن، البعض منها غير قابل - قانوناً - للمتاجرة به في السوق المفتوحة.

وضعتُ آلة التصوير وبعض العَدَسات في حقيبة عادية المظهر، ووضعتُ الكثير من الأفلام، وقفزتُ في سيارتي للذهاب إلى المحطَّة.

قابلتُ صديقي خارج مطعم في شارع لندن الشهير. كان أمريكياً، وكان معه خبيران فلسطينيان، وخبراء من الأردن، والسعودية، وخبير إنكليزي، يعمل في مؤسسة كبيرة للمزاد العلني.

جميعهم كانوا يتوقَّعون قدومي، وبعد مقدّمات قصيرة، غادر خبير المزاد العلني، وعلى ما يبدو ما كان يتمنّى الاشتراك فيها سيحصل. مشيتُ والآخرين إلى مصرف قريب؛ حيث دخلنا بسرعة عبر قاعة المصرف، على طول ممرّ قصير نحو غرفة خاصّة صغيرة، ذات نوافذ متجمِّدة.

وعندما جلسنا حول المنضدة التي وُضعت في منتصف الغرفة، وكنا نتبادل أحاديث متنوّعة، دخل مسؤولون من المصرف، حاملين معهم صندوقَيْن خشبيَّيْن، ووضعوهما أمامنا. كلُّ صندوق كان فيه ثلاثة أقفال. وبينما كان يُدخَل الصندوق الثاني قال أحد المسؤولين بوضوح كما لو أنَّ الحديث «مُسجَّل»: «نحنُ لا نعرف ماذا في هذَيْن الصندوقَيْن. نحنُ لا نريد معرفة ما فيهما».

ثمَّ جلبوا هاتفاً إلى الغرفة، وغادروا، وأقفلوا الباب خلفهم.الأردني قام بمكالمة هاتفية إلى عمّان. من المحادثة الصغيرة التي أجراها (والتي كانت بالعربية) أحسستُ بأنّ ترخيصاً ما كانت قد طُلِبَ، وقد تمَّ الحصول عليه. بعد ذلك؛ أخرج الأردني مجموعة من المفاتيح، وقام بفَتْح الصندوقَيْن.

لقد كان الصندوقان محشوَّيْن بالصفحات الكرتونية. ما أفزعني هو أنني لاحظتُ أنه كان هناك مئات من القِطَع النصّية المُدوَّنة على ورق البردي ثُبِّتَتْ – تماماً – على الصفحات الكرتونية بواسطة أشرطة لاصقة صغيرة. النصوص كانت مكتوبة باللغة الآرامية، أو العبرية. كان معها أغلفة مومياء مصرية، منقوش عليها باللغة الهيروغليفية المصرية.

عرفتُ بأنّه من الطبيعي أن تكون تلك الأغلفة مخصَّصة لتغليف نصوص مُقَدَّسَة، وبالتالي؛ مالكو هذا الكنز لابُدَّ وأنهم فتحوا – على الأقلّ – مومياء، أو اثنتَيْن. النصوص العبرية أو الآرامية تبدو – عند الوهلة الأولى – كمخطوطات البحر الميت، التي سبق لي أن رأيتُهَا. بالرغم من أنّها كُتبَت – غالباً – على الرقّ، إلا أن هذه المجموعة كانت كنزاً وثائقيّاً دفيناً قديماً. كنتُ مفتوناً ومستميتاً جدّاً لإطلاع بعض العلماء على وجودها، وربما لضمان الوصول إليها.

ما إنْ أُزيلت الصفحات الكرتونية من الصندوقَيْن، أُخبرتُ بأنّ المالكين كانوا يحاولون بيع الوثائق إلى حكومة أوروبية غير محدّدة. السعر الذي طُلِبَ كان 3 ملايين جنيه إسترليني (تقريباً 5.6 مليون دولار). هؤلاء الحضور كانوا يريدون مني أن ألتقط بعض الصور التي يمكن إطلاع الزبائن المُتوقّعين عليها كخطوة أولى للوصول إلى خاتمة ناجحة. أدركتُ – بعد ذلك – أيّة حكومة سيُثار اهتمامها على الأغلب. ولكنّي احتفظتُ بأفكاري لنفسي.

على مدار ساعة، أو أكثر، بعد ذلك. وعندما أُفرغ الصندوقان، بعض الصفحات وُجِّهت نحوي، وهي موضوعة على كرسي، وباستخدام الضوء الخافت المتغلغل من النوافذ المتجمِّدة التقطتُ صُور سوداء وبيضاء. إجمالاً، استخدمتُ ستَّة من أفلام الخمس وثلاثين ملليمتر؛ أكثر من مائتَيْ صورة.

لكنّي كنتُ أزداد قلقاً بأنّ الوثائق قد تختفي - ببساطة - إلى عالم النسيان، إلى المكان الذي ظهرتْ منه. أيْ - لربما - قد يتمّ شراؤها من بعض الزبائن، الذين قد يحتفظون بها لعدّة سنوات، كما حدث بلفائف نجع حمَّادي[1]، ولفائف البحر الميت. أو الأسوأ من ذلك، خِفتُ بأنّه إنْ لم يكن

(1) «في ديسمبر/ كانون الأول من عام 1945، كان فلاح مصري يحفر في تربة ناعمة وخصبة قرب قرية نجع حمّادي في مصر العليا، ونبش جرّة فخَّارية حمراء. أثبت أنها تحتوي على 13 مخطوطة - كُتُب أو لفائف من ورق البردي - مربوطة بالجلد. ونتيجة جهله لقيمة اكتشافه، استعمل الفلاح وعائلته البعض من المخطوطات لإشعال نارهم. في النهاية، على أية حال، جذبت البقيّة انتباه الخبراء؛ وأحدها هُرِّب خارج مصر، وعُرِض للبيع في السوق السوداء. جزء من هذه المخطوطة، والذي اشترته مؤسّسة «سي. جي. جونغ»، أثبت أنها تحتوي ما هو مشهور - الآن - بإنجيل توما.

في هذه الأثناء عمَّمت الحكومة المصرية ما تبقَّى من مجموعة نجع حمّادي في عام 1952. عام 1961، تمَّ تجميع فريق دولي من الخبراء لنَسْخ وترجمة المجموعة كاملة. في 1972، ظهر المجلَّد الأول للطبعة الفوتوغرافية. وفي 1977 مجموعة اللفائف كاملة ظهرت بالترجمة الإنجليزية للمرة الأولى.

لفائف نجع حمّادي هي مجموعة من النصوص التوراتية، وبشكل جوهري؛ تتَّسم بالغنوسطية، ويعود تاريخها - كما يبدو - إلى أواخر القرن الرابع، وأوائل القرن الخامس - أيْ منذ عام 400 م، تقريباً. اللفائف هي نُسخ، والأصلية التي هي نُسِخَتْ منها يعود تاريخها إلى وقت أقدم بكثير. البعض منها - إنجيل توما، على سبيل المثال، وإنجيل الحقيقة، وإنجيل المصريين - تمَّ ذِكْرها من قِبَل آباء الكَنيسَة القديمين جدّاً، مثل كليمنت الإسكندراني، وآيرينيوس، وأوريجن، برهن العلماء الحديثون بأنّ البعض - إنْ لم يكن أغلب النصوص في اللفائف - يعود تاريخها إلى ما لا يزيد عن عام 150 م. وعلى الأقلّ؛ أحدها قد يتضمَّن المادّة التي هي أقدم حتى من الكُتُب الأربعة للإنجيل النموذجي للعهد الجديد.

بشكل كُلّي، تُشكِّل مجموعة نجع حمّادي مستودعاً ثميناً من الوثائق المَسيحية القديمة - البعض منها يمتلك ميثاقية نظيرة لتلك التي في كُتُب الإنجيل والأكثر من ذلك، البعض من هذه الوثائق يتمتَّع بدقَّة وصحَّة فريدة بذاتها؛ لأنه في المقام الأول، هي نجت من الرقابة والتنقيح الأرثذوكسي الروماني اللاحق. في المقام الثاني، هي أُعِدَّت - أصلاً - للجمهور المصري، وليس الروماني، وبالتالي؛ هي لم تُحرَّف، وتنحاز إلى الأذن المرومنة. أخيراً؛ هي - لربّما - تستند على مصادر مباشرة و/ أو شهود عيان - روايات شفهية من قِبَل اليهود، الذين هربوا من الأرض المُقَدَّسَة، على سبيل المثال، وربما أصدقاء شخصيون، أو شركاء للسَّيِّد المَسيح، الذين يمكنهم أن يسردوا قصّتهم بالإخلاص التاريخي، الذي لا يستطيع الإنجيل تحمُّله. لا عجب أن لفائف نجع حمّادي تحتوي عدداً لا بأس به من العبارات العدائية لأتباع التقاليد،

هناك زبون لشرائها، فإنها قد تختفي ببساطة في الظلمات الأعمق في المصرف، لتنضمّ إلى العديد من الوثائق الثمينة الأخرى المعروفة؛ ليُقفل عليها بعيداً في صناديق الإيداع الآمنة حول العالم.

بما أنني التقطتُ الكثير من الصور، وبما أنه لم يعدّها أحد، فبإمكاني - إذاً - إخفاء أحد الأفلام، على الأقلّ؛ لكي يكون هناك دليل واحد يُثبت صحَّة وجود هذه المجموعة. خبَّأتُ - بنجاح - أحد الأفلام في جيبي.

عندما انتهى التصوير الفوتوغرافي، وأُعيدت الصفحات الكرتونية إلى الصندوقَيْن، أعطيتُ بعضاً من الأفلام لأحد المالكين الآنيين، نظر إليها، وقال:

«أين الفيلم الآخر؟»، وهو يعدُّها.

«فيلم آخر؟» قلتُ بصوت خافت، محاولاً تقديم انطباع البراءة المحضة، وأنا أنبش جيوبي بشكل متفاخر، وقلتُ:

«أوه. أنت محقّ. هذا هو». التقطتُ الفيلم الذي كنتُ أتمنّى الاحتفاظ به. لقد أُغضبت، وبالأحرى؛ أصابني الاكتئاب. لقد كنتُ أرغب بشدّة بأن أحتفظ ببعض الأدلَّة عن الأشياء التي رأيتُهَا.

في تلك الأثناء؛ أدرك صديقي الوضع، وتحرَّك بهدوء محاولاً الإنقاذ.

سأل صديقي ببراءة: «أين ستقوم بتظهير هذه الأفلام؟».

أجاب الرجل الذي يحمل فيلمي: «في محلّ تصوير».

و«أتباع الرسالة». مثلاً، في إحدى المخطوطات غير المُؤرَّخة، الأطروحة الثانية لـ«سيث العظيم» تُصوِّر السَّيِّد المَسيح - بالضبط - كما هو مُصوَّر في بدعة باسيليدس - هارباً من موته على الصليب، باستعمال بديل بارع. في المقتطف التالي؛ يتكلَّم السَّيِّد المَسيح كالشخص الأول:

أنا لم أستسلم إليهم كما خطَّطوا... وأنا لم أمتْ في الحقيقة، فقط بالشكل، خشية أن يتمَّ تعريضي للخزي والعار بواسطتهم... بالنسبة لموتي الذي ظنّوا أنه حدث، فقد حدث لهم بخطئهم، وغشية عيونهم، منذ أن دقّوا المسامير على رَجُلهم؛ ليقودوه إلى موتهم... كان رجلاً آخر، كان أباهم، الذي شرب المرارة، والخلَّ؛ هو لم يكن أنا. ضربوني بالقصبة؛ وكان رجلاً آخر، سمعان، الذي حمل الصليب على كتفه. لقد كان رجلاً آخر الذي وضعوا على رأسه تاج الأشواك ... وأنا كنتُ أسخر من جَهْلهم». المُترجم.

قال صديقي: «ذلك ليس آمناً جدَّاً، انظرْ، ميشيل كان مُصوِّراً محترفاً، ويمكنه أن يقوم بتظهير وطباعة الكمِّيَّة التي تحتاجها. في تلك الطريقة ليس هناك أيّ خطر».

«فكرة جيدة»، قال الرجل، وأعاد الأفلام.

بشكل طبيعي؛ قمتُ - فيما بعد - بطباعة مجموعة كاملة من الصور لي. فيما بعد؛ رتَّبتُ موعدا لمقابلة الأردني في عزيمة غداء - الذي بدا بأنه الشخص المسؤول - حيثُ كان عليَّ أن أعطيه الصور المطبوعة مع النيجاتيف. أثناء الغداء تناقشتُ معه؛ لأخبره بأنّ تلك النصوص إن عُرِضَتْ على بعض العلماء، وقاموا بدراستها، فلربما سيكون ذلك أمراً مساعداً على رفع قيمة المجموعة. سألتُ الأردني إنْ سيسمح لي بالتحدّث مع بعض الخبراء في المسألة بشكل سرّي جدَّاً. بالطبع؛ بعد القليل من التفكير وافق بأنّ تلك الفكرة من المحتمل أن تكون جيدة، لكنَّه صرَّح بوضوح بأنه ليس بإمكاني، ولا حتى الخبراء، التحدُّث عن هذه المجموعة إلى أيِّ شخص آخر.

بعد بضع أيام؛ ذهبت إلى القسم الآسيوي الغربي للمتحف البريطاني، مع مجموعة كاملة من الطبعات. تعاملتُ مع ذلك القسم من قبلُ، أثناء بحث لأحد كُتُبي، الذي حمل عنوان «من بشائر بابل». وأنا أثق بالعلماء هناك، ليس - فقط - ليعطوني الرأي الصادق، بل للحفاظ على السِّرِّيَّة أيضاً.

الخبير الذي تعاملتُ معه من قبلُ لم يكن هناك، وبالتالي؛ جاء أحد زملائه إلى غرفة الانتظار الصغيرة، وتكلّم معي بدلاً عنه. أخبرته سريعاً بقصّة صناديق الوثائق، وعن الصور التي أمتلكها. شدَّدتُ بأنّ هذا عمل تجاريّ بالنسبة للمالكين، وبأنّني سأكون ممتنَّاً جدَّاً لتوجيهاته؛ إذْ إن المبالغ الكبيرة قد تُسبّب أحياناً مشاكلَ كبيرة على حدّ سواء. طلبتُ منه أن يجد شخصاً ما مُؤهّلاً في هذا الحقل لإلقاء نظرة على هذه الصور، لمعرفة إنْ كانت على قدر ما من الأهمية. إنْ كان الأمر كذلك، سأعمل ما بوسعي لجَعْل العالِم المُهتمّ يطَّلع على كامل المجموعة. بعد ذلك؛ مرَّرتُ له مجموعة الطبعات التي لديَّ.

أسابيع مرَّت. لم أسمع أيَّ شيء من المتحف البريطاني.

أصابني القلق. أخيراً؛ وبعد شّهر، عدتُ إلى المتحف، شققتُ طريقي صعوداً إلى القسم الآسيوي الغربي. اجتمعتُ بخبير آخر هناك.

قلتُ له: «جلبتُ مجموعة من الصور قبل شهر، والتي التقطتُهَا لعدد كبـير مـن نـصوص ورق البردي. لم أسمع منكم أيَّ رد. أتساءل إن كان هناك أيّ شخص لديه فرصة لإلقاء نظرة عليها؟».

الخبير حدَّق فيَّ بلا استيعاب: «أيّة صور؟».

سردتُ القصّة ثانية أمامه. بدا غير مكترث، أو منتبه. لم يسمع عن أيّة صور من هـذا النـوع قـد جُلِبَتْ إلى القسم؛ على أيّ حال من الأحوال، ذلك لم يكن من اختصاصه. عـلى الأغلـب؛ أُعطيـت تلك الصور إلى اختصاصي آخر – رُبَّما – كان يعمل هناك لفترة من الوقت، وقد غادر العمل الآن.

سألتُهُ: «أين ذهب؟».

أجاب: «أنا لا أعرف، أعتقد إلى باريس. أنا آسف على الصور».

لم أسمع أية أخبار أُخرى عنها، بدون إيصالات بها، لم يكـن بمقـدوري عمـل أيّ شيء حيـال ذلك. لحُسن الحظّ، كان لدي بضعة طبعات مُهملة في المنزل، تُمكّنني مـن أن أثبـت بـأنّ المجموعـة كانت موجودة حقّاً، لكنها غير كافية – تقريباً – لإعطاء أية فكرة عن طبيعة المواضـيع التـي كانـت موجودة فيها. نظر أحد الخبراء إلى الـصور الباقيـة لـدي، وقـال: إن أغلـب النـصوص هـي أشـبه بسجلات لصفقات تجارية.

بعد 10أعوام، أو 12 عاماً، وبينما كنتُ أتمشَّى في شارع للمحلات الباهظة الثمن في مدينة غربية كبيرة، عندما رأيتُ أحد الفلسطينيين الذين كانوا موجودين في المـصرف في ذلـك اليـوم. توجَّهـتُ إليه، وسألتُهُ إنْ كان يتذكَّرني. أجاب: «بالطبع، أنت كنتَ زميل..» وقال لي اسم صديقي.

قلتُ: «أَتعرف؟ كنتُ – دائماً – أتساءل ماذا حلَّ بتلك النصوص القديمة التـي صـوّرتُهَا في ذلك اليوم في المصرف؟ هل بيعت؟».

«أنا لم أسمع أيَّ شـئ عـنهم»، أجـاب بـسرعة، وبـشكل غـير مُقنـع، وبعـد ذلـك؛ تظـاهر – بشكل جيد – بأنه – نوعاً ما – مشغول، واعتذر بشكل مُؤدّب، ورحل.

لا أستطيع أن أقول بأنّني فُوجئتُ؛ لأنني أمضيتُ العديد مـن الـسنوات أعـيش في عـالم تتوفَّر فيه – فعلاً – مفاتيح حاسمة لألغاز ماضينا، تتوفَّر بشكل مُؤكّد ومُحيِّر معاً. كما سـنرى، صناديق الوثائق هذه ليست هي الأمثلة الوحيدة عن الأدلّة المهمّة المتبقّية، التي تبقى – بشكل معذّب – بعيدة عن المنال.

الفصل الثاني

كنز الكاهن

في مراحل مسيرتي المهنية كافة استمتعتُ بالمراسلة مع المُؤرّخين والباحثين الآخرين فيما يتعلّق بحقيقة التاريخ المقبول، ولكنَّ بعض الرسائل تستدعي اهتماماً أكثر من غيرها. وهذه الرسالة هي - بالتأكيد - كذلك.

«هل لي أن أنصحكَ بأنّ الكنز ليس من الذهب، والأحجار الكريمة، بل هو وثيقة تحتوي على دليل غير قابل للنقاش على أن السَّيِّد المَسيح كان حيَّاً سنة 45 بعد الميلاد. الأفكار الحقيقية التي تُرِكَتْ من قِبَل الكاهن الأبرشي الجيّد لم يسبق أن تمَّ فَهْمها، لكنّه واضح من المخطوطة أن هناك بديلاً ما قد تمَّ حمله من قِبَل المُتطرّفين المتشدّدين في الطريق إلى مكان الإعدام. الوثيقة كانت قد غُيِّرت بشكل كبير، وقد تمَّ إخفاؤها، أو إتلافها».

ريتشارد لِي وهنري لِنكولن وأنا - ببساطة - لم نعرف ما علينا فعله بهذه الملاحظة. لقد جاءت من شخص محترم ومتعلّم جدَّاً، كاهن في الكَنيسَة الإنجليزية، الدّكتور الموقّر دوغلاس وليام غيست بارتليت. بارتليت عندما كتب عن «الكاهن الأبرشي الجيد» كان يقصد به «الكَنَسي بيرنجر سونير»، وهو كاهن قرية صغيرة على قمّة تلّة في قرية رين لُو شاتُو، جنوب فرنسا في سلسلة جبال بيرينه.

رئيس الدَّيْر سونير عُيِّن كاهناً في القرية عام 1885. كان دَخْلُهُ السنوي عشرة دولارات تقريباً. كسب سمعة سيّئة دامت حتى يومنا هذا بحصوله في أوائل عام 1890 - من مصادر غامضة ولأسباب غامضة - على ثروة كبيرة. مفتاح ثروته كان اكتشاف قام به بينما كان يعيد

بناء الكَنيسَة في 1891. لكن «الكنز» الذي وجده - طبقاً لبارتليت - لم يكن الوديعة الضخمة التي افترضناها في بادئ الأمر، والتي هي (الكنز المفقود للهيكل في أورشليم)، بل هي شيء استثنائي أكبر بكثير؛ إنها بعض الوثائق التي تتعلّق بالسَّيِّد المَسيح، وبالتالي؛ بالأسس الحقيقية للمَسيحية. في ذلك الوقت؛ بدا لنا أنه أمر طائش حتى لمجرد تفكيرنا في ذلك الأمر، ولذلك أَرْشَفْنَا الأمرَ «في الملفّ».

بالتأكيد؛ كانت تنتابنا الشكوك بأنّ شيئاً شاذّاً كان يحدث في الممرَّات المظلمة للتاريخ، ولكنْ؛ بينما نعمل على تأليف كتاب «**الدمّ المُقَدَّس، الكَأس المُقَدَّسَة**» كنّا نكتشف أساليب المعلومات غير المتوقّعة والمثيرة جدّاً للجدل كلّها ، والتي ستأخذنا إلى نقاط أبعد بكثير من مخاوف هذه الرسالة، لذا؛ أدرجناها في قائمة التمحيص المستقبلي.

بقاء السَّيِّد المَسيح - ببساطة - لم يكن قضية مهمَّة بالنسبة لنا في ذلك الوقت؛ لأن تركيزنا كان راسخاً على احتمال أنه قبل الصَّلْب كان لديه - على الأقلّ - طفل واحد، أو أنه ترك زوجته حاملاً. لذا؛ سواء حياة السَّيِّد المَسيح انتهت، أم لم تنته على الصليب، بدا ذلك أنه غير ذي علاقة بتطوُّرات قصة زواجه، وببقاء سلالته عبر التاريخ الأوروبي، وبتعبيرها الرمزي في قَصَص الكَأس المُقَدَّسَة، القَصَص التي شكَّلت العمود الفقري لكتاب **الدّم المُقَدَّس الكَأس المُقدَّسَة**، الذي نُشر لأول مرَّة عام 1982.

رغم ذلك - وقد فُتنَّا بهذه الرسالة غير المثيرة للاهتمام والخارقة والواثقة - كنّا نعود - من حين لحين - إليها. سَأَلْنَا أنفسنا: «ما الذي يُشكِّل الدليل الحاسم بأن السَّيِّد المَسيح قد بقي، وبأنه كان يعيش لمدّة طويلة بعد ذلك؟». وأَجْهَدْنَا عقولنا لنسأل: «في الحقيقة؛ ما هو الشيء الذي سيُشكِّل دليلاً دامغاً عن أيّ شيء في التاريخ؟». افترضنا أنها الوثائق، ولكنْ؛ أيّ نوع من الوثائق هي التي ستكون بعيدة عن الشكّ؟

اعتقدْنَا بأن الوثائق الأكثر وثوقاً هي التي تبدو أكثر دنيوية، تلك التي لا تخدم أية مصلحة، ولا تحتوي على جدول أعمال، ولا تدعم أيّة نقطة موضع نقاش، ربما قائمة لجرد البضائع مثلاً. مكافئاً تاريخياً لقائمة التسوّق حالياً، شيئاً ما كوثيقة رومانية قانونية مكتوب

فيها بأسلوب حقيقي: «مادة: الإسكندرية، السنة الرابعة لكلوديوس[1] (أيْ عام 45 م) تقرير عيسى بن يُوسُف، مهاجر من الجليل، مجرّب سابقاً، وبُرِّئ في القُدْس من قِبَل بيلاطُس البُنْطي، اليوم من المؤكّد أنه مالك قطعة أرض خارج حدود المدينة».

لكنّ ذلك التقرير برُمَّته يبدو بعيد الاحتمال.

بعد ظهور كتاب «**الدمّ المُقَدَّس، الكَأس المُقدَّسَة**»، وبعد أن استقرّ الغبار، نابع عن فضول شخصي أكثر من أيّ شيء آخر، قرَّرْنَا زيارة مُؤلّف الرسالة، لنرى ما بإمكاننا فعله مع هذا الشخص. كنا بحاجة لأن نعرف سواء كان شخص قابلاً للتصديق، أم لا. كان يعيش في ليفيلد في أوكسفوردشير، وهي مقاطعة ريفية في إنجلترا، تشمل قرى شاعرية، ذات بيوت من الحجارة، تتوسط مقابل بلدة الجامعة القديمة أكسفورد. القسّ بارتليت عاش في أحد القرى الصغيرة المتوضعة في بلدة أعلى باتجاه المنطقة الشمالية الغربية للمقاطعة. تكلّمنا معه في عصر أحد الأيام في حديقته، جالسين على مقعد خشبي. لقد كانت الحالة الطبيعية للمكان هي التي جعلت موضوع نقاشنا على درجة أكبر من الروعة.

أخبرنا القسّ بارتليت: «في عام 1930، كنتُ أعيش في أوكسفورد، وفي الشارع نفسه؛ كان يسكن شخص ذو سلطة كبيرة في كَنيسَة إنكلترا، اسمه كانون ألفريد ليلي. كنتُ أراه كلّ يوم». كانون ليزلي ليلي (1860– 1948م) كان – حتى تقاعده – يشغل منصب مشرّع ومستشار لكاتدرائية أوكسفورد. ليلي كان خبيراً في لغة القرون الوسطى الفرنسية، ولذلك كان – في أغلب الأحيان – يُستشار في أعمال الترجمة الصعبة.

نتيجة محادثاتهم اليومية، ليلي وبارتليت، أصبحا صديقَيْن مقرَّبَيْن، وفي النهاية؛ ليلي وثق ببارتليت بما فيه الكفاية ليروي له قصّة غريبة، وقعت أحداثها في أوائل عام 1890، وذكر ليلي أنه قد سُئل مرة من قِبَل شابّ كان طالباً سابقاً عنده للسفر إلى باريس إلى كُلِّيَّة سانت سولبيس للنصح بشأن ترجمة وثيقة غريبة (أو ربما وثائق – بارتليت لم يعد يستطيع التذكّر بالضبط)،

(1) إمبراطور روماني، استمرّ حُكْمه من 41 – 54 م، كان بارزاً في توسيع الإمبراطورية الرومانية، وفي برنامج البناء الطموح للإمبراطور. المُترجم.

كانت قد ظهرت من مصدر لم يكن مباحاً أبداً. في سانت سولبيس؛ كان هناك مجموعة من العلماء مهمَّتهم كانت دراسة كلّ الوثائق التي دخلت - كان ليلي يشكّ بأن تلك المهمة تمَّ تنفيذها بأمر من كاردينال الفاتيكان. طلب العلماءُ المساعدةَ في الترجمة؛ لأنهم لا يستطيعون أن يترجموا النصّ بدقَّة. ربما بدا النصّ غريباً جدَّاً بالنسبة لهم؛ لدرجة أنهم اعتقدوا بأنّهم كانوا يسيئون الفَهْمَ والترجمة نوعاً ما.

وقال بارتليت إن ليلي قال: «هم لم يعرفوا بأنّ ذلك النصَّ يُسبِّب إساءة كبيرة للحقائق، وبأنّهم لن يتمتَّعوا بحياة أطول وأسعد، إنْ عرف الناسُ بحقيقة الأمر. لقد كانت مسألة حسّاسة جدَّاً. سخر ليلي ممَّا كان سيحدث لو أن الكَهَنَةَ الفرنسيين أخبروا أيَّ شخص عن ذلك. لم يكن يعرف ما حلَّ بها [الوثائق]، لكنّه اعتقد بأنّها انتقلت إلى أيد أُخرى، مقابل مبلغ كبير من المال، وانتهى بها المطاف إلى روما». في الحقيقة؛ اعتقد ليلي بأنّ الكَنيسَة قد أَتْلفَتْ هذه الوثائق في النهاية.

ليلي كان متأكّداً - تماماً - من أن هذه الوثائق كانت أصلية. لقد كانت استثنائية ومزعجة للعديد من أفكارنا حول الكَنيسَة. لقد قال إن المادة الموجودة في الوثائق لا تقليدية. قال ليلي إنه لم يكن متأكّداً من أين جاءت الوثائق، لكنه كان يعتقد بأنها كانت - مرَّة - في أيدي الكاثار المهرطقين، في جنوب فرنسا أثناء القرنَيْن الثاني عشر، والثالث عشر، بالرغم من أن عمرها كان أكبر بكثير. لقد كان متأكّداً - أيضاً - بأنه - بعد فناء الكاثار - تمَّ الاحتفاظ بالوثائق في سويسرا، حتى حروب القرن الرابع عشر، حينها؛ أُخذت إلى فرنسا.

وضَّح بارتليت قائلاً: «ليلي - في آخر أيام حياته - توصَّل إلى نتيجة هي أنه لا يوجد أيّ شيء في الإنجيل يمكن للمرء أن يكون متأكِّداً بشأنه. لقد فقد صفات الحقيقة كلَّها ».

ذُهِلْتُ وهنري ممَّا سمعناه. بارتليت لم يكن أحمقاً. لم يكن - فقط - وزيراً للكَنيسَة، ويحمل درجة ماجستير من إحدى كُلِّيَّات أكسفورد، لكنّه كان - أيضاً - يحمل درجة في علوم الفيزياء والكيمياء من جامعة ويلز، بالإضافة إلى درجة في الطِّبِّ - أيضاً - من أكسفورد. كان عضواً في الكُلِّيَّة المَلَكية للجرّاحين والكُلِّيَّة المَلَكية للأطبَّاء. أن ندعوه بأنه شخص متعلِّم لدرجة عالية هو استهانة به. لقد أُعجبنا - بشكل واضح - بـ«كانون ليلي»، واحترمنا عِلْمَهُ

كثيراً، ولم يكن لدينا أدنى شكّ بأن وصف ليلي للوثيقة - أو الوثائق - التي رآها أثناء رحلته إلى باريس كان دقيقاً. لقد كنا بحاجة لأن ندرس ليلي، ونرى إنْ كان بإمكاننا أن نجمع أيّة معلومات أُخرى حول المادّة التي تتعلّق بالسَّيِّد المَسيح، وأنْ نُحدّد مَنْ هو الشخص في كُلِّيَّة القدِّيس سولبيس، والفاتيكان الذي - لربّما - لديه اهتمام فيها.

المفتاح لفَهْم كانون ليلي هو أنه عدَّ نَفْسَهُ «عصرانياً». لقد كان مُؤلّفاً لكتاب عن الحركة التي كانت مُؤثّرة جدَّاً في بداية القرن العشرين، العصرانيون[1] تمنّوا تنقيح المزاعم الدوغماتية لتعليمات الكَنيسَة، على ضوء الاكتشافات العلمية، وعلم الآثار، والثقافة الناقدة. العديد من علماء الدِّين كانوا يدركون بأنّ ثقتهم في الصحَّة التاريخية لقَصَص العهد الجديد مُخطئة في التاريخ. على سبيل المثال، وليام إنج، عميد كاتدرائية سانت بول، طُلب منه مرّة الكتابة عن حياة السَّيِّد المَسيح، فرفض قائلاً: إنه لا يوجد هناك دليل قاطع وكاف لكتابة أيّ شيء عنه على الإطلاق.

أثناء القرن التاسع عشر، الفاتيكان كان - بشكل متزايد - يصبح خاطئاً تاريخياً بشكل كبير. الولايات البابوية التي امتدَّت عبر روما إلى أنكونا - وصولاً إلى بولونا وفيرارا - مازالت موجودة، والبابا كان يحكم كملك من القرون الوسطى. التعذيب كان يُمارَس بانتظام من قِبَل الأتباع المجهولين لمحاكم التفتيش في سجونهم السِّرِّيَّة. أولئك الذين كانت تتمُّ إدانتهم من قِبَل المحاكم البابوية كانوا يُرسَلون كمُجذِّفين إلى السُّفُن، أو يتمّ نَفْيهم، أو سَجْنهم، أو إعدامهم. المشانق كانت تنتصب وسط ساحة بلدة كلّ مجتمع. الجواسيس كانوا يترصّدون في كلّ مكان، والقمع كان القانون؛ التحضّر كان على مدى امتداد اليد فقط، لدرجة أن السِّكَك الحديدية مُنِعَتْ من قِبَل البابا للخوف من أنّ السفر والاتصال بين الناس قد يؤذي الدِّين. وكلّ هذا كان يحدث ضدَّ الخَلْفية الأوروبية؛ حيث أصبحت العادة وجود ضغط كبير من أجل التغيُّر الاجتماعي على شكل حركات تحريرية، تعارض القوّة الاستبدادية، وتُشجِّع القاعدة البرلمانية.

---

(1) العصرانيون: حركة مَسيحية ضمن الكاثوليكية الرومانية الأوروبية، يحاول فيها العلماء وعلماء الدِّين ملاءمة وجهة النظر العالمية المعاصرة، ضمن المذهب وعِلْم اللاهوت الكاثوليكي الروماني. المُترجم.

على الرغم من الجهل العنيد، العالم الخارجي كان يفيض بالحدود البابوية المنهارة. التغيير كان يبدو أنه حتمي. الفلسفة السياسية الديمقراطية ونُمُوُّ الوعي الاجتماعي والنَّقْد المتزايد للنصوص التوراتية، وعدم اتّساقها، كانت تُسبِّب في انهيار وتشويه الحقائق الدِّينية. وبالنسبة لرعب المحافظين الكاثوليكيين؛ السلطة السياسية البابوية - أيضاً - كانت تحت التهديد المباشر.

هذا كان مشكلة حقيقية: في عام 1859، بعد حرب النمسا وفرنسا، التي شهدت هزيمة الهابسبرغ[1] الكاثوليك، الغالبية العظمى للأراضي البابوية انضمَّت إلى المملكة الحديثة المولودة إيطاليا. البابا بيوس التاسع، تمَّ - بشكل سريع - تخفيض مقامه نتيجة الأحداث، في تلك الأثناء أصبح يحكم - فقط - روما، وجزءاً من الريف المحيط.

وما أصبح أسوأ من ذلك: في 21 سبتمبر/ أيلول 1870، حتى هذا الميراث الصغير أُخذ من قِبَل القوّات الإيطالية. البابا وجد نفسه حاكماً - فقط - لجيب محاط بجدران، وهو مدينة الفاتيكان؛ حيث وَرَثَتُهُ يواصلون الحُكْم حتى اليوم.

مباشرة، قبل خسارة روما، البابا - الذي كان يبدو بأنه يئس بشكل كبير - دعا إلى مجلس عموم للأساقفة لزيادة نفوذه. رغم الدعوة لهذا المجلس، البابا كان يعترف - ضمنياً - بتقييدات تلك القوّة. الحقيقة المزعجة هي أن البابا لم يستمدّ شرعيّته كما ادَّعى من القدّيس بيتر الحواري قبل ألفَيْ سنة، بل من مصدر أكثر دنيوية بكثير: من مجلس الأساقفة، الذي اجتمع في كونستانس، في أوائل القرن الخامس عشر. في ذلك الوقت؛ كان هناك ثلاثة باباوات - ثالوث من الأحبار اتحدوا - فقط - في البُغْض المتبادل - وادَّعوا جميعهم - في آن واحد - بأنهم يمتلكون سلطة عليا على الكَنيسَة آنذاك. هذه الحالة السخيفة كانت قد حُلَّتْ من قِبَل الأساقفة، الذين ادَّعوا - وتمَّ الاعتراف بادِّعائهم - بأنهم حَمَلَةُ السلطة الشرعية. منذ تلك اللحظة، فصاعداً، مارس الباباوات سلطتهم، استناداً إلى الأساقفة. وفقاً لذلك، كلّ بابا يرغب في القيام بتغيير رئيس هو مقيَّد بالحصول على موافقتهم.

(1) عضو في العائلة المالكة الألمانية، والتي برزت ما بين القرنَيْن الثالث عشر والعشرين في أوروبا، شملت حكّام الإمبراطورية الرومانية المُقَدَّسَة، إسبانيا، والنمسا، وهنغاريا. المُترجم.

رغم ذلك كان البابا بيوس هو مَنْ أراد القيام بالتغييرات الرئيسة الأكبر: صمّم على أن يُعلَن بأنه معصوم، وهكذا يستلم قوّة لم يسبق لها مثيل على المؤمنين كلّهم. لكنه علم بأنّ عليه أن يستعمل المَكْرَ لنيل هذا الهدف. لذلك؛ تمَّ الدعوة لمجلس الفاتيكان الأول في أواخر عام 1869. أهدافه الحقيقية بقيت طيَّ الكتمان من قِبَل مجموعة قوية صغيرة من الرجال، تضمَّنت ثلاثة كاردينالات، جميعهم كانوا أعضاء في محاكم التفتيش. لم تكن هناك أية إشارة عن المعصومية البابوية في أيّ من الوثائق التي وُزِّعَتْ حول أهداف المجلس، وتوجُّهاته. في هذه الأثناء، الأساقفة تجمَّعوا ووجدوا أنفسهم قد أُخضعوا لتهديد خُطط قوية. لم يكن هناك اقتراعات سرِّيَّة، وكلفة النَّقْد كانت ظاهرة بشكل فوري: خسارة رواتب الفاتيكان كانت أقلّ ما يمكن أن يتوقَّعه الأسقف المعارض.

بعد شهرَيْن، قضية المعصومية البابوية قُدِّمَتْ إلى المجلس. أغلب الأساقفة الحضور صُدموا، وفُوجِئُوا، وحتى إنهم غضبوا. بعض زعماء الكَنيسَة الذين وقفوا وتكلّموا ضدّ الحركة تمَّ «التعامل معهم» بالإقامة الإجبارية، بينما آخرون لاذوا بالفرار. أحد الزعماء هُوجم جسدياً من قِبَل البابا بنفسه. على الرغم من التخويف، فقط 49 بالمائة من الأساقفة مَنَحُوا أصواتهم للمعصومية البابوية. ومع ذلك؛ تمَّ الإعلان على أن أغلبية الأصوات مُنِحَتْ لصالح الحركة، وفي 18 يوليو/ تموز عام 1870، تمَّ إعلان معصومية البابا. بعد شهرَيْن فقط؛ دخلت قوّات إيطالية إلى روما، وأودعت البابا «المعصوم» حديثاً إلى حدود مدينة الفاتيكان، ربما هو رَدٌّ مُقَدَّس على قلَّة تواضعه.

رغبة البابا ورغبة مُؤيّديه - بالطبع - بأنّ مذهب المعصومية سوف يسند الفاتيكان ضدَّ التحدّيات التي كانت تواجهها - بشكل خاصّ - من النَّقْد التوراتي، ومن اكتشافات عِلْم الآثار.

هدف العصرانيين - من الناحية الأخرى - كان نظير ذلك تماماً. أرادوا مراجعة عقيدة الكَنيسَة في ضوء نتائجهم العلمية. الدليل التاريخي الذي أثبَتَتْهُ أبحاثهم كان يساعد على كشف الأساطير التي خَلَقَتْها الكَنيسَة، وأدامتْهَا، خُصُوصاً الأسطورة المتعلّقة بالسَّيِّد المَسيح. العصرانيون كانوا - أيضاً - معارضين - بشدَّة - لمركزية الفاتيكان. الحركة العصرانية في هذا

الوقت كانت قوية، وخُصُوصاً في باريس؛ حيث كان مدير كُلِّيَّة سانت سولبيس من 1852 إلى 1884، عالم ديني أيرلندي عصراني يُدعَى جون هوجان. رحَّب هوجان، وشجَّع - بشكل علني - الدراسات العصرانية التحرُّرية في الكُلِّيَّة.

في الحقيقة، كانون ليلي رآه كـ «المُؤثّر الوحيد الأعظم» على ما أصبح - فيما بعد - العصرانية (نهج المعاصرة). العديد من طلاب هوجان حضروا - أيضاً - محاضرات لعالم الآشوريات والخبير العبري الأب ألفريد لويسي، الذي كان مدير معهد الكاثوليك في باريس، وهو عصراني بارز آخر.

في بادئ الأمر بدا أن الفاتيكان لم تهتمّ. البابا الجديد، ليو الثّالث عشر (الذي انتُخب في 1878، وخدم حتى 1903) كان واثقاً - بما فيه الكفاية - بقوّة مكانة روما للسماح للعلماء بالدخول إلى أرشيفات الفاتيكان. لكنّه لم يدرك ما الثقافة التي سيتمُّ اكتشافها بعد ذلك، وأن هذه الاكتشافات سوف تستجوب مذاهبَ الكَنيسَة. بسرعة؛ أصبح من الواضح - بالنسبة له - أنّ هذه الثقافة شكَّلت تهديداً خطيراً على أُسُس الكَنيسَة تماماً. مباشرة قبل موته عام 1903، البابا ليو الثالث عشر انتقل لإصلاح الضَّرَر. عام 1902م، أسَّس لجنة البابوية التوراتية للإشراف على عمل العلماء اللاهوتيين كلِّهم ، ولضمان أنّهم لم يبتعدوا عن تعليمات الكَنيسَة. اللجنة كانت على صلة وثيقة بمحاكم التفتيش، يحكمها الكاردينال ذاته.

الخطر الظاهر للكلّ، عُبِّر عنه - باختصار مفيد - من قِبَل الأب لويسي: «أعلن السَّيِّد المَسيح عن قدوم المملكة، ولكنْ؛ ما جاء هو الكَنيسَة». لويسي - من بين العصرانيين الآخرين - اعتقد بأنّ الثقافة التاريخية - التي وُجِّهت خلال تلك الفترة - جعلت الكثير من العقائد الكَنَسية مستحيلة البقاء، عقائد كتأسيس السَّيِّد المَسيح للكَنيسَة، وولادته البتولية، وبأنه ابن مُقَدَّس - بشكل جوهري - لاهوتية السَّيِّد المَسيح.

عارض العصرانيُّ البريطانيُّ البارزُ «جورج تيريل» السلطةَ الاستبداديةَ المتشدّدةَ للفاتيكان. يعتقد بأن «الكَنيسَة ليس عملها بأن تكون معهداً رسمياً للحقيقة». بالطبع؛ عدَّت الكَنيسَة نفسها كذلك؛ لكي تكون الحقيقة - بالضبط - مهمّتها.

سأل العصرانيون سؤالاً مزعجاً ووقحاً: ما الذي يجب فعله لو أن العلم أو التاريخ توصّلا إلى نتيجة تُعارض عقائد الكَنيسَة؟! استجابة الكَنيسَة تجاه هذه التحدّيات المباشرة كانت أن تختبئ خلف جدران عقيدتها لتقول: إنها تجد الحلَّ للأمور المُحيّرة كلّها بالحُكْم بأنّ الكَنيسَة كانت – على الدوام – مُحقَّة، تحت الظروف كلّها ، وحول كلّ شيء.

عام 1892، وريث لوجان في سانت سولبيس أمر الطلاب بالتوقُّف عن حضور محاضرات العصراني ألفريد لويسي. في السنة التالية؛ طُرد لويسي من منصبه التعليمي في معهد الكاثوليك، وفي النهاية؛ تمَّ طَرْدُهُ مطلقاً. في الحقيقة، الفاتيكان فصل – أو طرد – العديد من العصرانيين، ووجَّهوا شباكهم إلى الحركة برُمَّتها. في عام 1907، البابا بيوس العاشر أصدر حظراً رسمياً لكامل الحركة، وفي 1 سبتمبر/ أيلول 1910، طُلب من الكَهَنَة والمُعلّمين الكاثوليكيين كافَّة أداء القَسَم ضدَّ العصرانية. الطلاب في المعاهد والكُلِّيَّات اللاهوتية حُرِمُوا من قراءة الصُّحُف، وذلك – فقط – ليتمَّ التأكُّد من أن العالم الخارجي المتغيّر باستمرار لا يتطفَّل على مشاعرهم اللاهوتية الحسّاسة.

لكنْ؛ قبل إسدال الستار عام 1892، الجوّ في كُلِّيَّة سانت سولبيس كان مندفعاً جدَّاً. المركز كان مكاناً للتعلُّم والتحفيز الناجمَيْن عن الفضول والاكتشاف. السيل المتواصل من الترجمات والاكتشافات الأثرية الجديدة كان يضيف – بشكل مستمرّ – إحساساً عظيماً من الحماس. تلك هي البيئة التي طلبت من ليلي القدوم إلى باريس للنظر في الوثائق التي زوّدت بدليل حاسم بأنّ السَّيِّد المَسيح كان حيَّاً عام 45 بعد الميلاد. بناءً على شهادة هذا المستوى من الدراسة التحليلية، لابُدّ وأن ليلي تساءل إلى أيّ مدى يمكن للفاتيكان أن تحافظ على موقعها الدوغماتي بشكل راسخ. لابُدَّ وأنه تنبَّأ بأنها – قريباً – سوف تردُّ ضدَّ هذه الاكتشافات، وستُغلق أبوابَ الثقافة المجَّانية. كما أخبر بارتليت، اعتقد بأنّ الوثائق التي كان يعمل بها انتهى بها المطاف في الفاتيكان، إمَّا أنه أُغلق عليها إلى الأبد، أو أنها أُتْلِفَتْ.

عندما سمعنا هذه القصّة لأول مرة حول إمكانية أن السَّيِّد المَسيح كان حيّاً عام 45 بعد الميلاد، كنّا قد تذكّرنا بياناً مثيراً للفضول وَرَدَ في عمل المُؤرّخ الروماني سوتونيوس. في قصته عن الإمبراطور الروماني كلوديوس (41– 54 م)، ذكر: «لأن اليهود في روما سبَّبوا اضطرابات مستمرَّة بتحريض من خريستوس «Christos »، قام بطَرْدهم من المدينة».

الأحداث التي كَتَبَ عنها حصلت عام 45 م. خريستوس هذا كان من الواضح أنه فرد موجود في روما في ذلك الوقت. تساءلنا: هل هذا الفرد يمكن أن يكون السَّيِّد المَسيح «Christ»؟ يجب أن نتذكّر بأنّ «Christos» هي الترجمة اليونانية لكلمة مَسيح «Christ»، و«Messiah» هي الترجمة الصوتية اليونانية للكلمة الآرامية «meshiha»، والتي هي - بحَدّ ذاتها - مشتقّة من كلمة «ha-mashiah» العبرية، والتي تعني (الملك) المكرَّس (الممسوح بالزيت). إذاً؛ الكلمة اليونانية «Messiah» جاءت من الكلمة الآرامية، والتي كانت اللغة المنطوقة عُمُوماً في ذلك الوقت، بدلاً من العبرية.

هل كان هناك فرد مَسيحي نشيط في روما؟ وإنْ كان الأمر كذلك، لماذا اليهود كان عندهم اضطرابات؟ هل كانوا سيُهاجمون الرومانيين تحت تشجيع هذا الشخص المثير للشغب؟ أم هل كانوا سيهاجمون ذلك الشخص؟ أو لدرجة أكبر من الغرابة، هل من الممكن أن هذا الشخص كان قد حرَّض كلّ فرد على الآخر في الجالية اليهودية لإثارة الاضطرابات فيما بينهم؟ سوتونيوس لم يُعطنا أية معلومات عن أهداف المتظاهرين، أو عن الطرف الذي كانوا - لربما - معارضين له. ولكنْ؛ على الرغم من هذا تساءلنا: هل من الممكن أن السَّيِّد المَسيح انتهى به المطاف في روما كما هو الحال بالنسبة لبول؟

كتب سوتونيوس تاريخه في أوائل القرن الثاني بعد الميلاد، ولبعض السنوات كان السكرتير الرئيس لإمبراطور روما أدريان (117-38). كان مراقباً رسمياً للأرشيفات الرومانية ومسؤولاً عن المكتبات العامة، من الواضح أنه كان واصل - بشكل تام، لكامل الوثائق الإمبراطورية، وبالتالي – تقريره، الذي يمكن أن يُعدَّ دقيقاً. مَنْ هو - حقَّاً - «خريستوس؟» لا أحد يعرف.

كان هناك زائر آخر إلى سانت سولبيس في تلك الأيام الاستفزازية في أوائل عام 1980: رئيس الدَّيْر سونير، كاهن قرية رين لُو شاتُو. القصّة - التي أثبتت بتصلُّب مقاومة للتحقّق - تتعلَّق باكتشاف سونير للوثائق أثناء ترميمات كَنيسته. بعد عرض هذه الوثائق على أسقفه، طُلب منه السفر إلى باريس؛ حيث تمَّ التحضير لاجتماع مع خبراء في كُلِّيَّة سانت سولبيس. حصل ذلك عام 1891 تقريباً. على ما يُقال؛ بقى سونير في باريس لثلاثة أسابيع.

عندما عاد، كان قد حصل على ثروة كبيرة، كافية لبناء طريق جديد يصل إلى قمَّة القرية، ولترميم الكَنيسَة وطلائها مرة ثانية، ولبناء فيلا مريحة وعصرية، وحديقة مزخرفة، وبرج استخدمه لدراسته.

هل من الممكن أن تكون وثائق سونير هي تلك التي رآها وترجمها كانون ليلي؟ هل من الممكن أن تكون ثروة سونير المفاجئة هي بسبب عثوره على تلك الوثائق؟ القسّ بارتليت يعتقد ذلك بكلّ تأكيد. وإنْ كان ذلك صحيحاً، فإن ذلك سيوضّح الصورة المثيرة جدَّاً للفضول، التي مازالت على حائط الكَنيسَة في قرية رين لُو شاتُو، الصورة التي تكشف - في الحقيقة - عن شيء ضلالي جدَّاً حول اعتقادات سونير.

بالرغم من أن الكَنيسَة في رين لُو شاتُو هي صغيرة، إلا أنها مزيّنة من الداخل بخيال قوطي[1]، في قرية بيرينيه[2] صغيرة كان ذلك أكثر مما هو موجود في قلعة بافارية للملك لودفيج الثّاني. إنه بناء ممتلئ بالصور والألوان. المحقِّقون أمضوا سنوات يحاولون أن يحلُّوا العديد من أفكار سونير الرمزيّة. ولكنْ؛ هناك صورة واحدة كانت واضحة جدَّاً، صورة لا تتطلَّب أيّة معرفة غامضة أو رمزية عظيمة لكي تُفهَم.

مثل الكَنائس الكاثوليكية كلّها ، هذه الكَنيسَة كانت تحتوي صوراً تُمثِّل مراحل الصَّلْب. هي سلسلة من الصور تُصوِّر مراحل مَشْي السَّيِّد المَسيح على طول الطريق إلى جُلجُثَة[3] بعد محاكمته. هي تُستعمَل للتأمُّل والصلاة، كنوع من المرشد للمخلصين للدلالة على الإحياء. تلك الصور التي على جدران الكَنيسَة في رين لُو شاتُو هي من نمط قياسي من قوالب مجهّزة من قِبَل شركة في إقليم تولوز، والتي يمكن العثور عليها في العديد من الكنائس الأخرى. على الأقلّ؛ هي من القالب ذاته، إلا أنها تختلف بشيء واحد مُهمّ، على أية حال: تلك التي في رين لُو شاتُو مَطْلِيَّة، وبطريقة فضولية جدَّاً. إحدى الصور– على سبيل المثال – تُظهر امرأة مع طفل يقف بجانب السَّيِّد المَسيح؛ إنّ الطفل يلبس عباءة إسكتلندية مُقلَّمة. الصور الأخرى هي مثيرة للفضول على حدّ سواء. ولكنَّ الأكثر

---

(1) القوطيّ الغربيّ: واحد القوط الغربيين. وهم ناس ألمان قدماء غزوا الإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع بعد الميلاد، استقرّوا في المناطق التي تُشكّل – الآن – إسبانيا، البرتغال، وفرنسا. المُترجم.

(2) بيرينه: سلسلة جبال تقع جنوب غرب أوروبا. المُترجم.

(3) جُلجُثَة: السَّيِّد المَسيح صُلِبَ في مكان يُسمّى جُلجُثَة (Golgotha)، والذي يعني «مكان الجمجمة». المُترجم.

فضولاً من كافة الصور هي المرحلة 14 من الصَّلْب. بشكل تقليدي؛ هي آخر مرحلة، وهي تُصوِّر السَّيِّد المَسيح وهو يُوضَع في القبر قبل الإحياء. في رين لُو شاتُو، تُظهر الصورةُ القبرَ، وأمامه مباشرة، هناك ثلاثة أشخاص يحملون جسدَ السَّيِّد المَسيح، لكنَّ الخلفية المرسومة تُظهر أن الوقت كان ليلاً. في السماء خلف تلك الشخصيات كان البدر في السماء.

إن ظهر البدر في السماء، فذلك يدلُّ على أن عيد الفصح قد بدأ. هذا مُهمّ؛ لأنه ليس هناك يهودي سيمسُّ جثَّة بعد بداية عيد الفصح؛ لأن ذلك سيجعله نجساً، طبقاً للطقوس. هذا الاختلاف في المرحلة الرابعة عشرة يشير إلى نقطتَيْن مُهمَّتَيْن: أن الجسد الذي يحمله أولئك الأشخاص مايزال حيّاً، وأن السَّيِّد المَسيح – أو بديله، الذي كان على الصليب – قد نجا من الصَّلْب. علاوة على ذلك، ذلك يقترح بأنّ الجسد لم يُوضَع في القبر، بل بالأحرى، تمَّ إخراجه سرَّاً تحت غطاء الظلام.

من المهمّ ملاحظة أن مراحل الصَّلْب في رين لُو شاتُو قد رُسِمَتْ تحت الإشراف المباشر لسونير. يبدو بأنه يودّ إخبارنا بأنه يعرف أو يؤمن بأنّ السَّيِّد المَسيح نجا من الصَّلْب آنذاك.

هل من الممكن أنه علم بذلك أثناء زيارته إلى سانت سولبيس، تساءلنا؟ هل اجتمع هناك المجموعة نفسهامن العلماء التي دعت كانون ليلي إلى باريس؟ إنْ قبلنا بالقصّة كما نُقِلَتْ إلينا، فبناءً على الأشياء؛ يبدو أن الجواب على السؤالَيْن كلَيْهما سيكون نعم.

مهما كانت الأجوبة – ونحن ـ بالكاد ـ قادرون على الوصول إلى أيّ استنتاجات مؤكَّدة حتى الآن – المرحلة 14 كما هي مُصوَّرة على حائط هذه الكَنيسَة تعمل كشهادة بليغة إلى معرفة ضلالية سرِّيَّة كمنت مرَّة في يدَيْ كاهن في أعماق الريف الفرنسي.

بدا – بالنسبة لنا – أنه من غير المعقول افتراض أن سونير كان وحيداً في اعتقاده. اعتقدنا أنه من المؤكّد أنْ يكون هناك أدلّة أُخرى في الكنائس الأخرى، وفي الوثائق، وفي كتابات أولئك الذين حملوا الاتهامات نفسها. هل العثور على تلك الأدلَّة سيُثبت أيّة مصداقية لهذه القصّة؟

كنّا بحاجة لمعرفة كيف تمَّ السيطرة على عملية الصَّلْب؛ بحيثُ تمَّ الإبقاء – رُبَّما – على حياة السَّيِّد المَسيح، أو حياة بديله. وكنا بحاجة لمعرفة ما يعنيه ذلك. اعتقدنا بأنّه حان الوقت للنظر إلى الروايات التوراتية عن تلك الحادثة من هذا المنظور الجديد.

الفصل الثالث

عيسى الملك

فكرة الصَّلْب المُركَّبة هي فكرة قديمة؛ حتى القرآن يذكر ذلك. ولكنْ؛ كيف تـمَّ ترتيـب عملية الصَّلْب المخادعة؟ طبقاً لروايات الإنجيل، كـلّ شـخص كـان يرغـب بمـوت الـسَّيِّد المَسيح ماعدا حواريوه، أو على أقلّ تقـدير، يريدونـه مُبْعَـدَاً. الـسلطات اليهوديـة والحـشود الصاخبة التي تجمّعت في الشارع أرادوا التخلّص منه، وكذلك الرومان، رغم الرغبـة الأقـلّ للرومان. طبقاً للتفسير المشترك للروايات الإنجيلية - التي رأيناها في الأفلام غير المعدودة - السَّيِّد المَسيح حُوكِمَ عَلَنَاً من قِبَل «اليهود». الحشود صرخـت بأنّـه يجـب أن يُـصْلَب، غـسل بيلاطُس أيديه من المسألة، بعد ذلك؛ كان على السَّيِّد المَسيح أن يحمل صليبه إلى مكان الإعدام خلال حشود المتفرّجين الذين تمنّوا له الشَّرَّ، وأخيراً، وُضِـعَ عـلى صـليب يتوسَّـط لِـصَّيْن في مكان عامّ للإعدام يُدعى جُلجُثَة - «مكان الجُمْجُمَة».

لو أنه حاول الهروب، إمَّا من المحاكمة، أو أثناء الرحلة إلى جُلجُثَة، فلابُـدَّ أن ذلـك كـان سيُلاحَظ فوراً. كان من الممكن أنْ يكون هناك الكثير من المتطوّعين الذين سيعيدونه بـسرعة ليتـابع طريقـه إلى الإعـدام. الإنجيـل يخبرنـا بـأنّ الرومـان أخلـوا كامـل المـسؤولية عنـه؛ هم لم يعودوا مُهتمّين أكثر بالموضوع.

اليهوديَّة وعيسى والمَسيحية

التاريخ	الحدث
قبل 4 ق.م[1]	ولادة السَّيِّد المَسيح، طبقاً لإنجيل مَتَّى (1:2). موت هيرودس العظيم.
4 ق.م	وفاة هيرودس العظيم
6 م	ولادة المَسيح، طبقاً لإنجيل لُوقَا (2: 1-7). وفق إحصاء كيرينوس، حاكم سوريا.
27-28 م	معمودية السَّيِّد المَسيح (تاريخ تقليدي) في السنة الخامسة عشر لعهد الإمبراطور تيبريوس (لُوقَا 3: 1-23).
30 م	صَلْب السَّيِّد المَسيح، طبقاً للثقافة الكاثوليكية.
ت 35 م	بعد زواج هيرودس أنتيباس وهيروديا تقريباً سنة 34 م، إعدام يحيى المعمدان، بعد الدليل في جوزيفس.
36 م	عيد الفصح - صَلْب السَّيِّد المَسيح، طبقاً لجدول أحداث إنجيل مَتَّى.
36-37 م	التحوُّل الدِّيني لبُولُس في الطريق إلى دمشق.
ت 44 م	إعدام يعقوب، شقيق السَّيِّد المَسيح.
50-52 م	بُولُس في كُورِنْثُوس[2]، يكتب رسالته الأولى (إلى الثيسالونيكيين).
61 م	بلوس في روما تحت الإقامة الإجبارية.
ت 65 م	يُفترَض إعدام بلوس.
66-73 م	حرب في اليهودية. الجيش الروماني تحت قيادة فَسْبازيان يغزو اليهودية.
ت 55-120 م	حياة تاسيتوس، مُؤرّخ وعضو مجلس الشيوخ الروماني، الذي ذكر السَّيِّد المَسيح.
ت 61-114 م	حياة بليني الأصغر، الذي ذكر السَّيِّد المَسيح.
ت 115 م	أغناطيوس لُوْيولا أسقف إنطاكية، اقتبس من رسائل بُولُس.
ت117-138 م	سوتونيوس، مُؤرّخ روماني، ذكر «خريستوس».
ت 125 م	النموذج الأول المعروف للإنجيل المَسيحي، يُوْحَنَّا (18: 31-33)، بردي ريلاندز، وُجد في مصر.

(1) م: ميلادي، ق.م: قبل الميلاد، ت: تقريباً. المُترجم.

(2) بلد في اليونان. المُترجم.

ت 200 م	الجزء الأقدم المعروف من رسائل بلوس، بـردي تشيـستر بيتـي، وُجـد في مصر.
ت 200 م	الإنجيل الأقدم الكامل عملياً (يُوْحَنَّا)، بردي بودمير، وُجد في مصر.
325 م	مجلـس نيكيـا «Nicaea»[1] (إزنيـك) الـذي عُقـد مـن قبـل الإمبراطـور الرومـاني قـسطنطين. إنّ ألوهيـة الـسَّيِّد المَـسيح جُعِلَـتْ عقيـدة رسـمية بتصويت 217 مقابل 3.
393-397 م	مجلس كَنيسَة بنزرت، الذي شكّل العهد الجديد الراهن، وبُـتَّ في أمـره في مجلس قرطاجة.

(1) بلدة قديمة في تركيا، الآن إزنيك (عند بحيرة إزنيك جنوب شرق اسطنبول)، ازدهرت في عهد الرومان المُترجم.

المكابيون وهيرودس

401 ق.م	تمَّ إعادة بناء المعبد اليهودي على جزيرة الفيلة في أسوان جنوب مصر.
332 ق.م	ألكساندر العظيم يغزو إسرائيل ومصر.
323 ق.م	موت ألكساندر. قسّم جنرالات إمبراطوريته: بعد سنوات من الكفاح يأخذ بَطْلَمْيوس مصر. ويأخذ سَلوقس سوريا، وبلاد ما بين النهرين «Mesopotamian»، وبلاد فارس. إسرائيل في بادئ الأمر حُكِمَتْ من قِبَل بَطْلَمْيوس.
170 ق.م	الحُكْم السلوقي لسوريا. إنطاكيوس «Antiochus» ايبيفانيس، يغزو اليهوديّة ومصر. أونياس الثّالث، الكاهن الأكبر المعبد، يهرب إلى مصر مع العديد من الكَهَنَة ويُؤسِّس معبداً يهودياً في مصر.
169 ق.م	السوريون يغزون اليهوديّة ثانية. المعبد نُهِبَ.
167 ق.م	يغزو السوريون ثانية، مذبحة عامة للناس في القُدْس، ويهدون ثانية المعبد إلى زيوس. كاهن المعبد متاثياس (من السلالة المكابية اليهودية). وأبناؤه يبدؤون ثورة ضدّ السوريين.
166 ق.م	متاثياس يموت. ابنه يهوذا المكابي يسيطر على القيادة.
160 ق.م	يهوذا المكابي هُزم، وقُتل. يأخذ أخوه جوناثان القيادة.
152 ق.م	جوناثان يُعيَّن كاهناً أعظم للمعبد في القُدْس.
143 ق.م	جوناثان يُسجَن. يصبح أخوه سِمعان الكاهن الأكبر وحاكم اليهوديّة.
142 ق.م	تصبح اليهوديّة مستقلّة تحت حُكْم سِمعان، الذي يُشكِّل تحالفاً مع الروم.
134 ق.م	سِمعان يُقتَل. ابنه جون هيركانوس يخلفه ككاهن أعظم وكحاكم لليهوديّة.
104 ق.م	أريستوبولوس يحكم ويحصل على لقب ملك لليهوديّة (من السلالة المكابية اليهودية «الهسمونية»).
103-76 ق.م	ألكساندر جانايوس ملك وكاهن أكبر لليهوديّة.
67-63 ق.م	أريستوبولوس الثّاني ملك وكاهن أكبر لليهوديّة.
63 ق.م	الجنرال الروماني بومبي يحتلّ أورشليم.
37 ق.م	هيرودس يتزوّج مريمن، حفيدة ملك اليهودية أريستوبولوس الثّاني. هيرودس يحتلّ أورشليم ويصبح ملكاً.
4 ق.م	موت الملك هيرودس.

لكن السلطات اليهودية التي تُمثِّل الصَّدُوْقيّين[1] كانوا مُهتمِّين بالموضوع؛ كـانوا يريدونـه ميتاً. تلك الجماعة الصغيرة التي كانت من أتباع السَّيِّد المَسيح كانت ضعيفة لحمايتـه، ولم يكـن بإمكانها سوى المراقبة بعجز أثناء تنفيذ المأساة. إذنْ؛ لـو أنّ هروبـه لم يخـدم بعـض الأهـداف للسلطات الرومانية أو اليهودية كلَيْهما، فَمَنْ – إذاً – يمتلك المـصادر والقـوّة الكفايـة لجَعْـل عملية الهروب تحدث. يعتقد المرء بأنّ هروباً كهـذا هـو أمـر مـستحيل. ورغـم ذلـك، هنـاك تلميحات كافية في روايات الإنجيل تجعـل الإنـسان يتوقّـف وهلـة للتفكـير. الحالـة ليـست واضحة كما هي مُقدَّمة.

أولاً، وبأهمّية، الصَّلْب كان من الناحيـة التاريخيـة هـو العقـاب لجريمـة سياسـية. طبقـاً للإنجيل – على أية حال – سلَّم بيلاطُسُ السَّيِّدَ المَسيح إلى الجماهير، التي نادت عالياً بإعدامـه على أساس المعارضة الدِّينية. الإعدام اليهـودي لهـذا التجـاوز المعيّن كـان المـوتَ بـالرَّجْم. الصَّلْب كان عقاباً رومانياً مُخصَّصاً للعصيان، وليس للشذوذ الـدِّيني. هـذا التنـاقض وحـده يُوضح بأنّ الإنجيل لم يذكر المسألة بصِدْق. هل من الممكن أن الأناجيل تحاول إخفـاء بعـض السمات الحيوية للأحداث عنّا؟ ربما تحاول إلقاء اللوم على الناس الخطأ؟

السَّيِّد المَسيح – يمكننا أن نكون متأكّدين – حُكِمَ بالإعدام استناداً لجرائم سياسية. يمكننـا أن نكون متأكّدين – أيضاً – بأنّ السلطات الرومانية – وليـست اليهوديـة – هـي التـي سـيَّرت الأمـور، مهـما كـان النـسيج الـذي تحـاول الأناجيـل حياكتـه حيـال الموضـوع. والإنجيـل – بالتأكيد – حاكَ الرسالة بدقَّة، لدرجة أن المَسيحيين الحديثين مازالوا يجدون أن أيَّ اقتراح لأيِّ عمل سياسي للسَّيِّد المَسيح هو «كُفْر» شنيع، وخطير. مع ذلك، فقد مضى أكثر من خمسين سـنة منذ أن صرَّح الأستاذ صموئيل براندون في جامعة مانشـستر في إنجلـترا لافتـاً الانتبـاه إلى هـذا التحريف اللاهوتي الحاسم: «الحقيقة الحاسمة التي تبقى بلا منازع هي أن حُكْم القتل أُعلِنَ من قِبَل الحاكم الروماني، والإعدام نُفِّذ من قِبَل المسؤولين الرومان»، وتابع براندون قائلاً:

---

(1) الصَّدُوْقيّ: أحد أفراد طائفة يهوديّة، في زمن المَسيح، أنكرت الحَشْرَ، ووجودَ الملائكة، إلخ. وهم الكَهَنَة اللاويُّون بنو صادوق. حزقيال (44: 15). المُترجم.

«من المؤكّد بأن الحركة التي ارتبط بها [السَّيِّد المَسيح] كانت – على الأقلّ – ذات مظهر كافٍ من العصيان لجَعْل السلطات الرومانية تعدُّه ثورياً محتملاً، وبعد المحاكمة، تقوم بإعدامه كمُذنب بمثل هذه التُّهمة».

في الحقيقة، في السنوات اللاحقة براندون أصبح أكثر صراحة، ربما تمَّتْ إثارته من قِبَل أولئك الذين واصلوا إهمال هذه الحقيقة المُهمَّة. كَتَبَ بقوّة تاركاً حيّزاً صغير للشَّكِّ في هذه المسألة: «كلّ التحقيقات التي تتعلَّق بالسَّيِّد المَسيح التاريخي يجب أن تبدأ من حقيقة إعدامه من قِبَل الرومان بسبب العصيان.

سنجد أنّنا لا نتعامل – فقط – مع تعقيدات الدِّين، لكنْ؛ مع مكائد السياسة. حتى اليوم لم تتمّ إزالة الألغام كافَّة.

ناهيكَ عن النمط الوحشي للإعدام، تُركنا للتساؤل سواء كان هناك أيّ اقتراح آخر في الإنجيل بأن الرومان كانوا – في النهاية – مسؤولون، وبأن الجريمة المعقّدة كان العصيان بدلاً من انتهاك التعليمات اليهودية.

الجواب في الحقيقة هناك. السَّيِّد المَسيح صُلِبَ بين اثنَيْن آخرَيْن، وُصفا كلصَّيْن في الترجمات الإنجليزية للتوراة. على أية حال؛ إن عدنا للنصّ اليوناني الأصلي، نجد بأنّهما لم يُنعَتَا هناك باللِّصَّيْن على الإطلاق، بل وُصفا بكلمة «lestai»، والتي تُتَرجم – على وجه التحديد – كـ«لصّ»، ولكنْ؛ كانت تعني باليونانية الاسم الرسمي للزَّيلوت[1]، وهم مقاتلو مدينة اليهودية[2] الذين كرّسوا أنفسهم لتخليص اليهودية من الاحتلال الروماني (مَتَّى 38:27). الرومان كانوا يعدُّونهم إرهابيين.

الزَّيْلُوت لم يكونوا يرغبون – فقط – بقبضة سياسية ما للأرض، بل كان لديهم دافع أقلّ رشوة: لقد كانوا – قبل كلّ شيء مهتمّين بشرعية الكَهَنَة الذي يخدمون في هيكل سليمان،

---

(1) الزَّيْلُوت: المُتعصّبون. واحد من طائفة يهودية قديمة عُرِفَتْ بمقاومتها الشديدة للسيطرة الرومانيّة على فلسطين. وردت ترجمتها في الإنجيل بعبارة «الوطنيّ الغيور». المُترجم.

(2) اليهودية هي ما يُعرَف – اليوم – بفلسطين. المُترجم.

وبشكل خاصّ، شرعية الكاهن الأكبر، الذي كان – في ذلك الوقت – قد عُيّن من قِبَل الحكّام الهيرودسيين[1]. كانوا يريدون الكَهَنَة الذين هم من «أبناء هارون»، كَهَنَة سلالة هارون شقيق موسى من قبيلة «لاوي» (Levi)، والذي أسَّس الكَهَنُوت الإسرائيلي، وكان الكاهن الأكبر الأول لإسرائيل. «أبناء هارون» كان قد أصبح التعبير الذي يُستعمَل لوَصْف السلالة الشرعية الوحيد للكَهَنَة في إسرائيل القديمة.

إنّ المُلابسة التي لا يمكن نكرانها في وضع السَّيِّد المَسيح بين اثنَيْن مُدانَيْن من الزَّيْلُوت مُدانَيْن في موقع جُلجُثَة هي أنّ السَّيِّد المَسيح – بالنسبة إلى السلطات الرومانية – كان – أيضاً – من الزَّيْلُوت. كما كان باراباس، والذي هو السجين الذي تمَّ العفو عنه من قِبَل بيلاطُس نتيجة ما تمَّ وصفه بأنه عفو يوم العيد. السجين وُصِفَ باليونانية بكلمة «lestes» (لصّ) يُوْحَنَّا (40:18). يبدو – حقَّاً – بأنه كان هناك الكثير من الزَّيْلُوت حول السَّيِّد المَسيح.

هذه الملاحظة تمتدُّ – أيضاً – إلى أتباع السَّيِّد المَسيح: أحدهم يُدعى سِمعان زيلوتس (سِمعان زيلوتِن) – أيْ سِمعان الزيلوتي؛ أيْ الوطني الغيور (لُوقَا 15:6). علاوة على ذلك، مجموعة سيئة جدَّاً من القَتَلَة كانت موجودة في صفوف حركة الزَّيْلُوت كان اسمهم السيكاريين «Sicarii»[2] (رجال الخناجر)، وذلك لأنهم كانوا يحملونها على خصورهم ليغتالوا بها معارضيهم؛ يهوذا الإسخريوطي كان – بشكل واضح – عضواً في جماعة الخناجر (عضو نشيط، أم سابق، لا نعلم). في الاقتراح في تعصُّب الزَّيْلُوت يضفي أهمية إضافية عندما نتذكَّر الأحداث التي سبقت توقيف السَّيِّد المَسيح في حديقة الجُثْمانية[3]. **طبقاً لإنجيل لُوقَا، بينما كان السَّيِّد المَسيح وحواريوه مجتمعين، أخبر السَّيِّد المَسيح حاشيته بتسليح أنفسهم على الفور: «ومَنْ لا سيف عنده، فليبعْ ثوبَهُ، ويشترِ سيفاً»**، ولمَّا أُخبر بأنهم يمتلكون سيفَيْن، قال لهم

(1) نسبة لهيرودس العظيم: وُلد في فلسطين، ودُعم من قِبَل الرومان، حَكَمَ اليهوديةَ 37– 4 ق.م في فترة ازدهار نسبي. ذُكِرَ في التاريخ اليهودي والمَسيحي كمُستبدٍّ، وطبقاً للتوراة، طلب مذبحة كلّ طفل رضيع ذُكِرَ في القُدْس. مَتَّى (16:2). المُترجم.

(2) «sica»: الخنجر. المُترجم.

(3) الجُثْمانية: بستان زيتون يقع على جبل الزيتون، الذي يقع مباشرة على مشارف القُدْس قديماً. المُترجم.

السَّيِّد المَسيح: «كفى!»، لُوقَا (22: 36 – 38). هنا وُصِفَ السَّيِّد المَسيح بسياق مُعرَّف بالرغبة القوية والعنيفة غالباً لمواطني اليهودية في التحرير من الحُكْم الروماني. لفَهْم ذلك بأية طريقة أُخرى مختلفة علينا – إذاً – أنْ نُهمل الكثير جدّاً من تلك الآيات.

بطريقة ما، بَعْثُ السَّيِّد المَسيح إلى الصَّلْب لم يكن إلا كونه مُمثِّلاً وعضواً في هذه الفئة المعادية للرومان. كما يُقال غَسَلَ بيلاطُس يدَيْه من كامل ذلك العمل، لكنَّ إصراره على أن تبقى عبارة «ملك اليهود» على الصليب يكشف بأنّه لم يكن قد غَسَلَ يدَيْه من القانون الروماني، الذي كان دقيقاً جدّاً. مَهمَّة بيلاطُس كانت واضحة ببنودها: كان لابُدَّ عليه من أن يصلب السَّيِّد المَسيح. بوَضْع تلك العبارة في المكان التي وضعها فيه، كان هدفه الإشارة إلى كلّ الناس بأنه يعلم حقيقة الأمر.

لذا؛ مازال علينا أن نسأل: إنْ كان السَّيِّد المَسيح قد نجا من الصَّلْب في ذلك الوقت، سواء بوَضْع بديل عنه، أو عبر إنقاذه، فَمَن الذي كان الأكثر احتمالاً في أن يساعده؟ بكلّ تأكيد؛ ليس الرومان، فلماذا عليهم أن يساعدوا شخصاً ما معارضاً لحُكْمهم على اليهودية؟ وبالتأكيد؛ ليسوا الكَهَنَة الرئيسيين للمعبد؛ لأن السَّيِّد المَسيح كان شديد النَّقْد لسلطتهم، على الأقلّ. نفترض بأن المساعدة جاءت – فقط – من الزَّيْلُوت.

ولكنْ؛ كلّما تقدّمنا إلى الأمام سنكتشف بأنّنا لا يمكن أن نكون أكثر خطأ.

في 37 قبل الميلاد، هيرودس أَسَرَ القُدْس. لم يكن مواطناً من اليهودية، ولكنه جاء من منطقة شمالية تُدعى «أدوميه». بالرغم من أنّه كان مديراً وجندياً مؤهّلاً، إلا أنه كان مجرماً أيضاً. صديقه مارك أنطوني زوَّده بجيش روماني كبير لأَخْذ القُدْس، لكنْ؛ حتى بهذه المساعدة، لم يستطيعوا الدخول إلا بعد حصار دام خمسة شهور للقضاء على المقاومة. ما إن استلم السلطة، نفَّذ هيرودس خمسة وأربعين إعداماً لأفراد من السَّنْهَدْ ريم[1]، وبالتالي؛ تحطيم كلّ تأثيرهم. اعتَقَلَ أنتيغنوس أيضاً، آخر الملوك اليهود، وَبَعَثَهُ إلى إنطاكية؛ حيث كان يسكن مارك أنطوني. هناك الملك اليهودي كان – بسهولة – قد قُطع رأسه. هيرودس عُيِّن ملكاً مكانه، وَحَكَمَ حاملاً اللقب «هيرودس العظيم»، وبقي الصديق المقرَّب لمُسانديه، الرومان.

---

(1) السَّنْهَدْ ريم: المجلس الأعلى، عند اليهود القدماء. المُترجم.

بقي هيرودس معادياً جدّاً لأعضاء السلالة المَلَكية اليهودية الشرعية كلّها. بالرغم من أنه تزوَّج من أميرة من سلالة مَلَكية، قام بإغراق أخيها - الكاهن الأكبر - في حوض سباحة في القصر في أريحا. هيرودس - لاحقاً - أمر بقَتْل زوجته أيضاً، وقام - أيضاً - بإعدام طفلَيْه اللذَيْن نتجا عن ذلك الزواج. في الحقيقة، أثناء عهده قام - بشكل منهجي - بإعدام كل الأعضاء المتبقّين من السلالة المَلَكية لإسرائيل. في النهاية؛ أعاد بناء معبد القُدْس، ولكنْ؛ على الرغم من هذه الهبة، بقي مكروهاً من قِبَل أغلب الشعب اليهودي في تلك المنطقة. عندما مات عام 4 قبل الميلاد، عَمَلُهُ النهائي كان أمراً بالاحتراق حتّى الموت لاثنَيْن من الفريسيين[1]، بعد أن قام مؤيّدوهما بتمزيق النَّسْر الروماني الذهبي، الذي أمر هيرودس بتثبيته على الجدار الأمامي للمعبد.

إنّ المُؤرّخ الوحيد هذه الفترة اليهودية المُؤرّخة هو جوزيفس.

يَذكر بأنّه بعد موت هيرودس، طالب الناسُ بطَرْد الكاهن الأكبر للمعبد في القُدْس، الذي عُيّن من قِبَل هيرودس. طالبوا بأن يتمَّ تعيين كاهن أكبر ذي «تقوى ونقاوة أعظم». هذه الإشارة الأولى بأنّ جزءاً هامّاً من سُكَّان اليهودية كانوا مُهتمّين جدَّاً بهذه الأمور، وهي النقطة التي ستكون ذات أهمية حاسمة لفَهْمنا لكامل الفترة. ولكنْ؛ مَنْ هُم - بالضبط - أولئك المهتمّون؟

يصف جوزيفس ثلاث فئات متميّزة في اليهودية في ذلك الوقت:

الفريسيون، الصَّدُوْقيّون، الأسنيون[2]. الصَّدُوْقيون حافظوا على عبادة المعبد، وقدّموا الكَهَنَة الذين أدّوا التضحيات اليومية. الكاهن الأكبر كان - أيضاً - يُنتَخَب من صفوفهم. الفريسيون كانوا مهتمّين أكثر بالعُرْف اليهودي، مجموعة القوانين التي وضعها الحكماء قديماً، وكانوا أقلّ اهتماماً بتضحيات المعبد. الأسنيون، الذي عاشوا بشكل طائفي كانوا يُوصَفُون - بشكل متنوّع ومشوّش - بأنهم أعداء، أو أنصار، هيرودس، مسالمون، أو محبّون للحرب، عازبون، أو متزوّجون، كل ذلك يعتمد على الأجزاء التي ينظر إليها المرء من أعمال

---

(1) الفريسيون: وهم طائفة من يهود عهد المَسيح عُرِفَت بتمسُّكها بالطُّقُوس وبالتقوى الكاذبة. المُترجم.

(2) «Essenes» الأسنيون: كانوا يعتمدون توراة لا تحتوي إلا أسفار موسى الخمسة، وينكرون ما عداها، وكانوا يهتمّون جدّاً بالنظافة، إلى درجة أنهم شُهروا بالمُتطهِّرين، أو المغتسلين... وهي طائفة صارمة ومُوجَّهة باطنياً، تعليماتها كانت سائدة ومُؤثّرة أكثر بكثير ممَّا هو معروف عُمُوماً. المُترجم.

جوزيفس. هذا أدّى إلى التشويش الكبير بين العلماء الحديثين، وجعل المياه معكّرة بشكل أسوأ. الأسنيون – على أية حال – كانوا يُصنَّفون وفق ولائهم للقانون اليهودي؛ كما يذكر جوزيفس أنهم – حتى تحت التعذيب الحادّ من قِبَل الرومان – كانوا قد رفضوا الكُفْر بموسى، أو أن يخترقوا أيّاً من نصائح القانون. يكتب جوزيفس بأنهم حافظوا – أيضاً – على مذهب «أبناء إغريق» نفسه ؛ ربما يقصدُ الفيثاغوريين، أو – فيما بعد – الأفلاطونيين؛ لأنهم كانوا ينظرون – بشدة – إلى أن البشر يُسكَنون أرواحاً خالدة، ضمن أجسام هالكة.

في عمله الأدبي الأخير «العصور القديمة لليهود»، جوزيفس أضاف جماعة رابعة: «الزَّيْلُوت».

أولئك الذين أرادوا كاهناً أكبر جديداً لم يكونوا – فقط – مهتمّين بالاحتجاج الثقافي. الصخب من أجل التغيير جاء في نهاية فترة الحداد لهيرودس، التي دامت مدة أسبوع. ابنه أرخيلوس كان يتوقّع – تماماً – بأنّه سيصبح الملك تباعاً، لكن القرار كان في يدَيْ أغسطس قيصر.

أرخيلوس كان في منتصف العيد الجنائزي الكبير في المعبد قبل مغادرته لروما عندما سمع صخب الحشود الغاضب في الخارج، ينادون بمطالبهم. البؤرة الرئيسة للصخب – الكاهن الكبير – كان – أيضاً – حاضراً في العيد. أرخيلوس أُغضِبَ بهذه المظاهرة الصاخبة، لكنّه لم يرغب بإلهاب الحالة، لذا؛ قام بإرسال قائده العسكري للتفاهم مع الحشد المتجمّع في المعبد. لقد كان حشداً قد تضخَّم من الأعداد الكثيرة التي قدمت من الريف البعيد للتحضير لعيد الفصح القريب. لكنَّ أولئك الحضور رجموا الضابطَ، حتى قبل أن يبدأ بالكلام. انسحب بسرعة.

أرخيلوس لابُدَّ أنه كان مضطرباً، خائفاً على حياته؛ لأنه – بعد تلك النقطة – تحوَّلت الأمور – بسرعة – إلى حالة سيئة جدًّا. بتحرُّك سريع، أمر أرخيلوس مجموعة من القوّات بدخول المعبد، واعتقال الزعماء الحاليين للحشود، التي كانت تدعو إلى التغييرات. لقد كانت قوة كبيرة: إنْ كانت قوة من الجيش الروماني النظامي كان ذلك يعني ستّمئة جندي؛ وإنْ كانت قوات مساعدة، وعلى الأغلب هي كذلك، فإن ذلك كان يعني من خمسمئة إلى سبعمئة جندي، أو أكثر. من الواضح أنّ المشكلة كانت وشيكة، وأرخيلوس كان ينوي المهاجمة بسرعة، وبشدّة.

لكنَّ خطَّته لم تنجح. الجماهير الحاشدة أُغضِبَتْ بالظهور المفاجئ للقوّات المسلّحة، وهاجموهم بالحجارة أيضاً. وبشكل لا يُصدَّق، كما تفيد روايات جوزيفس، أغلب الجنود قُتلوا، وحتى القائد جُرح، ونجا من الموت بأعجوبة. بشكل واضح؛ تلك كانت معركة رئيسة، وتشير بأنّ هؤلاء «الناس» لا يُطالِبُون - فحسب - بكاهن أكبر يتمتَّع بـ«تقوى ونقاوة أعظم»، بل كانوا جدِّيِّيْن ومُنظَّمين، وقد استعدّوا للمحاربة والموت من أجل اعتقاداتهم.

بعد هزيمتهم للقوّات، تقدَّمت الحشود لأداء أضحيات المعبد، كما لو أن شيئاً مُتوقَّعاً قد حَدَثَ. أرخيلوس اغتنم هذه الفرصة؛ ليدعو كامل جيشه للخدمة: قامت قوات المشاة بمهاجمة شوارع القُدْس، بينما هاجم سلاح الفرسان الأرياف المحيطة. من الواضح أنّ هذه المعارضة للكاهن الأكبر كانت أكثر تنظيماً بكثير، وأعظم وأوسع انتشاراً بكثير ممَّا جوزيفس كان مُهيَّأً للاعتراف به. لهدف ما، يُقلِّل جوزيفس من مدى ما كان من الواضح أنه تمرُّد رئيس متمركز في المعبد، متبوع بقتال شوارع رئيس، ودام في أنحاء القُدْس. جوزيفس - على أية حال - كان واضحاً بكيفية رؤيته للحَدَث. بالنسبة له، كان ذلك «عصياناً». من خلال استعماله لهذا التعبير الانتقاصي يمكننا أن نتأكَّد بأن جوزيفس كان إلى جانب أرخيلوس، والرومان.

انتهت المعركة بوفاة عدة آلاف من المدنيين، وأغلبهم ممَّنْ كانوا في المعبد. أولئك الذين بقوا أحياء لاذوا بالفرار، باحثين عن المأوى في التلال المجاورة. العيد الجنائزي انتهى فوراً، وأرخيلوس - بدون المزيد من التأخير- غادر إلى روما. في هذه الأثناء؛ أخوه أنتيباس عارضه، وادَّعى العرشَ لنفسه. بينما كان أرخيلوس يدافع عن قضيته أمام الإمبراطور في روما، اشتعلت ثورة أُخرى في اليهودية. عشية عيد العنصرة (عيد الخمسين: اليوم الخمسون بعد سبت عيد الفصح)، حشدٌ ضخم حاصر القواعدَ الرومانية، ووضعوها - بشكل فعَّال - تحت الحصار. اندلع القتال في القُدْس، والريف. خُصُوصاً الجليل بدت بأنها كانت منبتاً للسخط المُنظَّم، والأكثر جدِّيَّة، ومن هناك، عام 4 قبل الميلاد، ظهر الزعيم الأول وهو يهوذا من الجليل، الذي هاجم مستودع السلاح المَلَكي؛ لكي يستولي على الأسلحة. في الوقت نفسه، قَصْرُ هيرودس في أريحا أُحرِق. هل يمكن أن يكون هذا التصرّف السياسي المنشقّ هو انتقام لإغراق الكاهن أكبر الشرعي؟ يبدو ذلك ذا احتمال كبير. بأسرع ما يمكن، جَمَعَ الرومان ثلاثةَ جحافل وأربعة من

كتائب سلاح الفرسان سوية مع العديد من القوات المساعدة، وقامت بهجوم عَكْسي. في النهايـة؛ حوالي ألفَيْ يهودي، وزعماء المقاومةكلّهم، صُلِبُوا - بالطبع- بتهمة العصيان.

في هذه الأثناء في روما، وفي تلك السنة نفسها، أغسطس قيصر قرّر تقسيم اليهودية بين أبنـاء هيرودس، وكلّ يحكم بلقب أدنى من الملـك. أعطـى النـصف الأغنـى مـن المملكـة - بـما فيهـا اليهودية والسامرية - إلى أرخيلوس، الذي عُدَّ حاكماً رومانياً؛ قسّم النصف الآخر إلى حكـومتَيْن رُباعيتَيْن (بالمعنى اليوناني «حُكْمُ رُبْع الأرض)، أعطى كلّاً من الأخـوَيْن البـاقيَيْن رُبْـعَ الأرض، وهما فيليب، وهيرودس أنتيباس. هيرودس أنتيباس حَكَمَ الجليل، وأراضي عبر الأردن؛ فيليـب استلم أراضي شمال الجليل وشرقها.

نقطتان يجب ملاحظتهما هنا: أولاً، رغم أن جوزيفس بدا أنه يُظهـر عـلى الـسطح أن المطالبـة بكاهن أكبر نقي وتقي جاءت من مجموعة صاخبة متفرّقـة وارتجاليـة، وبأنهـا - ببـساطة - كانـت جزءاً من الحشد العادي، الذي تجمّع في المعبد من أجل عيد الفصح القادم، إلا أنـه مـن الواضـح - نظراً لمدى القتال والمعارضة التي تصعَّدت في القُدْس، وما بعدها - بأنّ مجموعة المعارضة تلك كانت بقيادة جيدة، وبأن شبكتها شاملة. إن تجمُّعهم في المعبد في يوم العيد الجنائزي لم يكن حادثـاً عرضياً. لقد جاءوا بتعمُّد؛ واستعدّوا للمشكلة. في الحقيقة، لابُدَّ أنهم توقَّعـوا المـشكلة بالتأكيـد. هذا يستجدي سؤالَيْن: مَنْ كان أولئك الناس؟ وما الـسبب - إنْ وُجـد عـلى الإطـلاق - الـذي يمكننا فَهْمه عن عقيدتهم لرغبتهم العميقة في تنصيب كاهن أكبر طاهر وتقي في مكانه؟

يبدو بأنّ هذه الأحداث تُزوِّد ببيئة هامة عن حياة السَّيِّد المَسيح المبكّرة: عام 4 قبـل المـيلاد، عندما مات هيرودس، السَّيِّد المَسيح - طبقاً للتوقّعات الأوسع انتـشاراً عـلى الإطـلاق - كـان عمره سنتَيْن تقريباً. وهكذا، يمكننا أن نكون متأكّدين بأن ولادته وحياته حدثتا في وقت تـسود فيه خلفية من الهياج ضدَّ السلالة الهيرودسية الفاسدة والمكروهة، رغم أن مسقط رأسـه كانـت في بيت لحم في اليهودية، يُدوِّن إنجيل مَتَّى (2: 22-23) أن السَّيِّد المَـسيح أُخـذ إلى النـاصرة في الجليل عندما كان طفلاً. بعد مدة طويلة من الصمت في سجلّ الإنجيل، قيل إن الـسَّيِّد المَـسيح ظهر في الجليل؛ لكي يُعمَّد من قِبَل يحيى المعمدان. ومن الجليل جمع السَّيِّد المَسيح حواريه، عـلى

الأقلّ اثنان منهما كانا من الزَّيْلُوت. بالتأكيد؛ كان يُدعى - عموماً - بعيسى الجليلي. كما رأينا، الجليل كانت مُستنبتاً للثورة، ومنها جاء يهوذا، زعيم مجموعة كبيرة من الثوّار. كيف كانت - آنذاك - علاقة السَّيِّد المَسيح مع هؤلاء المعارضين السياسيين، مع تلك الحشود المُضرِبَة؟ هل كان قد أصبح - لاحقاً - زعيمهم؟ الأدلَّة تأتي - مرة أُخرى - من جوزيفس.

صفات رواية جوزيفس المُعارِضة كانت تصل في مداها إلى حركة عصيان واسعة، إلا أنه عانى جدّاً للتقليل من حجمها، وفي الوقت نفسه؛ للاستخفاف بها على أنها ليست «عصياناً». رغم ذلك؛ جوزيفس يُسجِّل - أيضاً - أن المعارضة لم تنته بمذابح متوحّشة في القُدْس. في الحقيقة، نوَّه إلى أنها أصبحت أسوأ بمرور الوقت. أرخيلوس أثبت أنه كان مُتوحّشاً جدَّاً في حُكْمه، لدرجة أن قيصر - بعد عشرة سنوات - نفاه إلى فيينا في فرنسا. أراضي أرخيلوس - بعد ذلك - حُكِمَتْ مباشرة من قِبَل روما كمحافظة رومانية اسمها «اليهودية». بما أن فيليب وهيرودس أنتيباس كانا في مكان آخر يحكمان حكومتَيْهما الرباعية الخاصة، عُيّن كوبونيوس، وبُعث من روما لحُكْم أراضي أرخيلوس من عاصمته التي كانت مدينة ساحلية تُدعى «القيصريَّة» (Caesarea). سافر معه الحاكم الجديد لسوريا اسمه كيرينوس (Quirinius). روما أرادت - الآن - حساباً كاملاً لمناطقها التي عليها أن تحكمها، لذلك تعهَّد كيرينوس بإجراء إحصاء كامل لسُكَّان البلاد. هذا الإحصاء السُّكَّاني لم يكن - على أقلّ تقدير - محبوباً. كان التاريخ 6 بعد الميلاد. المشكلة كانت حتمية.

يهوذا من الجليل قاد انتفاضة، واتّهم كلَّ الرجال الذين دفعوا ضريبة إلى روما بالجُبن. طلب بأنّه على اليهود أن يرفضوا الإقرار بالإمبراطور كسيِّد، مُدَّعياً بأنّ السَّيِّد الوحيد الموجود هو الله. مسألة الضريبة هذه كانت وسائل رئيسة لمعرفة مَنْ كان مع يهوذا، ومَنْ كان ضدَّه. جوزيفس يذكر بأنه في الوقت نفسه ظهر السيكاريون (رجال الخناجر) المُتهوِّرون لأول مرة. هم كانوا الفئة المسؤولة التي كانت وراء كلّ عمليات العنف. يُلمِّح جوزيفس بأنّ يهوذا الجليلي إمّا أنه أسَّس المجموعة، أو أنه قادها، ومن الواضح من رواياته أن جوزيفس كان يكرههم. هو يتَّهمهم باستعمال سياستهم كعباءة لـ«همجيَّتهم، وجشعهم».

بشكل مدهش، ذِكْرٌ ليهوذا في العهد الجديد يُؤيِّد هذا الجانب. «ثم قام يهوذا الجليلي في زمن الإحصاء، فجرَّ وراءه جماعة من الناس، فهلك أيضاً، وتشتَّت جميع الذين أطاعوه». أعمال الرُّسُل (37:5). يُوضِّح جوزيفس أكثرَ من ذلك بأنّ يهوذا مع أحد المقاتلين الآخرين اسمه صدوق الفريسي كانا مسؤولَيْن عن إضافة فئة رابعة إلى اليهودية بعد الفريسيين، والصَّدُّوْقيّين، والأسنيين، تلك الفئة الرابعة هي «الزَّيْلُوت» (المُتعصّبون). دُعِيَتْ كذلك لأنهم كانوا «مُتعصِّبين في الواجبات الجيدة». مصطلح «زَيلوت» ورد - فقط - في تأريخ جوزيفس؛ لم يذكرهم أيّ مُؤلّف روماني آخر، وحتى جوزيفس متردّد في ذِكْرهم. بدلاً من ذلك، كان يُفضِّل الإشارة إليهم سلبياً بكلمة «Lestai»؛ أيْ «لصوص»، أو السيكاريون «Sicarii» أيْ «رجال الخناجر».

هذا - أيضاً - يكشف تنويهاً في العهد الجديد في كتاب أعمال الرُّسُل. التحدّث عن اجتماع بين بلوس ويعقوب في القُدْس، بعد أن عاد بلوس من سنوات التبشير العديدة في المدن اليونانية والرومانية مثل طرسوس «tarsus»، وإنطاكية «Antioch»، وأثينا، وكُورِنْثُوس «Corinth»، وأَفَسُس «Ephesus»، يعقوب ورفاقه ذكروا أن «آلاف اليهود» كانوا - جميعاً - «مُتعصّبون لشريعة موسى» أعمال الرُّسُل (20:21). لاحقاً في الكتاب نفسه ، أعمال الرُّسُل (38:21)، تمَّ استعمال تعبير آخر أكثر حساسية. بلوس اتُّهم بأنه قائد «خرج بأربعة آلاف قاتل إلى الصحراء» من قِبَل الرومان، ثمّ اعتُقل. لكنْ؛ عندما ننظر إلى النصّ اليوناني الأصلي، نجد أن كلمة «قاتل» ليست ما يقوله النصّ مطلقاً. في الحقيقة، بلوس اتُّهم بقيادة أربعة آلاف من السيكاريين - رجال الخناجر.

على الرغم من الصفات - «المُتعصّبون»، أو «القَتَلَة» - أو لربّما بسببهم، نحن مازلنا نسأل: مَنْ هؤلاء اليهود الذين استعدّوا للموت بدلاً عن خدمة الرومان؟ جوزيفس - مرة ثانية - يجعلنا نعتقد بأنّهم كانوا فرقة صغيرة من الأفراد المُتهوِّرين قاموا بالعصيان. رغم ذلك، الثورات التي دوَّنها تقترح بأنّهم قاتلوا بغضب وحماس وقوة بشرية هامّة. التناقض المتأصّل يقنعنا بأنّه لا يرغب بإخبارنا بحقيقة هذه الفئة. هم كانوا - بشكل واضح - أكثر جديّة ممَّا يتمنّى التصريح به. وهذا أمر حاسم بالنسبة لقصّتنا، ولفَهْمنا للأحداث.

لماذا – إذاً – جوزيفس كان يكره الزَّيْلُوت كثيراً؟ عند النظر إلى مهنته يصبح الأمر بسيطاً جدًّاً بالنسبة لنا: في الحقيقة؛ بدأ جوزيفس مهنته كمُتطرِّف. بل كان قائداً عسكرياً في الزَّيْلُوت. بشكل مدهش؛ كان مسؤولاً عن الجليل كلّها – قلب أراضي الزَّيْلُوت – في بداية الحرب ضدّ روما. لكنْ؛ بعد خسارة منصبه، ارتدَّ إلى الجانب الروماني، وأصبح صديقاً مقرَّباً للإمبراطور فَسْبازيان «Vespasian»، وابنه تيطَس «Titus» قائد الجيش. أخيراً؛ انتهى جوزيفس بالعيش في روما ضمن قصر الإمبراطور الخاص جدًّاً، مع راتب تقاعدي، ومواطنة رومانية. لكنَّ خيانته ضدّ شعبه كلَّفته كثيراً. لبقية حياته؛ كان لابُدَّ عليه أن يراقب ظهره؛ لأنه كُرِهَ من قِبَل حتى أولئك اليهود الذين يعيشون في روما.

في كتابه الأول، الحرب اليهودية – الذي كُتِبَ حوالي عام 75– 79م، للشعب الروماني، والحاصل على الجنسية الرومانية – جوزيفس يضع اللوم على الزَّيْلُوت في دمار المعبد. بالرغم من وصوله إلى كلّ السجلَّات اليهودية، التي نجت من الحصار وحريق المعبد، وبالرغم من وصوله إلى السجلَّات الرومانية، نجد بأنّنا لا نستطيع الإيمان – كُلِّيَّاً – بما يقول. على الرغم من مصادره الممتازة، انضمَّ إلى العدوِّ، وكان يكتب للعدوِّ – للجمهور الروماني غير اليهودي. كتابة جوزيفس في كتابه «الحرب اليهودية» مماثلة لكتابة أحد النازيين عن تاريخ بولندا، التي تبرّر احتلال عام 1939. بما أن إرهابية أحد الأشخاص هي وطنية لشخص آخر، من الضروري – بالنسبة لنا – أن نكون حريصين في استخدامنا لأعماله الأدبية. يجب علينا أن ننظر إلى رواياته بشكل احتمالي، ومنظوري.

في الوقت الراهن دعونا نُحوِّل انتباهنا إلى حَدَث استثنائي حَدَثَ عام 1947. راعٍ بدوي اسمه محمد الدِّيب كان يتجوَّل عند النهاية الشمالية للبحر الميت، يبحث عن بعض العنزات المفقودة. واعتقاداً منه بأنهم في الكهف، اقترب ورمى بحجره لتخويفهم، وإبعادهم. بدلاً من الثغاء الغاضب للعنز، سمع تحطُّم آنية فخارية. بشكل مفتون، زحف داخلاً الكهف الصغير لرؤية ما كان هناك. وجد أمامه بعضاً من القُدُور الطينية الكبيرة – وقد كَسَرَ أحدها الآن – والتي وُجد فيها المجموعة الأولى للوثائق المشهورة منذ ذلك الوقت بـ«لفائف البحر الميت».

أخذها إلى تاجر آثار في بيت لحم، الذي بدأ ببيعها إلى أطراف مختلفة، ظنّ أنها مهتمّة. رغم ذلك، هناك شيء من اللغز حول العدد الكامل للفائف التي وُجِدَتْ. سبعة منها قُدِّمت وبيعت - في النهاية - إلى المؤسسات الأكاديمية، ولكنْ؛ يبدو بأنّه وُجدت أعداد أُخرى، وربما تمَّ الاحتفاظ بها، أو أنها وصلت إلى أيدي تجّار آخرين، أو جامعين خاصّين. على الأقلّ؛ واحدة من تلك اللفائف وجدت طريقها إلى دمشق، ولفترة وجيزة، إلى أيدي وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

في ذلك الوقت، رئيس مركز وكالة المخابرات المركزية في دمشق كان خبير الشرق الأوسط مايلز كوبلاند. روى لي بأنه - في أحد الأيام - جاء باب بيته «تاجر مصري ماكر»، وعرض عليه نصّاً قديماً ملفوفاً من النوع الذي يُعرَف - الآن - كإحدى لفائف البحر الميت. كانت - بالطبع - مجهولة آنذاك، وكوبلاند لم يكن متأكّداً أن مثل هذه الوثائق القديمة هي ثمينة، أو على أية درجة من الأهمية. بكلّ تأكيد؛ لم يكن باستطاعته قراءة اللغة الآرامية، أو العبرية، لكنّه عرف بأنّ رئيس وكالة المخابرات المركزية في الشرق الأوسط، كيرمت روزفيلت، الذي كان مقرّه في بيروت، كان خبيراً في هذه اللغات القديمة، ومن المحتمل أنه سيكون قادراً على قراءتها. أخذ اللفيفة إلى سقف البناية في دمشق، ووسط الريح التي أطارت بعض القطع الصغيرة منها، قام بفَتْح تلك اللفافة، وصوَّرها. قال بأنه التقط حوالي ثلاثين صورة، ورغم ذلك لم يكن ذلك كافياً لتصوير كامل النصّ، وبالتالي؛ يمكننا أن نفترض أن النصّ كان كبيراً جدَّاً. أرسل الصور إلى مركز وكالة المخابرات المركزية في بيروت، وهناك اختفت. عمليات بحث في مراكز وكالة المخابرات المركزية تحت شروط وتدابير قانون حرية المعلومات الأمريكي أخفقت في إيجادها. كوبلاند يتذكّر بأنّه سمع نصّاً يتعلَّق بدانيال - لكنّه لم يعرف سواء أثبت ذلك النصّ بأنه نصّ أساسي من كتاب العهد القديم، أو أنه تعليق على بعض المقاطع الرئيسة من نصّ العهد القديم، مثل التعليقات التي ظهرت على عدد من اللفائف الأخرى التي وُجدت في الكهف نفسه. في مكان ما هناك في عالم جرائم الآثار السرية، هذا النصّ الثمين - بلا شكّ - مايزال موجوداً.

لفائف البحر الميت التي تمَّت دراستها تُعطينا - للمرة الأولى - نظرة مباشرة إلى هذه المجموعة الكبيرة والواسعة الانتشار التي كنا نتأمّلها هنا - هذه المجموعة التي مقتت

الاحتلال الأجنبي، التي كانت بشكل عنيد مهتمَّة بنقاوة الكاهن الأكبر - والملك - والتي كُرّست - كُلِّيّاً - لمراعاة القانون اليهودي. في الحقيقة؛ أحد الألقاب التي أشاروا فيها إلى أنفسهم كان «Oseh ha-Torah» - مُطبِّقو التوراة.

لفائف البحر الميت، يبدو بأنها تُزوِّد بوثائق أصلية لجماعة الزَّيْلُوت؛ لأنها ظهرت من مجتمعهم. وما هو - أيضاً - مثير للاهتمام هو أنّه، وفقاً للدليل الأثري «قمران» - الموقع الذي وُجِدَتْ فيه العديد من الوثائق، وعند النظر لأول مرة يبدو أنه قد أُسِّس في ذلك الموقع مركز للزَّيلوت - هُجر أثناء عهد الملك هيرودس العظيم، الذي كان يمتلك قصراً على بُعْد بضعة أميال فقط في أريحا - القصر نفسه الذي أُحْرِقَ من قِبَل «الزَّيْلُوت» بعد موته. لذلك كان احتلال قمران قد بدأ بعد ذلك.

لفائف البحر الميت كُتِبَتْ مباشرة من قِبَل أولئك الذين استعملوها، ولم تُلمَس من قِبَل المحرّرين، أو المُنقِّحين اللاحقين، وهو أمر غير اعتيادي بالنسبة للوثائق الدِّينية. ما يخبروننا به علينا أن نُصدِّقه. وما يخبروننا به هو - في الحقيقة - مثير ومُهمّ جدّاً. أولاً، يكشفون الكراهية العميقة للهيمنة الأجنبية التي أوشكت أن تصبح كالمرض، وقد أُثيرت كراهيتهم - بشكل واضح - لرغبتهم الشديدة بالانتقام، الذي يتبع العديد من سنوات الذبح والاستغلال والكبح للدِّين اليهودي من قِبَل عدوٍّ أطلقوا عليه اسم «Kittim» - هذا قد يكون اسماً عاماً، لكنْ؛ في القرن الأول الميلادي، فمن الواضح أنها تشير إلى الرومان. لفيفة الحرب تُعلن:

عليهم أن يتصرَّفوا وفقاً لكلّ هذا القانون في هذا اليوم، عندما يُوضعون مقابل معسكر «Kittim». بعد ذلك، الكاهن سينفخ لهم الأبواقَ... وباب المعركة سيُفتَح... الكَهَنَةُ سينفخون... لإعلان الهجوم. عندما يكونون عند طرف خطّ «Kittim» (العدوّ) وفي مرماهم، كلُّ رجل سيرفع أسلحته الحربية. الكَهَنَةُ الستّة سينفخون أبواق الذَّبْح بنغمة صارخة، ومُتقطّعة لتوجيه المعركة. واللاويّون وكلُّ الحشود التي تحمل قرون الكباش ستنفخ لنداء المعركة، مع ضجّة تصمُّ الآذان. وعندما يخرج الصوت، عليهم أن يساهموا في الإكمال على المجروح بشدَّة من الـ«Kittim».

هكذا كان حُلم المُتطرّفين، الذين احتقروا ومقتوا الرومان: سيموتون قريباً بدلاً من خدمة الـ«Kittim». عاشوا – فقط – لليوم الذي سيظهر فيه المَسيح المُنتظَر للشعب اليهودي، ويقودهم في حرب منتصرة ضدّ الروم، وضدَّ كَهَنَتهم الكبار، وملوكهم المتواطئين، ويمحوهم عن وجه الأرض؛ لكي يكون هناك مرة أُخرى في إسرائيل سُلالة نقية من الكَهَنَة الكبار، ومن الملوك من سُلالة داود. في الحقيقة، هم انتظروا مَسيحَيْن مُنتظَرَيْن: الكاهن الأكبر، والملك. على سبيل المثال، شريعة المجتمع تتحدَّث عن «مَسيحَيْن مستقبليَّيْن: مَسيح هارون، ومَسيح إسرائيل». مَسيح هارون يُقصَد به الكاهن الأكبر؛ ومَسيح إسرائيل يعبّر عن ملك من سُلالة داود. تذكر اللفائفُ الأخرى الشخصياتِ نفسَهَا. بشكل استفزازي، ومن منظورنا الخاصّ، بعض اللفائف – مثل وثيقة دمشق – تجمع هذَيْن الاثنَيْن في شخص واحد، فهي تتكلّم عن مَسيح مُنتظَر واحد «مَسيح هارون، وإسرائيل». إنها تكشف عن شخص واحد، الذي هو – بالوقت نفسه – الكاهن الأكبر، وملك إسرائيل.

هذه النصوص كلّها تولي الكثير من الأهمية بأنْ تكون سلالة الملوك والكَهَنَة الكبار «نقية»؛ أيْ أن تكون سُلالة حقيقية. لفيفة المعبد تذكر: «من بين إخوتكَ أنتَ ستُنصِّب نفسكَ ملكاً؛ أنت لن تنصّب رجلاً أجنبياً ليس أخاكَ على نفسكَ».

الملك والكاهن الأكبر كلاهما مُكرَّسان (ممسوحان بالزيت)، وبالتالي؛ هما شخص واحد، إنه المَسيح المُنتظَر. في الحقيقة، من فترة قريبة لا تتجاوز القرن الثاني قبل الميلاد، تعبير «المَسيح المُنتظَر» كان يُستعمَل لتسمية الملك الشرعي لإسرائيل، أحد أفراد السلالة المَلَكية لداود، والذي كان يُتوقَّع بأن يظهر ويحكم. لذلك، هذا التوقُّع لم يكن عند الزَّيْلُوت فقط، بل كان شعوراً دفيناً قوياً يعود إلى العهد القديم، وإلى الإيمان اليهودي في فترة المعبد الثانية. إنه شعور سائد لدرجة أكبر ممَّا يعتقدهاالمرء: أُشير إلى أن «كُتُبَ العهد القديم قد تمَّ تنقيحها بشكل كبير جدَّاً؛ لدرجة أنها أصبحت – جملة – كوثيقة مَسيحية».

الفكرة هي - بالطبع - أن السُّكَّان اليهود في اليهودية (فلسطين) على الأقلّ، كانوا يتوقّعون ظهور المَسيح المُنتظَر من سُلالة داود. وبالمشقَّات والرُّعب الذي حلَّ في عهد هيرودس وعهد الحُكَّام الرومان اللاحقين، بدا أن وقت الظهور قد حان. الوقت لظهور المَسيح المُنتظَر قد جاء، ولهذا؛ ليس من الضّروري أن نُفاجأ عندما نكتشف بأنّ حركة الزَّيْلُوت الثائرة ليهوذا الجليلي وصدوق الفريسي كانت مَسيحية في صميمها.

إذاً؛ مَنْ في رأيهم كان المَسيح المُنتظَر؟

لفائف البحر الميت تُزوِّدنا بسياق لفَهْم دور المَسيح والمكائد السياسية التي كانت قد برزت وراء ولادته وزواجه ودوره الفعَّال في تطلُّع حركة الزَّيْلُوت للنصر. طبقاً للإنجيل، السَّيِّد المَسيح كان من سُلالة داود من ناحية أبيه؛ ومن ناحية أمّه، كان من سُلالة هارون، الذي كان الكاهن الأكبر، مَتَّى (1: 1، 16)؛ لُوقَا (1: 5،36)؛ لُوقَا (4:2). سوف نعي فجأة أهميته بالنسبة لقضية الزَّيْلُوت عندما ندرك بأنّه كان وريثاً للسلالتَيْن كلتَيْهما ، هو كان المَسيح المُنتظَر «المضاعف»[1]؛ بما أنه ورث السلالتَيْن المَلَكية والكَهَنُوتية كلتَيْهما، فهو - إذاً - كان «مَسيح هارون، وإسرائيل»، وكما رأينا كان هو الشخص الذي تمَّ ذِكْره - بشكل واضح - في لفائف البحر الميت. وسوف نرى بأنه كان يُعدُّ على نحو واسع بأنه كذلك. بالتالي؛ يمكننا أن نقبل - كتعبير عن هذه حقيقة - الإشارة التي يُفترَض بأنها ساخرة، والتي وضعها بيلاطس البنطي على أسفل الصليب، والتي تقول: هذا هو السَّيِّد المَسيح ملك اليهود. مَتَّى (27، 37).

السَّيِّد المَسيح - ككاهن أكبر، وكملك، وكمَسيح مَنتظَر لبني إسرائيل (في العبرية « bani mashiach») - ربما كان يُتوقَّع منه قيادة الزَّيْلُوت إلى النصر. ربما كان يُتوقَّع منه معارضة الرومان في كلّ خطوة، وأن يتمسَّك - بقوة - بمفاهيم النقاوة الطقوسية، التي كانت مُهمَّة جدَّاً للزَّيلوت. كزعيم للزَّيلوت، كان لديه دور ديني وسياسي ليقوم به، وكما يحدث، كان هناك طريقة معروفة بالنسبة له لإنجاز ذلك: نبي العهد القديم زكريا قد تحدّث عن وصول ملك إلى القُدْس على ظهر حمار. زكريا (9: 9 - 10).

---

(1) مَسيح الكاهن الأكبر، ومَسيح ملك إسرائيل في آن واحد. المُترجم.

السَّيِّد المَسيح أحسَّ بأنه من الضروري إنجاز هذه النُّبُوءة وغيرها من النبوءات؛ لكي تُلاقي القبول العامّ؛ في الحقيقة، نبوءة زكريا اقتُبسَت في العهد الجديد في إنجيل مَتَّى (5:21). لذلك دخل السَّيِّد المَسيح إلى القُدْس على ظهر حمار. الفكرة لم تُعبِّر الحشود التي حيَّت وصوله:

«المجد لابن داود»، هكذا كانوا يصيحون وهم يبكون ويضعون أغصان الأشجار والعبي على طريقه؛ ليمرَّ فوقها كتعبير عفوي عن القبول والمديح.

السَّيِّد المَسيح كان قد اختار طريقه بتعمُّد. وتمَّ الاعتراف به كملك من سُلالة داود من قِبَل الحشود المُتجمهرة في القُدْس.

لقد حُسم الأمر. أو بدا الأمر كذلك.

هذا التمثيل المُتعمَّد لنُبُوءة العهد القديم ونتائجه نُوقِش من قِبَل هيو سكونفيلد في كتابه «مؤامرة عيد الفصح» الذي نُشِر لأول مرة عام 1965؛ وقد تمَّ إعادة نشره عدة مرات، منذ ذلك الحين، وقد باع أكثر من ستّة ملايين نسخة في ثماني عشرة لغة. لقد حصل على أفضل المبيعات في كلّ المعايير، ومع ذلك؛ فهو اليوم مَنْسِيٌّ تقريباً. الكُتُب الحديثة لا تذكر حتى عمل سكونفيلد.

إنّ الأمور التي أظهرها هي - بالتأكيد - مثيرة للجدل، ولكنها هامة جدّاً؛ إنّ حُماة القصّة التقليدية يحاولون - بشكل ثابت - أن يُبقوا هذه الأفكار البديلة بعيدة، خشية أن تهُزَّ الأعراف، وخشية أن تجعلنا نُغيِّر مواقفنا من الإنجيل، ومن شخصية السَّيِّد المَسيح، ومن تاريخ تلك الأحداث. دروس كالتي يُقدّمها سكونفيلد، من الضّروري أن تُكرَّر، جيلاً بعد جيل، إلى أن يتمَّ - أخيراً - مساندتها بكمِّيَّات كبيرة جدّاً من المعلومات البديلة الكفيلة بقلب الموازيين والأعراف، لتجعلنا نقترب من تاريخنا بمنظور مختلف جدّاً.

العديد من العوامل في حياة السَّيِّد المَسيح؛ ثورة الزَّيْلُوت، ولادته من أبوَيْن كانا من سُلالة داود وهارون على التوالي، أعضاء الزَّيْلُوت من حاشيته المباشرة، دخوله المُتعمَّد كملك إلى القُدْس، كلّ تلك العوامل يجب أن تكون كفيلة بأن مكانة السَّيِّد المَسيح - بكلّ تأكيد - في التاريخ هي كزعيم للأمّة اليهودية. لكنها لم تكن كفيلة بذلك. فما هي المشكلة؟!

الفصل الرابع

ابن النَّجْم

ببساطة، قضية الزَّيْلُوت فشلت تماماً، وبشكل مشؤوم. ربما كان ذلك أمراً حتمياً؛ لأن هدفها الأساسي كان معارضة هيمنة روما، التي كانت القوّة العسكرية الأعظم التي عرفها عالم البحر الأبيض المتوسط في ذلك الوقت. بالرغم من أن المنهج الطبيعي لحركة الزَّيْلُوت قادها لمعارضة هذه الهيمنة بشكل علني، وبكلّ القوة التي كان بإمكانها أن تجمعها، فإنها لن تربح تلك الحرب. ذلك كان واضحاً تماماً لكلّ الذين نظروا، حتى - ولو قليلاً - للأمام.

من الواضح أنه كان هناك رومان أكثر من اليهود في العدد، وقوّة الروم كانت تتمركز على جيش من الجنود المحترفين المنضبطين والمدرَّبين جيِّداً، الذين ما كانوا ليكرهوا المفاخرة بالأعمال الوحشية والمُبدعة، إنْ استدعى الأمر ذلك، أو لو أن الجندي أحسَّ بذلك. هذه القوة كلّها دُعِمَتْ بقيادات هائلة وواسعة الانتشار من المُؤن، التي دُعِمَتْ بالسُّفُن والطُّرُق الجيدة، والتي كانت جميعها تُكمل البنية القوية التي كانت تضمن - بقوة - المرور الآمن للقوات، والمُؤن، وفي الوقت المناسب.

منذ الظهور العلني لمعارضة الزَّيْلُوت عام 6 م، سلسلة من الحُكَّام - حُكَّام رومان والكَهَنَة الكبار اليهود على حدّ سواء - حاولوا - بطريقة، أو أُخرى - أن يحافظوا على الاستقرار في اليهودية. الجانبان كلاهما كانا يرغبان بالسلام، وبالثروة التي تنجم عن ذلك السلام، النزاع لا يزرع - أبداً - البذور، أو يُنبت المحاصيل، والأرض البور لا تُنتج - أبداً - الطعام، أو المال للمزارعين، ولا حتى ضرائب للحُكَّام، وروما اعتمدت على اليهوديَّة في الحصول على أربعين طالِن[1] من الفضة كلّ عام للخزانة الرومانية (تقريباً تعادل 3.750 باوند من الفضة). وباستخدام سياسة حذرة في الفلاحة، دام هذا الميزان غير المستقرّ لنصف قرن، ثمّ - فجأة - تلاشى كُلِّيّاً.

---

(1) الطالِن: وحدة وزن قديمة. المُترجم.

اليهوديَّة وعيسى والمَسيحية

قبل 4 ق.م[1]	ولادة السَّيِّد المَسيح، طبقاً لإنجيل مَتَّى (1:2). موت هيرودس العظيم.
4 ق.م	وفاة هيرودس العظيم
6 م	ولادة المَسيح، طبقاً لإنجيل لُوقَا (2: 1-7). وفق إحصاء كيرينوس، حاكم سوريا.
27-28 م	معمودية السَّيِّد المَسيح (تاريخ تقليدي) في السنة الخامسة عشر لعهد الإمبراطور تيبريوس (لُوقَا 3: 1-23).
30 م	صَلْب السَّيِّد المَسيح، طبقاً للثقافة الكاثوليكية.
ت 35 م	بعد زواج هيرودس أنتيباس وهيروديا س تقريباً سنة 34 م، إعدام يحيى المعمدان، بعد الدليل في جوزيفس.
36 م	عيد الفصح - صَلْب السَّيِّد المَسيح، طبقاً لجدول أحداث إنجيل مَتَّى.
36-37 م	التحوُّل الدِّيني لبُولُس في الطريق إلى دمشق.
ت 44 م	إعدام يعقوب، شقيق السَّيِّد المَسيح.
50-52 م	بلوس في كُورِنْثُوس[2]، يكتب رسالته الأولى (إلى الثيسالونيكيين).
61 م	بلوس في روما تحت الإقامة الإجبارية.
ت 65 م	يُفترَض إعدام بلوس.
66-73 م	حرب في اليهودية. الجيش الروماني تحت قيادة فَسْبازيان يغزو اليهودية.
ت 55-120 م	حياة تاسيتوس، مُؤرِّخ وعضو مجلس الشيوخ الروماني، الذي ذكر السَّيِّد المَسيح.
ت 61-114 م	حياة بليني الأصغر، الذي ذكر السَّيِّد المَسيح.
ت 115 م	أغناطيوس لُوْيولا أسقف إنطاكية، اقتبس من رسائل بُولُس.

(1) م: ميلادي، ق.م: قبل الميلاد، ت: تقريباً. المُترجم.

(2) بلد في اليونان. المُترجم.

ت117–138 م	سوتونيوس، مُؤرّخ روماني، ذكر «خريستوس».
ت 125 م	النمـوذج الأول المعـروف للإنجيـل المَـسيحي، يُوْحَنَّـا (18: 31–33)، بردي ريلاندز، وُجد في مصر.
ت 200 م	الجزء الأقدم المعروف من رسائل بلوس، بردي تشيستر بيتـي، وُجـد في مصر.
ت 200 م	الإنجيل الأقدم الكامل عملياً (يُوْحَنَّا)، بردي بودمير، وُجد في مصر.
325 م	مجلس نيكيا «Nicaea»[1] (إزنيـك) الـذي عُقِـدَ مـن قِبَـل الإمبراطـور الروماني قسطنطين. إنّ ألوهيـة الـسَّيِّد المَـسيح جُعِلَـتْ عقيـدةً رسـميةً بتصويت 217 مقابل 3.
393–397 م	مجلس كَنيسَة بنزرت، الذي شكَّل العهد الجديد الراهن، وبُـتَّ في أمـره في مجلس قرطاجة.

(1) بلدة قديمة في تركيا، الآن إزنيك (عند بحيرة إزنيك جنوب شرق اسطنبول)، ازدهرت في عهد الرومان. المُترجم.

القرن الأول

4 ق.م	موت الملك هيرودس.
6 م	انتفاضة الزَّيْلُوت، تحت قيادة يهوذا الجليلي.
26 م	عُيّن بيلاطس البنطي حاكم اليهوديّة (حتى عام 36 م).
36 م	بيلاطس البنطي أُعيد إلى روما، ونُفي.
38 م	اضطرابات وحالات قَتْل ضدّ اليهود في الإسكندرية شُجِّعت من قِبَل الحاكم فلاكوس.
39 م	هيرودس أنتيباس نُفي إلى بيرينه الفرنسية.
ت 44 م	يعقوب، شقيق السَّيِّد المَسيح، أُعدم.
46 – 48 م	تَيْبِريوس ألكساندر حاكم اليهوديَّة.
64 م	احتراق روما على يدي نيرون. توقيف المَسيحيين.
66 م	الجنرال اليهودي في الجيش الروماني تَيْبِريوس ألكساندر حاكم لمصر. يُرسَل مع قوّاته لإخماد الثورة في الإسكندرية. عدّة آلاف من اليهود قُتلوا.
66–73 م	حرب في اليهوديَّة. الجيش الروماني تحت قيادة فَسْبازيان يغزو الجليل.
67 م	جوزيفس، زعيم عسكري يهودي جليلي، يرتدّ إلى الجانب الروماني بعد هزيمة. كُتُب التاريخ اليهودي (كتابا: حرب اليهود 77–78 م؛ العصور القديمة لليهود، حوالي عام 94) بينما كان يعيش في القصر الإمبراطوري في روما.
69 م	فَسْبازيان يُعلَن كإمبراطور. يضع ابنه تيطَس مسؤولاً عن الجيش. تيطَس يعيّن تَيْبِريوس ألكساندر رئيساً لهيئة الأركان في جيشه.
70 م	تدمير المعبد في القُدْس. بعد ذلك، فَسْبازيان يُلاحِق ويَعْدِم كلَّ أعضاء السُّلالة المَلَكية لداود. القُدْس يُبدَّل اسمها ليُصبح إيليا كابيتولينا « Aelia Capitolina»، وكلُّ اليهود يُحرمون من دخول المدينة. يسمح الرومان للفريسي يوهانان بن زاكي (Johanan ben Zakkai) بتأسيس مدرسة

	دينية، وبتأسيس السَّنْهَدْ ريم[1] يتعلّم في يبنه[2]، مساعداً على إحياء اليهودية الربّانية. (المدرسة والسَّنْهَدْ ريم كُتِبَ لهما النجاة حتى عام 132 م).
73 م	مسعدة دُمِّرَت، وانتحر 960 من الزَّيْلُوت، فضلاً عن الأَسْر. المعبد اليهودي في أونياس في مصر يُغلَق.

مجموعة من الكَهَنَة في المعبد في القُدْس معادية للرومان قرَّرت مَنْع غير اليهود من تقديم الهبات. هذا التوقيف للتضحيات اليومية المألوفة التي تُؤدَّى للقيصر ولروما في المعبد كان تحدِّياً مباشراً وغير متوقّعاً للإمبراطور. لم يكن هناك نظر للخلف.

الزَّيْلُوت والكَهَنَة المُعادون للرومان قادوا شعبهم إلى مرحلة الدخول إلى الجحيم. كما يذكر جوزيفس، شَنُّ حرب ضدّ روما كان حتمياً، بسبب هذا التصرُّف.

الزَّيْلُوت – في طموحهم الذي لم يكن في مكانه – اعتقدوا بأنّهم كانوا سيستعيدون السيطرة على أمَّتهم، لكنَّ خسارتهم كانت عظيمة جدّاً؛ لدرجة أن كلّ هذه الآمال قد اختفت لقرابة ألفَيْ سنة.

انفجر القتال أولاً عام 66 م، في القيصريّة، المدينة الساحلية.

المحاولات لتهدئة الوضع كانت عقيمة في وجه الإحباط والكراهية التي أثارت الهجمات. الزَّيْلُوت كانوا ينتظرون هذا اليوم، والآن؛ قد حصلوا عليه.

بالنسبة لهم، قد جاء – أخيراً – الغد الموعود.

الآلاف قُتِلُوا: سيطر الزَّيْلُوت على قلعة مَسْعَدَة على البحر الميت؛ سيطر الآخرون على المدينة الأدنى القُدْس، وعلى المعبد، أحرقوا قصر الملك آغريبّا[3] ، والكاهن الأكبر. أحرقوا مكتب السجلّات الرسمية أيضاً.

---

(1) المجلس الأعلى، عند اليهود القدماء. المُترجم.

(2) يبنه: بلدة تقع في السهول الغربية لليهودية. المُترجم.

(3) آغريبّا، ماركوس فيبسانيوس (63 ـ 12 ق. م.): قائد روماني. كان رجل الإمبراطورية الثاني في عهد الإمبراطور أوغسطس. المُترجم.

ظهر الزعماء من بين صفوف اليهود: في القُدْس، ابن الكاهن الأكبر كان القائد. ويهوذا الجليلي ظهر في مَسْعَدَة، ونهب مستودع السلاح، قبل العودة إلى القُدْس كملك - مُرتدياً العباءات المَلَكية - للسيطرة على القصر. الكاهن الرسمي الأكبر قُتِلَ.

في بادئ الأمر، الرومان - الذين كانوا غير مُستعدّين لهذا السَّيل الهائل من الكراهية نحوهم - خسروا بسهولة.

حاكم سوريا سيستيوس غالوس زحف إلى اليهوديَّة من عاصمته إنطاكية على رأس الفيلق الثاني عشر.

بعد تحطيم العديد من القرى والبلدات، حاصر جيشه القُدْس. لكنّه صُدَّ بخسائر جسيمة جدّاً، بما فيها قائد الفيلق السادس والتّريبْيون[1].

سيستيوس بنفسه يبدو أنه نجا - فقط - نتيجة سرعة تراجعه.

في تلك الكارثة، استولى الزَّيْلُوت على الكثير من الأسلحة والمال. على الرغم من أن هذا يدلُّ على القوّة، إلا أن الكثير من ذوي البصيرة اليهود هربوا من اليهودية، لعِلْمهم بأن الوضع سوف لن يزداد إلا سوءاً.

وهم كانوا على حقّ: الرومان انسحبوا، ولكنْ - فقط - لاستجماع قواهم. كانوا سيعودون بوحشية للثأر.

في تلك الأثناء، في غياب السادة الرومان الكبار، تجمّع الزَّيْلُوت ثانية أيضاً. انتخبوا القادة لمناطق مختلفة، وزادوا عدد القوّات، وبدؤوا بتدريبها وفقاً للتقنيات والتشكيلات العسكرية الرومانية.

القتال الأول كان سيصبح في الجليل؛ حيث كان جوزيفس قائد قوات الزَّيْلُوت آنذاك، رغم أنه أصبح - فيما بعد - المُؤرّخ والصديق للرومان.

الإمبراطور الروماني «Nero» نيرون[1] أُغضب بانفجار الثورة في اليهوديَّة، وأمر محارباً قديراً في الجيش يدعى فَسْبازيان بترؤُّس هجوم استعادة السيطرة على البلاد. أرسل فَسْبازيانُ

---

(1) التّريبْيون: المدافع عن حقوق العامّة، ومصالحها (عند الرومان). المُترجم.

ابنَهُ تيطَس إلى الإسكندرية للحصول على الفيلق الخامس عشر. فَسْبازيان نفسه زحف من سوريا كقائد للفيلقَيْن الخامس والعاشر، برفقة ثلاثة وعشرين من مجموعات القوات المساعدة، حوالي ثمانية عشر ألفاً من سلاح الفرسان والمشاة.

فَسْبازيان وتيطَس اجتمعا في الميناء السوري «Ptolemais» (الآن عكّا)، وبعد أن وحَّدوا قواهم، تحرَّكوا إلى داخل البلاد عبر الحدود إلى الجليل. جوزيفس كان قد أُسِرَ في قلعته في «Jotapata» (الآن يوديفات)، والتي تقع في منتصف الطريق بين حيفا وبحر الجليل. بعد حصار دام أربعين يوماً سقطت الجليل.

جوزيفس هرب، لكنه أُسِرَ ثانية بعد فترة وجيزة، واستسلم إلى ضابط روماني كبير يُدعى التّريبْيون نيكانور. جوزيفس يصفه بأنه صديق قديم، وبأنّ جوزيفس بذاته كان «كاهناً وسليل كَهَنَة».

بكلمة أُخرى، جوزيفس لم يكن من المتهوِّرين الخليليين، لكنْ؛ بالأحرى، كان عضواً أرستقراطياً من القُدْس، ويتمتَّع بصلات قوية بالإدارة الرومانية.

---

(1) نيرون (37 – 68 م.): إمبراطور روماني (54 – 68 م.). تميَّز عهده بالطغيان، والوحشية. أحرق روما (عام 64م). المُترجم.



اليهودية والجليل

فوراً بعد أَسْره، جوزيفس سُجِنَ من قِبَل القائد فَسْبازيان. لكنَّ جوزيفس - وبتصرُّف يكشف - بوضوح - أنه على علاقة رفيعة المستوى مع الرومان - طلب اجتماعاً خاصّاً. فَسْبازيان التزم بذلك المطلب، طالباً المغادرة من الجميع عدا تيطَس وصديقَيْن آخرَيْن. من المحتمل أن أحد أولئك الاثنَيْن كان قائد الأركان العسكري لجيش تيطَس العسكري المدعو تَيْبِريوس[1] «Tiberius» ألكساندر الذي كان يهودياً، وابن أخ للفيلسوف الشهير فيلو الأسكندراني. تَيْبِريوس ألكساندر كان لديه أسبابه الخاصة للاجتماع، والتي سنراها فيما بعد. ما حدث بعد ذلك كان - بشكل واضح - مسرحية مُدبَّرة بشكل جيد، وكُلٌّ من جوزيفس وتَيْبِريوس ألكساندر لعبا دوراً بارزاً فيها.

جوزيفس واجه فَسْبازيان، وهو مدرك جدّاً بأنّ هذه كانت لحظة محورية في حياته، وبأنّ الدقائق القليلة القادمة تُقرِّر مستقبله قائلاً: «يُفترَض - سيدي - بأنّكَ في أَسْري تمتلك مجرَّد سجين، لكنّي آت كرسول لأبلغكَ بالعَظَمَة التي تنتظركَ»، ولكي يُعطي أهمية إضافية لكلماته قال: «أرسلني اللهُ نفسُهُ»، ثم تابع:

«أنت، فَسْبازيان قيصر وإمبراطور... ، أيّها القيصر؛ أنتَ لستَ سيّدي فحسب، أنتَ سيِّد الأرض، والبحر، والجنس البشري كلّه؛ وأنا أطلب بأنْ أكون في السجن بشكل أسرع كعقوبة لي، إنْ أنا استخدمتُ كلمات الله عبثاً».

بالطبع؛ بما أن نيرون مايزال يحكم في روما، ما كان يقترحه جوزيفس كان خيانة عظمى. لكنَّ فَسْبازيان - طبقاً لجوزيفس، وعلينا أن نتذكّر بأنه كان يكتب ذلك في قصر فَسْبازيان في روما، بعد فترة طويلة من هذه الأحداث - كان - مُسبقاً - يُفكّر بهذه السُّلالة الخطرة. فَسْبازيان - على ما يُقال - كان يشكُّ في ادِّعاءات جوزيفس في البداية، وهو - أيضاً - يجب أن يكون قد أُغضِبَ من الخيانة التي نُطِقَتْ ضدّ إمبراطوره، وكان يجب أن يطالب بإعدام جوزيفس على الفور. رغم ذلك، هو لم يفعل أيَّ شيء. في كتابه، جوزيفس يُزوِّدنا بالسبب: «الله كان يُصحِّي فيه طموحات إمبراطورية، ويُنذر بالصولجان عبر نُذُر أُخرى».

---

(1) تَيْبِريوس (42 ق. م. ـ 37 م.): إمبراطور روماني (14 ـ 37 م.). سلك في الحُكْم سبيل التعقُّل، فترةً، ثم أطلق العنان لنزواته، وشهواته. المُترجم.

الحديث عن «الصولجان»، والذي يعني السلطة المَلَكية (المُلك)، يكشف عن صلة بالنُّبُوءة الحاسمة المتعلّقة «النَّجْم» - والتي كانت الإشارة التي تدلّ على الزعيم المَسيح المُتوقَّع - والذي كان - كما ذُكِرَ سابقاً - مُحفِّزاً على اندلاع الحرب. الإشارات إلى «النَّجْم» و«الصولجان» وُجِدَتْ في النُّبُوءة التي ذكرها العرَّاف بَلعامَ «Balaam»، كما وردت في العهد القديم. بلعام في وحيه الإلهي يقول:

«أراه، وهو غير حاضر، وأُبصره، وهو غير قريب. يطلع كوكب من بني يعقوب، ويقوم صولجان من بني إسرائيل، فيُحطّم وجه موآب، ويسحق جميع بني شيت». العدد (17:24)

هذا «الكوكب من بني يعقوب» يُرسِّخ - بشكل واضح - بأنّ الزعيم المَسيحي كان يُتوقَّع أن يكون أحد أبناء سُلالة داود. يذكر جوزيفس - بشكل واضح - بأنّ هذه النُّبُوءة كانت السبب في توقيت العنف:

حافزهم الرئيس لدخول الحرب كان الوحي الإلهيَّ المُريب. وُجِدَ - أيضاً - في كتاباتهم المُقَدَّسَة، مُصرِّحاً بأنّه - في ذلك الوقت - رجل من بلادهم سيُصبح ملك العالم بأكمله.

هذه هي النُّبُوءة التي أخبرها جوزيفس إلى فَسْبازيان. وبلا شكٍّ أضاف - ولكنه لم يكشف ذلك في تقرير الاجتماع مع القائد الروماني - بأنّ الزَّيْلُوت في القُدْس عدُّوا ذلك «بأنه يعني النصر لجنسهم الخاصّ». هم كانوا متأكّدين من أنّهم سيربحون في حربهم ضدَّ الرومان، بسبب هذا الوحي الإلهي الدِّيني. ويضيف جوزيفس - لاحقاً - في كتابه: «ولكنهم - في الحقيقة - كانوا بعيدين كلّ البُعْد في تفسيرهم»، ويذكر - بشكل صريح وواضح -: «أشار الوحي الإلهي إلى اعتلاء فَسْبازيان؛ لذلك تمَّ تعيينه إمبراطوراً في اليهودية».

المُؤرّخون الرومان - أيضاً - كانوا مُدركين لهذا التنبُّؤ: سوتونيوس يكتب: «خرافة قديمة كانت حاضرة في الشرق؛ وهي أنّه في اليهوديَّة في هذا الوقت سيأتي حُكَّام العالم. هذا التنبُّؤ - كما أثبتت الأحداث لاحقاً - يشير إلى إمبراطور روماني، ولكنَّ اليهود المتمرِّدين... فسَّروها بالإشارة إلى أنفسهم».

تاسيتوس[1] – أيضاً – نوَّه إلى ذلك، فقد أوضح أن:الأغلبيـة أُقنِعَـتْ بـأن الكُتُـب المُقَدَّسَـة القديمة لكَهَنَتهم لَمَّحت إلى أنه – في الوقت الراهن – سوف ينتـصر الـشرق، وفي الوقـت ذاتـه، سيخرج رجال من اليهوديَّة يُقدَّر لهم أن يحكموا العالم. هذه النُّبُوءة الغامضة أشارت – لاحقاً – إلى فَسْبازيان، وتيطَس، لكنَّ عامة الشعب... ظنّوا أن هذا القَدَرَ العظيم حِكْرٌ لهـم، حتـى إن الكوارث التي حلَّت بهم لم تفتح بصيرتهم إلى الحقيقة بعد.

بعدها؛ قُتل نيرون. وبعده، إمبراطوران جاءا، واستلما الخلافة بشكل سريع. أخيراً؛ عـام 69 م، فَسْبازيان أُعلِنَ إمبراطوراً من قِبَل جيشه. ألغى حصار القُدْس؛ لكي يُركِّـز عـلى مركـز سلطته، وليُقوّي طموحاته الإمبراطورية. أراد – قبل كلّ شيء – السيطرة على مـصر. لحُسن الحظّ؛ مؤيّده وصديقه الجنرال اليهودي تَيْبِريوس ألكساندر كان حاكم مصر، ومسؤولاً عـن الفيلقَـيْن المتمركـزَيْن هنـاك. كتـب فَـسْبازيان إلى ألكـساندر يوضّـح رغبتـه في العـرش الإمبراطوري؛ قرأ تَيْبِريوس ألكساندر الرسالة جهورياً للكلّ، ثمّ طلب من القوّات والمدنيين بأن يؤدّوا قَسَمَ الولاء إلى فَسْبازيان. النُّبُوءات كانت قد تنبَّأت بعهد فَـسْبازيان، وهـو «تـذكَّر – بشكل خاصّ – كلمات جوزيفس، الذي تجاسر عـلى مخاطبتـه بـصفة إمبراطـوراً، رغـم أن نيرون مازال حيّاً». جوزيفس حُرِّر على الفور من الأَسْر. فَسْبازيان عيَّن ابنه تـيطَس مـسؤولاً عن الجيش، وتيطَس عيَّن تَيْبِريوس ألكساندر رئيس هيئة أركان جيشه.

كيهودي، تَيْبِريوس ألكساندر – رُبَّما – كان مدركاً جيّداً لنُبُـوءة «الـنَّجْم»، لـذلك؛ فمـن المعقول أنّه استطاع أنْ يُدبِّر الأمر، وينسب النُّبُوءةَ إلى فَسْبازيان. يذكر المُـؤرّخ الرومـاني ديـو كاسيوس بأنّه بينما كان فَسْبازيان في الإسكندرية قيل إنه شفى رجـلاً فاقـداً للبـصر، ورجـلاً آخر يده مشلولة؛ كلاهما قيلا في الحلم للتقرّب من فَسْبازيان. منذ عهـد بعيـد، اقـترح العـالم العظيم روبرت فيشر أن تَيْبِريوس ألكساندر – فقط لمعرفته بالنُّبُوءة اليهودية، ورغبتـه برؤيـة نصر فَسْبازيان – كان قد فكَّر بالتلاعب بالظروف؛ لكي تتحقَّق نُبُوءة إِشَعْيَاء[2]، النُّبُوءة التـي تذكر اليوم الذي فيه سيشفي اللهُ الأرضَ، اليومَ الذي فيه «عيون العُمي تنفتح، وكذلك آذان الصُّمّ.

---

(1) تاسيتوس، كورنيليوس (56؟ ـ 120 م.): خطيب ومُؤرّخ روماني. المُترجم.

(2) إِشَعْيَاء: نبي يهودي من أهل القرن الثامن قبل الميلاد. المُترجم.

ويقفز الأعرج كالغزال، ويترنَّم لسان الأبكم» إِشَعْيَاء (35: 5– 6). أورد الكاتب إيسلر أنه – فقط تَيْبِريوس ألكساندر – كان بإمكانه أن يُرسل الرجل الأعمى والكسيح إلى فَسْبازيان؛ لكي يتمكَّن الأخير من أنْ يقوم بـ «معجزته المَسيحية».

تَيْبِريوس ألكساندر مدرك – أيضاً – للجزء الآخر من نُبُوءات إِشَعْيَاء؛ دمار المعبد في القُدْس. كتب إِشَعْيَاء أن الله قال: «فاعلموا ما أفعل بكَرْمي: أُزيل سياجه، فيصير مرعىً، وأهدم جدرانه، فتدوسه الأقدام»، وبعد بيتَيْن لاحقَيْن: «كَرْم الرّبّ القدير بيت داود»[1] إِشَعْيَاء (5: 5،7). بالنسبة لتَيْبِريوس ألكساندر، فَسْبازيان كان المَسيح المُنتظَر. جوزيفس وافقه الرأيَ، كَتَبَ: «في الحقيقة؛ الوحي أشار إلى ارتقاء فَسْبازيان». بالنسبة لهذَيْن اليهوديَّيْن المرومنَيْن، فَسْبازيان كان المَسيح المُنتظَر الذي كان قد أُنبِئ به منذ عهد بعيد في كُتُبهم المُقَدَّسَة. لكلَيْهما، سُلالة داود كانت مُبادَة كما سيُباد المعبد قريباً.

على الرغم من هذا، فَسْبازيان لابُدَّ وأنه أحسّ بأنه حتى وإن كانت النُّبُوءة صحيحة إلا أنه كان مرتعشاً من تحديد الهوية؛ إذْ إنه – بكلّ تأكيد – لم يكن من سُلالة «يعقوب». لم يكن يجري في عروقه دم من سُلالة داود. لذا؛ بعد أن ربح الحرب، ودمَّر القُدْس، بحث عن كلّ الأعضاء الباقين على قيد الحياة من سلالة داود، وقام بإعدامهم. احترم فَسْبازيان قوّة الوحي الإلهي، ولم يكن ليسمح للفرص بأن تلعب دورها، فقد أراد «التأكّد من عدم وجود أيّ من السلالة المَلَكية بين صفوف اليهود». ولكنْ؛ كما سيكشف التاريخ لاحقاً، عدد من أعضاء ذلك البيت المَلَكي القديم هربوا من قبضته.

بهذا الحديث كلّه عن النجوم، إنه لأمر محتوم علينا أن نواجه نجم بيت لحم آنذاك. إنّ النَّجْم هو رمز المَسيح لسُلالة داود. نجم بيت لحم يمكن – أيضاً – أن يُدعَى «مَسيح بيت لحم». هذا يقترح بأنّه لا يجب علينا أن نبحث عن النَّجْم الفَلَكي المُتفجِّر الأعظم، أو أية ارتباطات نجمية لتوضيح وصول المجوس إلى بيت لحم، معقل سلالة داود. لقد كانت مسألة سلالة بدلاً من علم فَلَك. والمجوس عرفوا أين يذهبون للعثور على مَلِكِهِم.

---

(1) النصّ الإنكليزي لهذه العبارة هو: «Yes, the vineyard.., is the house of David» والترجمة هي: «نعم، الكرم...بيت داود»، بينما النصّ الموجود في التوراة العربية هو: «كَرْم الرّبّ القدير بيت إسرائيل»! المُترجم.

لكنْ؛ دائماً كان هناك لغز حول قصّة يُوسُف ومَريَم، وقد أخذا الرضيع عيسى من بيت لحم إلى مصر؛ للهروب من هيرودس؛ كما ورد في إنجيل مَتَّى. يوضّح لُوقَا بأنّ السَّيِّد المَسيح وُلِدَ في بيت لحم، وقد أُخِذَ هناك كعضو في سلالة داود لإجراء الإحصاء السُّكَّاني. الإحصاء السُّكَّاني الوحيد المعروف كان إحصاء كيرينوس عام 6 م، بعد أن سيطر الروم على اليهوديَّة. ولكنْ؛ هذا يُعتقد - دائماً - بأنه متأخّر جدَّاً لولادة السَّيِّد المَسيح؛ لأن الأناجيل أوردت أنه كان بعُمر الثلاثين - تقريباً - عندما صُلِبَ.

على أية حال، هذه الروايات لا تعمل بشكل حسن، ولا تُطابق الأحداث الزمنية الواردة في الأناجيل. هيو سكونفيلد اقترح بديلاً مثيراً جدَّاً:

إنّ التاريخ العادي للصَّلْب - بتصريح من الفاتيكان عبر جدول زمنية في نهاية توراة القُدْس - هو عشية عيد الفصح بتاريخ 8 أبريل/ نيسان عام 30 م، والسبب هو التالي:

يحتوي إنجيل يُوْحَنَّا على تاريخ أكثر دقّة، يذكر أن عيد الفصح الأول بعد معمودية السَّيِّد المَسيح بأنه عام 28م، يُوْحَنَّا (2: 13،20). يذكر يُوْحَنَّا عيدَيْ فصح آخرَيْن، الثالث هو الذي شهد الصَّلْب، وبالتالي؛ يجب أن يكون ذلك قد حَدَثَ قبل عيد الفصح الموافق لعام 30 م. هل هذا يمكن أن يكون صحيحاً؟

لدينا - فقط - اثنان من مصادر البيانات ما بعد العهد الجديد. أولاً، تاسيتوس يصرّح «بأنّ السَّيِّد المَسيح كان قد أُعدِم في عهد تَيْبِريوس من قِبَل الحاكم... بيلاطس البنطي». نعرف بأنّ بيلاطس كان حاكم اليهوديَّة من 26- 36 م، وبالتالي؛ ذلك يعطينا المدى الذي يجب علينا أن نبقى ضمنه. الثاني، بالرغم من أن جوزيفس يذكر الحادثة نفسها ، ليس هناك إجماع عامّ على أن عباراته التي تذكر السَّيِّد المَسيح أصليَّة، بدلاً من الإدخالات اللاحقة من قِبَل المُحرِّرين المَسيحيين.

إنجيل لُوقَا (3: 1،32) يصرّح بأنّ السَّيِّد المَسيح كان بعُمر الثلاثين - تقريباً - في وقت معموديَّته من قِبَل يُوْحَنَّا، وهذا كان بعد السنة الخامسة عشرة لعهد تَيْبِريوس (كما حُسِبَتْ في سوريا) - 27 م. لكنّه عُمِّد في فترة ليست ببعيدة عن إعدام يحيى المعمدان، وبعد موت يُوْحَنَّا، إنجيل مَتَّى (13:14) يصف السَّيِّد المَسيح بأنه يبحث عن مأوى في الصحراء، ربما كان

خائفاً على حياته. ما تاريخ الإعدام إذاً؟ هو لم يكن 27 بعد الميلاد؛ لأن إنجيليْ مَتَّى ومَرْقُس يذكران بأنّ يحيى المعمدان اعتُقِل من قِبَل هيرودس أنتيباس لانتقاد زواجه من هيروديـاس، زوجة أخيه التي طلَّقته، زواج مُنِعَ بالقانون اليهودي، وأيضاً؛ بأحد نصوص لفائف البحر الميت، لفيفة المعبد. بعد هذا النَّقْد العامّ، يُوْحَنَّا أُعْدِم. بقدر ما يمكن تحقيقه، زواج هيرودس أنتيباس وهيروديياس حَدَثَ سنة 35 م. لذلك، يُوْحَنَّا المعمدان أُعْدِم سنة 35 م. لـذلك، لابُدَّ أن السَّيِّد المَسيح كان مايزال حيّاً في ذلك التاريخ.

آخر عيد فصح حضره بيلاطس كان سنة 36 م. بكلمة أُخرى، منذ أن ذُكِر في الأناجيل أن السَّيِّد المَسيح قد صُلِب بعد موت يحيى المعمدان، وبقرار من بيلاطس، لابُدَّ وأنه كان عيد فصح عام 36م، هو الذي صُلِبَ فيه السَّيِّد المَسيح. وهذا التاريخ هو أبعد ممَّا وضعه أكثر الخبراء، ولكنْ؛ إنْ كان السَّيِّد المَسيح قد وُلِدَ في وقت الإحصاء السُّكَّاني سنة 6م، كما هو منصوص في إنجيل لُوقَا (2:2)، وإنْ كان عُمره حوالي الثلاثين، فإن تاريخ 36م، هو – تماماً – التاريخ الصحيح للصَّلْب – صَلْب «نجم بيت لحم».

في الحقيقة، المَسيحيون الأوائل كانوا مدركين جيِّداً للصلة بين مَسيحية «نجم بيت لحم» – نُبُوءة «النَّجْم» كما نُقِلَتْ عن بَلعامَ في العدد – وبين السَّيِّد المَسيح. الكاتب المَسيحي جوستن مارتر، الذي علَّم وكتب في روما، ومات – تقريباً – عام 165 م، اختلف مع المعلِّم اليهودي تريفو بأنّ عيسى كان المَسيح المُنتظَر. وضّح جوستن بأنّ ظهور نجم بيت لحم كان النَّجْم الصاعد الذي توقَّعه بَلعامَ؛ مرة ثانية؛ يمكننا أن نرى بأنّ النَّجْم كان المَسيح بدلاً من كونه فَلَكياً.

بعد أنْ واجهوا حتمية الدمار الكُلِّيِّ، هرب الكثير من اليهوديَّة. يذكر مُؤرّخ الكَنيسَة يوسيبيوس بأنّ المجتمع «المَسيحي» القديم – أيْ مجتمع المَسيح – بعد إعدام يعقوب حوالي 44 م، وقبل اندلاع الحرب، ترك القُدْسَ إلى بيلا، عبر الأردن في سوريا، التي كانت تحت الحُكْم الروماني. ولكن هذا – رُبَّما – كان المرحلة الأولى من الرحلة الأطول شمالاً إلى إيديسا[1]، عاصمة المملكة، التي وُصِفَتْ من قِبَل يوسيبيوس بأنها كانت أول مدينة على الإطلاق تتحوَّل

(1) تُسمَّى – الآن – أورفه، أقصى الجنوب التركي. المُترجم.

إلى المَسيحية. من المؤكّد أنه صحيح أنه بحلول القرن الثاني الميلادي إيديسا كانت مركزاً مَسيحياً قوياً. هو لا يمكن أن يكون مصادفة أن ملك إيديسا في أوائل القرن الثاني كان ابن ملك أبيـدين «Abiadene»، (وهي دولة تقع إلى الشرق قليلاً)، وهو فرد من الأسرة المَلَكيـة ذات ارتباطـات وثيقة بالقضية اليهودية المَسيحية. في الواقـع؛ تهيلـين ملكـة أبيـادين وابنهـا تحـوَّلا إلى الدّيانـة اليهودية. الأكثر من ذلك، نعرف - بالتأكيد - أنّ ابنها تحوَّل إلى يهودية المَسيح - بكلمة أُخرى، إلى قضية الزَّيْلُوت. هذا التحالف تمَّ من قِبَل آخرين أيضاً. على الأقلّ؛ اثنـان مـن أقربـاء ملـك أبيادين كانا من الزَّيْلُوت البارزين في المعارك الافتتاحية للثورة ضدّ الرومان عام 66 بعد الميلاد.

مع ذلك، كان هناك اليهود الذين بقوا في اليهوديَّة، والذين عارضوا الزَّيْلُوت. في القُدْس، بدأ فئات الزَّيْلُوت بمحاربة الفئات اليهودية الأخرى. انشقّ الكثير إلى الجانب الروماني؛ على الأقـلّ، طبقاً لجوزيفس، رغم أنه علينا أن نتذكّر بأنّه كان لديه سبب قوي للتشدّد في هذه الحقيقـة؛ إذْ إنـه اعتقد - بشدة - أن الزَّيْلُوت كانوا المسؤولين عن الحرب، وعن دمار المعبد. على الرغم من تحيُّزه، ربّما كان على حقّ، وفقاً لما نعرفه - الآن - عن التصميم العديم الرحمة للزَّيلوت. على الـرغم مـن هذا، غَضَبُ القتال كان شديداً؛ لدرجة أنه علينا أن نـستنتج بـأنّ الـدعم للزَّيلـوت كـان واسـع الانتشار، والذي سعى جوزيفس - بجهد - للتقليل مـن حجمـه. وأحـد الأسـباب هـو القيـام بعمليات الانتحار.

هناك ذِكْر متواصل في أنحاء روايات جوزيفس كافّة عن الزَّيْلُوت والجنود والمدنيين على حـدّ سواء، وكذلك عبارة انتحار بدلاً من السقوط في أيـدي الرومـان. الأكثـر حماقـة مـن ذلـك هـو الانتحار الجماعي في مَـسْعَدَة؛ حيـث قـام 960 شخـصاً بقَتْـل أنفـسهم. العقيـدة كانـت واسـعة الانتشار؛ المقاومة المسلَّحة للحُكْم الروماني كانت أمراً بديهياً، حتى إن جوزيفس بنفسه اشترك في معاهدة انتحار، والتي أدارها بطريقة، استطاع فيها الحفاظ على حياته، بالخيانة. لكنْ؛ كـان هنـاك - أيضاً - روايات كتلك في «جمالا» (Gamala)؛ حيث قتـل خمـسة آلاف شـخص أنفـسَهم. أنْ تقتل نفسكَ شيء؛ وعلى أية حال، أنْ تقتلَ زوجتكَ، وأطفالكَ، وبعد ذلك تقتل نفسكَ، هو شيء أعظم بكثير. ما الذي كان يجري هناك؟

اعتقد الزَّيْلُوت بأنّهم إذا ماتوا في حالة من النقاوة الطقوسية، هم سيُبعثون سوية بموجب نُبُوءة حَزْقِيَال: «لذلك تنبَّأْ، وقلْ لهم: هكذا قال السَّيِّد الرّبّ: سأفتح قبوركم، وأُصعدكم منها، يا شعبي، وأجيء بكم إلى أرض إسرائيل. فتعلمون أني أنا هو الرّبّ؛ حيث أفتح قبوركم، وأُصعدكم منها، يا شعبي» حَزْقِيَال (37: 12-14). والأكثر من ذلك، اعتقدوا بأنّ أولئك الذين ماتوا سوية سيُبعثون سوية. لذا؛ محاربو الزَّيْلُوت لم يختاروا - فقط - الموت لأنفسهم، بل سوية مع أُسرهم، فهم إنْ أُسِروا كانوا سيُشتَّتون، وستُرسل نساؤهم وأطفالهم إلى المباغي؛ حيث كانوا سيفقدون نقاوتهم الطقوسية. وبالتالي؛ يُمْنَعُون من أيِّ أمل في الإحياء الجديد.

القُدْس حُوصِرَتْ بجحافل تيطَس. حتى القليل من أخلاق الفروسية والاحترام المتبادل لم يكن واضحاً لدى الطرَفَيْن كلَيْهما. المقاتلون كلّهم الذين أُسروا صُلِبوا، وعندما أصبح ذلك أمراً معتاداً، الجنود كانوا يُسَلُّون أنفسهم بالهتاف والترحيب فوق ضحاياهم في مواقف غريبة مختلفة. لقد صُلِبَ عدد كبير جدّاً، لدرجة أن الرومان استنفذوا أماكن لوضع صُلبانهم، وكذلك الخشب اللازم لصناعتها.

في 29 أغسطس/ آب عام 70 للميلاد، وبتوافق مع نُبُوءة إِشَعْيَاء، حُطِّمَ المعبد بطريقة وحشية، وبدون ضبط للنَّفْس. في الأيام التالية؛ تمَّ احتلال بقيّة المدينة. ما إن استولى الرومان على القُدْس، حتى قاموا بحَرْق البيوت المتبقّية، وهدموا الجدران الدفاعية. المدينة حُطِّمَتْ بالكامل. المقاتلون المأسورون كلّهم طُلب إعدامهم، والمدنيون فوق عُمر السابعة عشرة أُرسلوا للأعمال الشاقَّة في مصر، وأولئك الأصغر سنّاً تمَّ بَيْعهم. أعداد عظيمة من المقاتلين تمَّ احتجازهم للموت في القاعات الرومانية. الكثير منهم أُرسلوا إلى المحافظات الرومانية للموت كمصارعين، أو لكي يتمَّ تمزيقهم إرباً من قِبَل الوحوش المفترسة، وذلك لإثارة بهجة الحشود المُتسكّعة؛ الآخرون أُخِذُوا من قِبَل تيطَس في موكبه المترف إلى الساحل. في كلّ بلدة كان تجري عروض مسرحية ميدانية؛ حيث كان يتعارك سجناؤه اليهود مع الحيوانات، أو يُجبرون على الموت في معارك عنيفة لترفيه المشاهدين.

أثناء حصار القُدْس، فَسْبازيان كان يسافر ليُظهر نفسه كإمبراطور. عاد بعد سقوط المدينة. وبعد فترة قليلة من عودته، احتفل بعيد ميلاد أخيه بموت أكثر من 2500 سجين يهودي في الميدان. لاحقاً، في بيروت، هو احتفل بعيد ميلاد أبيه بعدد أكبر من الوفيّات. طوال الوقت كان يخطّط لدخوله المنتصر إلى روما، وهو يحمل الكنوز والسجناء، بما في ذلك البعض من زعماء الثورة، الذين كان سيُعدمهم. الأوقات كانت عصيبة.

بالنسبة للشعب اليهودي، كانت تلك كارثة عظيمة، لدرجة أنهم – حتى وهم واقفون مرّة وسط الخراب والدخان الصاعد من معبدهم – لم يستطيعوا حتى البدء بإدراكها. بإحساس ديني، كان ذلك منفى ثانٍ؛ المعبد، بيت الله، والذي هو الحصن المركزي لدينهم قد اختفى. القُدْس بذاتها فُقِدَتْ أيضاً؛ اليهود لم يُسمَح لهم حتى بدخول المدينة، التي كانت قد بُدِّل اسمها إلى إيليا كابيتولينا «Aelia Capitolina». بدا كما لو أنّ اللهَ تركهم. في أنحاء العالم كافَّة شعور المعادين لليهود تصعَّد، والثورات والاضطرابات قضت على تأثير وقوّة واحترام التجار والفلاسفة والمناصب السياسية التي احتلّوها اليهود مرّة، حتى المجتمعات المستقرة عانت من انحطاط نهائي؛ إذْ إن عشرات الآلاف من سُكَّانها قُتلوا، وكذلك أولئك الذين استطاعوا النجاة بحياتهم، لم تقمْ لهم قائمة أبداً. البعض من السيكاريين (رجال الخناجر) كانوا قادرون على الهروب إلى الإسكندرية؛ حيث حاولوا – بحماقة – أن يُشجِّعوا المعاداة للرومان. لقد كان تصميمهم قوياً جدَّاً؛ لدرجة أنهم قاموا بقَتْل بعض الأعضاء البارزين في المجتمع اليهودي ممَّنْ عارضوهم الرأي. في رَدٍّ انتقامي، جمعت الجالية اليهودية السيكاريين، وسلَّمَتْهم إلى الرومان، الذين عذَّبوهم حتى الموت.

على أية حال، في بلدة يبنه على السهول الساحلية لليهوديَّة. هناك، تحت قيادة الفريسي يوهانان بن زاكي، الذي هرب من القُدْس، وطلب حُكْم البلدة من فَسْبازيان، أُصلح السَّنهد ريم، وتمّ تأسيس مدرسة؛ هناك حيث وُلِدَت اليهودية الرَّبَّانية. هذا الصنيع الهامّ من الإمبراطور يكشف بأنّ يوهانان – مثل جوزيفس – كان قد هُيِّئ للحصول على شروط من المحتلّين – شيئاً ما كان الزَّيْلُوت قد رفضوا أن يقوموا به. علاوةً على ذلك، يوهانان ذكر بأنه أعلن – أيضاً – بأنّ نُبُوءة «نجم» المَسيح تشير إلى فَسْبازيان.

العلماء في بلدة يبنه أعادوا إحياء «الحلقة» (halakhah) – وهي الجانب القانوني لليهودية التي تشمل القانون، الذي سُلِّم إلى موسى على جبل سيناء، وتفسير القانون الذي قد سُلِّم للأجيال من بعده – وهي الدراسة التي كانت حاسمة في الدّيانة اليهودية بدون المعبد. بين عامَيْ 70–132 م، وبعد دمار القُدْس، بلدة يبنه كانت كعاصمة الإدارة اليهودية، بالإضافة إلى مركز الدّيانة اليهودية، وثقافتها. هناك وُضِعَتْ شريعة النصوص في التوراة، الذي هو العهد القديم بالنسبة للمَسيحيين. مركزية الإيمان هذه ساعدت على تأسيس بعض الإحساس بالوحدة الوطنية بعد الدمار الفظيع الناجم عن الحرب.

على أية حال، المقاومة استمرَّت بطُرُق صغيرة، ولكنها مُهمَّة. السُّجناء اليهود سُخِّروا للعمل كعبيد، للعمل على بناء المشاريع وصناعة الأسلحة وصكّ النقود للإدارة. العُملات المعدنية التي صُكَّتْ – في ذلك الوقت – كلّها تؤكِّد على إذلال اليهوديَّة. البعض من تلك العُملات نُقِشَ على أحد وجوهها «Judaea capta»؛ أيْ «اليهودية المُحْتَلَّة»، وعلى الجانب الآخر؛ نُقِشَ جندي وشجرة نخيل ومنظر مُحزن يُجسِّد اليهوديّة. عُملات معدنية أُخرى كانت تُظهِر فَسْبازيان بألقابه الإمبراطورية، بما فيها «PM»، والتي تعني بونتيفيكس ماكسيموس[1]. ومع ذلك؛ نقود أُخرى كانت تحمل كلمات مثل « Viktoria Aug[ustus] »؛ أيْ (النصر للإمبراطور المُقَدَّس). لقد كانت تلك العُملات رسالةَ تذكير راسخة للسُّكَّان اليهود عن إخضاعهم الكُلِّيِّ. لكنَّ أحد العبيد اليهود الجريئين كان يعمل في دائرة سكِّ النقود الرومانية كانت لديه أفكار أُخرى.

في إحدى المرَّات، وبينما كنتُ أزور تاجراً للتُّحف الأثرية القديمة الشرق أوسطية، قال – مع ابتسامة خفيفة –: «انظرْ إلى هذه»، وسلَّمني عُملة معدنية من إحدى خزاناته. لقد كانت عُملة صادرة عن دار السَّكِّ الرومانية في عهد فَسْبازيان، لكنَّ هذه العُملة كان فيها اختلاف واحد؛ على الجانب الذي فيه النخلة يوجد نقش يقول «Sacred Judaea»؛ أيْ «اليهوديَّة المُقَدَّسَة». عبدٌ يهودي شجاع، أو مُتهوِّر، قام بتغيير السَّكِّ. قُمتُ بقَلْب العُملة؛

(1) Pontifex Maximus: وهو اسم الكاهن الروماني القديم الأعظم، الكاهن الرئيس الذي ترأَّس المجلس الأعلى للكَهَنَة في روما القديمة. المُترجم.

ولكنها - كالمعتاد - كانت تحمل نقش رأس فَسْبازيان. ولكنْ؛ كان هناك اختلاف على هذا الجانب أيضاً، طعجة بارزة كانت قد حطَّمَت صدغ فَسْبازيان أشبه بلكمة مستديرة. الفكرة قد وُضِعَتْ بشكل حِرَفي.

هذه - فقط - العُملة المعدنية الوحيدة التي وُجِدَت من هذا النوع على الإطلاق. ماتزال محفوظة مع مجموعة خاصّة.

في صيف عام 115 بعد الميلاد، اليهود خارج اليهوديَّة - خُصُوصاً أولئك الذين في مدينة قورينة في ليبيا، والإسكندرية في مصر - قاموا بثورة. هذا التَّمرُّد انتشر - بعد ذلك - فوق النِّيل إلى العديد من البلدات الأُخرى في مصر. فَسْبازيان - لربّما - حاول القضاء على كلّ أعضاء سُلالة داود، ولكنّه فشل.

السليل الآخر ظهر في مصر. اسمه كان لُوقَا، وكان يُوصَف بأنه ملك اليهود. لقد كان الرجل الذي قاد الثورة.

هذه الانتفاضة كانت ذات توجُّه مَسيحي يهودي مُؤكَّد. تشير - ضمناً - إلى أنّه من المحتمل جدَّاً أنَّ لُوقَا كان ينتسب (أو كان يدَّعي) إلى سُلالة داود. ولكنْ؛ رغم ذلك، لا نعرف إلا القليل جدَّاً حول الأحداث؛ لأنه لم يكن هناك مُكافئ للمُؤرّخ جوزيفس للكتابة عنهم. لقد كانتا سنتَيْن وحشيَّتَيْن، والتي منها علمنا بالنتيجة فقط. حطَّمت هذه الثورة موقع اليهود كُلِّيّاً في مصر. بعد هذا الوقت؛ لم يعد لهم أيّة قوّة، أو تأثير، أو حتى انسجام. ما هو أكثر، الرومان اتخذوا نظرة قوية في هذه الثورة.

مصر كانت مهمّة لدرجة عالية جدَّاً بالنسبة للإمبراطورية، وانقلاب ناجح هناك كان يمكن أن يجعل روما فدية. توقُّف شحنات الحبوب إلى إيطاليا من مصر كان يمكن أن يُوقِعَ الشعب الإيطالي في مجاعة. روما ما كانت لتسمح بوجود مثل هذه الخطر. وبالتالي؛ كان ردُّها أن قمعت الثورة بلا رحمة. في نهاية الثورة، في أغسطس/ آب عام 117 م، كان هناك دمار شامل للمجتمع اليهودي في الإسكندرية. وفي أنحاء مصر كافَّة ، كان الثمن الذي دفعه اليهود يتصعَّد.

لكن اليهود لم يتخلّوا – لحدّ الآن – عن الأمل بأنّهم قد يستعيدون استقلالهم، إمَّا من خلال المهارة العالية العسكرية، أو من التدخُّل الإلهي، أو من كلَيْهما. تقريباً؛ بعد ستِّين سنة من دمار المعبد، وأثناء حُكْم الإمبراطور هاذْريان[1]، تمَّ القيام بمحاولة ثانية لمعارضة السلطة الرومانية.

هذه المحاولة كانت مُخطَّطة بشكل جيد منذ مدة زمنية طويلة. لتنفيذ الإستراتيجية كان لابُدَّ من السِّرِّيَّة العظيمة، لذلك شبكة من القواعد التحت أرضية بُنِيَتْ في كهوف تحت الأرض، وكان منها الطبيعي، ومنها صناعي. على الأقلّ؛ ستَّة مثل هذه المواقع وُجِدَتْ في تلال في اليهوديَّة (فلسطين)؛ واحد في إيلابو «Ailabo» في الجليل كان كهفاً محفوراً بشكل هادف، بطول خمسة وستّين متراً تحت الأرض، وله فتحات تهوية في السقف تسمح بدخول الضوء والهواء. أماكن كهذه كان تخدم التخطيط والتدريب كلَيْهما. أولئك المسؤولون علموا بأنّه كان لابُدَّ عليهم أن يتفادوا أخطاء الحرب السابقة، والتي سمح فيها الزَّيْلُوت لأنفسهم بأن يُحاصَروا وراء الجدران الدفاعية للبلدات والمُدُن التي كانت تُقتلَع وتحطَّم الواحدة تلو الأُخرى من قِبَل الجيوش الرومانية، التي كانت رائدة في صُنع الحصار. في هذا الوقت؛ كانوا يعزمون على مهاجمة الرومان بسرعة، وبشدّة، وبعد ذلك يختفون تحت الأرض في حصونهم بسرعة شديدة؛ رأوا أن سرعة الحركة هي مفتاح النصر.

من المُهمّ الملاحظة بأنه في هذا الوقت المقاتلون اليهود كانوا قد توحَّدوا تحت قيادة زعيم قوي يُدعى سِمعان «Simon Bar Koseba»، والذي أصبح يُعرف – لاحقاً – باسم «Bar Kochba»؛ أيْ «ابن النَّجْم» (يصبح الاسم الكامل سِمعان ابن النَّجْم)، ممَّا يكشف عن وَضْعه المَسيحي اليهودي. هو – أيضاً – كانت تنطبق عليه النُّبُوءة التي وردت في العدد (24)، والتي تقول: «يطلع قوم من بني يعقوب، ويقوم صولجان من بني إسرائيل»، وبالتالي؛ يبدو أنه من المؤكّد – أيضاً – أنه يحمل الدمّ المَلَكي لداود في عروقه. الأستاذ روبرت آيسنمان – مُؤرّخ درس لفائف البحر الميت – مفتون بإمكانية أن يكون سِمعان مرتبطاً بالزعماء المَسيحيين اليهوديين الأوائل في اليهوديَّة؛ ليس «مجازياً فحسب، بل جسدياً أيضاً».

---

(1) هاذْريان، هاذْريانوس (76 ـ 138 م.): إمبراطور روماني (117 – 138 م.). شجَّع الثقافة وفنَّ العمارة. المُترجم.

سِمعان جنَّد الخبراء العسكريين من الخارج. وقد تمَّ العثور على قوائم الأسماء باللغة اليونانية، وكلّ اسم كان يحمل لقب «Adelphos»؛ أيْ «أخّ»، أشبه بالأنظمة الفروسية اللاحقة؛ مثل نظام فُرسَان الهَيْكَل، أو فرسان القدِّيس يُوْحَنَّا. الآن؛ هم رجال يتمتَّعون بتجربة عسكرية، وقد جاؤوا من الشتات اليهودي الذي كان في بلاد ما وراء اليهوديَّة؛ حيث كانت اللغة اليونانية هي المتداولة، واللغة الآرامية، أو العبرية، مجهولة. هؤلاء الرجال بأنفسهم إمَّا خدموا كموظَّفين في دوائر التخطيط عند الرومان، أو أنهم كانوا يستندون إلى خبرة تجاربهم مع القوَّات الرومانية، وقد ساعدوا في تدريب الجيش اليهودي السِّرِّيِّ.

سِمعان عرف بأنّ رجاله كانوا يواجهون أفضل جيش منضبط في العالم مع قوة بشرية محتملة تتجاوز قوَّته بكثير: قدَّر بأنّ جيش روما الدائم فاق عدده 375.000 مقاتل حسن التدريب. كان هناك فيلقان في اليهوديَّة، السادس والعاشر، وكان تعدادهما تقريباً 12.000 رجل، يرافقهم عدد مقارب من القوات الإضافية المساعدة. إضافة إلى ذلك في الأقاليم الرومانية المحيطة مثل سوريا والعربية ومصر كان هناك خمس إلى سبع فيالق أُخرى، بالإضافة إلى قواتها المساعدة. اليهود – رُبَّما – كانوا على أقصى تقدير يصل عددهم إلى 60.000 رجل، ولم يكن أيٌّ منهم يمتلك الخبرة العسكرية. التدريب كان ضرورياً، وسمعان كرَّس الكثير من الوقت والجهد لذلك.

هو ورجاله احتاجوا إلى أسلحة. لذا؛ ابتكروا طريقة مبتدعة لضمان مورد تمَّ وصفه من قِبَل المُؤرّخ الروماني ديو كاسيوس، الذي كتب عن أحداث الفترة بين عامَيْ 194–216 بعد الميلاد. والطريقة هي: بما أن الكثير، أو أغلب، العمّال في صناعة السلاح في اليهوديَّة كانوا من اليهود، لذلك «تعمَّدوا بعدم الوصول بصناعة الأسلحة التي طُلِبَ منهم تجهيزها إلى المعيار المطلوب؛ لكي يرفضها الرومان، وبالتالي؛ كان بإمكانهم استخدامها لأنفسهم».

الحرب اندلعت عام 131 بعد الميلاد، وكانت ناجحة على الفور. هرب المدنيون الرومان من القُدْس، والفيلق العاشر تراجع. الفيلق الثاني والعشرون من مصر غير مدوَّن في السجلَّات العسكرية آنذاك. يُفترض بأنّه أسرع من قاعدته في مصر إلى اليهوديَّة، لكنه دُمِّر، وأُبيد كُلِّيّاً هناك. القُدْس استُردَّت من الرومان، وتمَّ ترميم جدرانها، وتمَّ تأسيس إدارة مَدَنية

يهودية. تقريباً؛ لمدة عامَيْن كانت اليهوديَّة خالية من الرومان. ولكنْ؛ بالطبع، الرومان كانوا يجمعون الجنود لكي يعودوا بقوة عارمة.

في هذا الوقت؛ هادريان بنفسه كان في القيادة. كان معه الحاكم السابق لبريطانيا، يوليوس سيفروس، الذي عدَّه أفضل جنرالاته كلّهم. عام 133 بعد الميلاد، تسعة فيالق رومانية – أو ربما اثنا عشر – وقوات مساعدة تقدَّمت بعيداً من بريطانيا – حوالي ستُّون إلى ثمانين ألف جندي – وقامت بغزو الجليل من الغرب، ومن نهر الأردن في الشرق. لكنّهم عانوا الأَمَرَّيْن. المقاتلون اليهود أبدوا دفاعاً مرناً. ضابط الجيش الكبير السابق الأستاذ مردخاي جيخون كتب عن استراتيجية سِمعان الطويلة الأمد: «الأمل اليهودي الملموس كَمَنَ في إطالة الحرب بما فيه الكفاية لمضايقة القوات المعادية من الداخل والخارج، وحمل السلاح، واستنزاف الرغبة الرومانية في ربح هذه الحرب، مهما كلَّف الأمر». لكنّهم خسروا. سِمعان قُتِلَ صيف عام 135 م، بينما كان يدافع عن بلدة بيثار «Bethar»، وحملته العظيمة كانت قد انتهت.

هادريان في رغبة منه لاستئصال اسم اليهوديَّة من الذاكرة غيَّر اسمها إلى فلسطينة «Palaestina» (الآن فلسطين). لكنْ؛ بعد جيلَيْن، مُنح السُّكَّان – أخيراً – حُكْماً ذاتياً كبيراً – بما فيه إعفاؤهم من «أيِّ واجب يتضارب مع التزامهم بقواعدهم، ومعتقداتهم الدِّينية».

يبدو بأنّ الرومان مازالوا يتذكّرون شلالات الدم، التي سبَّبتها إعادة غزو اليهوديَّة. ومايزال ذلك مؤلماً.

أصبحتُ زميلاً لمردخاي جيخون في (إسرائيل) أثناء الفترة التي اشتركتُ فيها – بانتظام – في العمل الآثاري مع روبرت ايسنيان وفريقه من جامعة ولاية كاليفورنيا في لونغ بيتش. معرفة جيخون الشاملة بسِمعان سَحَرَتْني، وهو – أيضاً – أُذْهِلَ، واهتمَّ بأطروحة كتاب «الدمّ المُقَدَّس، الكَأس المُقدَّسَة» التي كان قد قرأها. أخذني مرَّة – مع بعض من الطلاب والمتطوّعين الذين كانوا يساعدونا في التنقيب في البحر الميت – لزيارة أحد آخر معاقل سِمعان التي أُسِرَتْ من قِبَل القوات الرومانية. لقد كانت أطلالاً يائسة قرب إموس «Emmaus» في تلال اليهوديَّة، في منتصف الطريق بين القُدْس والساحل. مكان لم يُسبق أن تمَّ فيه التنقيب، وأراد الأستاذ جيخون الحصول على الفرصة للقيام بذلك. كنتُ قريباً سأكتشف السبب.

تحت رصيف القلعة المُعبَّد بالحجارة كان هناك جحر من الأنفاق. بعد سقوط القلعة في أيدي الرومان، تراجع المدافعون إلى هذه الأنفاق، التي تحرَّكنا فيها ببُطء على أيدينا ورُكَبنا. ربما كان بإمكانهم أن يسمعوا الرومان، وهم يتكلّمون، فقط؛ بضعة أقدام أعلى منهم. فضول الموقع يكمن في تصميم الصهاريج التي كانت تُموِّل القلعة، وكانت سهلة الوصول من الأعلى من خلال فتحة في الرصيف المُعبَّد، إلى حَدٍّ ما كالبئر. ولكنَّ هذه الصهاريج كانت دائرية ومنتفخة تقريباً؛ أيْ أن الماء كان يمتدُّ ما بعد فتحة الوصول لبعض الياردات تحت الرصيف المُعبَّد. الأنفاق السُّفلية سمحت للمدافعين السابقين بالوصول إلى حافَّة الصهاريج المنتفخة بعيداً عن أنظار الرومان، وبالتالي؛ كانوا قادرين على العيش تحت القلعة لبضعة أسابيع، ويحصلون على الماء، دون أن يشعر الرومان بوجودهم. لكنَّ مأواهم الأساسي كان أعمق بكثير في التلَّة، في الأنفاق التحت أرضية، التي وُصِلَتْ مع بعضها البعض عبر مدخل وحيد من المستوى الأعلى للأنفاق. ربما مقاتلو سِمعان وعوائلهم لم يصعدوا إلى الأعلى إلا لجَلْب الماء فقط.

عندما اكتشف الرومان - أخيراً - ما الذي كان يحدث تحت أقدامهم، ملؤوا الصهاريج بالأحجار، مُدمِّرين مصدر الماء. ثمّ اقتحموا مجمع الأنفاق، وتحرّكوا ببطء في رغبة القضاء على مقاتلي سِمعان الذين هربوا إلى مستويات أعمق في الأسفل.

جيخون طلب مني أن أتبعه، بينما كان يسير أمامي - ببطء - عبر الأنفاق الخانقة. وصلنا - بعد ذلك - إلى نَفَق يميل نحو الأسفل، إلى سفح تلّة صخرية بزاوية حادّة. كان قد أُغلق بالحجارة والملاط.

قال لي مُوضحاً؛ إن «الرومان قد أغلقوه بشكل دائم». توقَّف لحظة، وتابع: «هذا النَّفَق لم يسبق أنْ تمَّ فتحه. المدافعون كلّهم من تلك الفترة مايزالون هناك».

احتجتُ إلى لحظة لإدراك مدى أهمية ما كان يقوله. وبعد ذلك صُدِمْتُ بالمشهد المؤسي والمُرعب الذي ينتظر عالم الآثار الأول الذي سيُزيل الغطاء الحجري، وينزل زاحفاً إليه عبر النَّفَق. لن أنسى - أبداً - ذلك المدخل المُطوَّب للمأوى، والذي أصبح - في بضعة دقائق، وقبل 1900 سنة تقريباً - قبرا مُغلقاً للعيش.

إذاً؛ هكذا كان العالم الذي عاش فيه السَّيِّد المَسيح، وأتباعه، وعلى الأقلّ؛ أوّل كُتَّاب سِيَره اللاحقين. هو كان - أيضاً - العالم الذي انبثقت منه الدّيانة المَسيحية. والصلة ما بين هذَيْن الجزءَيْن من ذلك العالم مُعقَّدة جدَّاً. كما رأينا، كان وقتاً فيه المعتقدات هي كلّ شيء، والمعتقد الخاطئ بالسياق الخاطئ قد يجلب الموت المفاجئ، إمَّا من الرومان عن طريق الصَّلْب، أو من السيكاريين المُتحمِّسين عن طريق الخنجر القاتل.

بضعة من هذه الأحداث وجدت طريقها إلى الإنجيل. بدلاً من التاريخ، كُتُبُ العهد الجديد التي لدينا تقدّم لنا عن تلك الأزمنة صورة مُحسَّنة ومُراقبة ومقلوبة في أغلب الأحيان. ولكنْ؛ حتى أولئك الذين جلبوا لنا العهد الجديد كانوا غير قادرين على أنْ يُقطِّعوا - كُلِّيَّاً - الأرض، والعالم، الذي انتقلت وتحرَّكت فيهم شخصياتهم، التي ذكروها. السَّيِّد المَسيح وُلد وأمضى سنوات تكوينه في عصر حركة الزَّيْلُوت المبكِّرة. عندما بدأ منصبه، كان في عمر الثلاثين، والبعض من أتباعه الأقربين عُرِفُوا بأنهم كانوا أعضاء في هذه الحركة المَسيحية اليهودية، والتي هي حركة وُلِدَ فيها المَسيح؛ ليلعب دوراً هاماً. في العهد الجديد، يمكننا أن نرى أدلَّة ضدّ الرومان، ويمكننا أن نشعر بالعنف الذي تخلَّل ذلك العصر، إحساس سيزداد - «بالطبع» - عندما نصل إلى نهاية القصّة، صَلْب المَسيح.

لكنَّ عملية الصَّلْب التي وردت في روايات العهد الجديد قد شُطِبَ منها الصبغة السياسية بتعمُّد. هذا دليل على أن المراقبين التالين قاموا بمحاولة مُنسَّقة لفَصْل المَسيح وزوجته عن الأوقات التاريخية التي وُلد، وعاش، ومات، فيها، بغَضِّ النَّظَر عن الطريقة التي مات فيها في النهاية. في القيام بذلك، هؤلاء المراقبون التاليون عملوا شيئاً أكثر خُبثاً بكثير: لقد أزالوا السَّيِّد المَسيح من بيئته اليهودية. واليوم عدد كبير من المَسيحيين مازالوا غافلين جدَّاً عن أنّ السَّيِّد المَسيح لم يكن - أبداً - مَسيحياً؛ لقد وُلِدَ وعاشَ يهودياً.

بعد جيل من صَلْب السَّيِّد المَسيح - أو على الأقلّ، إزالته من المشهد - القُدْس والمعبد فُقدا من اليهود. بدلاً من ذلك؛ تحوَّل مركز الدِّين اليهودي إلى المدرسة الرَّبَّانية في بلدة ينبه. في الوقت نفسه؛ بدأ التلاعب بقصّة السَّيِّد المَسيح، والتي خَلَقَتْ - في النهاية - عُرْفاً مُركّزاً

على السَّيِّد المَسيح، بدلاً من التركيز على الله. هـذه كانـت النقطـة التـي لم يقبلهـا العديـد مـن المُؤرّخين الأوائل إلا واحداً سيطر على كلّ التفسيرات البديلة في النهاية. أصـبحت الأصـول اليهودية للسَّيِّد المَسيح مُضمَّنة ضمن بيئة وثنية مُؤثّرة جـدّاً، قُـدّمت مـن قِبَـل المُتحـوِّلين إلى الدّيانة المَسيحية من بين اليونانيين، والرومان. هذا التأثير الوَثَني أبعد كثيراً الدّيانة المَـسيحية، وصورة السَّيِّد المَسيح، عن الدّيانة اليهودية لقُرُون تَلَتْ.

جمهور الرسالة المَسيحية تغيَّر بشكل واضح: هو لم يعدْ يقصد اليهـودَ، لكـنْ؛ بـالأحرى، يُواجه الوَثَنيين - المؤمنين بآلهة؛ مثل مِثرا، وديونيسوس، وإيزيس، ودِيْمَتْر - وبالتـالي؛ يجـب أن تُقدّم بطريقة جديدة، طريقة ذات نكهة معادية لليهود. الحقل قـد أصـبح ناضـجاً لإعـادة تفسير التاريخ، وبداية نصرة السَّيِّد المَسيح الاصطناعي «عيسى الدّيني»[1] بـدلاً مـن «عيـسى التاريخي» - الرجل الذي تحدَّث عن الله، الذي قدَّم رسالة قُدْسية، إلا أنه لم يدَّع أنه الله.

في ما قد يُعَدُّ معجزةً حقيقيةً، أحد الأناجيل، وبينما هو يخلق مسافة بين الـسَّيِّد المَـسيح وبيئتـه اليهودية، مازال يحافظ على عناصر من «عيسى التاريخي»، وعمَّا تتضمَّنه تعاليمه عن اللاهوت:

«وجاء اليهود بحجارة ليرجموه. فقال لهم يسوع:

(أَرَيْتُكُم كثيراً من الأعمال الصالحة من عند الآب، فلأيِّ عمل منهـا ترجمـوني؟). أجابـه اليهود: (لا نرجمكَ لأيِّ عمل صالح عملـتَ، بـل لتجـديفكَ. فـما أنـت إلا إنـسان! لكنـكَ جعلتَ نفسكَ إلهاً!).

فقال لهم يسوع: (أَمَا جاء في شريعتكم أن الله قال: أنتم آلهـة؟ فـإذا كـان الـذين تكلَّمـوا بوحي من الله يدعوهم اللهُ آلهةً - على حَدِّ قول الشريعة التي لا ينقضها أحد - فكيف تقولون لي - أنا الذي قدَّسهُ الآبُ، وأرسله إلى العالم -: أنتَ تُجدِّف؟!)».

يُوْحَنَّا (10: 31 - 36).

(1) كما سنلاحظ لاحقاً، الدّيانة المَسيحية جعلت المَسيح رجلاً دينياً مُقَدَّساً، بينـما يـزعم الكاتـب أنـه كـان شخـصية تاريخية غير دينية، وخُصُوصاً فيما يتعلَّق بلاهوت السَّيِّد المَسيح. المُترجم.

بين الفترة التي نُطِقَتْ بها هذه الكلمات، وتحوَّلت إلى كتابة - ربما قرب نهاية القرن الأول بعد الميلاد - السَّيِّد المَسيح كان قد جُعِلَ مَسيحياً. وأن تكون مَسيحياً يعني إتّباع تعليمات بعيدة كلّ البُعْد عن تلك التي في الدّيانة اليهودية. هذا واضح جدَّاً في حوار مُسجَّل بين بابا كَنيسَة القرن الثاني يوستين مارتر ومُعلِّم يهودي اسمه تريفو. الأخير يُقدِّم فكرة معقولة جدَّاً هي أنَّ «أولئك الذين يؤكّدون بأن [السَّيِّد المَسيح] هو إنسان، وبأنه تمَّ دَهْنُهُ بالزيت بالانتخاب، وبعد ذلك؛ أصبح السَّيِّد المَسيح. يبدو - بالنسبة لي - أنهم يتحدَّثون بشكل معقول». ليُوضح فكرته أكثر، يُشكِّل تحدِّي يوستين: «أجبني إذاً، أولاً، كيف يمكنكَ أن تُظهر أن هناك إلهاً آخر غير الخالق لكلّ شيء؛ وعندها؛ سوف تُظهر أكثر من ذلك، سوف تُظهر (أنه) أَذْعَنَ بأنه وُلِدَ من العذراء».

ناهيكَ عن حيثيات النقاش ورُدُود يوستين - التي كانت غامضة وضعيفة، طبقاً لتريفو - ما هو واضح هو أن فارقاً بين الدِّينَيْن قد نشأ آنذاك، ولا يمكن رَبْطه. كان هناك نقطة صغيرة من المساومة تُرِكَتْ بين أولئك الذين كانوا يزحفون - بشكل حازم - إلى الأفق الذي أصبح المَسيحية التقليدية. بالنسبة ليوستين؛ ما كان يهمّه هو - فقط - الإيمان بالمَسيح، وإيمان كهذا يمكن أن يجلب النجاة لأيِّ شخص، «حتى لو أنّهم لم يحافظوا على السّبت، والختان، ولا التزموا بالأعياد».

كما نرى، الشريعة اليهودية - في ذلك الوقت - قد تُرِكَتْ بعيداً في الخلف، مع القصة الحقيقية للسَّيِّد المَسيح.

اليهوديَّة وعيسى والمَسيحية

قبل 4 ق.م[1]	ولادة السَّيِّد المَسيح، طبقاً لإنجيل مَتَّى (1:2). موت هيرودس العظيم.
4 ق.م	وفاة هيرودس العظيم
6 م	ولادة المَسيح، طبقاً لإنجيل لُوقَـا (2: 1-7). وفـق إحـصاء كيرينـوس، حاكم سوريا.
27-28 م	معمودية السَّيِّد المَسيح (تاريخ تقليـدي) في الـسنة الخامـسة عـشر لعهـد الإمبراطور تيبريوس (لُوقَا 3: 1-23).
30 م	صَلْب السَّيِّد المَسيح، طبقاً للثقافة الكاثوليكية.
ت 35 م	بعد زواج هيرودس أنتيباس وهيروديا س تقريباً سنة 34 م، إعـدام يحيـى المعمدان، بعد الدليل في جوزيفس.
36 م	عيد الفصح - صَلْب السَّيِّد المَسيح، طبقاً لجدول أحداث إنجيل مَتَّى.
36-37 م	التَّحوُّل الدِّيني لبُولُس في الطريق إلى دمشق.
ت 44 م	إعدام يعقوب، شقيق السَّيِّد المَسيح.
50-52 م	بلوس في كُورِنْثُوس[2]، يكتب رسالته الأولى (إلى الثيسالونيكيين).
61 م	بلوس في روما تحت الإقامة الإجبارية.
ت 65 م	يُفترض إعدام بلوس.
66-73 م	حرب في اليهودية. الجيش الروماني تحت قيادة فَسْبازيان يغزو اليهودية.
ت 55-120 م	حياة تاسيتوس، مُؤرّخ وعضو مجلس الشيوخ الروماني، الذي ذكر الـسَّيِّد المَسيح.
ت 61-114 م	حياة بليني الأصغر، الذي ذكر السَّيِّد المَسيح.
ت 115 م	أغناطيوس لُوْيولا أسقف إنطاكية، اقتبس من رسائل بُولُس.
ت117-138 م	سوتونيوس، مُؤرّخ روماني، ذكر «خريستوس».
ت 125 م	النمـوذج الأول المعـروف للإنجيـل المَـسيحي، يُوْحَنَّـا (18: 31-33)، بردي ريلاندز، وُجد في مصر.

---

(1) م: ميلادي، ق.م: قبل الميلاد، ت: تقريباً. المُترجم.

(2) بلد في اليونان. المُترجم.

ت 200 م	الجزء الأقدم المعروف من رسائل بلوس، بردي تشيستر بيتي، وُجد في مصر.
ت 200 م	الإنجيل الأقدم الكامل عملياً (يُوْحَنَّا)، بردي بودمير، وُجد في مصر.
325 م	مجلس نيكيا «Nicaea»[1] (إزنيك) الذي عُقد من قِبَل الإمبراطور الروماني قسطنطين. إنّ ألوهية السَّيِّد المَسيح جُعِلَتْ عقيدة رسمية بتصويت 217 مقابل 3.
393-397 م	مجلس كَنيسَة بنزرت، الذي شكَّل العهد الجديد الراهن، وبُتَّ في أمره في مجلس قرطاجة.

(1) بلدة قديمة في تركيا، الآن إزنيك (عند بحيرة إزنيك جنوب شرق اسطنبول)، ازدهرت في عهد الرومان. المُترجم.

القرن الثاني

ت 55-120 م	حياة تاسيتوس، مُؤرّخ وعضو مجلس الشيوخ الروماني، الذي ذكر السَّيِّد المَسيح.
61 م- ت 114 م	حياة بلينيوس الأصغر. الذي ذكر السَّيِّد المَسيح.
ت 115 م	أغناطيوس، أسقف إنطاكية، اقتبس من رسائل بُولُس.
115 م	تمرُّد في الإسكندرية تحت قيادة لُوقَا «ملك اليهود». الجالية اليهودية في مصر دُمِّرَتْ.
117-138 م	سنوات كتابة سوتونيوس المُؤرّخ الروماني، الذي تحدَّث عن «خريستوس» (المَسيح).
ت 120 م	المعلّم الغنوسطي[1] تعلَّم في الإسكندرية.
131-135 م	سِمعان ابن النَّجْم (Simon Bar Kochba) يقود ثورة في اليهوديّة.
133 م	9-12 فيلق روماني يغزو اليهودية من الشمال.
135 م	القوّات اليهودية هُزِمَتْ. الإمبراطور الروماني هادريان يُغيِّر اسم اليهودية إلى فلسطينة (الآن فلسطين).
ت 135 م	يتحاور العالم الدِّيني المَسيحي يوستين مارتر مع المثقّف اليهودي تريفو.
ت 140 م	يصل ماركون[2] «Marcion» إلى روما، ويبدأ بالتعليم. يرفض العهد القديم، ويستعمل فقط إنجيل لُوقَا، والبعض من رسائل بُولُس.
ت 150 م	الكُتَّاب المَسيحيون الأوائل الذين يبدؤون بإدانة الغنوسطيين.
154 م	يوستين مارتر يُسمِّي سِمعان ماغوس (في منتصف القرن الأول بعد الميلاد) بأنه مصدر كلّ البِدَع.
ت 180 م	آيرينيوس «Irenaeus»، أسقف بلدة ليو، يكتب ضدّ الغنوسطيين. أصدر القائمة الأولى لنصوص للعهد الجديد القانوني.

(1) مذهب العرفان: مذهب بعض المَسيحيين الذين اعتقدوا بأن المادة شرّ، وبأن الخلاص يأتي من طريق المعرفة الروحية. المُترجم).

(2) مُؤسّس حركة مَسيحية منشقَّة في القرن الثاني، والتي رفضت العهد القديم، وتعتقد بأن الله جُسِّد في السَّيِّد المَسيح كإنسان المُترجم.

ت 195 م	كليمنت، أسقف الإسكندرية، يكتب عن الإنجيل السِّرِّيّ لمرقص، ويكتب ضدّ الغنوسطية، ولكنه يحافظ على تعاطف مع أسرار وألغاز وشعائر المَسيحية الإسكندرية.
ت 197 م	تَرْتُلْيان[1] يعتنق المَسيحية؛ يعارض - بروح فدائية – البِدْعَة، ودور النساء القيادي في الكَنيسَة.

(1) تَرْتُلْيان (160؟ ـ 230؟ م): لاهوتي نصراني قرطاجيّ. قال بأن الإيمان الأعمى هو السبيل الأوحد للخلاص. المُترجم.

الفصل الخامس

خلْقُ الشخصية الدِّينية للمَسيح

تُصوِّر الإيضاحاتُ المَسيحيةُ الحديثةُ الصورةَ العامَّةَ للسَّيِّد المَسيح أثناء تجوُّله في إسرائيل القديمة، الشمس تُموِّج شعره الأشقر، رغم أنها لم تحرق بشرته البيضاء. تُصوِّره كمُبشِّر مَسيحي بصحبة حواريه، الذين قام بعضهم بتأليف أناجيلهم؛ لكي يُسجِّلوا الكلمات المُقَدَّسَة للرَّبِّ الحي.

أشرنا – مسبقاً –إلى نقطة الضعف الواضحة في هذه الصورة: السَّيِّد المَسيح كان يهودياً. كان فلسطينياً ذا بشرة داكنة، وليس أبيضاً أوروبياً شمالياً. ولكنْ؛ هناك خطأ جسيم آخر في هذه الصورة، خطأ مكافئ بالأهمية، ولكنه أقلّ شهرة: لم يكن هناك شيء يُدعَى الأناجيل في ذلك الوقت، ناهيكَ عن «العهد الجديد»؛ لم يكن هناك «مَسيحية». الكُتُبُ المُقَدَّسَة التي استخدمها السَّيِّد المَسيح وحواريوه كانت من الدّيانة اليهودية كما هو ظاهر على الفور لأيّ شخص يقرأ العهد الجديد، ويلاحظ كيف أن السَّيِّد المَسيح كان حَسَنَ الاطِّلاع على الكُتُب المُقَدَّسَة اليهودية، وعلى السهولة التي اقتبس بها من تلك الكُتُب، وفرضية ألفة جمهوره بتلك المقتبسات، وذلك – بالطبع – على افتراض أن الأحداث التي صُوِّرَتْ في الأناجيل قد حَدَثَتْ حقَّاً.

لأننا – دائماً – أخبرنا بثقة عالية بأنّ الأناجيل – على اختلافها – قد كُتِبَتْ في الجزء الأخير من القرن الأول بعد الميلاد، فمن المفاجئ أن نكتشف أنه لم يكن هناك وجود للعهد الجديد في بداية القرن الثاني بعد الميلاد، أو حتى عند نهاية ذلك القرن، بالرغم من أنه في ذلك الوقت كان بعض علماء الدِّين – وهم قلقون حول ما كانوا يعدُّونه «حقيقياً» – يحاول تأليف إنجيل.

على الرغم من أفضل الجهود التي بذلها أولئك العلماء، المَسيحيون كان لابُدَّ أن ينتظروا – تقريباً – قرنَيْن أكثر للتَّوصُّل إلى نصٍّ مُتَّفق عليه. إذاً؛ ما الذي كانوا – حقّاً – ينتظرونه؟

هذا التأخير في وصول المجموعة الرسمية من النصوص المَسيحية يُشكِّك – بشكل جدِّي – بالانتشار الواسع للإيمان المَسيحي على مدى الـ1500 عام الماضية، لدرجة أن كلّ كلمة في العهد الجديد هي وحي صادق من الرَّبِّ بنفسه. بالنسبة لمُراقب مُستقلّ، يبدو – على الأرجح – أنه ليس – فقط – العهد الجديد هو الذي فُرض بتعمُّد على الرَّبِّ، الذي كان – في الحقيقة – سعيداً تماماً بالانتشار الواسع للتعاليم، بل لأنّه فُرِضَ بتعمُّد من قِبَل مجموعة من الناس، الذين تمنّوا السيطرة على التعبير القُدْسي من أجل مصالحهم وسُلطتهم الخاصة بهم.

التأخير الذي حَدَثَ حصل بينما كان علْم اللاهوت يلاحق بطلب تمركز التعاليم التقليدية، إلى أنْ تمَّ صُنع قرارات رئيسة تتعلَّق بلاهوت السَّيِّد المَسيح، زعماء الكَنيسَة افتقروا إلى المعايير المُقرَّة رسمياً لاختيار النصوص، التي صُمِّمَتْ لتُجسِّد دينهم المُحدَث حديثاً.

ولدرجة أكبر بكثير، العديد من الناس – اليوم – يعدُّون – بشكل حاسم – أن نصوص العهد الجديد مُقَدَّسَة إلى أبعد حَدّ. هم يعتقدون بأنها كلمات الله المُقَدَّسَة التي كُتِبَتْ بطريقة وحيدة علينا الحفاظ عليها، كلمات لا يمكن أن تُغيَّر، ولا يجوز – بأيّة طريقة أُخرى – أن تُؤخَذ إلا حرفياً. لم يخبرهم أحد على الإطلاق بأنّ المؤلّفين الأوائل لم يقصدوا – أبداً – بأن تعاليم السَّيِّد المَسيح هي التي صنعت تلك الكُتُبَ. في الحقيقة، في السنوات المائة والخمسين الأولى للعُرْف المَسيحي، الكتابات المُوثَّقة الوحيدة كانت الكُتُب التي تُسمَّى – الآن – بـ«العهد القديم».

مثال جيد عن الموقف القديم نحو الكتاب المُقَدَّس يقدّمه كاتبُ القرن الثاني المَسيحي يوستين مارتر. بالنسبة له، ما يُسمَّى – بالنسبة لنا – بالإنجيل، هو – ببساطة – مذكّرات الحواريين المختلفين، التي يمكن أن تُقرَأ في الكَنيسَة، وتُستعمَلَ لدَعْم الإيمان، ولكنها ما كانت – أبداً – تُعدُّ كـ «كتاب مُقَدَّس». مُصطلح «الكتاب المُقَدَّس» هو حِكْر لكُتُب الشريعة والأنبياء – أيْ، العهد القديم. بشكل صريح؛ يوستين مارتر لا يَعدُّ – أبداً – «الأناجيل» أو «مذكّرات الحواريين» بأنها كتابات مُلهَمَة، أو روحية. يوستين وصل إلى ذروة القُدْسية، لكنَّ مكانته ستُعَدُّ راديكالية، إنْ وصل إليها أيُّ عضو في الكَنيسَة المَسيحية اليوم.

على أية حال، من المؤكّد – حقيقة – أنه أثناء القرن الأول التالي وكامل القرن الثاني بعد الميلاد تمَّ البدء بتسجيل تعاليم السَّيِّد المَسيح. الأقوال والقَصَص حول أحداث حياته جُمِعَتْ، لكنْ؛ لا شيء منها كان يُعَدُّ المجموعة الرسمية أو المُوثَّقة في ذلك الوقت. حقيقي – أيضاً – أن النصوص التي تظهر – الآن – في العهد الجديد قد كُتِبَتْ في فترة حياته تلك. أثناء أواخر القرن الأول، وفي القرن الثاني، المفهوم الكامل لـ«المَسيحية» تبلور من الدّيانة اليهودية المَسيحية، وهذا يقودنا – فوراً – إلى عدد من التحدِّيات اللُّوجستيكية، البعض منها راديكالي تماماً.

ظاهرة فضولية بدأت في القرن الثاني قبل الميلاد: إنّ الكلمة الآرامية «meshiha»؛ أيْ «مَسيح»، والتي ليس لها أيّ تفسير آخر، بدأ استعمالها كاسم للحاكم الحقيقي لإسرائيل. بشكل خاصّ، كانت تدلُّ على الملك المُتوقَّع الذي يتحدَّر من السُّلالة المَلَكية لداود. تعابير عن الأمل العامّ بأنّ سليل الملك داود سيصل وُجِدَتْ في كُتُب الأنبياء في العهد القديم. وهكذا؛ فإن الاستعمال المَسيحي لكافَّة الكلمات الدالَّة على المَسيح – «خريستوس»، أو «كريست»، التي هي الترجمة اليونانية لكلمة «meshiha» الآرامية، سويَّة مع الترجمة الصوتية لليوناني «Messias» – جاءت جميعها من السياق والاستعمال اليهودي، الذي كان مفهوماً بشكل جيد في عهد السَّيِّد المَسيح.

إنّ التحدِّي اللوجستيكي الأكبر هو الإجابة عن تهمة تتردَّد على الدوام، وخُصُوصاً في السنوات المائة والخمسين الأخيرة: وهي أن السَّيِّد المَسيح لم يكن موجوداً مطلقاً، وأن القَصَص عنه هي – ببساطة – حكايات عن زعماء مَسيحيين مختلفين جُمِّعَتْ – لاحقاً – لكي تُبرِّر – أولاً – المكانة البُولُسيَّة[1]، وأخيراً؛ لكي تُبرّر التعاليم المتمركزة في روما، وذلك عن طريق تحويل المَسيح اليهودي المُنتظَر إلى شخصية إمبراطورية دينية، نوع من المَلاك المَلَكي. وليام هوربري قارئ في الدراسات اليهودية والمَسيحية القديمة في جامعة كامبردج البارزة قال مؤخّراً: «ديانة سماوية... رافقت إحداث ديانة السَّيِّد المَسيح».[2]

---

(1) نسبة إلى بُولُس الرسول، وتعاليمه. المُترجم.

(2) كما سنرى لاحقاً، يقصد الكاتب أن تشكيل ديانة المَسيح تمَّ وفقاً لاعتماد الرومان على دياناتهم الأسطورية الإغريقية السماوية المتعدّدة الآلهة، والتي كان فيها شخصيات كثيرة تُبعَثُ للحياة بعد الموت. المُترجم.

هل يمكننا أن نكون متأكّدين بأن السَّيِّد المَسيح قد وُجِدَ حقّاً؟

هل هناك أيُّ برهان عن حقيقته غير العهد الجديد؟

إنْ لم يكن يوجد أيّ برهان، وإنْ كان العهد الجديد قد أُعِدَّ بعد فترة طويلة من زمانه، فكيف نعرف بأنّ المفهوم الكامل عن السَّيِّد المَسيح هو ليس إلا أسطورة قديمة تقدّم قصة مُلفَّقة جديدة؟

ربما قصَّته ليست إلا إعادة لكتابة أسطورة أدونيس[1] ، أو أسطورة أوزيريس[2] ، أو أسطورة مِثرا[3]: ثلاثتهم وُلِدُوا من عذراء، وبُعِثُوا من الموت؛ قصّة مألوفة بالنسبة للمَسيحيين.

هناك سبب معقول – طبقاً لرؤية هوربري – أنه ضمن الفترة الزمنية المبكّرة للمَسيحية «ديانة السَّيِّد المَسيح، أشبه بديانات الأبطال الرومان الإغريق، من ملوك وآلهة». وكما ذُكِرَ في وقت سابق، هذه الدّيانة أُحدِثَتْ اعتماداً على ديانة سماوية. هوربري يوضِّح بأنّه يبدو من المحتمل أن اللقب الذي مُنِحَ للسَّيِّد المَسيح بأنه «ابن الرجل» يجعله مرتبطاً بلَقَب «المَسيح المُنتظَر السماوي».

في الحقيقة، «السَّيِّد المَسيح – بدقة بصفته كمَسيح مُنتظَر – يمكن أن يُعَدَّ روحاً سماوية... يبدو من المحتمل أن المَسيحية شكَّلت الوسط الرئيس الذي من خلاله أثَّرت المعتقدات السماوية على الكريستولوجيا[4] الناشئة، وبأن السَّيِّد المَسيح – بالضبط كمَسيح مُنتظر – كان قد صُوِّر على أنه كائن روحي أشبه بالملائكة. إذاً؛ هل نحن نتعامل – فقط – مع أسطورة قديمة أُعيد إحياؤها ثانية لأهداف مَسيحية؟

رأينا بأنّ كلمة «Jesus» (عيسى) هي – ببساطة – مشتقَّة من الكلمة الآرامية «Yeshua»، قد تعني «Joshua» (يشوع)، ولكنها تعني – أيضاً – «المحرّر» وكذلك «المُنقذ». لذا؛ ذلك ليس إلا لقباً. لاحظنا – أيضاً – بأنّ «Christ» مشتقّة من كلمة

---

(1) في الأساطير الإغريقية هو شابٌّ وسيم، أحبَّته آلهةُ الحُبِّ والجمال أفروديت، وكذلك أحبَّتْهُ بيرسيفون «Persephone» التي كانت ابنة دِيْمَتْر آلهة الزراعة وزيوس كبير الآلهة. قُتِلَ بينما كان يتعقَّب خنزيراً، لكنَّ زيوس سمح له بتقسيم وقته بين أفروديت على الأرض، وبيرسيفون في العالم السُّفلي. المُترجم.

(2) أوزيريس: أحد آلهة مصر القديمة. المُترجم.

(3) مِثرا: إله النور، وحامي الحقيقة، وعدوّ قِوى الظلام عند الفُرْس. المُترجم.

(4) الكريستولوجيا: التعليل اللاهوتي لشخص المَسيح، وعمله. المُترجم.

«Christos»، وهي الترجمة اليونانية لكلمة «meshiha» الآرامية، والتي تعني المُكرَّس «الممسوح بالزيت». لذا؛ فنحن نتعامل مع لقب مضاعف: «المُحرّر (أو المُنقذ)، والمُكرَّس». في تلك الحالة، ماذا كان اسمه؟ نحن - حقّاً - لا نعرف - نفترض أنه كان شخصاً ما «ابن داود»، ولكنْ؛ هذا هو كلّ ما بإمكاننا الحصول عليه.

لا نستطيع أن نلجأ إلى العهد الجديد للحصول على دليل؛ لأننا لا نمتلك أية فكرة عن مقدار التاريخ الحقيقي ومقدار الخيال الموجود في نصوصه. وفي أيِّ حال من الأحوال، أَقْدَم الأجزاء التي نمتلكها هي من القرن الثاني بعد الميلاد - حوالي عام 125 م، والتي هي بعض أجزاء من إنجيل يُوْحَنَّا. ولكنْ؛ ماذا عن رسائل بُولُس؟ بالنتيجة، هي كُتِبَتْ قبل الحرب الأولى ضدّ الرومان. الأسبق - والتي هي رسالة بُولُس الأولى إلى تَسَالُونِيْكِي - كُتِبَتْ بينما كان مُقيماً في كُورِنْثُوس، في الفترة بين شتاء عام 50 إلى صيف عام 52 م. بقيّة رسائله كُتِبَتْ بين 56 -60 م، وربما بعد ذلك - أيضاً - عندما كان في روما، وأُعْدِم كما هو مُفترَض حوالي عام 65 م، بالرغم من أنْ لا أحد يعرف الحقيقةَ حول هذا، بما أن كتاب أعمال الرُّسُل، الذي هو المصدر الوحيد حول تفاصيل رحلات بُولُس قد توقَّف معه عندما وُضع تحت الإقامة الإجبارية في روما.

لسوء الحظِّ؛ لا يمكننا أن نكون متأكّدين حول أصالة كلّ رسائل بُولُس ضمن العهد الجديد أيضاً؛ لأن أقدم النسخ التي لدينا يعود تاريخها إلى أوائل القرن الثالث. في الرسائل التي كُتِبَتْ عام 115 بعد الميلاد من قِبَل أغناطيوس أسقف إنطاكية، بينما كان في طريقه إلى روما، كان يقتبس من الرسائل المختلفة لبُولُس، وبالتالي؛ يمكننا التأكُّد من أنّ بعض تلك الرسائل كان موجوداً في ذلك الوقت، ولكنّنا لا نعرف سواء كانت قد عُدِّلَتْ، قبل أو بعد ذلك. في أيِّ حال من الأحوال، بُولُس لم يعرف السَّيِّد المَسيح، وعلى خلاف الإنجيل، هو لم يُبد أيّ اهتمام عظيم حول ما قد يكون السَّيِّد المَسيح قاله، أو عمله. لا نحصل على أية معلومات حول السَّيِّد المَسيح من بُولُس، التي تُسمَّى رسائله بإنجيل بُولُس: رسائله تقول إن علمية صَلْب وإحياء السَّيِّد المَسيح هي مُؤشّر لبداية عصر جديد في تاريخ العالم، التأثير العملي الفوري الأكبر لنهاية الشريعة اليهودية - ذلك موقف مختلف تماماً لما سمعناه من السَّيِّد المَسيح في خطبة الجبل: «**لا تظنُّوا أني جئتُ لأُبطلَ الشريعة، وتعاليم الأنبياء: ما جئتُ لأُبطلَ، بل لأُكملَ**» مَتَّى (5: 17).

لا توجد سجلَّات من بيلاطس البنطي أيضاً؛ وليس هناك - أيضاً - سجلَّات من هيرودس، ولا سجلَّات من الجيش الروماني، أو الأجهزة الإدارية الأخرى. لكنَّ هذا ليس مفاجئاً؛ لأن مكتبة سجلَّات الملوك الهيروديين في القُدْس قد أُحْرِقَتْ أثناء الحرب. السجلَّات الرومانية الرسمية - رُبَّما - كانت في عاصمتهم الإدارية في القيصرية، والتي هي - أيضاً - انغمست في القتال. نُسخ وتقارير كانت من المفترض أن ترجع إلى روما، ولكنْ؛ حتى لو أنها نجت من الدمار المختلف من قِبَل الأباطرة اللاحقين مثل دوميتيان[1]، فلابُدَّ أنها قد فُقِدَتْ عند سَلْب روما من قِبَل القوطيين[2] عام 405 بعد الميلاد؛ حيث إن العديد من الأرشيفات الرسمية دُمِّرَتْ - بالطبع تلك الأرشيفات التي لم تُؤخذ من القسطنطينية «اسطنبول». بالطبع، في ذلك الوقت كانت روما مَسيحية، ولذلك يمكننا التأكّد بأنه تمَّ تدمير كافة الوثائق الأخرى، التي كانت ستُعرِّض للخطر القصةَ المُطوَّرةَ عن السَّيِّد المَسيح. وهناك سبب معقول للاعتقاد بأنّ تقارير بيلاطس البنطي كانت من بين تلك الوثائق.

لكنها لم تُفقَد كُلّها: جوزيفس - بالتأكيد - كان لديه القدرة على الوصول إلى السجلَّات الرومانية، ولو أن السَّيِّد المَسيح كان قد ذُكِرَ، لربما كان قادراً على التحدُّث عنه. في الحقيقة، جوزيفس يذكر السَّيِّد المَسيح، ولكنه يذكره بأسلوب يجعل كلّ شخص ينظر إلى النصّ يعدُّ أن ذلك النصَّ هو عملية إدخال مَسيحية لاحقة، بالرغم من أنه يوجد هناك - في مكان ما من رواياته - بعض الجوهر المحتمل من الحقيقة، لكنَّ جوزيفس لا يستطيع مساعدتنا كُلِّيّاً؛ لأنه أثبت أنه كان شاهداً ومُؤرّخاً عديم الثقة. مُؤرّخنا اليهودي الآخر وفيلسوفنا «فيلو» من الإسكندرية - الذي مات تقريباً عام 50 بعد الميلاد - لا يذكر - أبداً - السَّيِّد المَسيح. هناك فضول حول السبب الحقيقي لعدم تقديمه لتفسير جيّد، ناهيكَ عن عَدِّه دليلاً، والسبب هو إمَّا النَّقْص في حقيقة السَّيِّد المَسيح، أو لأنه لا يمتُّ بصلة إلى حياة اليهود المُتعلِّمين الإسكندرانيين!

على أية حال، هناك أعمال باقية على قيد الحياة لمُؤرّخيْن رومانيَّيْن اثنَيْن كانا كلاهما يتمتَّعان بالقدرة على الوصول إلى السجلَّات الرومانية، بالإضافة إلى أنهما كان لديهما سبب ملائم للتحرِّي

---

(1) دوميتيان «Domitian»: إمبراطور روماني بين عامَيْ (81 ـ 96 م). نظّم الإدارة. اتّسم حُكْمه بالقسوة والوحشية. المُترجم.

(2) شعوب جرمانية غزت الإمبراطورية الرومانية. المُترجم.

عن المَسيحيين، وذلك قبل فترة طويلة من تطوُّر التعاليم التقليدية في الكَنيسَة. لذلك تُعَدُّ شهادتهما مُهمَّة جدًّاً. استناداً إلى رواياتهما، الحقيقة التي لا يمكن نكرانها هي أنّ التقارير الرسمية التي تـذكر المَسيحيين كانت موجودة في الأرشيفات الرومانية. أوّل هـؤلاء المُـؤرّخيْن كـان كاتـبَ الكَنيـسَة الأول تَرْتُلْيان[1] الذي عـاش تقريبـاً بـين عـامَيْ 160 – 225 بعـد المـيلاد، والـذي قـال إن هـذه السجلّات هي حقيقة معروفة، بالرغم من أنّه لا يبدو بأنّه كان قد وصل إلى أيٍّ منها.

المُؤرّخ تاسيتوس، عاش – تقريباً – بين عامَيْ 55 – 120 بعد الميلاد. كان عضواً في مجلس الشيوخ الروماني أثناء عهد الإمبراطور الروماني دوميتيان، وكان – فيما بعـد – حـاكم غـرب الأناضـول في تركيـا؛ في منـصبه الأخـير، كـان لديـه فرصـة كافيـة لاسـتجواب المَـسيحيين – كانوا يُسَمّون كذلك «Chrestiani» – [2] الذين كانوا في قاعات محاكمه.

يكتب عن احتراق روما أثناء عهد نيرون:

أَشْعَلَ نيرون المحارقَ، وعاقب – بتصفية شديدة – كلّ المَسيحيين (هكـذا كـانوا يُلقَّبـون عموماً) المُفسدين. مُنْشِئُهُم –السَّيِّد المَسيح – كان قد أُعْدِمَ في عهد تَيْبِريوس مـن قِبَـل حـاكم اليهوديّة بيلاطس البنطي. لكنْ؛ بالرغم من هذه النكسة المؤقَّتة، اندلعت الخرافة القاتلة ثانية، ليس – فقط – في اليهوديّة (حيثُ بدأت المشاكل) بل حتى في روما.

ويضيف في تعليق جانبي ساخر: «قام نيرون بذلك؛ لأن كلَّ الممارسات المُهينـة والمُخزيـة قد تجمَّعت ونَمَتْ في العاصمة».

بلينيوس الأصغر[3] هو صديق وطالب تاسيتوس، قد ذكر المَسيحيين أيضاً. وقد سنحت له الفرصة باستجواب عدد منهم بشكل رسمي، وقد أبلغ روما بأنّهم كـانوا يغنُّـون التراتيـل لشخص يُدعَى خريستوس «Christus» كما لو أنّه كان الرّبّ».

---

(1) تَرْتُلْيان: لاهوتي نصراني قرطاجيّ. قال بأن الإيمان الأعمى هو السبيل الأوحد للخلاص. المُترجم.

(2) هذه التسمية هامَّة بالنسبة للكاتب، فهو يقصد أن اسم «المَسيحيين» كان لطائفة لا تمـتُّ للرومـان بـصلة في تلـك الأوقات، وكما سنرى في الفقرة القادمة، هي كانت لطائفة السَّيِّد المَسيح؛ أيْ لليهود. المُترجم.

(3) سُمِّي الأصغر؛ لأن هناك عالماً يُسمَّى بلينيوس الأكبر، أو «الأرشد»، والذي هو عالم روماني. صـاحب موسـوعة «التاريخ الطبيعي» Historia Naturalis. المُترجم.

يُصوِّر الكاتبان الوثنيان من القرن الثاني – لوتشيان، وسيلسوس – السَّيِّدَ المَسيحَ ساحراً، و«مُثيرَ تمرُّد»، الأمران كلا هما كانا نشاطَيْن، يُعدَّان جرائم تحت القانون الروماني، وكانت عقوبتها الموت. لدينا – أيضاً – الاقتباس التالي الذي أوردناه مُسبقاً عن المُؤرّخ سوتونيوس الذي كتب عن الفترة بين عامَيْ 117 – 38 بعد الميلاد، والذي يوضّح بأنّه أثناء حُكْم كلوديوس، مارس اليهود أعمال شغب في روما، بتحريض من شخص اسمه «خريستوس».

إذاً؛ هناك القليل من الشَّكِّ أن عيسى «خريستوس» – المَسيح المُنتظَر – كان – حقّاً – موجوداً، بما أن هؤلاء الكُتَّاب الرومان – على الأصحّ – ذكروا واقعية هذا الأمر. والأكثر من ذلك أن كلّ هؤلاء الكُتَّاب الرومان أجمعوا على أن كلّ السجلّات أظهرت أن هذا المَسيح المُنتظَر حُوكِم و«أُعدِم» لأسباب سياسية.

ولكنْ؛ لا يجب أن نكون واثقين جدّاً:

ما هو بالتحديد الشيء الذي تحدَّث عنه هؤلاء الكُتَّاب؟

مَنْ هو الشخص الذي يتكلَّمون عنه؟ لربما – هم – يتكلَّمون عن «كرستوس»، أو «خريستوس» – أيْ «المَسيح المُنتظَر» – ولكنّنا مازلنا لا نعرف اسمه. يمكننا – فقط – أن نتأكّد بأن بيلاطس البنطي – أثناء عهد تَيْبِريوس – أعدم «المَسيحَ المُنتظَر» اليهودي، الذي كان ثائراً سياسياً ضدّ روما، وهكذا استحقّ حُكْم الصَّلْب. مِنْ هذا «المَسيح المُنتظَر» نَمَت الحركة التي سُمِّيت – في نهاية القرن على الأقلّ – بـ «المَسيحية».

لو حاولنا بقدر استطاعتنا، لن نستطيع الابتعاد عن أهمية القرن الثاني بعد الميلاد، وهي فترة بداية تسجيل ديانة السَّيِّد المَسيح. إنّ الجزء الأقدم من كلّ أجزاء العهد الجديد الذي لدينا هو إنجيل يُوْحَنَّا، الذي كُتِبَ عام 125 بعد الميلاد في مصر (موجود – الآن – في مكتبة جون ريلاندز في مانشستر، إنجلترا)، ولكنّ النصّ أو التعاليم التي كُتِبَ منها ذلك الإنجيل تعود – بشكل واضح – إلى تاريخ أقدم بكثير. في نهاية القرن، أصبح لدينا مئات من الوثائق التي تُمثِّل العديد من النصوص المختلفة، من الأناجيل إلى أعمال الرُّسُل المختلفة. الأستاذ هيلموت كوستر من جامعة هارفارد يُحلِّل عدداً كبيراً نسبياً من هذه الأعمال في كتابه «الأناجيل المَسيحية القديمة».

هناك عدد كبير جدّاً منها - إنجيل بُطرُس، إنجيل تُوما، الإنجيل السّرّيّ لَمْرْقُس، الإنجيل طبقاً للمصريين، ثمّ رسائل كليمنت أسقف روما، وأُخرى لبُطرُس، ووثائق مثل الأبوكريفا[1] ليعقوب، وحوار المُنقذ، والنصوص المجهولة التي سُجِّلَتْ في «ايجرتون بابيروس» رَقْم 2 في المتحف البريطاني، وعدد من القَصَص البدائية. كلّها كانت موجودة في القرن الثاني بعد الميلاد، وكلّ منها لديه فرصة جيدة جدّاً لحَمْل بعض المعلومات الأصلية والصحيحة حول السَّيِّد المَسيح، والتي اشتُقَّتْ إمَّا من سجلّ شفهي، أو من تجميع مختلف قديم من «الأقوال».

بمثل هذه التشكيلة الواسعة من «مذكّرات السَّيِّد المَسيح» التي كانت قد سُجِّلَتْ، ليس من المفاجئ نشوء بعض النظريات المختلفة جدّاً. علاوة على ذلك، ليس من المفاجئ - أيضاً - أن ميولاً ما معيّناً حاول السيطرة على الوضع: وهو ذلك المستند على عمل بُولُس، والذي كان مدعوماً من قِبَل أولئك المَسيحيين، مع خلفية وَثَنية (بدلاً من اليهودية).

رسائل بُولُس في العهد الجديد مختلفة جدّاً عن الإنجيل. أولاً، بُولُس لا يقدِّم أيّة قَصَص عن السَّيِّد المَسيح. بُولُس يقدّم - فقط - قَصَصاً عن بُولُس. بُولُس لم يعرف السَّيِّد المَسيح شخصياً - بقدر ما نعرف - وتعاليمه تستهدف أولئك المُنشقِّين المحتملين، الوَثَنيين، ومن المهمّ أن القيادة المَسيحية اليهودية في القُدْس تحت توجيه يعقوب، شقيق السَّيِّد المَسيح، استطاعت إبعاد بُولُس عن إسرائيل، مُرسلة إيَّاه بعيداً نحو الساحل إلى إنطاكية، وإلى مكان آخر. لابُدَّ أنهم كانوا على يقين بأنه لم يكن إلى صَفِّهم. يعقوب والآخرون كانوا قلقين جدّاً بشأن المحافظة على الشريعة اليهودية، بينما اقترح بُولُس بأنّ الشريعة كانت على صلة قليلة بتلك النقطة المُتعلّقة بالمحافظة على الدِّين؛ بحيث أن الوثنيين يمكنهم أن يصبحوا مَسيحيين بدون التقصير بتعاليم الشريعة كلّها. بينما بالنسبة للقدّيس يعقوب كان ذلك لعنة، فكما يقول في رسالته: «ومَنْ عمل بالشريعة كلّها، وقصَّر في وصية واحدة منها، أخطأ بها كلّها». يعقوب (2: 10).

---

(1) الأبوكريفا: أربعة عشر سِفْراً تلحق - أحياناً - بـ «العهد القديم» من الكتاب المُقدَّس، ولكنَّ البروتستانت لا يعترفون بصحَّته. المُترجم.

نظرة بُولُس، بالمقارنة، كانت: «وإنما اليهودي هو اليهودي في الباطن، والختان هو ختان القلب بالروح، لا بحروف الشريعة. هذا هو الإنسان الذي ينال المديحَ من الله، لا من البشر» رومة (2: 29). تمسّك بمرونة الشريعة اليهودية: «فنحنُ نعتقد أن الإنسان يُبرَّر بالإيمان، لا بالعمل بأحكام الشريعة، أَ فيكون اللهُ إلهَ اليهود وحدهم؟ أَمَا هو إله سائر الأمم أيضاً؟! بلى هو إله سائر الأمم؛ لأن الله واحد يُبرِّرُ اليهودَ بالإيمان، كما يُبرِّر غيرَ اليهودِ بالإيمان. وهل يعني هذا أننا نُبطل الشريعة بالإيمان؟ كلا، بل نُثبت الشريعة». رومة (3: 28-31).

هذا يقودنا إلى خطِّ الخطأ الأساسي الذي فصل تعاليم الشريعتَيْن القويَّتَيْن في فترة انتقال المَسيحية إلى القرن الثاني بعد الميلاد: في الجهة الأولى كان أولئك الذين أرادوا المعرفة، وفي الجهة الأخرى كان أولئك الذين كانوا راضين بالإيمان. من المهمّ بأنْ نُميِّز بين الاثنَيْن، بما أن خطّ الخطأ هذا هو أحد القوى الأساسية الذي تبلور – في النهاية – الموقف المَسيحي التقليدي.

«الإيمان هو الوثوق بما نرجوه، وتصديق ما لا نراه»، هكذا كتب بُولُس في رسالته إلى العبرانيين (11: 1). لكنَّ الإيمان هو شيء أقلّ من المعرفة. دائماً كنتُ أعدُّ ذلك بديهياً، ولكنْ؛ دعوني أوضِّح بمثال.

المرء قد يكون خائفاً من النار؛ لأن المرء يعتقد بأن وَضْعَ اليد بالنار سيحرقها، وستكون النتيجة الألم الشديد. المرء يمكنه الإيمان بأن ذلك صحيح. ولكنَّ المرء لا يستطيع أن يعرف بصِدْق كيف هو ذلك الألم ما لم يضع يده – حقيقة – في النار، ويتألم نتيجة الحرق الناجم. هذه المعرفة التجريبية – وهي مختلفة مثلاً عن معرفة أن اثنَيْن زائد اثنَيْن يساويان أربعة – تُدعَى في اليونانية بالمعرفة الروحية «gnosis».

لهذا السبب تماماً، أعضاء المجموعات الباطنية – ضمن الدّيانة المَسيحية الذين تمنّوا مواجهة الله بأنفسهم – دعوا أنفسهم بالغنوسطيين. لم يُعرَف متى بدأت هذه الفكرة ضمن الدّيانة المَسيحية، ولكنْ؛ نظرة باطنية كهذه تستند على تجربة شخصية عميقة كانت شائعة لفترة طويلة عند جحافل الوثنيين. القرن الثاني بعد الميلاد شهد زيادة كبيرة لشعبية هذه النظرة في أنحاء الكَنيسَة المَسيحية كافة.

الغنوسطيون، على الرغم من تعقيد معظم تعاليمهم الأدبية، كانوا أقلّ تعلُّقاً بالحقائق التي تدور حول السَّيِّد المَسيح والله، وأقلّ تعلّقاً بشأن الإيمان في الكُتُب المُقَدَّسة، والسِّيَر المختلفة من تعلُّقهم واهتمامهم بالمعرفة المباشرة التجريبية لماهيَّة الله. تعلَّقوا - بشكل أقلّ - بالإيمان بكلمات السَّيِّد المَسيح، وأكثر بأنْ يصبحوا مثله تماماً، وبمثل معرفته بالله. كما تُظهر أحد النصوص المعرفية التي وُجِدَتْ في نَجْع حمَّادي في إنجيل تُوما: «عندما تتعرَّفون على أنفسكم، عندها؛ ستصبحون معروفين، وستدركون بأنّكم - أنتم - أبناء الأب الحيّ».

لا يمكن التأكيد بما فيه الكفاية بأنّ المادّة التي استُخْدِمَتْ لدَعْم أيّ من وجهات النظر المنبثقة، التي لا تُعدُّ، ولا تُحصى، قد تمَّ اختيارها باستعمال معايير لاهوتية: شخص ما، أو مجموعة ما، كانت قد جلست وقرَّرت - من منظورهم وفَهْمهم - بأنّ هذا الكتاب يجب أن يُعدَّ «أصيلاً»، وأن ذلك الكتاب يجب أن يُعدَّ «خاطئاً»؛ أيْ كـ«تقليدي»، أو كـ«ضلالي». تلك الأُسُس اللاهوتية التي استُعْمِلَتْ - بالطبع - لم تُبرِّر - آلياً - القرارات التي تمَّ اتخاذها على الرغم من كلّ المناشدات للتوجيه الدِّيني الذي أُصدر. لقد تمَّ اتخاذ قرارات بشرية جدّاً، مستندة على الأولويات البشرية تماماً - والتي تتعلَّق - غالباً - بالسيطرة والسلطة. كما يكتب كوستر: «في الفترة الأسبق للمَسيحية، الصفات «الضلالية» و«التقليدية» كانت بلا معنى». وما هو الشيء الأسخف هو أن تعتقد بأنّ الكُتُب التي لدينا في العهد الجديد هي التعاليم الأصيلة الوحيدة حول السَّيِّد المَسيح. مرة أُخرى، يعلّق كوستر بشكل صريح: «فقط الإجحاف الدوغماتي يمكنه أن يؤكِّد بأنّ الكتابات القانونية تمتلك ادِّعاء خاصّاً إلى الأصل الرسولي، وبالتالي؛ إلى الأولوية التاريخية».

في الحقيقة، العهد الجديد لم يُوضَع حتى تمَّ عقد مجلسَيْ كَنيسَة بنزرت[1] عام 393، وصُدِّقَتْ - مرة ثانية - من قِبَل مجلس قرطاجة بعد أربعة سنوات - على مدى 360 سنة بعد الأحداث التي تُشير إليها.

(1) مدينة تونسية تقع على البحر المتوسّط. المُترجم.

حوالي عام 140 بعد الميلاد، مالك سفينة ومُتحوّل إلى المَسيحية، يُدعى ماركون، سافر من بلده الذي يقع في بنطس[1]، وذهب إلى روما؛ حيث شكّل مجتمعه الخاص، والذي منه أسّس مجتمعات في كافة أنحاء الإمبراطورية الرومانية. كلُّ كتاباته فُقِدَتْ، لكنْ؛ طبقاً لنُقَّاده، هو ادَّعى بأنّ بُولُس هو الوحيد الذي كان يعرف الحقيقة: عدَّ بأن الأتباع الآخرين كانوا مُتأثّرين جدَّاً من قِبَل الدّيانة اليهودية. رفض «العهد القديم» كُلِّيّاً، واستعمل - فقط - بعضاً من الرسائل البُولُسية، بالإضافة إلى نسخة مُحرَّرة للقدّيس لُوقَا، والتي كان يدعوها باسم «الإنجيل». يبدو أنه كان الشخص الأسبق في استعمال هذا التعبير فيما يتعلّق بالنص المكتوب. مُنظّمته كانت الكَنيسَة المَسيحية الأولى التي كانت تمتلك كتابها المُقَدَّس الخاص. بالنسبة له، المَسيحية كان لابُدَّ عليها - بشكل غير قابل للنقض - أن تستبدل كلَّ شيء من تعاليم «العهد القديم» اليهودي، بما في ذلك كُتُب الرُّسُل. هو - رُبَّما - كان الخطر الأعظم على الكَنيسَة في الفترة ما بين وسط وأواخر القرن الأول، وفي عام 144 بعد الميلاد؛ تمَّ طَرْدُهُ رسمياً من الكَنيسَة في روما.

لكنَّ تأثير استعمال ماركون للنصوص كان ليُجبر التقليد المَسيحي المتزايد على التخلِّي عن التقليد الشفهي، ويبدأ بكتابة تقليد مستند على «الإنجيل»، الذي نُسِبَ تأليفه إلى حواريين مختلفين؛ لكي يُؤسِّسوا شريعة رسمية مُقَدَّسَة مقبولة تُسمَّى أدب «العهد الجديد». هذه الرغبة لصياغة قائمة رسمية من النصوص وَضِعَتْ في شكلها لأول مرة من قِبَل آيرينيوس، أسقف مدينة ليون، التي كانت عاصمة بلاد الغال الرومانية[2].

آيرينيوس وزملاؤه حُرَّاس التعاليم التقليدية لم يكن لديهم أيُّ انحراف ديني عن الشيء الذي تمسَّكوا به، وعدُّوه «الحقيقة». هم لم يُعجَبُوا بالبُولُسية الاستحواذية لماركون؛ ولم يحملوا مطلقاً أيّة مودَّة للغنوسطيين، الذين تمسَّكوا بالاعتقاد بأنّ المعرفة المباشرة للرّبّ هي أرفع من أيِّ اعتقاد،

(1) «Pontus»: سلسلة جبال بنطس، شمال شرق تركية. المُترجم.

(2) فرنسا القديمة التاريخية: في العصور القديمة، هي منطقة أوروبا الغربية، التي تشمل - الآن، تقريباً - فرنسا، وبلجيكا، وأجزاء مجاورة من إيطاليا، وهولندا، وألمانيا. غزاها وفتحها الرومان لأول مرة قبل عام 100 قبل الميلاد، ومرة ثانية في الحروب الغالية (58-51 قبل الميلاد) تحت قيادة يُوليُوس قيصر. المُترجم.

أو إيمان. في مهاجمة لهذا الموقف، قـام آيرينيـوس – تقريبـاً – عـام 180 بعـد المـيلاد بكتابـة عمـل تذكاري وقع في خمسة كُتُب كانت تهاجم الغنوسطية، اشتُهرت بعنوان «ضدَّ البِدَع».

آيرينيوس – بشكل واضح – كان لديه مشكلة كبـيرة مـع الغنوسـطيين. يقـول بـأنهم كـانوا يسحبون أعضاء من رعيته «تحت ادّعائهم بالمعرفة الكُلِّيَّة». يعترض على مهاجمتهم إياه بـالحُجج، والأمثال، والأسئلة المُتحيِّزة. بعد قراءة بعض أدبهم، والتحدّث مع مختلف الغنوسطيين عن أمور تتعلّق باعتقاداتهم، صمَّم على إيجاد طريقة لمهاجمة وتفنيد تعاليمهم، التي كـان – حقّـاً – يمقتهـا. أثناء عملية هجومه الطويلة الأمد، التي تجسَّدت في عمله الأدبي بعنوان «ضدَّ البِدَع» يقوم بتقديم الكثير من المعلومات عنهم، وعن اعتقاداتهم بالتقليدية النامية في أواخر القرن الثاني بعد الميلاد.

هو مُدرك لادِّعاء الغنوسطيين بأنهم على عِلْم ببعض المعلومات السّرّيّة: يقول بـأنهم يـدَّعون «بـأنّ الـسَّيِّد المَـسيح تكلَّـم – بغمـوض – مـع توابعـه وحوارييـه بـشكل خـاصّ». ويـشير – أيضاً – بأنّ اقتراح الفَهْم الباطني الذي جاء من القرن السابق هو مرتبط – بطريقة ما – بإحيـاء الموتى. آيرينيوس يُوضِّح بأن الغنوسطيين لا يؤمنـون بعمليـة الإحيـاء حرفيـاً؛ في الحقيقـة؛ هـم يقتبسون أكثر من الكُتُب المُقَدَّسَة، وخُصُوصاً الحكاية الرمزية، كالقَصَص التي تحتـاج إلى تفـسير لفَهْم الرسالة الخفية. بالنسبة لهم، الإحياء من الموت هي معان رمزية لتجسيد شـخص مـا اختـبر «الحقيقة»، التي تعلَّمها من الغنوسطية.

بشكل مثير للفضول، آيرينيوس يستعمل هذا كإحدى نقاطه لدَحْض الغنوسطية: في الكَنيسَة عملية الإحياء من الموت كانت قد حصلت مرَّتَيْن: مرة في الماضي، ومرة في زمانه. أشار في مكانَيْن عن حادثة واحدة على الأقلّ عن إحياء رجل من الموت، يبدو بأنه يعرفه شخصياً. في هذه الحالـة؛ الرجل الميت بقي حياً لسنوات عديدة بعد ذلك. إنها قـصّة مدهـشة، ومـن المحـزن أننـا لا نعلـم بقيّتها، ولكنّها تعمل كدليل على أن آيرينيوس قد أخطأ في فَهْم الفكرة بعض الشّيء.

لكنْ؛ سواء أخطأ في فَهْم الفكرة، أم لا، آيرينيوس كان حامل الـشُّعلة للتعـاليم التقليديـة في تلك الأوقات الصعبة، التي كان من الممكن للغنوسطية أن تسيطر فيها على الكَنيسَة. لقد أوضـح أيّ الأناجيل الذي يجب استخدامه، وأيّهـا الـذي يجـب نبـذه. أولاً؛ أَبْعَـدَ – سـوية – الأناجيـلَ

الأربعةَ لَمتَّى، ومَرْقُس، ولُوقَا، ويُوْحَنَّا. في الواقع، خلق تعريف مصطلح «المَسيح الإله المُقَدَّس»، الذي يُجسِّد الابن والخالق الأبدي . أوضح بأنّ التنظيم المركزي الموحَّد للكَنيسَة هو مقياس لندائها، وطبيعتها، وحقيقتها العالمية. وهكذا، المركزية والتقليدية أُسِّستا كبراهين للصلاحية والاستقامة: القوّة الطبيعية كانت إحدى براهين الدَّعْم الإلهي. بالمقابل، اللا مركزية كانت دليلاً على الخطأ. بما أنه يوجد هناك إله واحد، وأيضاً؛ يجب أن يكون هناك - فقط - كَنيسَة واحدة، وحقيقة واحدة. حجَّة بسيطة معقولة ظاهرياً، ولكنْ؛ باطلة، رغم ذلك أَقْنَعَتِ الكثيرَ. ورغم ذلك؛ تمتلك اليوم الكثير من المؤيّدين لها في الفاتيكان، وأحدهم - بالطبع - هو البابا.

بينما علماء الدِّين كانوا يحاولون خَلْق مركزية تقليدية للإيمان والاعتقاد، آخرون كانوا يحاولون خَلْق مركزية للبنية الفيزيائية للكَنيسَة، زعماً منهم بأنّ من الأفضل الحُكْم من موقع القوّة المركزية. المخاوف السياسية - التي أُثيرت بالطبع نتيجة الاضطهاد الذي لا يمكننا نسيانه - كانت مهمَّة بقدر أهمية المخاوف اللاهوتية في تشكيل الدّيانة المَسيحية النامية.

تقريباً، في الوقت نفسه؛ الذي كان فيه آيرينيوس يجادل عبر نسخته الجديدة للديانة المَسيحية، كانت الطريقة التي تحكم فيها الكَنيسَة نفسها تتغيَّر. سابقاً، الكنائس المحلِّيَّة كانت قد حُكِمَتْ من قِبَل مجموعة من الرجال - كَهَنَة، أساقفة، لكنَّ هذه البنى الحاكمة كانت - بشكل تدريجي - تصبح مركزية. المجموعة كانت قد استُبْدِلَتْ بأسقف واحد، الذي أصبح يمثِّل السلطة في كلّ أبرشية. يبدو أن هذه العملية بدأت في روما في منتصف القرن الثاني، وأُكملت بأوائل القرن الثالث. بالطبع - ولا يجب أن نُفاجأ - أسقف روما من الواضح بأنّه كان أهمّ من كلّ أولئك الأساقفة. تمنّى بأن يُعرف كالحاكم الأعلى للكَنيسَة على الأرض، كمُمثّل للمَسيح المُنتظَر. البابا ستيفن (254 - 57) كان الأسقف الأول لروما في تبرير هذا الادِّعاء في الأولوية من بين كلّ الأساقفة، امتداداً من خليفته، ووصولاً إلى الحواري بُطرُس. أسند ادِّعاءه على إنجيل مَتَّى (16: 18) (عندما سأل يسوع تلامذته: «ومَنْ أكون في رأيكم أنتم؟» فأجاب سمعان بُطرُس: «أنت المَسيح ابن الله الحي»). فقال له يسوع: «هنيئاً لكَ، يا سمعان بن يونا! ما كشف لكَ هذه أحد من البشر، بل أبي الذي في السماوات.

وأنا أقول لك: أنت صخر، وعلى هذا الصخر سأبني كَنيستي، وقوات الموت لن تقوى عليها». والأكثر من ذلك أنه تمَّ الادِّعاء أن بُطرُس قد جاء إلى روما في أواخر القرن الثاني تقريباً، وأنه عُيِّن كالأسقف المَسيحي الأول في المدينة.

على أية حال، سنة 258، طلب الإمبراطور فاليريان[1] الإعدامَ الفوري لكلّ الأساقفة المَسيحيين والكَهَنَة والشمامسة. الكثير أُعدموا، ولكنَّ الكثير بقوا على قيد الحياة. فوائد السلطة المركزية – رُبَّما – كانت ظاهرة جدَّاً لزعماء الكَنيسَة المَسيحية، والذين لابُدَّ وأنهم شعروا بأنه لابُدَّ لهم من أن يحصلوا على الفرصة، التي يستلمون فيها سلطة كهذه لأنفسهم.

فرصتهم الأولى جاءت أثناء عهد قسطنطين. بالرغم من أنّه لم يعمّد مَسيحياً، إلا عندما كان على فراش الموت، إلا أنه – على الأقلّ – سُمح للمَسيحية بالازدهار في ظلّ حُكْمه. أراد قسطنطين الوحدة؛ دعا مجلس «Nicaea» (إزنيك اليوم) لمعارضة أفكار آريوس الزنديق[2]. الهدف كان أن يحصل على دَعْم فكرة أن السَّيِّد المَسيح كان «كائناً واحداً يجمع الآب والابن»، وهو ادِّعاء عارضه آريوس، وآخرون؛ بالنسبة لهم، السَّيِّد المَسيح لم يكن مُقَدَّساً. كما تُصرِّح أستاذة جامعة برنستون[3] إلين باجلز بطريقة جافَّة: «أولئك الذين عارضوا هذه العبارة أشاروا بأنّ ذلك لم يحدث، لا في الكُتُب المُقَدَّسَة، ولا في التعاليم المَسيحية». لكن الاعتراضات أثبتت أنها بلا أهمية لعلماء الدِّين عديمي الرحمة سياسياً، الذين سافروا إلى إزنيك، وهم يضعون جدول أعمال في ذهنهم.

المجلس – بشكل واضح – عُقد ضدّ وجهات نظر آريوس، لكنَّ حضور مُؤيّديه خَلَقَ عاصفة ومناقشات حادَّة في تلك الاجتماعات. في الحقيقة، يبدو من المحتمل أنه أثناء نوبة غضب شديدة قام أسقف بلدة ميرا بمهاجمة الزاهد آريوس النحيل الجسم، كما هو مُصوَّر في الصور التقليدية لتلك الأحداث. المناقشات والاعتراضات فاضت من المجلس؛ لتخرج إلى شوارع إزنيك:

---

(1) «Valerian»: (توفي عام 260 م.): إمبراطور روماني (253 ـ 260 م.). اضطهد النصارى. المُترجم.

(2) آريوس: لاهوتي نصراني يوناني. قال بأن المَسيح مخلوق، وليس إلهاً. المُترجم.

(3) في نيوجرسي. المُترجم.

محاكاة ساخرة عن النزاعات مُثِّلَتْ - بشكل ساخر - في المسارح العامّة، وفي كل مكان حول المدينة تمَّ النقاش حول النزاعات بين تجّار السُّوق، وأصحاب الدكاكين، والصرّافين. استفسرْ عن سعر الخبز وسيتمّ إخبارك «الابن أقلّ شأناً من الأبّ»، واسأل إنْ كان الحمّام جاهزاً، وسيتمّ إخبارك «قيامة الابن حصلتْ من لا شيء».

في النهاية، تمَّ الاحتكام إلى التصويت. إنّ النتائج الصحيحة مُختَلف عليها، ولكنّه معلوم بأنّ آريوس واثنَيْن من زملائه صوَّتوا ضدّ المرسوم؛ إنّ النتيجة المعروفة هي 217 إلى 3. آريوس وزملائه نُفِيَا إلى منطقة الدانوب.

في مُلحق غريب ومدهش لهذه الحادثة، أنه عندما قسطنطين كان على فراش موته، عُمِّد، وأن المراسم أُدِّيَتْ من قِبَل عضو في الكَنِيسَة الآريوسية الضلالية. هذا يكشف بأنّ تفاصيل علْم اللاهوت بالنسبة لقسطنطين كانت أقلّ أهمية من تبنِّي أيّة فكرة تخدم - بشكل أفضل - الوحدة التي كانت بالنسبة له الاستقرار، الذي كان قلقه الأهمّ.

بهذا القرار، مجلس إزنيك خَلَقَ - حرفياً - شخصية السَّيِّد المَسيح الخيالية الدِّينية، وتبنَّى الزعم بأنّ هذا كان إعادة تاريخية دقيقة. أعمال هذا المجلس أسَّست - أيضاً - المعايير التي تمَّ فيها - لاحقاً - اختيار كُتُب العهد الجديد. مجلس إزنيك أنتج عالماً من المَسيحية، تمَّ فيه - بشكل عامّ - تبنِّي مجموعة من القوانين الدِّينية. أيّ شئ مختلف كان سيُرفَض ويُعَدُّ بِدْعَةً، ويجب إبادته، إنْ أمكن.

نحن مازلنا - اليوم - نعاني من ذلك. في تحرّك غير عادي لإحدى الأكاديميات، تُدعى باجلز، التي كانت خبيرة في النصوص الغنوسطية، قامت بتقديم ملاحظة شخصية في كتابها الذي يحمل عنوان «ما بعد الإيمان: الإنجيل السّرّيّ لتُوما». الملاحظة تواجه نقطة حاسمة ذات نتائج بعيدة المدى تقول: إن ما لا تحبّه في الكَنِيسَة هو «المَيْل لرَبْط المَسيحية بمجموعة رسمية وحيدة من المعتقدات... اقتُرِنَتْ بالاتهام بأن الدِّين المَسيحي - فقط - هو الذي يمنح الوصولَ إلى الله».

في إدراك للكلفة العالية للفشل، عزَّز أساقفة روما قوَّتهم - ولأعلى درجة كان البابا داماسوس(366 - 84 «Damasus م»، الذي استأجر مجموعة من القَتَلَة لقضاء ثلاثة أيام في

ذَبْح معارضيه. عندما داماسوس استعاد السيطرة على السلطة، قام بتسمية روما بـ «المقرّ البابوي»؛ بكلمة أُخرى، هي المكان الوحيد في الكَنيسَة كلّها الذي قد يحصل على وراثة متسلسلة للباباوات، وبذلك؛ يحافظ ويعمل وريثاً شرعياً لسلطتهم، ووظيفتهم. بالطبع؛ هذا الادِّعاء أَبْعَدَ القُدْسَ عن الدائرة. أيُّ فرد من الزَّيْلُوت تابع للسَّيِّد المَسيح كان سيَعُدُّ – بشكل واضح – أن هذا الادِّعاء غير معقول، وغير صحيح.

متجاهلاً لأيّة نتائج، ادَّعى داماسوس بأنه الوريث الحقيقي والمباشر لبُطرُس، وبالتالي؛ ورث – بشكل شرعي – الكَنيسَة التي أسسها السَّيِّد المَسيح قبله. كسلطة نهائية على الأرض، أسَّس داماسوس – أيضاً – المبدأ القائل بأن المقياس الحقيقي لأيّ مذهب – لكي يكون قوياً – هو أن يحصل على تصديق بابوي. في مثل هذا الأسلوب الصارخ، كان قد فُرِضَ ادِّعاء الخلافة البابوية.

البابا اللاحق سيريسيوس (384–99 م)، قلَّد المجلس الإمبراطوري بإصدار أوامر تشريعية تُعَدُّ غير قابلة للنقاش، أوامر يجب إطاعتها على الفور. تحت سلطته الدوغماتية[1]، تمَّ – أخيراً – حلّ شريعة العهد الجديد في مجلس كَنيسَة بنزرت عام 393 م، ومجلس قرطاجة في عام 397 م.

هذه العملية العَلَنية في أَخْذ السلطة ومَرْكَزَتها استمرَّت:

البابا إينوسنت الأول (401 – 17) قدَّم الادِّعاء – الذي هو – الآن – أمر حتمي – أن المقرَّ البابوي «روما» يُمثّل السلطة العليا في الكَنيسَة المَسيحية. لكن أعظم الباباوات في الحصول على السلطة كان «ليو الأول» (440 – 61)، الذي أسّس – أخيراً، وبدون مساومة – الادِّعاء الذي يستمرّ لهذا اليوم: أن السَّيِّد المَسيح منح السلطة الأعلى من الكَنيسَة إلى بُطرُس؛ وبأنّ هذه السلطة أُرسلت من بُطرُس إلى كلّ أسقف يحضر في روما؛ وأن أسقف روما «البابا» هو «رئيس كلّ الأساقفة» في الكَنيسَة، ويُعَدُّ «تجسيداً باطنياً» لبُطرُس. أمَّا وريثه البابا جاليسيوس الأول (492 – 521)؛ فقد كان له النصيب في أن ينطق بأكثر التعليمات تغطرساً: كتب إلى الإمبراطور يوضّح بأنّ العالم حُكِمَ بقوَّتَيْن عظيمَتَيْن – السلطة الروحية المُمثَّلة بالبابا، والسلطة الدُّنيوية المُمثَّلة بالإمبراطور. ومن بين الاثنتَيْن، يوضّح بأن سلطة البابا

---

(1) المؤكَّدة من غير بيّنة أو دليل. المُترجم.

مُتفوِّقة؛ لأنها «وُجِدَتْ لإنقاذ الدنيويين» في المجمع الكَنَسي، الذي عُقد في روما في 13 مايو/ مايس 495، جاليسيوس كان البابا الأول الذي يُدعَى بـ«مُمثِّل السَّيِّد المَسيح».

في الوقت نفسه الذي أصبحت فيه الهيمنة اللاهوتية بالنسبة للكَنيسَة مطلوبة وموجودة، قامت الكَنيسَة بتحرُّك ينمُّ عن الدهاء، والفطنة، وذلك بالسيطرة المادية على المواقع الوثنية، وعلى أعيادهم - مثلاً عيد ولادة مثرا إله النور في 25 ديسمبر/ كانون الأول، أصبح العيد الذي مانزال نحتفل به حتى اليوم. تبرير الكَنيسَة كان - بشكل واضح - من قِبَل البابا جريجوري الأول (590-604)، عام 601 م، في أوامره إلى رئيس دَيْر ليغادر إلى بريطانيا؛ كتب البابا: (وصلنا إلى نتيجة:

أن معابد الأصنام بين ذلك الشعب يجب أن تُدمَّر، مهما كان السبب. الأصنام ستُحطَّم، لكن المعابد - بحَدِّ ذاتها - سترُشّ بالماء المُقَدَّس، وستُوضَع فيها المذابح، وتُودَع فيها الآثار المُقَدَّسَة. إنْ كانت هذه المعابد متينة البنية، يجب أن تُنقَّى من عبادة الشياطين، وتُكرَّس لخدمة الإله الحقيقي. بهذه الطريقة، نحن نرغب بأن يرى الناس أن معابدهم لم تُحطَّم، وأنهم قد يتركوا ذنوبهم، ويتجمَّعون - بسهولة أكثر - إلى ملاجئهم التي اعتادوها، وربما يتعرَّفون، ويعشقون، الإله الحقيقي. وبما أنهم اعتادوا التضحية بالعديد من الثيران إلى الشياطين في مناسبات عديدة، فلنستبدل ذلك باحتفالات جليلة، كـ«يوم التكريس»، أو احتفالات الشهداء المُقَدَّسين، الذين توجد آثارهم المُقَدَّسَة هناك).

بالرغم من أن الكَنيسَة - بمساندة التقاليد المتزايدة، لربما - تركت المذابح سليمة، إلا أنها - بالتأكيد - لم تتجنَّب تدمير، أو إعادة، صياغة الوثائق. لذا؛ كيف شعر الناس - تماماً - حول هذا؟

دعونا نُحوِّل انتباهنا إلى يونابيوس؛ لنكتشف ذلك. يونابيوس كان مُعلِّماً يونانياً لفنّ الخطابة، والذي عاش من عام 345 حتى 420 بعد الميلاد. فنّ الخطابة هو فنُّ التعبير المُقنع، والرائع، إمَّا عن طريق الكتابة، أو عن طريق الخطاب. مستشارنا الحديث هو وريث للتقنيات التي أتقنها القدماء. في عُمر السادسة عشر، ذهب يونابيوس للدراسة في أثينا. بينما كان هناك،

تعرَّف على (الألغاز الإليُوسِنيانيّة)[1]. أصبح قسّيساً في كُلِّيَّة يومولبيدي، خارج أثينا تماماً. يومولبيدي كانت إحدى «عوائل» الكَهَنَة، الذين قاموا بتجريب وتعليم ألغاز دِيْمَتْر وبيرسيفون في إيليوسين «Eleusis» لنخبة من التلاميذ، من الرجال والنساء، الذي أثبتوا جاهزيتهم لتعلُّم هذه الألغاز. هؤلاء البضعة كانوا يُسمّون بالمبتدئين.

بعد خمس سنوات في أثينا، عاد يونابيوس إلى مدينته الأصلية ساردیس في تركيا، وانخرط مع مجموعة محلِّيَّة من الفلاسفة الأفلاطونيين، تعلَّم الطِّبَّ، والسِّحرَ ؛ هو عمل عمليّ جدّاً باستخدام القوى الدّينية باستخدام الطقوس، والرقص، والموسيقى. هو كان حيّاً عندما منع الإمبراطورُ ثيودوسيوس[2] كلَّ الأديان الوثنية عام 391 بعد الميلاد، لكنْ؛ على الرغم من المخاطر؛ قام يونابيوس بانتقاد المَسيحية – بعنف – في كتاباته.

كتب يونابيوسُ قَصَصاً سِيَرِيَّة عن الفلاسفة المعاصرين. نقَّب – أيضاً – عن التاريخ العامّ، وقام بكتابة ملحق لقصة منشورة من قِبَل كاتب آخر. يونابيوس قام بإضافة تفاصيل لهذا الكتاب، مُغطِّياً الفترة الزمنية بين عامَيْ 270 – 404. انتهى عام 414 بعد الميلاد. لسوء الحظ؛ قطع صغيرة – فقط – من هذا التاريخ بقيت على قيد الحياة. لكنْ؛ هناك لغز حول هذه الخسارة.

الإمبراطور قسطنطين حَكَمَ من عام 306 إلى عام 337 بعد الميلاد، وفي عهده دعا مجلس إزنيك أن السَّيِّد المَسيح هو «الرّبّ». وفي عهده؛ أصبحت المَسيحيةُ الدِّينَ الرسمي للإمبراطورية الرومانية. كان ذلك ضدّ رغبات الكثير. في اهتمامه في توحيد الإمبراطورية، يبدو أن قسطنطين اتخذ – فقط – وجهة نظر سياسية بالنسبة للدِّين. في الحقيقة – كما رأينا – لم يعتنق الدّيانةَ المَسيحية إلا عندما كان على فراش الموت.

يونابيوس – كمؤمن فيما كان يعدُّه المَسيحيون ديناً وثنياً – يمكن الاعتماد عليه في كراهية هذه التغييرات عُمُوماً، والمَسيحية بشكل خاصّ. يمكننا أن نكون متأكِّدين بأن قصته عن عهد قسطنطين

---

(1) Eleusinian: طقوس يونانيّة قديمة: مهرجان يونانيّ قديم يُعقد سنوياً في إيليوسيس «Eleusis» وأثينا تكريماً واحتفالاً بـ«بيرسيفون وديمتر وديونيسوس». المُترجم.

(2) «Theodosius» ثيودوسيوس الأول الكبير (347 ـ 395 م.): إمبراطور روماني (379 ـ 395 م.). قسّمَ الإمبراطورية إلى جزأين شرقيّ وغربيّ. المُترجم.

وُجِهَتْ - بشكل ناقد جدّاً - بالعداوة، ولربما بالغضب في مُلحقه للقصة المنشورة آنذاك. ربما كان ذلك ضرراً جسيماً للتعاليم المَسيحية النامية في أوائل القرن الخامس. يونابيوس - كأحد أتباع السِّحْر، ربما - كان لديه بعض الأشياء المثيرة ليقولها عن موضوع الإمبراطور جوليان (361 - 63 بعد الميلاد)، الذي كان - أيضاً - مُحبّاً للتقنية الطقوسية، والذي حاول إرجاع الإمبراطورية إلى الوَثَنية، بشكل محدَّد إلى المبدأ الأفلاطوني المُنقَّح، الذي أسَّسه أحد أعظم وأكثر الفلاسفة قدراً في أواخر الأزمنة الكلاسيكية، آيامبليشس «Iamblichus»[1] من أفاميا (تقريباً بين عامَيْ 240-325 م).

قصَّة يونابيوس ستكون نصّاً مثيراً جدّاً، لو أنها موجودة اليوم. من المحزن أننا كنّا سنحصل على نُسخة من كتاب يونابيوس لو أن الفاتيكان - لحاجتها المستمرة لحماية نظرتها المخادعة عن السَّيِّد المَسيح، وعن الدّيانة المَسيحية - لم تُخفِ الكتاب الذي كان موجوداً في مكتبة منيعة في الفاتيكان حتى أواخر القرن السادس عشر.

أُبلِغَ عن هذا الكتاب من قِبَل العالم الكلاسيكي مارك أنتوين دو موريت، الذي كان عام 1563 يحاضر في الجامعة في روما. هناك رأى نسخة عن تأريخ يونابيوس في مكتبة الفاتيكان. وجده مثيراً جدّاً، لدرجة أنه سأل الكاردينال سيرلت - أحد العلماء البارزين في الفاتيكان - لإنشاء نسخة. لكنَّ سيرلت رفض، وبدَعْم من البابا، وذكر بأنّ كتاب يونابيوس هذا هو «أثيم، وشرِّير». ما إنْ تمَّ الانتباه مرَّة لهذا الكتاب، السلطات أرادت حلّاً للمشكلة. وكان الحلُّ بسيطاً جدّاً: أحد العلماء اليسوعيين المثقّفين ذكر - لاحقاً - بأنّ كتاب قصَّة يونابيوس «قد فُنِيَ بعناية إلهية مُقَدَّسَة». بلا شكّ؛ العناية الإلهية تصرَّفت مُستخدمة عملاء أدنى من القداسة، عملاء من البشر.

---

(1) آيامبليشس: مُعلِّم فيلسوف سوري، شخصية رئيسة وداعية للأفلاطونية. وُلِدَ في أفاميا، في سوريا. وقع تحت تأثير الأفلاطونية اليونانية. في سوريا أسَّس مدرسته الخاصة، التي حاولت دَمْج أفكار أفلاطون مع أفكار عالم الرياضيات والفيلسوف اليوناني فيثاغورس، بالإضافة إلى بعض العناصر الباطنية، وحتى السِّحْرية من الدّيانات الشرقية؛ للتوصّل إلى نظام متماسك وحيد. نجح في تحويل الأفلاطونية الفكرية والروحية المحضة إلى شكل مُعقَّد لدرجة أكبر حتى من الفلسفة الدّينية الوَثَنية، والتي أصبحت تتضمَّن الأساطير والمناسك والصيغ السِّحْرية. من بين أعماله «في الألغاز المصرية» (On the Egyptian Mysteries)، و«في الحياة الفيثاغورية» (On the Pythagorean Life). المُترجم.

الفاتيكان لديها تاريخ حافل في الحصول على - وتدمير - النصوص التي تناقض الأسطورة، التي تُعلن على أنها التاريخ الحقيقي.

ما مقدار ما تمَّ تحطيمه عدا ذلك على مرّ السنين؟!

وما مقدار ما بقي - عدا ذلك - هارباً من مسعى الفاتيكان المستمرّ والعنيد خلف الضلاليين؟

لا أحد يمكنه أن يكون متأكّداً.

بحلول القرن الخامس بعد الميلاد، نصرُ السَّيِّد المَسيح الدِّيني على السَّيِّد المَسيح التاريخي كان قد اكتمل في نواحيه العملية كلّها. إنّ الأسطورة التي تقول بأن الاثنَيْن - هما - واحد أصبحت مبرَّرة بشكل لاهوتي، وفي حَدِّ ذاته حقيقة مقبولة. على أية حال، حماة التعاليم التقليدية لا يستطيعون - بالطبع - أن يرتاحوا؛ لأن البدعة تنخر في عظامهم وتأكل عقولهم، لدرجة تُعجزهم عن النوم. قاموا - بلا رحمة - بحماية الدِّين، بالتعامل مع المَسيحيين ما قام به الأباطرة الوَثَنيين سابقاً. عام 386 بعد الميلاد؛ قاموا بإعدام بريسيليان أسقف أفيلا، على أساس أنه مُهرطق. كان هذا الإعدام الأول الذي أمرت به الكَنيسَة؛ لكي تدافع عن مكانتها.

الطُّرُق كلّها أدَّت إلى روما، ولكنْ؛ على مدى القرون اللاحقة، كذلك كان العدد المتزايد لأنهار الدم. ثمن الوحدة اللاهوتية لم يُدفَع - فقط - بالذهب، بالرغم من أن ذلك يجد دائماً الترحيبَ في أيدي الكَنيسَة - ولكنْ؛ بالحياة أيضاً.

موت بريسيليان كان سابقة مأساوية. من المُحزن أنها كان تُكرَّر غالباً - وفي المرَّات كُلّها - باسم المَسيح المُنتظَر اليهودي، الذي أوصى بالسلام.

اليهوديّة وعيسى والمَسيحية

قبل 4 ق.م[1] ولادة السَّيِّد المَسيح، طبقاً لإنجيل مَتَّى (1:2). موت هيرودس العظيم.

4 ق.م وفاة هيرودس العظيم

6 م ولادة المَسيح، طبقاً لإنجيل لُوقَا (2: 1-7). وفق إحصاء كيرينوس، حاكم سوريا.

27-28 م معمودية السَّيِّد المَسيح (تاريخ تقليدي) في السنة الخامسة عشر لعهد الإمبراطور تيبريوس (لُوقَا 3: 1-23).

30 م صَلْب السَّيِّد المَسيح، طبقاً للثقافة الكاثوليكية.

ت 35 م بعد زواج هيرودس أنتيباس وهيروديياس تقريباً سنة 34 م، إعدام يحيى المعمدان، بعد الدليل في جوزيفس.

36 م عيد الفصح - صَلْب السَّيِّد المَسيح، طبقاً لجدول أحداث إنجيل مَتَّى.

36-37 م التحوُّل الدِّيني لبُولُس في الطريق إلى دمشق.

ت 44 م إعدام يعقوب، شقيق السَّيِّد المَسيح.

50-52 م بلوس في كُورِنْثُوس[2]، يكتب رسالته الأولى (إلى الثيسالونيكيين).

61 م بلوس في روما تحت الإقامة الإجبارية.

ت 65 م يُفترَض إعدام بلوس.

66-73 م حرب في اليهودية. الجيش الروماني تحت قيادة فَسْبازيان يغزو اليهودية.

ت 55-120 م حياة تاسيتوس، مُؤرِّخ وعضو مجلس الشيوخ الروماني، الذي ذكر السَّيِّد المَسيح.

ت 61-114 م حياة بليني الأصغر، الذي ذكر السَّيِّد المَسيح.

ت 115 م أغناطيوس لُوْيولا أسقف إنطاكية، اقتبس من رسائل بُولُس.

ت117-138 م سوتونيوس، مُؤرِّخ روماني، ذكر «خريستوس».

ت 125 م النموذج الأول المعروف للإنجيل المَسيحي، يُوْحَنَّا (18: 31-33)، بردي ريلاندز، وُجد في مصر.

ت 200 م الجزء الأقدم المعروف من رسائل بلوس، بردي تشيستر بيتي، وُجد في

---

(1) م: ميلادي، ق.م: قبل الميلاد، ت: تقريباً. المُترجم.

(2) بلد في اليونان. المُترجم.

	مصر.
ت 200 م	الإنجيل الأقدم الكامل عملياً (يُوْحَنَّا)، بردي بودمير، وُجد في مصر.
325 م	مجلس نيكيا «Nicaea»[1] (إزنيك) الذي عُقد من قِبَل الإمبراطور الروماني قسطنطين. إنّ ألوهية السَّيِّد المَسيح جُعِلَتْ عقيدة رسمية بتصويت 217 مقابل 3.
393-397 م	مجلس كَنيسَة بنزرت، الذي شكّل العهد الجديد الراهن، وبُتَّ في أمره في مجلس قرطاجة.

(1) بلدة قديمة في تركيا، الآن إزنيك (عند بحيرة إزنيك جنوب شرق اسطنبول)، ازدهرت في عهد الرومان. المُترجم.

القرن الثالث إلى الخامس

250 م — المَسيحيون مُضطَهَدُون تحت حُكْم الإمبراطور الروماني ديسيوس «Decius»، بدأ بإعدام الأسقف الرومي فابيان.

254-257 م — عهد البابا ستيفن الأول، الأسقف الأول لروما في ادِّعاء أسبقية روما على كلّ الأساقفة المَسيحيين الآخرين في وراثة الحواري بُطرُس.

258 م — الإمبراطور الروماني فاليريان يأمر بإعدام كلّ رجال الدِّين المَسيحيون.

303 م — بداية اضطهاد المَسيحيين من قِبَل الإمبراطور الروماني ديوقليتانُس[1] «Diocletian» سيُتبع بوفيّات ودمار واسع الانتشار.

313 م — مرسوم ميلان من قِبَل الإمبراطور الروماني قسطنطين يُعلن الحرية الدِّينية لكلّ المَسيحيين.

324 م — الإمبراطور قسطنطين القسطنطينية (الآن اسطنبول) عاصمة الإمبراطورية الرومانية. كلّ السجلَّات الإدارية متمركزة هناك.

337 م — وفاة الإمبراطور قسطنطين.

366-384 م — البابا داماسوس الأول يمنح روما لقب «المقرّ البابوي» - المكان الوحيد الذي يمكن أن يدَّعي التَّحدُّر الوراثي المُستمرّ من الحواريين. يأمر سكرتيره جيروم بإعادة تنقيح نصّ التوراة.

367 م — أثاناسيوس، أسقف الإسكندرية، يعلن بأنّ كلّ الكُتُب «غير القانونية» في مصر يجب أن تُدمَّر.

386 م — بريسيليان، أسقف أفيلا في إسبانيا، أُعدم بتهمة الهرطقة، وهو أول إعدام من نوعه، تمَّ الأمر به بسبب الهرطقة ضدّ مذهب الكَنيسَة.

390 م — الجيش الغاليّ يحاصر ويدمّر معظم روما.

401-417 م — يؤسّس البابا إينوسنت الأول الادّعاء القائل بأنّ روما تمتلك السلطة العليا في الكَنيسَة المَسيحية.

410 م — القوطيون يسلبون ويدمّرون روما.

440-461 م — يؤسِّس البابا ليو الأول - بشكل رسمي - أسبقية روما في السلطة الوراثية للحواري بُطرُس، والمفهوم القائل بأن البابا هو «تجسيد باطني» لبُطرُس.

إلى متى سيسقط الإيمان في أيدي الوَرَثَة الذاتيي الادِّعاء بأنهم السَّيِّد المَسيح؟ باباوات روما - مُؤخّراً - حملوا على عاتقهم دَهْنَ الأباطرة بشكل طقوسي في مكاتبهم السامية، كجزء من مراسم التتويج، كما لو أنّ البابا يمتلك القوّة لخَلْق المَسيح المُنتظَر. كما لو أنّهم - وحدهم - يحتكرون الممرَّ إلى الحقيقة.

---

(1) ديوقليتانُس (245ـ316 م.): إمبراطور روماني (284 - 305 م.). أصلح الإدارة المالية والجيش. المُترجم.

الفصل السادس

الخوف الأعظم لروما

في الخامس من آب عام 1234 م، كان هناك امرأة فقيرة تستلقي على فراش المـوت في بيـت في تولوز، يمتلكه صهرها. كانت تعتنق ديناً مَسيحياً غامضاً، كان واسع الانتشار في جنوب فرنـسا، في ذلك الوقت، دين الكاثار. هذا الدِّين كانت روما تحتقره، وتخشاه. والكاثار - بالمقابل - كـانوا يُكنُّون لروما السُّوء، والبُغض، على حَدٍّ سواء. بالنسبة للكثير من الكاثار، البابا نفسه كان المَسيح الدجال وكَنيسَة روما - كما قالوا - كانت «عاهرة سِفْر الرؤيا»، أو «كَنيسَة الذئاب».

في ذلك اليوم، زار بعض الكَهَنَة الكاثار تلك المرأة؛ ليقدِّموا لهـا المنـسك الأكثـر قداسـة في دينهم، والذي يُسمَّى «consolamentum» (العـزاء)، والتـي تبـدأ «طقـوس المـوت» بالنـسبة لدينهم، حادثة مشتركة كافية على فراش موت المؤمنين. لكنَّ وصولهم لُوحِظَ من قِبَل مخبر مُعادٍ لدينهم. ربما لأن المرأة كانت معروفة بأنها مؤيّدة للكاثار من قِبَل سُكَّان المدينة، وصهرها عمـل رسولاً للكاثار في تولوز. أسرع المُخبر لإخبار رئيس دَيْر رهبان محكمة التفتيش.

أعضاء ديوان التفتيش الدومينيكانيون[1] كانوا برفقة أسقف تولوز، الذين كانوا - للتوّ - قد تـلا قدَّاساً. كان ذلك اليوم هو الذي تمَّ فيه إعلان قداسة مُؤسِّسهم دومينيك دو غوزمان في تولوز.

الرهبان كانوا على وشك أن يتناولوا وجبة طعام احتفالية. بعد ذلك، وبـ «عنايـة إلهيـة»، تمَّ إخبار رئيس الكَهَنَة عن هذه الزنديقـة، التـي تحتـضر، وبأنهـا - بـشكل علنـي - تخـضع

---

(1) «الرّبّانيون»: أيْ الذين لهم علاقة بالمَسيح بوَصْفه ربّاً. المُترجم.

للمناسك الكاثارية. رئيس الكَهَنَة أخبر - بسرعة - الأسقفَ، الذي كان مُصرّاً على أن يتصرَّف ديوان التفتيش بشكل مناسب مع هذا الشيء المغضب للدِّين الحقيقي، وبدون أيّ تأخير، ولذلك، ترك أعضاءُ محكمة التفتيش وجبةَ الطعام، وأسرعوا بصحبة الأسقف إلى بيت المرأة المُحتضرة. دخلوا غرفتها بشكل مفاجئ جدَّاً، لدرجة أن النداء التحذيري الذي أطلقه أحد الأصدقاء جاء متأخِّر جدَّاً لتفادي المأساة الوشيكة.

جلس الأسقف بجانب المرأة المريضة، وبدأ معها بدردشة هادئة حول معتقداتها. لم تشعر بأيّ خطر أو إنذار، ربما - هي - لم تكن تعرف مَنْ كان يزورها. ربما اعتقدت بأنّه كان أحد الوجهاء الكاثار، بدلاً من أحد المُمثّلين لروما. وبشكل غير مُكترث وواضح، اعتقدت بأنها في صحبة متعاطفة، وبالتالي؛ تكلَّمت بحرية، وأبدت قناعتها بأنّها كانت قد تلقَّت - أخيراً - مناسك الموت الكاثارية قبل موتها، الذي كان من الواضح أنه ليس ببعيد. في الحقيقة؛ موتها كان أقرب ممَّا كانت تعتقد.

الأسقف خدعها، وقام بتشجيعها على الكلام، مختلقاً نوعاً من التعاطف، وقال: «لا يجب عليكِ أن تكذبي، أقول إنه عليكِ أنْ تتمسَّكي باعتقادكِ، ولا حتى الخوف من الموت يجب أن يمنعكِ من الإقرار بأيّ شيء بعيداً عمَّا تؤمنين به وتتمسَّكين به بحزم في أعماق قلبكِ».

المرأة المحتضرة، التي كانت راضية ومرتاحة بإيمانها الكاثاري، أجابت - بهدوء، وكرامة كبيرة -: «سيِّدي، ما أقوله أُؤمن به، وأنا لن أغيّر التزامي بدافع القلق على البقية البائسة من حياتي».

في هذه اللحظة، اسودَّت ملامح الأسقف فجأة، وصرخ بشكل عال على كلّ الحاضرين في الغرفة: «إذاً؛ أنت زنديقة! إنَّ ما اعترفتِ به هو اعتقاد ودين الزنادقة... عليكِ أن تقبلي معتقدات الكَنيسَة الرومانية، والكاثوليكية».

في عرض لشجاعة كبيرة، المرأة المُحتضرة رفضت. لذا؛ الأسقف أعلن رسمياً - وهو يُشهِّد السَّيِّد المَسيح - بأنها زنديقة، وبذلك يُحكَم عليها بالموت. على الفور؛ تمَّ الإمساك بها، وحملها - وهي ماتزال على سريرها - إلى مرج خارج المدينة، يمتلكه كونت تولوز، وهناك - وفي ذلك اليوم الصيفي المعتدل - تمَّ إحراقها حتّى الموت على الفور.

بعد ذلك؛ قام الأسقف ومعاونوه الدومنيكيون بالاحتفال ببهجة، وعادوا أدراجهم عبر شوارع تولوز إلى دَيْرهم الرهباني، وشكروا الله، ومُؤسِّس نظامهم المُقَدَّس. «أكلوا بابتهاج ما كان قد حُضِّر لهم»، كما روى مُؤرّخ هذه الأحداث، وهو راهب دومنيكي كان موجوداً في الغرفة، وختم الحادثة بالقول:

«أدَّى اللهُ هذه الأعمال في يوم العيد الأول لقداسة الدومينيكي المبارك، لمجد وعظمة اسمه...، لسُمُوّ الإيمان ولهزيمة الزنادقة».

«الدومينيكي المبارك» كان راهباً إسبانياً صارماً ومتعصِّباً، دومينيك دو غوزمان، مُؤسّس نظام الدومينيك. انضمَّ إلى الحملة الصليبية المعادية للكاثار منذ البداية، وهكذا كان مشهوراً بحماسه؛ حيث إنه تمَّ في عام 1216 تأسيس نظامه الدومنيكي من قِبَل البابا. علَّمهم – باختصار – أن يُحطِّموا الهرطقة تماماً، ونهائياً، باستخدام الوسائل كافة التي تُثبت أنها ضرورية. دومينيك مات عام 1221، وفي عام 1234، وهي السنة التي أُحرقت فيها امرأة بلدة تولوز وهي حيَّة، جُعِل قدِّيساً من قِبَل أحد أصدقائه، الذي كان قد انتُخِبَ في السنة السابقة ليكون البابا.

أثناء القرن الثاني عشر، وخُصُوصاً في جنوب فرنسا، الكَنيسَة – آنذاك – كان قد سيطر عليها الفساد. بالكاد، أو بالأحرى، لم يكن هناك أيُّ ادّعاء للتقوى بين أولئك الذين حكموا الأبرشيات، والأسقفيات، والذين كانوا أكثر اهتماماً بإدارة أملاكهم، وزيادة دَخْلهم من اهتمامهم بالاعتناء بأرواحهم الأبرشية. التسالي العلمانية، مثل التَّمتُّع مع العشيقات، والقمار، والصيد، والوظائف العلمانية؛ كإقراض المال بالفائدة، وتقاضي الأجور مقابل المعاملات والطقوس الكنائسية، والسماح بالزواج غير الشرعي، والعمل كمحامين. ذلك كلّه كان أمراً مشاعاً؛ لدرجة أنه – في النهاية – قام البابا إينوسنت الثّالث – لدى انتخابه في عام 1198 – بإدانة هذه الممارسات الكَنائسية. القسُّ البارز في لانغدوق.[1]

---

(1) مقاطعة سابقة، ومنطقة فرنسية تاريخية. المُترجم.

ورئيس أساقفة ناربون[1] في منعطف القرن الثالث عشر كان - طبقاً للبابا - يعبد عند مذبح إلهاً واحداً أحداً؛ ألا وهو المال. كان يتقاضى أجوراً كبيرة لتكريس الأساقفة، ويأخذ رواتب المناصب الشاغرة، ويترك الرهبان يتزوَّجون، ويقبل ممارسات أُخرى تناقض قانون الكَنيسَة. البابا طرده، سويَّة مع رئيس أساقفة، وسبعة من الأساقفة الآخرين. حتى إن بعض عوائل رجال الدِّين الكاثوليكيين اعتنقوا مذاهب غير الكَنيسَة. أسقف كركسون، من 1209 إلى 1212، حافظ على ديانته الكاثوليكية، بينما أمُّه وأخته وثلاثة من إخوته كلُّهم كانوا يتبعون منسك «كونسو لامينتوم»[2].

النبلاء، وخُصُوصاً طبقة النبلاء الريفية، كانوا على نزاع دائم مع الكَنيسَة فيما يتعلّق بأمور الملكية، والدَّخْل؛ في عملية ولاء لمناطقهم، شكَّلوا تحالفاً متيناً مع الكاثار. في الحقيقة؛ بعض أعضاء طبقة النبلاء ذهبوا إلى أبعد من ذلك، اعتنقوا منسك الـ«كونسو لامينتوم»؛ ليكونوا معترفين بالكامل بالكاثار. على سبيل المثال، زوجة كونت منطقة فويكس «Foix»[3] في القرن الثاني عشر أصبحت من طائفة «الكُلِّيُّون» (أو «المثاليون») كما عملت شقيقة الكونت ايسكلامند بعد موت زوجها.

الكاثار كانوا مجموعة الرجال والنساء المُقَدَّسين، الذين اعتنقوا حياة تتَّسم بالروحانية، والبساطة، والنكران الزهدي للذّات - كانوا يُلقِّبون أنفسهم بـ«les Bonhommes»؛ أيْ «الرجال الصالحون»، أو «المَسيحيون الصالحون». خدموا الشعوب التي تمنَّت التجربة الشخصية الدِّينية من الذين كانت مطالبهم تُلبَّى - بصعوبة - من الكَنيسَة الرسمية، التي تخلّت عن دورها الروحي، مقابل دور تجاري، وأكثر رشوة. رَفْضُ الكاثار للهدايا الدنيوية ساعد على إبراز جشع القَسَسة في روما، وأدَّى إلى إثارة معارضة مُتصلِّبة لتلك السلطات التي هدَّدتها.

---

(1) مدينة تقع في لانغدوق في جنوب فرنسا. المُترجم.

(2) «consolamentum»: أتباع هذا المنسك كانوا مُقسَّمين إلى قسمَيْن: المؤمنين البسطاء، والكُلِّيِّيْن، المُؤمنين البسطاء الراغبين بالحصول على مزيد من المعرفة كانوا يمارسون هذا القربان، وبسبب الالتزام والتغيير الكبير في الحياة اليومية الناجم عن ممارسة هذا المنسك، الكثير لم يكونوا يمارسونه إلا وهم على فراش الموت، وبالتالي؛ يمتنعون عن اللحم، والجبن، والبيض، والجنس، وهي عملية أشبه بالانتحار البطيء. المُترجم.

(3) منطقة في جنوب فرنسا. المُترجم.

معارضو الكاثار قاموا بتسميتهم بالزنادقة «المثاليين». الأعضاء الكاملو الإيمان كانوا أولئك الذين يمارسون المنسك الأساسي المُسمّى «كونسو لامينتوم»، والذي وُصِف بعدة صفات؛ مثل «المعمودية، التصديق، التكريس، وعند أعتاب الموت تسمَّى الدّهن بالزيت، و تلك الصفات كلّها تخدم الغرض نفسه».

عند القيام بهذا المنسك، كانوا يهجرون الحياة الدنيوية، ويزدرون أملاكها. فيما بعد، يعيشون حياة بسيطة جدًّاً من الصلاة والتعليم - باستخدام اللغة المحلِّيَّة، وليس باللغة اللاتينية. كانوا نباتيين، كانوا يتنقّلون أزواجاً، ويتمتَّعون براحة روحية، وبالنسبة لأولئك الذين تمنّوا أن يعرفوا أكثر، كانوا يمارسون منسك الـ«كونسو لامينتوم». كانوا يقدّمون الأمانة والصدق لأولئك الذين تحمَّلوا الكثير من الأكاذيب والخداع.

عملياً، بسبب المسؤولية العظيمة وتغيير الحياة الذي يستلزمه القيام بمنسك الـ«كونسو لامينتوم»، أكثرهم لم يكونوا يمارسون ذلك المنسك إلا على فراش الموت. ولكنَّ الكُلَّ يمكنهم أن يشتركوا، رجالاً ونساء. على خلاف الكَنيسَة الكاثوليكية، لم يكن هناك هيمنة للذُّكُور في هذه العملية. «المثاليون» كانوا من الجنسَيْن كلَيْها ؛ لم يكن هناك تسلسل هَرَمي، أو تنظيم - على الأقلّ - في بادئ الأمر.

عرفت الكَنيسَةُ التحدّيَ الذي يُشكِّله هؤلاء المعلمون الروحيون الخيّرون، والبسطاء، وأحد أوّل مَنْ سما بهذا النوع التأمّلي كان بيرنارد من كليرفوكس«Clairvaux»[1]، الذي يُعدُّ الضوءَ المشرقَ للنظام السيستيري الرهباني[2]. هو ونظامه - كالكاثار - كرَّسوا أنفسهم للحياة

---

(1) بلدة في فرنسا عند الحدود الشرقية مع سويسرا. المُترجم.

(2) ملاحظة مهمَّة: كلمة سيستيري بالإنكليزية هي «Cistercian»، والقواميس كافة تترجمها على أنها بَنَدَكْتيّ، ولكنْ؛ في الحقيقة، ذلك لا يجوز؛ إذ إن البندكتيين بالإنكليزية لهم تسمية ثانية هي «Benedictines»، وبالمناسبة؛ السيستيريون هم نظام رهباني كاثوليكي روماني أُسِّس في 1098 في ستوكس «سيستيريوم باللاتينية» في فرنسا، من قِبَل مجموعة الرهبان البندكتيين من دَيْر موليسم بزعامة القدِّيس روبرت في موليسم. أيضاً؛ سُمّوا بالرهبان البيض بسبب الرداء الأبيض، أو الرمادي الذي كانوا يلبسونه تحت الوشاح الكتفي الأسود، السيستيريون أرادوا تأسيس مجتمع يتبع تفسيراً صارماً للقواعد الرهبانية للقدّيس بنيديكت من نورسيا حوالي عام 540. أعتقد أن =

البسيطة. سافر بيرنارد على نطاق واسع في جنوب فرنسا عام 1145 م، وأجرى المناقشات مع الكاثار في الساحات العامة للبلدات. في اعتراف بتقواهم وتقدير لأمانتهم وبساطتهم – وفي الوقت نفسه يدين بِدَعَهُم – وجد بأنّه كان غير قادر على إيقاف تلك الحركة، التي كانت تواصل النُّمُوَّ بقوّة، وكنتيجة لهذه النقاشات العامّة، أنشأ منظمة أكثر رسمية، والتي طُبِّقت في نهاية القرن الثاني عشر.

العديد من النبلاء الإقليميين دعموا الكاثار؛ لأنهم رأوا أن تلك الحركة تتمركز في أراضيهم الخاصة في لانغدوق، بدلاً من روما؛ حيث كانت الكَنيسَة. حتماً روما لم تكن سعيدة بذلك.

في عام 1209، انطلقت حملة صليبية ضدّ الكاثار، وعمَّت الفوضى بعد ذلك. الجيوش الشمالية للفرسان والمغامرين انصبّوا على لانغدوق، مُحطِّمين العديد من المُدُن، والبلدات، وآلاف من الكاثار تمَّ إحراقهم أحياء، وأحياناً؛ المئات منهم – معاً – في حرائق ضخمة. في تلك الأثناء، القلعة المُخرَّبة في مونتسغور – التي كانت تجثم على قمَّة تلَّة صخرية حصينة على ما يبدو – كانت قد أُعيد بناؤها لتكون قاعدة لكَنيسَة الكاثار. بعد الدمار في الوديان المنخفضة، أصبحت في عام 1232، مركز الدِّين ومقرّ «أسقف» الكاثار. قرية صغيرة للكاثار «المثاليون» بُنِيَتْ بين القلعة والمنحدرات العالية الشديدة الانحدار إلى الشمال، والتي يمكن مشاهدة بقاياها الممسكة بسفح التلِّ إلى يومنا هذا.

برفقة الجيوش الشمالية كانت رجل الدِّين الإسباني الشابّ دومينيك دو غوزمان. عُرِفَ القليل عن تدخُّله في المذبحة الكُلِّيَّة للكاثار أثناء السنوات الأولى من القتال، لكنَّ تدخُّله كان وشيكاً جدّاً. أثناء الحملة الشرسة، أدرك بأنّه من الضروري إنشاء مُنظّمة جديدة لمقاتلة ما كان يراه بِدْعة شرِّيرة – نظام من الرهبان الجُدُد، والنظرة الجديدة. أسّس دومينيك النظام الرهباني الدومنيكي، وبرفقته أسّس ما يُعرَف – الآن – بديوان أو محكمة التفتيش السَّيِّئة السمعة. دومينيك قام بالإحراق والتعذيب؛ والدومنيكيون حذوا حذوه، مُدمِّرين كلّ ما في طريقهم إلى

القواميس عدَّت تسمية البندكتيين بدلاً من السيستيريين، انطلاقاً من أن مُؤسّسي هذا النظام الأخير هم الرهبان البندكتيون، ولكنْ؛ ماذا لو وردت الكلمتان معاً في سطر واحد؟ المُترجم.

جنوب فرنسا. هذا ما كانت تحتاجه الكَنيسَة للحفاظ على الانـضباط، وللـسيطرة عـلى أولئـك الزنادقـة الـذين تجـاسروا عـلى إهمـال رومـا. رُعـب قـاس اكتـسح الأرض. ديـوان التفتـيش الدومينيكي كان مكروهاً، ومرهوباً في كلّ مكان. الكثير منهم ضُرِبُـوا، أو قُتِلُـوا، لكـنَّ النظـام واصل مسعاه المستمرّ خلف الزنادقة. بالنسبة للكاثار؛ كانت حرباً لا يستطيعون أن يربحوها.

طُرُقُ محكمة التفتيش كانت بسيطة: أولئك المشتبه بـأنهم مهرطقـون «يخـضعون للتحقيـق»، والحقيقة أن ذلك لم يكن استجواباً تلطيفياً بسيطاً، بل - بالأحرى - عملية شـديدة الألم؛ لانتـزاع المعلومات، لدرجة أنّه حتى الجستابو سيِّئي السُّمعة سيُعجَبُون بكفاءتهم القاسية، وعديمة الرحمة.

المشتبه به كان يُعتَقَل بعد الاتهام، أو الاعتراف. لم يكن هناك استعجال في جَلْـب الأمـور إلى الخاتمة، بالنسبة للدومنيكيين كان يتمتَّعون بفَهْم متين في علْم النَّفْس، وعرفوا بأنّ الـسجن والخوف يمكن أن يقوما بمعظم العمل عوضاً عنهم. انتقلت العملية إلى التعذيب بلا رحمـة. بسبب «الحساسية» نحو إراقة الدماء، الآلات المُستعمَلَة من قِبَـل المُعـذِّبين والمُقنَّعـين، كانـت - على الأغلب - آلات تقييد، وآلات مُتوهّجة، وآلات غير حادَّة؛ العظام يمكـن أن تُكـسَر، والأطراف تُخلَع، أو تُشوَّه، وبالتالي؛ الدماء التي كانت تُراق كانت - بـشكل عـرضي - بـدلاً من التصميم، وذلك كان مقبولاً وفقاً للقواعد التي ابتكرتْها الكَنيسَة.

عندما يكون الضحيّة في وعيه للاعتراف - ربما بأيّ شيء حتى ولو بكـابوس مـا، وذلـك لإيقاف التعذيب، المحامون والكُتَّاب الـدومنيكيون يقومـون بتـدوين الـشهادة، وفي أغلـب الأحيان؛ يُسجّلون - بالتفصيل - الأحداث التي شهدوها. بعد ذلك؛ يتمُّ نَقْـل الـضحيّة إلى غرفة قريبة، ويُطلَب منـه التأكيـد عـلى أن أقوالـه واعترافـه كـان «حُـرّاً، وتلقائيـاً». إنْ كـان المعترفون سيُحكَمون بالموت، يتمُّ تـسليمهم إلى الـسلطات العِلْمانيـة؛ ليـتمَّ تنفيـذ الإعـدام. الكَنيسَة - كمؤسّسة مَسيحية - لا تقوم بالإعدام، أو هي تدَّعي ذلك، مُظهرة أنها غـير مَعْنِيَّـة - على ما يبدو - بمستوى النفاق المُرتبط بالحُكْم.

بواسطة هذه الشهادات، خَلَـقَ الـدومنيكيون ذاكـرةً مُؤسَّـساتية، أرشـيفاً واسـعاً، حمـل بيانات عن كلِّ الذين اتَّصلوا معهم. رغم أنهم أحرقوا آلافاً من أولئك الذين أُدينوا بالزندقة،

إلا أنهم لم يقوموا بذلك، إلا بعد استجواب شامل عادة. تمنّوا – دائماً – أن يحافظوا ويزيدوا هذه الذكرى الجماعية، التي شكَّلت صميم قوَّتهم؛ لأنهم يعتقدون – بشكل واقعي كالعادة – بأنّ «المُرتدَّ الذي يخون أصدقائه كان أكثر فائدة من الجثَّة المُحمَّصة».

محكمة التفتيش كانت وكالة استخبارات القرن الثالث عشر؛ لأنّها كانت تحتفظ بقاعدة بيانات مُتطوِّرة وشاملة لتلك الآونة. كانت تتحرَّى الزنادقةَ المشكوك بأمرهم، وتقوم بتدوين الشهادات، وتتَّهم، وتحصل على اعترافات مُعقَّدة، وقانونية، وتحتفظ بأرشيفات لهذه السجلَّات؛ بحيث يمكن أن تسترجع المعلومات بعد مدة طويلة من ذلك. في أحد هذه الأمثلة، تُظهر هذه السجلَّات بأنَّ المرأة التي اعتُقِلَتْ بتُهمة الهرطقة عام 1316، كانت قد اعتُقِلَتْ قبل ذلك في عام 1268؛ أيْ قبل ثمانية وأربعين سنة. هذا النوع من استرجاع المعلومات كان مشؤوماً، فهو يُجسِّد نظام ذاكرة حقوداً لخدمة القوَّة المسيطرة للكَنيسَة.

أصبحت محكمة التفتيش بمثابة اليد القاتلة للكَنيسَة، جيشهم من المُخبرين السِّرِّيِّيْن والمُحقِّقين عديمي الرحمة، والقضاة اللامُبالين، كلّهم كانوا يتصرَّفون وفق اسم السَّيِّد المَسيح. المَسيح المُنتظَر التاريخي كان قد نُسِي منذ مدة طويلة؛ ما هو مُهمّ – الآن – كان مَسيح الفاتيكان. وأصبح هذا الشخص المصلوب – بشكل مثير للشفقة – تبريراً للسبيل الوحيد لعدد متزايد من اللوائح والتعليمات، التي أثَّرت على كلِّ حياة، وعلى كلِّ جزء من هذه الحياة.

المعركة الأولى الرئيسة التي تمَّ ربْحها من قِبَل محكمة التفتيش هي عندما تمَّ – أخيراً – تمزيق قَلْب كَنيسَة الكاثار في عملية كبيرة لإراقة الدماء أشبه بالتضحية بالطائفة الأزْتَكِيّة[1] في العالم الجديد[2]. في آذار عام 1244، مركز كَنيسَة الكاثار – قلعة مونتسغور – سقطت في أيدي القوّات الغازية. مائتان أو أكثر من الكاثار أُحرِقُوا أحياء في سفح التَّلِّ. لكنَّ محكمة التفتيش رأت أن هذا ليس كنهاية لنشاطاتها، ولكنَّ مجرّد بداية لمرحلة أُخرى. راقبت محكمة التفتيش – الآن – المنطقةَ باستخدام مُخبريهم، وأرشيفاتهم. محكمة التفتيش كانت هناك لدَعْم قوّة روما.

(1) الأزْتَكِيّ «Aztec»: الشعب المحلّي لوسط أمريكا، والذي إمبراطوريته القويّة سيطرت على وسط المكسيك أثناء القرنَيْن الرابع عشر والخامس عشر. هزمهم الأسبان حوالي عام 1520 م. المُترجم.

(2) أمريكا. المُترجم.

وهي ماتزال هناك حتى الوقت الحاضر. بالطبع؛ فضلت تطهير اسمها: في عام 1908؛ محكمة التفتيش أُعِيْد تسميتها ليُصبح اسمها «الكَنيسَة المُكرَّسة للسُّلطة المُقَدَّسَة». بعد ذلك، وفي تغيير آخر، أصبح اسمها «التَّجمُّع من أجل تعاليم الدِّين» عام 1965: كلمات هادئة وعذبة – أيضاً – يحملها اسم مُؤسَّسة دوغماتية وصارمة، والتي دورها الذي لا يتغيّر في الكَنيسَة هو أن تحافظ على الالتزام بقوانين الدِّين.

إنّ الرئيس الحالي للكَنيسَة يُدعَى «الحاكم»، وعملياً هو محكمة التفتيش العُليا الحالية، عُيِّن في 13 مايو/ مايس 2005، اسمه المُوْنْسِينْيَر وليام ليفادا تولد كاليفورنيا، وكان – سابقاً – رئيس أساقفة سان فرانسيسكو. سَلَفُهُ المباشر الكاردينال جوزيف راتزينغر انتُخِبَ لمنصب البابا في أبريل/ نيسان 2005. راتزينغر واضح جدّاً حول مذهب الكَنيسَة: ليس هناك مرونة فيما يتعلَّق بتعاليمها.

«الإيحاء انتهى مع السَّيِّد المَسيح»، هكذا ذَكَرَ راتزينغر بشكل صريح مُوجَّه بتحدِّي لأولئك الذين قد يُفكِّرون بأنّ الحقيقة موجودة إلى اليوم، في مكان ما، ويجب اكتشافها. متناسياً – بسهولة – التصويت في مجلس إزنيك، الذي ألَّه السَّيِّد المَسيح، هو يستحقر أولئك الذين لا يعدُّون الكَنيسَة روحاً مُقَدَّسَة، ويقول مُتذمّراً بتفاجُئ ظاهر حول وقاحتهم: «حتى بالنسبة لبعض علماء الدِّين، تبدو الكَنيسَة وكأنها كيان إنساني». لكنّه يمتلك الجواب لأولئك الذين يعتقدون بأنّ الكَنيسَة التي صنعها الإنسان قد أنشأت علْمها اللاهوتي عبر وضع الأفكار، والتصويت عليها. يذكر: «الحقيقة لا يمكن أن تُخلَق من خلال الاقتراعات». في أيّ سياق آخر – رُبَّما – يميل المرء للاتّفاق معه، ولكنْ؛ في هذه المسألة بالذات، هو قد تجاوز المعقول، وتجاوز ما هو قابل للإسناد تاريخياً؛ إذْ إن ما يدَّعي أنها الحقيقة هي قد خُلِقَتْ – بحَدِّ ذاتها – من خلال الاقتراعات. أضاف راتزينغر إلى هذه الدوغماتية: «المرء لا يستطيع تأسيس الحقيقة عبر القرار، بل عليه – فقط – أن يعرفها، ويقبلها. لذلك، يترتَّب على الكَنيسَة... أنَّ المؤمن لا يأثم». التاريخ – بشكل واضح – هو ليس كالفكرة القوية التي يتمسّك بها راتزينغر؛ التي هي نسج من العلاقات العامة الدوغماتية.

لا يوجد هناك أيُّ شيء في بيانات راتزينغر يجعل المرء يتمنّى بأن الفاتيكان قد تنسحب من موقفها الذي يُزوِّد الطريقَ الوحيدة إلى الحقيقة - طريقاً عُزِّزَتْ من خلال الرغبة بالقوّة، والسيطرة؛ طريقاً حافلة بالدم؛ طريقاً مُركَّزة على شخصية أسطورية للمَسيح، تتمتَّع بصلة قليلة بالمَسيح التاريخي، الذي صُلِبَ كثائر سياسي من قِبَل بيلاطُس البنطي.

«كَنيسَة مذهب الدِّين» تحافظ - بذكاء - على موقف سَلَفه «محكمة التفتيش». في الواقع، في تقوية لحدود الإيمان، ولوَضْع حدود لاكتشاف الحقيقة، تخدم هذه الكَنيسَة كمركز القيادة، والسيطرة للفاتيكان.

الوجود الكامل لهذا القسم هو أن يبعد الفاتيكان عن الخوف الأعظم والأكثر سرِّيَّة: ذلك الدليل الذي - لربما - يظهر، والذي سيَفْصِلُ - بلا رجعة - بين المَسيح الحقيقي التاريخي والمَسيح الدِّيني المُصطَنَع، وبالتالي؛ يكشف أنّ الوجود الكامل للفاتيكان قد تمَّ تأسيسه بالاحتيال. إنهم يخافون ظهور الدليل القائل بأنّ السَّيِّد المَسيح لم يكن الرّبّ، كما أعلن مجلس إزنيك - ليس الرّبّ، بل رجل.

ما إنْ تمَّ القضاء على الكاثار، محكمة التفتيش بحثت عن بِدَع أُخرى لمُقاتلتها. وجدوا أن فُرسَان الهَيْكَل بحاجة إلى يد مُرشدة لهم. مُعذِّبو محكمة التفتيش أُرسلوا في جميع أنحاء أوروبا لاستئصال النظام العسكري الذي خدم الأمم المَسيحية لأكثر من مائتَيْ سنة تقريباً.

بعد ذلك، في أوائل القرن الرابع عشر، هاجمت محكمة التفتيش الفرانسيسكانيين، الذين - بسبب بساطتهم المحدودة، وفاقتهم - تمَّ اعتبار العديد منهم مصابين بالهرطقة. العديد منهم أُحرقوا. بعد مائة سنة، هاجم أعضاء محكمة التفتيش اليهودَ، والمسلمين في إسبانيا، بشكل خاصّ؛ أولئك الذين اعتنقوا الدّيانة الكاثوليكية، واشتُبه بأنهم عادوا سرّاً إلى دياناتهم السابقة. عملية الحَرْق انفجرت بحماسة جديدة. في إشبيلية، 288 ضحيّة أبرياء أُحرقوا أحياء بين فبراير/ شباط ونوفمبر/ تشرين الثّاني عام 1481. وهذه كانت - فقط - بداية فترة جديدة من التضحية البشرية الثابتة باسم المَسيحية. على الرغم من الكلفة، استمرَّت المعارضة لهذا

الاستبداد. في عام 1485، في سَرقُسطَة[1]، المُحقِّق قُتِلَ في الكاتدرائية، بينما كان يسجد للصلاة في المذبح الرئيس. الأعمال الانتقامية الوحشية استمرَّت، وأدَّت إلى المزيد من الخسائر البشرية.

تباطأت إراقة الدماء – فقط – عندما عمليات الذَّبْح قامت – بشكل حتمي – بتخفيض عدد الضحايا المُحتملين. واستمرّ ذلك إلى أنْ تمَّ اكتشاف بؤرة جديدة كاملة من الضحايا في القرن الخامس عشر: إنهم السَّحَرَة. كان ذلك عملاً أستاذيّاً (ضربة مُعلّم) للازدواجية الإكليروسية. الكَنيسَة كانت – دائماً – تعدُّ السِّحْرَ ضرباً من الاحتيال، أو الوَهْم، والاعتقاد بالسِّحْر كان – لفترة طويلة – يُعدُّ ذنباً. لكنْ؛ في عام 1484، موقف الكَنيسَة تغيّر فجأة: البابا أصدر مرسوماً بابوياً يدين السِّحْر، ويأمر بالاعتراف بحقيقة السِّحْر، وأيّ نكران لهذه الحقيقة الشيطانية الجديدة هو – بحَدِّ ذاته – كُفْر، وخاضع لكلّ العقوبات التي ابتكرتْها الكَنيسَة. هذا المرسوم – بحَدّ ذاته – شجَّع محكمة التفتيش على الاستجواب، والسجن، ومعاقبة كلّ الساحرات اللواتي هي قد يُكتشفنَ. كلّ ما كان يحتاجه الدومنيكيون هو تشجيع بسيط للتصرُّف.

في جميع أنحاء أوروبا، شنَّ الدومنيكيون صيدهم على السُّكَّان الحضريين والريفيين كلهم، ما عدا إسبانيا (بشكل مثير للانتباه)؛ حيث شعرت قيادة محكمة التفتيش بأنّ جنون السَّحَرَة برُمَّته هو ضرب من الاحتيال، ومن الأفضل إهماله. كانوا يعتقدون بأن الهَوَس في العثور على الساحرات لإحراقهنَّ كان – بحَدِّ ذاته – مسؤولاً عن خَلْق الهستيريا الجماعية، والذي هو – تباعاً – مسؤول في الحقيقة عن خَلْق أولئك الساحرات. على الرغم من هذا، وعلى الرغم من التَّفشِّي الإقليمي لسلامة العقل، تمَّ اعتقال النساء في أماكن أُخرى في أوروبا، وتمَّ تعذيبهنَّ، وحرقهنَّ. افتخرت محكمة التفتيش بأنها – على مدى 10 سنوات – قامت بحَرْق ما يقارب من ثلاثين ألف امرأة – كلّهنَّ ضحايا أبرياء للخيال الباثولوجي، الذي صادقت عليه الكَنيسَة.

(1) سَرقُسطَة «Saragossa»: عاصمة إقليم سَرقُسطَة في الإقليم المستقلّ لآرغون في شمال شرق إسبانيا. المُترجم.

كان الـدومنيكيون مُنظَّمـون ومُتحمّسون جـدّاً؛ لدرجـة أنهـم أنتجـوا دلـيلاً لأولئـك المُحقِّقين، ولتلك السلطات المَدَنية التي وجدت نفسها تتعامل مع الساحرات. هذا هـو أحـد الكُتُــب الــسيِّئة الــسُّمعة الأكثــر في التــاريخ: «Malleus Maleficarum»؛ أيْ (مطرقــة الساحرات)، وهو مثال بارز للثقافة العالية التي وُضِعَتْ في خدمة الجنون. كُتِـبَ عـام 1486 من قِبَل اثنَيْن من الدومنيك الألمان على درجة عالية من الثقافة؛ وهما راهبان، وكما يقـال إنهـما كانا يخافان كلَّ شيء مُؤنَّث، كما يخاف الشيطانُ من صورة المَسيح المصلوب.

لم يكن هناك أدنى شكّ - بالنسبة لهم - أن النساء هنَّ مصدر كلّ ما هو شيطاني في العـالم. وجد الخبيران أن الشَّرَّ الأسوأ يكمن في الإناث. النساء بالنسبة لهما كُنَّ ناقصات، وفاسـدات، ويبحثنَ - دائماً - عن الخداع. هُنَّ أضعف من الرجال، وبالتالي؛ هنَّ أكثر إمكانية بأن يَفـسدْنَ ويُفسدْنَ الآخرين. يعوزهنَّ الانضباط، وهنَّ «جميلات للنَّظَر، ومُدنّسات للَّمْس، ومُهلكـات عند الاحتفاظ بهنَّ». هذَان المُحقِّقان الجدِّيَّان استنتجا أنّ «كلَّ السِّحْر يأتي من الرغبة الجسدية، والتي تكمن في نَهْم النساء».

لماذا كانت الكَنيسَة تنظر إلى الإناث على أنهنَّ لا إنسانيات، وشيطانيات، وهدَّامات؟

لماذا كانوا خائفين من النساء؟

ما الذي أدَّى إلى ردّة الفعل المُتطرِّف هذه؟

لابُدَّ أن الأمر كان يتعلَّق بالجنس بشكل خاصّ. الكَنيسَة أُفْزِعَتْ منه.

«المتعة الجنسية لا يمكن أن تكـون بـدون ذنـب»، هكـذا يـذكر كتـاب « Responsum Gregorii» (الأجوبة الرَّبَّانية للبابا غريغوريـوس)، الـذي يُنـسَب - ربـما بـشكل خـاطئ - إلى البابا غريغوريوس الأول[1]. بابا الكَنيـسَة في أوائـل القـرن الخـامس جـون كريـسوستوم واضح جدّاً في الحديث عن المكان الذي يكمن فيه الخطر:

---

(1) القدِّيس غريغوريوس الأول، (540؟ ـ 604): بابا رومـا (590 ـ 406). قـوّى البابويـة، وأعـاد تنظيمهـا. أرسـل القدّيس أوغُسْطين إلى إنجلترا لقيادة عملية تحويـل الـبلاد إلى المَـسيحية. قيـل بأنـه قـدَّم النـشيد الغريغـوري إلى القدَّاس الكاثوليكي الروماني. لقبه «غريغوريوس العظيم». المُترجم.

هناك في العالم عدد كبير من الحالات التي تُضعف الوعي الروحي. أولاً؛ وقبل كلّ شيء هو معاملات [الإثارة] مع النساء... لأن عين المرأة تمسُّ وتزعج رُوحنا، وليست - فقط - عين المرأة الطليقة، بل عين تلك المرأة الرصينة أيضاً».

بعد أن واجهنَ مثل هذه العداوة الشديدة، بعض علماء الدِّين من النساء العصريات أوقفنَ - ببساطة - التعامل مع بيانات كهذه بأيّ شكل من الاحترام الأكاديمي. أوتا رانك هاينمان، أستاذة في التاريخ الدِّيني في جامعة ايسن[1]، لجأت إلى اللغة المباشرة، التي نادراً ما نصادفها في الدوائر الأكاديمية: «بشكل عامّ، في النَّظَر إلى القمع والتشهير وتشويه سُمعة النساء، نجد أن كلَّ تاريخ الكَنيسَة يخبرنا بالاستبداد الذَّكَري الضيّق الأُفُق، والاعتباطي الطويل الأمد، تجاه الجنس النسائي. وهذا الاستبداد مستمرّ لهذا اليوم، بلا اعتراض».

بالطبع؛ هي محقَّة. كيف سيكون - على سبيل المثال - الصراخ والغضب الناجم على أيّ اقتراح تقترحه بأنْ تُصبح النساءُ كَهَنَة؟!

من أين جاء هذا الخوف والاستبداد الجنسي الناجم عنه؟

لابُدَّ أنه جاء من هَوَس الكَنيسَة بالبكارة، والعزوبة الدائمة.

الكَنيسَة أحبَّت أُمَّ السَّيِّد المَسيح، التي لم تعرف رجلاً قطّ، والتي تُدعَى مريم العذراء، والتي وَلدت السَّيِّد المَسيح من خلال السلطة غير المحدودة لله. بكلمة أُخرى؛ النتيجة التي يمكن استخلاصها أن «الله نوع من الرجال». علاوة على ذلك؛ البابا يُوْحَنَّا بُولُس الثاني الراحل في كتابه المُعمَّم «Redemptoris Mater» عام 1987 م، حَكَم بأنّ غشاء البكارة لديها بقي سليماً. كان ذلك معجزة.

على الأقلّ، لربما كان ذلك صحيحاً. ولكنْ؛ لسوء الحظّ، كالكثير من الأمور التي نُسِبَتْ إلى السَّيِّد المَسيح الدِّيني، هذه القصّة لا تستند حتى لأبسط الحقائق عن السَّيِّد المَسيح التاريخي الحقيقي.

الأناجيل الأربعة، على افتراض أنّها تحتوي قاعدة بيانات تاريخية صحيحة، فقط اثنان منها «مَتَّى ولُوقَا» يشيران إلى الولادة البتولية لمريم العذراء. وحتى إن لُوقَا (2: 48) يُعرِّض الفَهْم

(1) ايسن مدينة صناعية غربي ألمانيا. المُترجم.

اللاهوتي للخطر عندما وَصَفَ مريم ويُوسُف بأنهما والدَيْ السَّيِّد المَسيح، ويُوسُف - بشكل واضح - كأب للسَّيِّد المَسيح. يُوْحَنَّا في إنجيله (1: 45، 6: 42) يُصرِّح - أيضاً - بأنَّ السَّيِّد المَسيح كان ابن يُوسُف (راجعْ - أيضاً - مَتَّى 13: 55).

إنّ أقدم كتابات العهد الجديد هي رسائل بُولُس، ولكنْ؛ ليس فيها أيُّ أثر للولادة البتولية. في الحقيقة؛ بُولُس يُنكر ذلك بشكل واضح في رسالته إلى روما (1: 3)، والتي فيها يُصرِّح بأنّ السَّيِّد المَسيح «جاء من نسل داود». الإنجيل المقبول عُمُوماً بأنه الأقدم هو إنجيل مَرْقُس، الذي يُخفق - أيضاً - في ذِكْر مثل هذه المعجزة، وكان أكثر اهتماماً بمعمودية السَّيِّد المَسيح - من قِبَل يُوْحَنَّا - من ولادته.

فكرة الولادة البتولية ظهرت عندما تمَّتْ ترجمة التوراة العبرية - عهد المَسيحيين القديم - إلى اليونانية في القرن الثالث قبل الميلاد. إِشَعْيَاء (7: 14) تنبَّأ بأنّ «فتاة» ستحمل ابناً، وبأنّ هذا الابن سيُدعَى عِمَّانُوئِيلَ. الكلمة العبرية «**alma**» تعني «فتاة»، تُرجِمَ إلى التوراة اليونانية بكلمة «**parthenos**»؛ أيْ (عذراء). عندما يذكر مَتَّى ولادة السَّيِّد المَسيح أولاً، يُشدِّد بأنّ ذلك تحقيق لنُبُوءة «نبي» - والذي هو النبي إِشَعْيَاء. ثمَّ يتكلَّم عن عذراء «**parthenos**» أصبحت حاملاً، وتحمل طفلاً. ولكنَّ كلّ ما كان يحتاجه تحقيق نُبُوءة النبي إِشَعْيَاء هو أن «فتاة» تحمل طفلاً؛ مثل هذا الحَدَث لربما يقول عنه المرء إنه معجزة ما، معجزة هي - بالكاد - فريدة، ولا تحتاج لأنْ يُفترَض أن هناك تدخُّلاً جنسياً إلهياً. في الحقيقة؛ قصّة مَتَّى (1: 22-23) هي مجازية تماماً، وبشكل واضح. مجازية، لكنَّ نتائجها كانت - أجرؤ على القول - رُشَيْمِيَّة[1].

واصلت الكَنيسَة في خَلْق طائفة من العذارى، وهذه الطائفة جَذَبَت العديد من الرجال الذين يمكن وصفهم - في أحسن الأحوال - بـ «المُشوَّشين»، وفي أسوأ الأحوال؛ بـ «المُعلّمين الباثولوجيين (المَرَضيّين)» - رجال مثل بابا كَنيسَة أوريجن، الذي خصى نفسه في عمر الثمانية عشر لكي يصبح مَسيحياً أكثر مثالية، أو مثل أوغُسْطين، الذي ابتعد عن كلّ الملذَّات، خُصُوصاً ذات الدوافع الجنسية. وَرَثَةُ هؤلاء الرجال كافحوا لتقديم العزوبة

(1) تشتمل على بذور التطوّر في المستقبل. المُترجم.

الإلزامية لكلِّ مُعلِّمي الدِّين، مهمَّة أُنجِزَتْ - أخيراً، بنجاح - في عام 1139، عندما تمَّ تحريم الزواج والجنس لكَهَنَة الكَنيسَة الرومانية.[1]

لكنَّ السَّيِّد المَسيح لم يذكر - أبداً - العزوبة، وبُولُس يشير إلى أنه لم يكن هناك أيّة وصية من الرّبّ لذلك الأمر. «وأمَّا غير المتزوّجين؛ فلا وصية لهم عندي من الرّبّ»، كُورِنْثُوس الأولى (7: 25).

علاوة على ذلك؛ الحواريّ بُطرُس، المُؤسّس المزعوم للكَنيسَة الكاثوليكية، الذي يُعدُّ المرجع كالبابا الأول، كان متزوِّجاً بالتأكيد، وتنقَّل كثيراً مع زوجته. رسالة بُولُس الأولى إلى كَنيسَة كُورِنْثُوس (9: 5) تجعل ذلك كلَّه واضحاً؛ إذْ إنها تتحدَّث عن وَضْعه العائلي الخاصّ، وغالباً عن كلِّ الأوضاع العائلية للأتباع والأخوة الآخرين للسَّيِّد المَسيح. ذكرى تزوج بُولُس استمرّت حتى نهاية القرن الثاني بعد الميلاد، عندما تمَّ ذِكْرُهَا لآخر مرة من قِبَل الأسقف الأسكندراني كليمنت. فيما بعد، نُقل بُولُس - بشكل تدريجي، وبعناد - إلى حالة العزوبية. بينما سيطر العذارى الذُّكُور على الدِّين، تمَّ استثناء النساء من ذلك التعبير.

وفق أيّة وجهة نَظَر مُستقلَّة للأجزاء التي بقيت عن حياة السَّيِّد المَسيح وأوقاته ، نجد أنه من المحتمل جدَّاً أنّ السَّيِّد المَسيح - أيضاً - كان متزوِّجاً. أنا وزملائي ناقشنا الأمر في كتاب «الدمّ المُقَدَّس، الكَأس المُقدَّسَة» بأن السَّيِّد المَسيح كان متزوّجاً من مَريَم المَجْدَلِيَّة، وأن الزواج الذي حصل في قانا - والذي أورد العهد الجديد أن المَسيح كان يحمل بعض المسؤولية فيه - كان حفل زفاف السَّيِّد المَسيح.

في ذلك الوقت، موقف الفريسيين - وهم إحدى المجموعات الرئيسة ضمن مدينة اليهودية (فلسطين) في القرن الأول بعد الميلاد - كان يقول بأنّ «الزواج هو واجب غير مشروط». الحِبْرُ المعاصر لِعازار يُنسَب إليه الذكر: «مَنْ لا ينشغل بالتكاثر كالشخص الذي

(1) ولكنْ؛ إن كانت الكَنيسَة تسعى لمصالحها الشخصية كما يودّ الكاتب أن يخبرنا، فكيف قامت الكَنيسَة بمثل هذا الإجراء الذي يمنع زعمائها من الملذَّات الشخصية؟! وإنْ كانت الكَنيسَة تعلم بحقيقة زيف الدّيانة المَسيحية فلماذا تُلزِم زعمائها بقوانين صارمة كهذه؟! وكيف استجاب الزعماء لهذه الشروط، إنْ لم يكونوا مقتنعين بأن ما يفعلونه هو الصواب؟! المُترجم.

يسكب الدم». إذاً؛ لو أنّ السَّيِّد المَسيح كان أعزباً - كما جعلتنا الكَنيسَة نعتقد - فلماذا لم يستخدم الفريسيين المعارضين له (الذين وَرَدَ الكثير منهم في العهد الجديد) حالة العزوبة هذه كسلاح للنَّقد له، ولتعليماته؟! لماذا أتباعه المتزوجون لم يطلبوا منه أن يُوضّح لهم سبب فشله في الزواج؟!

بُولُس - قبل أن يصبح مَسيحياً، كان فريسياً - وإنْ لم يكن السَّيِّد المَسيح متزوِّجاً، وإن كان السَّيِّد المَسيح عازباً، فلماذا لم يذكر بُولُس ذلك؟! رانك-هاينهان قدَّمت فكرة حاسمة: بُولُس كان قد كَتَبَ عن العزوبة، وبأنه لم يكن لديه أية وصية من قِبَل السَّيِّد المَسيح حول الموضوع، وبالتالي؛ بإمكانه أن يُبدي رأيه الشخصي فقط، قالت: «من المستحيل أن بُولُس أخفق في ذِكْر المثال الاستثنائي عن حياة السَّيِّد المَسيح الخاصة - هذا إنْ كان المَسيح كذلك». إلين باجلز علَّقت في مقابلة تلفزيونية عام 2005: «صحيح جدَّاً بأنّ أكثر الرجال اليهود تزوَّجوا، والأحبار بشكل خاصّ. ومن الممكن أن السَّيِّد المَسيح قد تزوَّج أيضاً».

لكن الولادة العذرية والحياة العذرية كانت مهمَّة للتعاليم والتقاليد النامية للديانة المَسيحية، وخُصُوصاً أنها تركت أصولها ضمن الدّيانة اليهودية، وقصدت مُعتنقي المَسيحية من الوَثَنيين. العزوبة - بالطبع - كانت مُقدَّرة - بشكل كبير - بين العديد من الفلاسفة في العالم الوَثَني، وخُصُوصاً الرِّواقيّين[1]. يبدو بأنّ جزءاً من الحافز الأصلي للبكارة المَسيحية كان رغبة للحصول على الاحترام ضمن العالم الذي تسيطر عليه الوَثَنية، ولإظهار أنّ المَسيحيين - أيضاً - يمكنهم السُّمُوّ إلى الذروة الأخلاقية الظاهرة للفلاسفة الوَثَنيين. وهم - بالتأكيد - أنجزوا بعض الاحترام من هذا الطبيب اليوناني غالينوس، الذي كان طبيب الإمبراطور الروماني ماركوس أوريليوس كتب في القرن الثاني بعد الميلاد عن المَسيحيين:

هم لا يمتلكون رجالاً فحسب، بل - أيضاً - النساء اللواتي يعشنَ كامل حياتهنَّ في زهد جنسي. في صفوفهم أفراد وصلوا إلى مرحلة في الانضباط الذاتي، وضبط النَّفْس لا تقلّ عن تلك التي لدى الفلاسفة الأصيلين.

---

(1) «Stoics» الرِّواقيّ: أحد أتباع المذهب الفلسفي، الذي أنشأه زينون حوالي عام 300 ق.م. والذي قال بأن الرجل الحكيم يجب أن يتحرَّر من الانفعال، ولا يتأثَّر بالفرح، أو الترح، وأن يخضع من غير تذمُّر لحُكْم الضرورة القاهرة. المُترجم.

لكنْ؛ في تعليق غيبيّ في رسالة إلى أسقف «سميرنا»، ذكر أغناطيوس أسقف إنطاكية – الذي مات لاحقاً في الميدان حوالي عام 110 بعد الميلاد، عندما مزّقته الحيوانات المفترسة في مشهد ترفيهي للرومان – أنه كان هناك مَسيحيون «يعيشون في عفَّة لتبجيل جسد ربِّنا»، ثمّ يعترف – بدهشة – بأنّه لم يكن يحترمهم. في الحقيقة، ذَكَرَ بأنه كان يستهجن «تكبُّرهم»، وحذَّر بأنّهم إنْ افتخروا بعذريّتهم فإنها ستُفقَد. لسوء الحظ؛ أولئك الذين كانوا ناجحين في تأسيس التعاليم التقليدية للكَنيسَة وأصحاب الدور الفعّال في الحصول على تقديس السَّيِّد المَسيح هم – أيضاً – أنفسهم الذين رغبوا بتقديم البكارة الدائمة لحُكَّام الكَنيسَة، وفي الوقت نفسه هم – أيضاً – الذين استثنوا النساء من أيِّ دور مُهمّ. أصابهم الغضب والاهتياج حيال التعليم النسائي. لقد نسوا بأنّه حتى بُولُس قد نوَّه بالدَّعْم والإعجاب إلى دور النساء كمُعلّمات في الكَنيسَة.

في رسالته إلى رومة (16: 1–12)، يمدح بُولُس ثماني نساء كُنَّ إمَّا خادمات، أو «معاونات للسَّيِّد المَسيح»، (و– أيضاً – مُعلّمات): فِيبَة، بِريسكِلَّة، أكيلا، مريم، جُوليا، تَريفَينَة، تَريفُوسة، بَرسيس. يذكر أكثر من ذلك في رسالته الأولى إلى كُورِنْثُوس (11: 5) أن الرجال والنساء يُصلُّون أو يتنبَّؤون في الكَنيسَة. رانك – هاينمان تُشير بأنّ «التَّنبُّؤ» يُشير إلى «فعل التصريح الرسمي»، وأفضل ترجمة له هو «التبشير». مع ذلك، يُصرِّح بُولُس – في الوقت نفسه – عن النساء في الكَنيسَة قائلاً: «فلتصمتْ نساؤكم في الكنائس، فلا يجوز لهنَّ التَّكلُّم. وعليهنَّ أن يخضعنَ كما تقول الشريعة. فإنْ أردنَ أن يتعلَّمنَ شيئاً، فليسألنَ أزواجهنَّ في البيت؛ لأنه عيب على المرأة أنْ تتكلَّم في الكَنيسَة» كُورِنْثُوس الأولى (14: 34–35).

ولكنْ؛ في نهاية القرن الثاني بعد الميلاد، أيُّ تدخُّل للنساء في التعليم المَسيحي كان قد أصبح شيئاً من الماضي. أولئك الذين يمقتون النساء في الكَنيسَة كانوا لهم نصيب في امتلاك زمام السيطرة – بشكل خاصّ، تَرْتُلْيان تعلَّم في قرطاجة قبل اعتناقه المَسيحية عام 197 بعد الميلاد، لقد ثار ضدَّ النساء، وقال: «أنتنَّ بوّابة الشيطان: أنتنَّ مَنْ فضَّ خَتْمَ تلك الشجرة [مُحرَّمة]: أنتنَّ أول مَنْ تخلَّى عن الشريعة المُقَدَّسَة... بسبب تخليكنَّ هذا، حتى ابن الرّبّ كان لابُدَّ له أن يموت».

بشكل طبيعي، نظراً للَّوم المُلقى على عاتق النساء في كلّ المعاناة البشرية، وفي صَلْب السَّيِّد المَسيح، فإنه لم يكن من الجيِّد بالنسبة لتَرْتُلْيان إنْ وجدهنَّ يمارسنّ أية وظيفة مُقَدَّسَة في الكنائس. لقد قال: «كم يبدو ذلك موثوقاً، لدرجة أنّه [بُولُس] - بصراحة واضحة - لم يسمح للمرأة حتى بالتعلُّم، أَ يجب أن تُعطى الأنثى السلطة للتعليم، والتعميد؟ فليصمتوا، ويستشيروا أزواجهنَّ في البيت».

بالرغم من أن هذا الموقف مُتوقَّع جدَّاً، مازلنا بحاجة إلى أن نتوقَّف هنا، ونسأل: ماذا تعني تلك الثورة ضدّ النساء؟ إنها تعني أنّه في مكان ما في الكَنيسَة المَسيحية معروف بالنسبة لتَرْتُلْيان كانت فيه النساء تمارسنَ الأدوار، التي وُصِفَتْ من قِبَل بُولُس، وأكثر. تعني بأنّ النساء كنَّ يمارسنَ عمل الكَهَنَة، ويؤدّينَ العشاء الرَّبَّاني، ويُبشّرنَ، ويُعمِّدنَ المُعتنقين الجُدُد للدِّين، لكنْ؛ أين كان هذا يمكن أن يحدث؟ إلى أية درجة كان ذلك شائعاً؟ تَرْتُلْيان كان صامتاً حول هذه النقاط. كالعديد من باباوات الكَنيسَة، كَتَبَ هجوماً على البِدْعَة، لكنه في نَقْده - أبداً - لا إشارات إلى المجموعات التي سمحت للنساء بالحصول على فرصة مكافئة لتلك عند الرجال في ممارسة الوظائف الكَنَسية. هو يبقي هذه المسألة هادئة تماماً. قد يحتاج المرء لأن يسأل عن السبب.

بالطبع؛ ما كان هنا مُهدَّداً بالضياع هو مسألة ذات أهمية كبيرة في هذا الوقت. روما كانت تبدأ بفَرْض نفسها. المفهوم الكامل لـ «التعاقب الرسولي» (الخلافة البابوية) - أحد أهمّ القواعد التي يستند عليها الخلاف في أسبقية وصلاحية التعاقب الرسولي لروما - كان على وشك التأسيس.

طبقاً لإنجيل مَتَّى (16: 18)، بُطرُس كان الصخرة التي بُنِيَتْ عليها كَنيسَة السَّيِّد المَسيح. ناهيكَ عن السؤال الصعب عن السبب الذي يجعل اليهودي الصالح - المَسيح - يرغب بتأسيس هذه الكَنيسَة، الفاتيكان - عبر هذه الرواية - تُصرُّ على أنّ السَّيِّد المَسيح حوَّل إلى بُطرُس الحقَّ الأعلى لحُكْم الكَنيسَة المَسيحية (رغم أن ذلك غير مذكور في أيٍّ من الكُتُب السماوية الأخرى). والأساقفة اللاحقون كلّهم في روما لهم هذا الحقّ الذي ورثوه، وبشكل خاصّ، بُطرُس، الذي كان - طبقاً لهذه التقاليد - الأسقف الأول لروما، وكما لاحظنا، أسقف روما الذي انتُخِبَ عام 440 بعد الميلاد كان البابا «ليو الأول»، ادَّعى بأنّ هذا التراث أعطى روما الحقَّ في قيادة الدّيانة المَسيحية. هذه نقطة حاسمة لفَرَضية الشَّرعية الكَنَسيّة للفاتيكان.

بدون هذا الادِّعاء - إنْ هو يبدو بأنه بلا أهمية - فإن كامل صَرْح الفاتيكان والبابوية سينهار، مُتحوِّلاً إلى رماد. والأكثر من ذلك، أنه قد بُنِيَ على هذا الادِّعاء الزعم الاستثنائي جدَّاً بأن الكَنيسَة الكاثوليكية هي الطريق الوحيدة إلى الإيمان، وأن البابا هو المُمثِّل الأساسي للسَّيِّد المَسيح؛ أيْ الله، على الأرض. السَّيِّد المَسيح التاريخي - رُبَّما - كان سيُصاب بالذُّعر لما يُنسَب إلى اسمه.

يمكننا أن نناقش - ولسبب معقول - أن السَّيِّد المَسيح تزوَّج، وأن مَريَم المَجْدَلِيَّة كانت زوجته. لكنّنا لا نمتلك الدليل الكافي، كلُّ ما لدينا مستندٌ على الظروف. على أية حال، عندما يتعلّق الأمر بالإشارة إلى الاختلاف بين موقف روما نحو النساء وموقف السَّيِّد المَسيح نحو النساء، فنحن على أساس أكثر تأكيداً بكثير لفرضيتنا. السَّيِّد المَسيح - كما هو واضح جدَّاً في الإنجيل - كان يتمتَّع بعلاقة حميمة ومريحة مع تلاميذه من النساء؛ حميمة ومريحة جدَّاً؛ لدرجة أن التلاميذ الذُّكُور كانوا يشتكون أحياناً. يصف إنجيلُ يُوْحَنَّا الحادثةَ التي كان يسافر فيها السَّيِّد المَسيح إلى السامرة. تلاميذه كلّهم كانوا قد غادروا لشراء اللَّحْم. السَّيِّد المَسيح تُرِك وحده، وقد أَنْهَكَتْهُ رحلته الطويلة، وجلس بجانب البئر. جاءت امرأة عزباء لسَحْب الماء، وبدأتْ بحديث مع السَّيِّد المَسيح. «وعند ذلك رجع تلاميذه. فتعجَّبوا حين وجدوه يُحادث امرأةً. ولكنْ؛ لا أحد منهم قال: (ماذا تريد منها؟)، أو (لماذا تُحادثها؟). يُوْحَنَّا (4: 27). فُهِمَ بأنّ أيَّ شخص - في وجهة نَظَر السَّيِّد المَسيح - قادر على إجراء نقاش.

منذ نَشْر نصوص نجع حمّادي عام 1977، العلاقة الوثيقة بين السَّيِّد المَسيح ومَريَم المَجْدَلِيَّة كانت السبب في الكثير من النقاشات الأكاديمية والشعبية. النصّ الحاسم في إنجيل فيليب تمَّ إعادة تركيب بعض الكلمات فيه - وضعت في الترجمة بين أقواس - ولكنْ؛ حتى بدون هذه الإجراءات، العلاقة الحميمة والخاصّة جدَّاً بين الاثنَيْن كانت واضحة.

ورفيقة [المُنقذ هي] مَريَم المَجْدَلِيَّة. [لكنَّ السَّيِّد المَسيح أحبَّها] أكثر من [كلِّ] التلاميذ [واعتاد أنْ] يُقبّلها [غالباً] على [فَمِهَا]. بقيَّة [التلاميذ أُزْعِجُوا] بذلك [وأبدوا رفضهم].

ولكنْ؛ يبدو أن هناك أكثر من علاقة عاطفية، أو جنسية. لو نظرنا أكثر في هذا الإنجيل، وإلى الأناجيل الأخرى، والتي - أيضاً - يعود تاريخها إلى القرن الثاني تقريباً، والتي تمَّ استثنائها بالطريقة نفسها من قِبَل الكَنيسَة، نجد أن مَريَم المَجْدَلِيَّة كانت تمتلك معرفةً خاصّة بتعاليم السَّيِّد

المَسيح – البصيرة أو الفَهْم الذي لم يكن – بالضرورة – مُشتركاً مع التلاميذ الآخرين. إنجيل فيليب، بعد ذِكْر علاقة السَّيِّد المَسيح الوثيقة معها، يستمرُّ لتوضيح علاقته مع التلاميذ:

قالوا له: «لماذا تحبُّها أكثر منَّا كلّنا؟». أجاب المُنقذ، وقال لهم: «لماذا لا أحبُّكم كما أحبُّها؟ عندما يكون رجل فاقداً للبصر، وآخر يبصر، كلاهما – سوية – في الظلام، فهما لا يختلفان عن بعضهما البعض. عندما يظهر النور، عندها؛ الذي يُبصر سيرى النور، والأعمى سيبقى في الظلام».

السَّيِّد المَسيح يشير – ضمنياً – إلى أنّ مَريَم المَجْدَلِيَّة قادرة على أنْ «ترى النور» بينما التلاميذ غير قادرين على ذلك. بكلمة أُخرى؛ هي تفهم – بالكامل – ما هي تعاليم السَّيِّد المَسيح؛ الآخرون لا.

هذه النقطة تمَّ التعبير عنها – أيضاً – في واحدة أُخرى من النصوص القديمة التي وُجِدَتْ في مصر، في إنجيل مريم. هنا؛ التلاميذ يريدون التَّعلُّم؛ وَرَدَ أن بُطرُس طَلَبَ من مَريَم المَجْدَلِيَّة قائلاً: «أُختاه، نعرف بأنَّ المُنقذ أحبَّك أكثر من كلِّ النساء الأخريات. أخبرينا كلمات المُنقذ التي تتذكَّرينها، الأشياء التي تعرفين بأنَّنا لا نعرفها؛ لأننا لم نسمعها».

وإجابة مريم كانت: «سأُعلِّمك ما هو مَخفيّ عنكَ». ولكنْ؛ بعد أن عملت ذلك، يعترض التلاميذ الذُّكُور على تفسيرها، وصرَّح أندرو قائلاً: «أنا لا أعتقد بأنّ المُنقذ قال هذه الأشياء؛ لأنه – في الحقيقة – هذه التعليمات هي أفكار غريبة». وبُطرُس قال – بشكل ساخط تماماً في تعليق على السَّيِّد المَسيح – : «هل يتكلَّم – حقَّاً، بشكل سرّيّ – مع امرأة، ولا يتكلَّم معنا علانية؟ هل علينا جميعاً أن نلتفَّ، ونستمع إليها؟ هل فضَّلها علينا؟».

هنا مصدر المشكلة: هذه العلاقة بين السَّيِّد المَسيح ومَريَم متشابكة بالأسرار المُتعلّقة بالسَّيِّد المَسيح، والتي تحاول الكَنيسَة – بجَهْد – إخفاءها، وتحاول – بجهد – الاستمرار في إخفائها؛ هذه هي الأسرار التي صوَّرها التلاميذ في إنجيل مريم على أنها كانت مرفوضة ومُهمَلَة بشكل عنيد.

ما هي تلك الأسرار؟ وبالتالي؛ مَنْ كان السَّيِّد المَسيح؟ وكيف كان؟

نحتاج لزيارة ثانية إلى عالم الرومان، وإلى سُكَّان اليهوديَّة المُنقسمين بشكل مرير؛ لكي نطرح بعض الأسئلة الأكثر أهمية، وأن نطلب بعض الأجوبة الأفضل من تلك الأجوبة التي مازلنا راضين عنها حتى الآن. يجب علينا أن نعود إلى أورشليم.

الفصل السابع

النجاة من الصَّلْب

دخل السَّيِّدُ المَسيح القُدْسَ وهو يمتطي حماراً. هذا يبدو جزءاً عرضياً من المعلومات. في وقت سابق، أثناء رحلته من أريحا إلى القُدْس لحضور عيد الفصح، السَّيِّد المَسيح توقَّف على جبل الزيتون. طلب من اثنَيْن من تلاميذه الذهاب والعثور على هذا الحمار. لقد كان مُهمّاً بالنسبة إليه، وإنجيل مَتَّى (21: 4) يُوضّح السبب:

«وكان هذا ليُتمَّ ما قال النبيّ». لسوء الحظّ، رواية مَتَّى الظاهرة للعيان تحجب أكثر ممّا تكشف. نحن بحاجة لمحاولة النضال من أجل تعرية الحقائق التي فيها قليلاً.

أنبياء العهد القديم كانوا مُهتمّين جدّاً بشأن المَسيح المُنتظَر. وقد وصفوا - بالتفصيل - كيف سيصل إلى القُدْس لاستعادة مملكته، وتحرير شعبه. وصفوا - أيضاً - كيفية تصرُّفه: النبي زكريا يتوقَّع في إنجيله بأنَّ مَلك إسرائيل يأتي «عادلاً مُخلِّصاً وديعاً راكباً على حمار، على جحش ابن أتان». السَّيِّد المَسيح كان عليه أن يتبع هذا التنبُّؤ حرفياً، فهو ذو علاقة. في النهار؛ وصل السَّيِّد المَسيح إلى القُدْس، تجمَّعت الحشود لمراقبته، وهو يدخل باب المدينة - خلال الشوارع المزدحمة، التي تؤدِّي إلى المعبد - راكباً. علا هتاف الحشود بأنشودة «المجد لابن داود»، بينما كان يمرُّ. دخول السَّيِّد المَسيح إلى المدينة أصبح - بسرعة - حَدَثاً عامّاً. ملأت الحشودُ الشارعَ أمامه. حشود أُخرى كانت تسير وراءه في موكب. إنّ المدينة - بحَدّ ذاتها - وُصِفَتْ بأنه قد حَصَلَ فيها «اضطراب» بشكل واضح، كلّ من عامة الناس والإدارة كانوا

مُدركين لما كان يحدث، وعلاوة على ذلك، كانوا مُدركين لأهميته. المُنقذ الموعود لإسرائيل كان أمام أنظارهم مباشرة، راكباً يشقُّ طريقه في شوارع القُدْس إلى المعبد، الذي - بقدر ما كانوا على يقين أو - رُبَّما - كانوا يتوقّعون - سيُسيطر عليه.

لكونها كانت مُدركة لهذا الحَدَث، تلك الحشود لابُدَّ وأنها أُعْلِمَتْ سَلَفَاً، ولكنْ؛ لا شيء مُسجَّل في العهد الجديد عن الطريقة التي قد حصل فيها ذلك. هناك، الاستقبال الحافل العامّ وُصِفَ بطريقة تجعلنا نعتقد بأنّه كان تلقائياً، لكنّنا يمكننا التأكُّد بأن وصول السَّيِّد المَسيح كان قد أُعْلِنَ مُسبقاً، وأن الاستقبال الحافل كان قد شُجِّعَ عليه.

تلميح طفيف لهذا التخطيط يظهر في إنجيل يُوْحَنَّا (11: 56-57). يكتب يُوْحَنَّا أن العديد من الناس الذين جاؤوا إلى القُدْس لعيد الفصح «كانوا يبحثون عن يسوع، ويسأل بعضهم بعضاً في الهيكل: (ما رأيكم؟ أَ يجيء إلى العيد، أم لا يجيء؟!)»، لأنه عُمُوماً عُرف بأنّ أوامر لتوقيفه كان قد أُصْدِرَتْ من قِبَل الكَهَنَة البارزين: «وكان رؤساء الكَهَنَة والفريسيين أَمَروا بأن على كلّ مَنْ يعرف أين هو أنْ يُخبر عنه؛ ليعتقلوه». من الواضح بأنه «المَسيح» كان يُعَدُّ تهديداً للدّيانة الرسمية. يكشف يُوْحَنَّا ما هو أبعد من ذلك: «وفي الغد سمعت الجموع التي جاءت إلى العيد أن يسوع قادم إلى أورشليم. فحملوا أغصان النخل، وخرجوا لاستقباله وهم يهتفون: المجدُ لله! تبارك الآتي باسم الرّبّ! تبارك مَلك إسرائيل!» (12: 12-13). كان قدومه مُتوقَّعاً بالتأكيد، وكذلك المشاكل.

السَّيِّد المَسيح - برفقة حاشيته المُستمرّة التّزايد، التي كانت تملأ الشوارع - تقدَّم نحو المعبد؛ حيث - في حادثة مشهورة - قام بطَرْد الباعة. هذا الفعل كان - أيضاً - من العلامات الدالَّة على مَلك إسرائيل «المَسيح المُنتظَر» التي أنبأ بها الأنبياء القدماء:

إِشَعْيَاء (56: 7) يقول: «أجيء بهم إلى جبلي المُقَدَّس؛ ليفرحوا في بيت صلاتي، وتكون مُحرَقاتُهُم وذبائحهم مقبولة على مذبحي؛ لأن بيتي يُدعَى بيت صلاة لجميع الشعوب»، وإِرْمِيَا (7: 11) صرخ بكلمات الله قائلاً: «فهذا البيت الذي دُعِيَ باسمي: هل صار مغارةً للّصوص أمام عيونكم؟». مرة أُخرى؛ هذه النُّبُوءة تمَّ اقتباسها - بشكل واضح - في إنجيل مَتَّى

(21: 13)[1]. ليس هناك مفرّ من ذلك: دخل السَّيِّدُ المَسيح القُدْسَ بشكل متعمّد تماماً، ويُطبّق كافة الممارسات الصحيحة، التي تُظهره كالمَسيح المُنتظَر المُختار لإسرائيل، الملك المُكرَّس (المدهون بالزَّيت)، الذي تمَّ التَّنبُّؤ بوصوله من قبل الأنبياء، كان يعلم بها، كان مُطَّلعاً عليها.

ولكنَّ كلّ الشخصيات التي تمَّ التَّنبُّؤ بها عن المَسيح المُنتظر كانت مُكرَّسة (ممسوحة بالزَّيت). آنذاك؛ متى أصبح السَّيِّد المَسيح مُكرَّساً؟ في إنجيل مَتَّى ومَرْقُس ولُوقَا ليس هناك أيُّ ذِكْر لتكريسه قبل دخوله إلى القُدْس، لذا؛ طبقاً لتلك الأناجيل، يبدو أنّه لم يكن المَسيح المُنتظَر في تلك النقطة. بالأحرى؛ طبقاً لرواياتهم، يبدو بأنّه كان مُصمِّماً على تأسيس النُّبُوءة الأخيرة من ادِّعائه، وهو السبب الذي كان يحتاج فيه إلى الاعتراف والدَّعْم العامَّيْن.

بعد طَرْد السَّيِّد المَسيح للباعة من المعبد، يُقال: «وجاء إليه العُرج، والعُميان، وهو في الهيكل، فَشَفَاهم»، والأطفال كانوا يهتفون: «المجد لابن داود». هذه كانت المرّة الثالثة التي أنجز فيها المَسيحُ المُتطلَّباتِ التقليديةَ لقيادة المَسيح المُنتظَر، وهي شفاء المُعوَّقين، والهتاف من قِبَل الأطفال، وهذه النُّبُوءة كانت قد وردت في المزمور (8: 1–2): «أيُّها الرَّبُّ سيّدنا، ما أعظم اسمكَ في كلّ الأرض. تُغني جلالكَ في السماوات أفواه الأطفال، والرُّضَّع». وفي الحكمة (10: 21) ورد: «حتى إنها فتحت أفواهَ البُكْم، وجعلت ألسنة الرُّضَّع تحمد اللهَ» .

ويصف إنجيل مَتَّى (21: 16) السَّيِّد المَسيح بذاته بأنه – عندما تمَّت مواجهته – أخبرهم أن ما يقوله هو مستند على النصَّيْن السابقَيْن. بعد ذلك؛ بعد تلك النُّبُوءة الثالثة التي تُثبت مهمَّته المُقدَّرة، غادر السَّيِّدُ المَسيحُ القُدْسَ، وسافر إلى بيت عَنيا[2]؛ حيثُ ذهب لقضاء الليلة.

عندما حلَّ الصباح، عاد إلى القُدْس. في هذا الوقت؛ بدأ بالتعليم في المعبد، فأخذ يروي الأمثالَ للحشود التي جاءت للاستماع، وبقيامه بذلك، كان يُهيِّج الكَهَنَةَ المُعادين، الذين كانوا مُصمِّمين على مراقبة نشاطاته. في ذلك اليوم الثاني؛ كان قد حصل أمر حاسم، أمر كان مَعْنياً – بشكل مباشر – بالمشكلة المُهمَّة الحيوية في اليهوديَّة: مسألة دَفْع الضرائب للقيصر.

---

(1) «وقال لهم: جاء في الكتاب: بيتي بيت الصلاة، وأنتم جعلتُمُوه مغارة لصوص». عن إنجيل مَتَّى. المُترجم.

(2) Bethany: بيت عَنيا نسبة إلى قرية في أسفل جبل الزيتون قرب القُدْس في فلسطين القديمة. المُترجم.

السَّيِّد المَسيح كان يعرف - جيِّداً - حقيقة الحالة السياسية في اليهوديَّة، تحت الهيمنة الرومانية. كما عرف الكُتَّاب اللاحقون للإنجيل - أيضاً - الطبيعة الحسَّاسة لهذه القضية. طبقاً لرواية مَتَّى (22: 17)، الفريسيون والهيرودیون - كلاهما كانا مُؤيِّدَيْن للنظام الموالي للرومان - ذهبوا إلى السَّيِّد المَسيح، وسألوه - بشكل صريح، وبوضوح -:

«هل هو مسموح دَفْع الضرائب للقيصر، أم لا؟».

الآن؛ يجب أن نلاحظ - بوضوح - أن ذلك السؤال كان هادفاً جدَّاً. ضمن بيئة تلك الأوقات، كان ذلك السؤال أساسياً، بل هو كارثة. لقد كانت مسألة الضريبة ورفض الدَّفْع هي التي أثارت التمرُّد الأول ضدَّ الرومان في عام 6 بعد الميلاد من قِبَل يهوذا الجليلي؛ ذلك التمرُّد أدَّى إلى نصف قرن من إراقة الدماء. بالنسبة للزَّيْلُوت - وبالنسبة للكثير من اليهود الأقلّ التزاماً - الضريبة كانت رمز كلِّ أخطاء روما. يمكننا أن نكون متأكِّدين بأن السَّيِّد المَسيح كان يعرف نتائج الجواب - وكذلك القُرَّاء اللاحقون للروايات الإلهية. السَّيِّد المَسيح كان عليه الالتزام بإجابة دقيقة ومدروسة؛ لأنه أياً كانت الإجابة فإنها ستُؤدِّي معارضة فئة، أو أكثر. في الإجابة بـ «نعم» قد تجلب له مشكلة مع الزَّيْلُوت المُتطرّفين، والإجابة بـ «لا» تجلب الإدانة من الرومان ومُؤيّديهم بين الكَهَنَة.

فماذا عمل السَّيِّد المَسيح؟ كلّنا نعرف الجواب، قال المَسيح: «أروني نَقْد الجزية! فناولوه ديناراً. فقال لهم: لِمَنْ هذه الصورة، وهذا الاسم؟ قالوا: للقيصر! فقال لهم: ادفعوا - إذاً - إلى القيصر ما للقيصر، وإلى الله ما لله! فتعجَّبوا ممَّا سمعوه، وتركوه، ومضوا». مَتَّى (22: 19-22).

في ذلك الوقت، وفي ذلك المكان، لم يكن ذلك مجرّد ردّ سريع ذكي ولطيف - والذي كان بالنسبة لسُكَّان اليهوديَّة كتعليق قصير لاذع - بل كان تحدِّياً شنيعاً، واستفزازياً للزَّيْلُوت.

تخيَّل المشكلة: الزَّيْلُوت، الذي كان كامل تركيزهم على إزالة، أو تدمير، القبضة الرومانية على اليهوديَّة، قاموا بالترتيب لزواج سُلالي بين يُوسُف - رجل من السلالة المَلَكية لداود - مع مريم التي من السُّلالة الكَهَنُوتية لهارون، وكانت لهما طفل هو السَّيِّد المَسيح - «مُنقذ» إسرائيل - الذي كان - في آن واحد - الملك الشرعي والكاهن الأكبر. تمَّت تربية السَّيِّد

المَسيح لإنجاز مهمَّته، ودخل القُدْسَ كالمَسيح المُنتظَر، وعمل - بانسجام - مع كلّ النُّبُوءات، وعمل كلّ ما كان مُتوقَّعاً منه - حتى جاءت هذه اللحظة الحاسمة. إلى تلك اللحظة، ربما كان الزَّيْلُوت مسرورين جدَّاً من سَيْر الأحداث. ولكنْ؛ بعد ذلك، وفي تحرُّك غير مُتوقَّع، قام مَسيحهم بتغيير الطريق فجأة: قال لهم: «ادفعوا الضريبة، فهي لا تعني شيئاً»؛ لأنه - كما كان يصرُّ في أغلب الأحيان - مملكته الحقيقية لم تكن لهذا العالم.

لابُدَّ وأن الزَّيْلُوت المُؤيّدين للسَّيِّد المَسيح قد اشتعل رأسهم بالغضب، غير قادرين على الكلام في ذلك المجرى المفاجئ والعامّ للأحداث. مَسيحهم المُنتظَر الذي تمَّت تربيته بعناية - قد نَبَذَهُم - خانهم. ولذلك، رفضوه بغضب.

بعد ذلك اليوم الثاني في المعبد، عاد السَّيِّدُ المَسيحُ ثانية إلى بيت عنيا لقضاء الليل؛ طبقاً لإنجيل مَتَّى (26: 6)، كان عيد الفصح سيحلُّ بعد يومَيْن اثنَيْن، وأن السَّيِّد المَسيح كان يقيم في منزل «سِمعان، الأبرص». لكنَّ إنجيل يُوْحَنَّا (11: 1-2، 12: 3) يُصرِّح بأنّه أقام في بيت مريم وأختها مَرتا وكان أخوهما لِعازر. أحد هذَيْن الإنجيلَيْن خاطئ - ذلك واضح جدَّاً- ولكنْ؛ أيّاً كان البيت الذي مَكَثَ فيه السَّيِّد المَسيح، فقد حصل أمر استثنائي هناك: السَّيِّد المَسيح كُرِّس (مُسِحَ بالزيت). هل هذا اعترافه وتأكيده بأنه المَسيح المُنتظَر لإسرائيل؟ يبدو الأمر كذلك.

إنجيل مَتَّى (26: 7) يقول: «دَنَت منه امرأة تحمل قارورة طيب غالي الثمن، فسكبَتْهُ على رأسه، وهو يتناول الطعام»، مادة غالية الثمن جدَّاً في ذلك الوقت، وكانت موضوعة في «صندوق من المرمر». ذلك الزيت والصندوق الذي كان فيه لم يكونا شيئاً قليلاً بمقدور فلَّاح، أو صانع صغير، أن يحتويهما في منزله. كافة الإشارات تقود إلى أنه كان هناك مصدر غامض من الثروة وراء أولئك المُقرّبين من السَّيِّد المَسيح. مَرْقُس (14: 3) يذكر الحادثة نفسها، ويضيف بأنّ ذلك الطيب الباهظ الثمن كان النَّاردين النقي - وهو أحد أنواع التوابل التي كانت تُستعمَل في بخور المعبد. إنجيل يُوْحَنَّا (11: 2) - كما كان دائماً مصدراً للتفاصيل المثيرة - يُسمِّي المرأة: يقول بأنها كانت امرأة من بيت عنيا اسمها «مريم»، «وكان لِعازر المريض أخاها».

أكثر القُرَّاء الحديثين للإنجيل ليس لديهم معرفة واسعة عن السياسة والممارسات في ذلك الزمان، وبالتالي؛ تبدو – بالنسبة لهم – عملية التكريس أمراً عَرَضيّاً، ربما دليلاً عن الاحترام، أو كما يُناقش بعض المُعلّقين الكَنَسيين بأنها مراسم مُنمَّقة للترحيب بضيف مُشرِّف. ربما ذلك صحيح، ولكنْ؛ في سياق كهذا، ذلك التفسير مُقنع بالكاد. بالنسبة لأولئك في القرن الأول بعد الميلاد، نتيجة هذا العمل – رُبَّما – كانت واضحة: هذا كان تكريس أحد أفراد العائلة المالكة. تقليدياً؛ الكَهَنَة وملوك إسرائيل كانوا يُكرَّسون (يُمسَحُون) بالطيب الغالي: بالنسبة للملوك؛ كان الطيب يُصَبّ حول الرأس كإكليل رمزي من الزهور، بينما رأس الكاهن كان يُدهَن بتقاطع قطري.

علاوة على ذلك، علينا أن نلاحظ، أن مَتَّى يصرّح بأنّه – بعد أن تمَّ ذلك التكريس – أسرع يهوذا إلى «رئيس الكَهَنَة»؛ ليخبره، لكي يُرتِّب لخيانة السَّيِّد المَسيح. هذا الحَدَثُ «الإبلاغُ» كان قريباً جدّاً، وبصورة مريبة إلى الوقت الذي تمَّ فيه التكريس، ممَّا يجعلنا نعدُّ وجود علاقة بين الحادثتَيْن. من الواضح أن هذا العمل الذي قامت به امرأة مُقرَّبة من السَّيِّد المَسيح قد قَرَعَ أجراس الإنذار بشكل رسمي. يمكننا – الآن – أن نفهم ونُدرك ما لم يكن واضحاً تماماً في الإنجيل: مَتَّى، أيّاً كان تردُّده، يُشير بأنّ السَّيِّد المَسيح قد تمَّ الاعتراف به، وإعلانه على أنه المَسيح المُنتظَر.[1]

ما يثير الفضول، في عام 1988، تمَّ العثور على دورق صغير – كان يحتوي نوعاً غامضاً من الزيت لم يسبق أن وُجِدَ مثله – يعود تاريخه إلى العهد الهيرودي، وكان مُغلَّفاً بشكل وقائي بألياف النخيل، وقد تمَّ العثور عليه على مقربة من قمران، قرب البحر الميت. علماء الآثار اعتقدوا بأنّه قد يكون زيت البلسم؛ لأن تلك المنطقة كانت مشهورة به في العصر القديم، وكان باهظ الثمن – أيضاً – ضعف وزنه من الفضة – وكان يُستعمَل لتكريس أفراد العائلة المالكة. هذا الدورق – لربما – تمَّ إخفاؤه هناك عن القُدْس، أو – لربما – استُعمل في قمران نفسها لتكريس «بديل» الكاهن الأكبر: لفيفة المعبد تُوضّح بأنّ شعب منطقة قمران حافظ على اهتمام هامّ بالمعبد؛ لأن كامل اللفيفة كان تصف – بالتفصيل المُملِّ – الإجراءات الصحيحة التي يجب ممارستها في ذلك الموقع المُقَدَّس.

---

(1) وذلك ما جعل يهوذا يُسارع لإخبار رئيس الكَهَنَة. المُترجم.

لكنَّ طريقة تكريسه أطلقت لغزاً آخر عميقاً، كما لو أنّه لم يكن هناك ما يكفي من الألغاز حول السَّيِّد المَسيح. قد يتوقَّع المرء أن مثل هذا المراسم قد تُؤدَّى من قِبَل مجموعة من المسؤولين الكبار، ربما كَهَنَة، أو - رُبَّما - مُمثّلين عن السَّنهد ريم، سواء مجموعة «رسمية»، أو مجموعة «بديلة» من الزَّيْلُوت، هذا؛ إنْ كان أيٌّ من الزَّيْلُوت مازالوا يتحدَّثون مع السَّيِّد المَسيح بعد حادثة الدينار.

ولكنْ؛ لم يكن هناك أيٌّ من أولئك الأشخاص. السَّيِّد المَسيح كان - طبقاً لرواية مَتَّى - قد كُرّس - ببساطة - من قِبَل «امرأة »- والتي كانت كما ورد في إنجيل يُوْحَنَّا (12: 3) مريم من بيت عنيا - وذلك الأمر قد حَدَثَ في بيت كانت تشترك فيه مع أختها وأخيها لِعازر، الذي «تمَّ إحياؤه» مُؤخَّراً. في تاريخ تثبيت العماد المَلَكي أو الكَهَنُوتي من قِبَل نظام يسوده الرجال، كان ذلك حادثاً لم يسبق له مثيل: مراسم التكريس ترأَّستها امرأة؟ امرأة كانت تُثبِّت عماداً، وتُكرِّس السَّيِّد المَسيح لإعلانه كـ«المَسيح المُنتظَر»؟ ما هو - بالضبط - ذلك النوع من المراسم الذي ترك أثره البسيط في الأناجيل كالمُذنَّب الذي تحجبه الغيوم المظلمة؟

هذا الحَدَثُ مايزال غير مُفسَّر حتى يومنا هذا، رغم أنّه لا يمكن إهماله. لقد كان ذا أهمية كبيرة في الحركة المَسيحية، وبشكل واضح؛ معرفته واسعة الانتشار جدَّاً، لدرجة أنه لا يمكن إزالته فيما بعد من السجلَّات. استمرَّ في وجوده في تلك الذكريات، التي ماتزال باقية، والتي أصبحت تُسمَّى كُتبنا «الإنجيلية». لقد تمَّ اختصارها، وتحريفها، ولكنها - على الأقلّ - ماتزال موجودة، حتى وإن كانت غامضة، وغير مُفسَّرة. علاوة على ذلك، ما هو فضولي أن امرأة - مريم من بيت عنيا - هي التي كان عليها أن تؤدّي هذا الدور، بدلاً من المرأة التي كانت أكثر بروزاً بكثير في حلقة التلاميذ: مَريَم المَجْدَلِيَّة. بالطبع؛ إنْ لم تكونا - هما - الشخص نفسه؛ أيْ أن مريم من بيت عنيا هي - في الحقيقة - مَريَم المَجْدَلِيَّة نفسها.

تمييز بين الاثنتَيْن يبدو أنه موجود في العهد الجديد، ولكنْ؛ بالتأكيد كان هناك تقليد يدمج الاثنتَيْن معاً، التقليد الذي وُضِعَ في الدِّين أثناء القرن السادس من قِبَل البابا غريغوري الأول. الدليل ناقص على أية حال، وهذا التحديد للهُويَّة لم يعد مُهمَّاً بالنسبة للفاتيكان. على أية حال - كما نحن سنرى - تلك ليست نهاية المسألة.

مثير جدًّاً – ومُقنع – الاحتمال الذي نُشِرَ في كتاب لمارجريت ستاربيرد عام 1993، عنوانه «المرأة والجرَّة المَرْمَرِيَّة». كما اكتشفنا، كلّ الأعمال المُهمَّة للسَّيِّد المَسيح في الأيـام القليلـة التـي سبقت الصَّلْب نُفِّذَتْ بموجب نُبُوءة العهد القديم. حتى تكريس السَّيِّد المَسيح – بحَدّ ذاته – يمكن النظر إليه كتوافق مع الاستقبال الحافـل للمَـسيح المُنتظَـر اليهـودي، الـذي تـمَّ التَّنبُّـؤ بمجيئه. ستاربيرد تقترح بأنّنـا يمكننـا العثـور عـلى أصـول مَـريَم المَجْدَلِيَّـة في إحـدى هـذه النُّبُوءات. تشير إلى نبي العهد القديم مِيْخَـا (4: 8) الـذي كَتَـبَ: «وأنـتَ؛ يـا بُـرجَ القطيـع، يا جبَلَ بِنتِ صهيون، إليكَ يأتي الحُكْم، ويعود المُلْك كما من قبلُ إلى مدينة أورشليم».

العبارة «برج القطيع» تعني المكان العالي، الذي قد يحرسُ منه الراعي قطيعَهُ. هنا، مـع ذلـك، وطبقاً لترجمة الفاتيكان الرسمية (توراة القُدْس) تُشير إلى أورشليم. «القطيع» يشير إلى المُخلِصين لله. إضافة الإشارة إلى «جبل» تُعزِّز هذا التفسير؛ حيث إن «جبل» كان منطقة في القُدْس كان يُقيم فيها الملك. كما تُوضِّح توراة القُدْس أيضاً: «برج القطيع» هـو «Migdal-eder» باللغـة العبريـة؛ «MgdaI» تعني «برج»، ولكنها – أيضاً – تعني «عظيم». ستاربيرد تقترح – بشكل معقول جـدًّاً – أنّه – في هذه الكلمة – لدينا أصول لقب «المَجْدليّة» بدلاً من يكون أصل الكلمـة منـسوب إلى أيِّ بلدة مُحتمَلَة تُدعَى «مجدل». بكلمة أُخرى؛ إن كان هذا التفسير صحيحاً، مريم من بيت عنيـا، أيْ مَرْيَم «المَجْدَلِيَّة»، زوجة المَسيح المُنتظَر، كانت تُعرَف بـ«مَرْيَم العظيمة».

بالطّريقة نفسها التي تمَّ فيها ترتيب دخول السَّيِّد المَسيح إلى القُدْس لتحقيق نُبُوءات أنبياء العهد القديم حول مجيء المَسيح المُنتظَر، مَرْيَم «المَجْدَليَّة» تُوصلنا – أيـضاً – إلى نُبُـوءة العهـد القديم اليسوعية بإرجاع السُّلطة المَلَكية إلى إسرائيل.

في ذلك اقتراح – بالطبع – بأنّ السَّيِّد المَسيح كُرِّس كمَسيح مُنتظَر من قِبَل زوجته!

لسبب ما، هو أنها كانت بقوّتها وسـلطتها. هـذا يجعـل أولئـك المُـدافعين عـن الأولويـة الذَّكَرية في السلطة الرسولية في الكَنيسَة يحصلون على لغـز آخـر، علـيهم أن يخـافوه. بـشكل واضح؛ السلطة في تحرُّك السَّيِّد المَسيح لم تكن مُخوَّلة – بشكل كامل – للذُّكُور من التلاميذ.

ما هي النتائج؟ تمَّ الاقتراح بأنّ هذه المراسم التكريسية تُمَثِّل زواجاً مُقَدَّساً. ولكنَّ هذا غير محتمل: التكريس لم يكن ميزة من ميزات التقاليد السِّرِّيَّة. وكذلك لم يكن ميزة من بلاد ما بين النهرَيْن «Mesopotamian». ناهيكَ عن اليهودية (فلسطين اليوم)، كان هناك – فقط – تقليد سابق وحيد في المنطقة، والتي فيها التكريس بالزيت المُقَدَّس كان أمراً هامّاً، وكان ذلك في مصر القديمة. هناك كان يتمُّ تكريس الكَهَنَة بسَكْب الزيت المُقَدَّس على رؤوسهم.

بالتأكيد؛ العهد الجديد هو تأريخ سيِّئ للأحداث. هذا أمر مستحيل إنكاره. النصوص مُتحيِّزة، ومُحرَّفة، وناقصة، ومتناقضة، من المحتمل أن إعادة تحليل العهد الجديد سيُوصل إلى النقطة التي لن يبقى فيها منه إلا علْم أساطير مَسيحي دوغماتي مُتحيِّز بشدَّة، في هذه الحالة يمكننا أن نشكّ بأن الرواية التي تقول بأن السَّيِّد المَسيح كان يدعم دَفْع الضرائب إلى القيصر هي – ببساطة – إضافة لاحقة لطمأنة مُعتنقي المَسيحية الرومان – غير اليهود – بأنه لم يكن هناك أيّ خطر سياسي حول الدِّين الجديد، وبأنّه لم يكن – أبداً – تهديداً سياسياً للسلطة الرومانية.

من الناحية الأخرى، لو أننا قبلنا بأنّ هذه القَصَص تحتوي على بعض من التاريخ، مهما كانت درجة تحريفه، فإننا نحتاج إلى معرفة تلك الحقائق، التي – لربّما – بقيت حيَّة ضمن الصَّرْح الأسطوري اللاحق[1]. كما هو مذكور في وقت سابق، المُؤرِّخون الوَثَنيون أنفسهم، بشكل خاصّ؛ تاسيتوس، وبلينيوس الأصغر، وكما هو متناثر في معلوماتهم، يذكرون – وبقيامهم بذلك هم يُؤكِّدون – بأنّ المَسيح المُنتظَر اليهودي صُلِبَ أثناء الفترة التي كان فيها بيلاطس البنطي حاكماً لمنطقة اليهوديَّة، والأكثر من ذلك، أن حركة دينية تمركزت وسُمِّيت بعد هذا المَسيح المُنتظَر بالتحديد، ونشأت عند نهاية القرن الأول بعد الميلاد.

ولذلك؛ علينا أن نعترف أنه يوجد هناك بعض التاريخ الصحيح في الأناجيل، ولكنْ؛ ما مقدار ذلك التاريخ الصحيح فيها؟!

كيف نحكم على مدى حقيقة الأناجيل التي تعتمد – في النهاية – على المنظور الذي قدَّمناه لتلك الأناجيل؟!

---

(1) يُقصَد به العهد الجديد. المُترجم.

من هنا؛ جاءت حقيقة أن تلك التضاربات الموجودة في الأناجيل أصبحت مُهِمَّة. أحد تلك التضاربات هو حاسم بشكل خاصّ.

ذكرنا بأنّ السَّيِّد المَسيح لم يُكرَّس إلا بعد يومَيْن من دخوله إلى القُدْس، عندما – في بيت عنيا – قامت مَرْيَم شقيقة لِعازر بدَهْنه بالزيت الباهظ الثمن، مَرْهَم النَّاردين. وهكذا، عندما دخل السَّيِّدُ المَسيحُ القُدْسَ لحضور عيد الفصح بصفته «المَسيح المُنتظر»، لم يكن – رغم ذلك – مُكرَّساً؛ أيْ بشكل تقني، هو لم يكن عند دخوله «المَسيح المُنتظَر» – الذي لم يكن قد أتى بعد.

لكنَّ إنجيل يُوْحَنَّا (12: 1–3) يروي لنا قصّة مختلفة جدَّاً. في تلك الرواية، السَّيِّد المَسيح كُرِّسَ قبل ستَّة أيام من عيد الفصح، قبل دخوله إلى القُدْس. لذا؛ في إنجيل يُوْحَنَّا، عندما دخل السَّيِّدُ المَسيحُ القُدْسَ، وتمَّ استقباله على أنه «المَسيح المُنتظَر»، ذلك الاستقبال الحافل كان صحيحاً؛ لأنه كان قد تلقَّى التكريس والدَّهْن المُقَدَّس. مَن الذي يُخبر الحقيقة؟ يُوْحَنَّا أم الدُّعاة الآخرون الثلاثة؟ نحن لا نستطيع الإخبار. كلُّ ما يمكننا قوله هو أنّ قصّة يُوْحَنَّا معقولة عن دخول المُنتصر إلى القُدْس بطريقة لم تذكرها الأناجيل الأخرى. إنها قصة أكثر معقولية. وبشكل مثير للانتباه، يُوْحَنَّا وحده الذي ميَّز لنا المرأة التي قامت بالتكريس على أنها مريم، أخت لِعازر.

نحتاج لإلقاء نظرة أبعد إلى الفرضية التي نطرحها هنا: ليس من الصعب تخيُّل أن الزَّيْلُوت – الذين أُغضِبُوا بقبول السَّيِّد المَسيح بالتكريس كأنه «المَسيح المُنتظَر»، وبرفضه اللاحق لأيِّ دور سياسي – قد باشروا بعملية رئيسة للقضاء على سلطته. كان لابُدَّ عليهم أن يتخلَّصوا من السَّيِّد المَسيح؛ لكي يتمكَّن زعيم أكثر طاعة من الحُكْم – ربما أخوه يعقوب، الذي كان على توافق أكثر مع التَّطلُّعات السياسية للزَّيْلُوت. بالتأكيد؛ بعد إزالة السَّيِّد المَسيح من المشهد، كان يعقوب سيقود الشعبَ اليهوديَّ المَسيحيَّ في القُدْس.

أيضاً؛ ليس من الصعب أن نفترض بأنّ الزَّيْلُوت هم الذين دبَّروا المكيدةَ للسَّيِّد المَسيح، إنْ لم يكن بإمكانهم الحصول على زعيم، فبإمكانهم – على الأقلّ – الحصول على شهيد. لقد عرف المَسيحُ بأنّهم – من المؤكّد – سيخونونه، ومن المثير للاهتمام أن الرجل الذي ورد اسمه كخائن – يهوذا الاسخريوطي – كان – بلا شكّ – من الزَّيْلُوت السيكاريين (رجال

الخناجر). يمكننا أن نقترح بأنه كان خائناً للسَّيِّد المَسيح، ولكنه كان وطنياً بالنسبة للزَّيْلُوت. لقد عمل ما أرادوه. وأشار إلى السَّيِّد المَسيح ليراه الحُرَّاس المُسلَّحون، الذين جاءوا للاعتقال. وعندما اعتُقِلَ في حديقة الجُثْمانية[1]. بهذا؛ يكشف السَّيِّد المَسيح - وكذلك مُصادفة كاتب إنجيل مَتَّى - بأنّه كان يعرف بالحقيقة السياسية لذلك الزمان.

إنْ كانت الكَهَانة الصَّدُوْقيّة ترغب بأن تتخلَّص من السَّيِّد المَسيح؛ لأنهم رأوه كمَسيح مُنتظَر، وبأنه تهديد لقوّتهم، وإنْ كان الزَّيْلُوت - أيضاً، ولأسباب مختلفة - أرادوا أن يتخلَّصوا من السَّيِّد المَسيح، إذاً؛ كلمة من هذا القبيل لابُدَّ أنها قد وصلت إلى بيلاطس. وهذا النبأ كان قد وضعه في موقف صعب جدَّاً. بيلاطس كان ممثِّل روما الرسمي في اليهوديَّة، وخلاف روما الرئيس مع اليهود كان رَفْضهم لدَفْع الضريبة للقيصر. رغم ذلك، كان هناك قائد لليهود آنذاك - الملك الشرعي لا أقلّ - يأمر شعبه بدَفْع الضريبة. كيف بإمكان بيلاطس أن يحاكمَ مثلَ هذا الرجل، الذي كان يدعم السياسة الرومانية؟ بيلاطس بنفسه سيُتَّهم بإهمال الواجب، إنْ هو أدان مُؤيِّداً كهذا.

العهد الجديد يذكر أن «اليهود» كانوا يهتفون بقَتْل السَّيِّد المَسيح. وهذا الذنب الظاهر الذي اقترفه اليهود التصق بهم لآلاف السنين، ولم يُقرّ من قِبَل الفاتيكان بأنّه احتيال، ولم يُنتزَع من التعاليم حتى أواخر عام 1960. ولكنْ؛ كما يجب أن يكون - الآن - واضحاً، هم لم يكونوا «اليهود» عُمُوماً الذين دعوا إلى توقيف وإعدام السَّيِّد المَسيح، بل الزَّيْلُوت الفدائيون، أولئك الذين كرهوا الرومان، وحتى إنهم ضحُّوا بأحد مُلُوكهم لأهدافهم السياسية. في السيناريو الذي قُدِّم هنا، بيلاطس كان سيجد نفسه في معضلة جدِّيَّة: للمحافظة على السلام كان لابُدَّ عليه أن يحاكم ويدين ويعدم يهودياً لم يكن مُؤيّداً لروما بل كان وجوده يُسبِّب

(1) بستان زيتون تقع على جبل الزيتون، الذي يقع - مباشرة - على مشارف القُدْس قديماً. المُترجم. سأل السَّيِّد المَسيح (كما ورد باللُّغة اليونانية الأصلية): «أَ عَلى لِصٍّ خرجتُم بسيوف وعصي لتأخذوني؟» مَتَّى (26: 55) (كلمة «لصّ» التي وردت يُقصَد بها الزَّيْلُوت؛ أيْ بترجمة أُخرى للنصّ اليوناني تكون العبارة كالتالي: «أَ عَلى فرد من الزَّيْلُوت خرجتُم...». المُترجم.

الفوضى العامّة، والنيران التي أطلقها الزَّيْلُوت الساخطون. احتاج بيلاطس إلى أن يحاول المستحيل في هذه المسألة؛ كان يحتاج - بشدّة - إلى صفقة.

وأقترح أن الصفقة كانت كالتالي: بأنّه سيحاكم السَّيِّدَ المَسيحَ، ويدينه كثائر سياسي، وهكذا يسترضي الزَّيْلُوت، الذين هدّدوا بفوضى واسعة الانتشار. هذا كان أسوأ ما قد يحصل لبيلاطس، وخُصُوصاً أنه كان مُدركاً بأنّه - إنْ حصلت فوضى عامة - سيفقد احترام السلطات الرومانية. ولكنْ؛ بما أنه أدان السَّيِّدَ المَسيحَ كان لابُدَّ عليه أن يواصل الحُكْم المطلوب بالصَّلْب، ولكنه لم يكن بإمكانه أن يجرؤ على إخبار روما بأن المَسيحَ قد مات فعلاً. لذلك اتخذ بيلاطس خطوات لضمان بقاء السَّيِّد المَسيح حيّاً. تكلَّم مع عضو من السَّنهد ريم، ومع صديق ثري للسَّيِّد المَسيح، يُوسُف من الرامة[1].

بشكل تقني، كيف تمَّ تزييف الصَّلْب؟ كيف - تماماً - بقي السَّيِّد المَسيح حيَّاً؟ هل كان من المحتمل النجاة من الصَّلْب مهما كانت المدة الزمنية للصَّلْب؟

الصَّلْب لم يكن إعداماً بقدر ما كان تعذيباً حتى الموت. الإجراء كان بسيطاً جدَّاً: الضحيّة تُربَط، تُعلَّق على عوارض خشبية، بينما يتمُّ تثبيت قدَمَيْه على قاعدة خشبية في أسفل الصليب. قدماه - عادة - تُربطان - أيضاً - بالقاعدة الخشبية، بالرغم من أنه وُجِدَ - على الأقلّ - مثال واحد كُشِفَ عنه من قِبَل علماء الآثار يُظهر بأنّ مسماراً قد يوضع على كلِّ كاحل. وزن الجسم المعلَّق يجعل التنفُّس صعباً جدَّاً، ويمكن أن يتمَّ التَّحكُّم به - فقط - بواسطة رَفْع الجسم بثبات إلى الأعلى، باستخدام القَدَمَيْن، وذلك لتخفيف الضغط على الصدر. في النهاية؛ بالطبع، التعب والضعف يتغلَّبان على القدرة في الاستمرار بالدَّفْع. عندما يحدث ذلك، سيهبط ثقل الجسم للأسفل، وسيصبح التنفُّس مستحيلاً، وبالتالي؛ يموت الشخص المصلوب بالاختناق. هذا يُفترَض أنه يستغرق حوالي ثلاثة أيام.

(1) يوسف الرامي؛ أيْ من الرامة، وهي مدينة تبعد 40 كلم إلى الشمال الغربي من أورشليم. الرامة تعني - بالعبرية حرفياً -: رمتايم صوفيم (أو القمَّتَيْن). المُترجم.

كنوع من الرحمة – فقط الرومان المُتوحّشون يمكن أن يجيئوا بمثل هـذا التعريـف – كانـت ساقا الضحيّة تُكسران في أغلب الأحيان، وبالتالي؛ تفقد – مطلقاً – أيّة قوّة على حَمْل الجسم، ممَّا يؤدّي إلى سقوط وزن الجسم للأسفل، ويموت الضحية – بسرعة – مختنقاً. يمكننا أن نرى هذا في العهد الجديد. يذكر يُوْحَنَّا بأنّ سيقان اللّصَّيْن اللـذَيْن صُـلِبَا إلى جـوار الـسَّيِّد المَسيح قـد كُسِرَتْ، ولكنْ؛ عندما جاء دور كَسْر ساقَيْ السَّيِّد المَسيح، «وجدوه ميتاً» يُوْحَنَّا (19: 31–33).

بشكل واضح؛ مـن الـصعب النجـاة مـن الـصَّلْب، ولكـنّ النجـاة لم تكـن مـستحيلة. جوزيفس – على سبيل المثال – يروي بأنه تشفَّع لثلاثة من زملائه السابقين كانوا بين مجموعـة كبيرة من الأسرى المصلوبين. ذهب إلى تيطَس يسأله الرحمة فيهم، ويناشده بأن يـتمَّ إنـزالهم. تيطَس وافق، والرجال الثلاثة أُنزلوا عن الصليب. على الرغم مـن الرعايـة الطّبّيّـة المُحترفـة، اثنان منهما ماتا، لكنَّ الثالث بقي حياً.

هل من الممكن أن السَّيِّد المَسيح قـد نجـا كـذلك الـذي بقـي عـلى قيـد الحيـاة في تقريـر جوزيفس؟

التعاليم الإسلامية تقول ذلك. القرآن يقول بأنهم لم يصلبوه، ولكـنَّ ذلـك يمكـن تفـسيره – أيضاً – بأنهم لم يتسبَّبوا بموته على الصليب. ولكنَّ القرآن جاء متأخّراً جدَّاً، (رغم أنـه – بـلا شكّ – استعمل وثائق وتعاليم سابقة)[1]. ربما ما هو أكثر علاقة بموضوعنا هو رواية آيرينيوس في أواخر القرن الثاني؛ في شكوى حول اعتقادات باسيليدس وهو غنوسطي مصري، ويُوضِّـح بأنّ هذا الزنديق يُعلِّم الناس بأن السَّيِّد المَسيح كان قد استُبْدِل أثناء الرحلـة إلى جُلجُثَـة، وبـأنّ هذا البديل كان سِمعان من قورينة «Cyrene»[2]، وقد مات بدلاً عن السَّيِّد المَسيح.

لكنْ؛ لو أن السَّيِّد المَسيح بقي حياً من دون أن يُستَبْدَل، فكيف حصل ذلك؟!

---

(1) هذا وفقاً للرأي الشخصي الافتراضي للكاتب، ولكنْ؛ كلّنا يعلم أن القرآن هو وحي إلهي، ولو أن القـرآن اعتمـد على وثائق قديمة تقول – مثلاً – بأن المَسيح لم يُصلَب، فلما لم يستشهد بها الكاتب إذاً؟ لماذا لا توجد وثائق مُؤكّدة غير القرآن تُثبت أنه لم يُصْلَب؟ كلّ هذا الكتاب وأمثاله من الكُتُب تحاول أن تُثبت ما ورد في القـرآن بـأن المَـسيح لم يُصْلَب. المُترجم.

(2) مدينة قديمة في ليبيا، الأطلال تقع – الآن – على بُعْد 225 كلم تقريباً شمال شرق بنغازي. المُترجم.

يقترح الكاتب هيو سكونفيلد في كتابه «مؤامرة عيد الفصح» بأنّ السَّيِّد المَسيح قد خُدِّر، بدا ساكناً على الصليب وكأنه ميت، ولكنْ؛ يمكن إنعاشه فيما بعد، بعد أن تم إنزاله. هذه ليست فكرة غريبة على الإطلاق، وقد تلقت جمهوراً مؤيداً. على سبيل المثال، في برنامج تلفزيوني عن الصَّلْب أُذيع في قناة الـ«بي بي سي» عام 2004 بعنوان «هل السَّيِّد المَسيح مات؟» أشارت إلين باجلز إلى كتاب سكونفيلد، الذي - كما أشارت - اقترح بأنّ السَّيِّد المَسيح «كان قد خُدِّر على الصليب؛ وبأنّه أُنزِلَ عن الصليب في وقت مبكِّر جدًّا، ولذلك فهموا من الممكن جدًّاً أنه بقي حيًّاً»، واختتمت الحديث بأن ذلك «بالتأكيد ممكن».

هناك حادثة فضولية سُجِّلَتْ في الأناجيل، والتي قد تُوضِّح هذه الفرضية: بينما كان السَّيِّد المَسيح على الصليب اشتكى بأنّه كان عطشاناً. وإسفنجة منقوعة بالخلّ وضعت على نهاية قصبة طويلة، وقُدِّمَتْ له. لكنْ؛ بدلاً من إنعاش السَّيِّد المَسيح، ذلك الشراب الذي كان في تلك الإسفنجة سبَّبت - على ما يبدو - موته. هذه ردَّة فعل فضولية، وتقترح بأنّ الإسفنجة لم تكن منقوعة بالخلّ - الذي هو مادة كان يجب أن تُنعش السَّيِّد المَسيح - بل - بالأحرى - كانت منقوعة بشيء ما جعله يفقد الوعي - كعقار مُخدِّر مثلاً. وكان هناك - فقط - ذلك النوع من العقاقير المُخدّرة مُتوفّراً في الشرق الأوسط.

كان معروفاً بأنّ الإسفنجة المنقوعة في خليط من الأفيون[1] ومن مركّبات الأخرى مثل البَلاّدونّة[2]، والحشيشة[3]، تُشكّل مخدراً قوياً. إسفنجات كهذه كانت تُنقَع في ذلك الخليط، ثمّ تُجفَّف للخزن، أو النقل. وعندما كان من الضروري استخدامها للتخدير - للجراحة، على سبيل المثال - كانت الإسفنجة تُنقَع بالماء لتنشيط المواد المخدّرة التي فيها، وبعد ذلك، تُوضَع على الأنف، والفم، ممَّا يؤدّي إلى فقدان الوعي فوراً. نظراً لوَصْف الأحداث على الصليب والموت الظاهري السريع للسَّيِّد المَسيح، يبدو أن هناك اقتراحاً معقولاً بأنّ سبب ذلك الموت الظاهري هو

---

(1) الأفيون: مخدّر يُستخرَج من الخشخاش. المُترجم.

(2) البَلاّدونّة: حشيشة ستّ الحُسْن. المُترجم.

(3) القِنَّب الهندي. المُترجم.

استعمال إسفنج مخدّر كهذا. مهما كان درجة العناية في تنفيذ الصَّلْب «المُدبَّر» (الصَّلْب الذي أراد الحفاظ على حياة السَّيِّد المَسيح)، إلا أنه لا يمكن تصوُّر تأثير الصدمة الكبيرة التي قد تُسبّبها عملية التمثيل على الشخص المصلوب، حتى وإنْ كان ذلك تمثيلاً. بغَضِّ النَظَر عن كلّ شيء، الصَّلْب كان تجربة مُؤلمة، جسدياً، وعقلياً. والإغماء يعني تخفيض تأثير الصدمة، ممَّا يزيد فرصة النجاة، لذلك - رُبَّما - كان للمخدّر منفعة أُخرى بذاك الخصوص أيضاً.

هناك بعض النقاط الأخرى التي تلفت النَّظَر: يذكر إنجيل يُوْحَنَّا بأنَّ رمحاً طُعِنَ في جنب السَّيِّد المَسيح، وبأن الدم خرج منه. لو أخذنا المعنى الظاهري، يمكننا أن نستنتج شيئَيْن من هذه الملاحظة: أولاً؛ أن الرمح لم يُطعَن في الرأس، أو في القلب، وبالتالي؛ لم يكن يُشكِّل خطراً فورياً على الحياة. وثانياً، إنَّ تدفُّق الدم يبدو أنه إشارة إلى أن السَّيِّد المَسيح مازال حيّاً.

كلُّ ما بقي - إذاً - هو إنزال السَّيِّد المَسيح عن الصليب - وهو كما يبدو ميت، إلا أنه في - الحقيقة - فاقد للوعي - وأَخْذه إلى قبر خاصّ؛ حيث وُجِدَت الأدوية لإنعاشه. بعد ذلك؛ تمَّ إبعاده عن المشهد. وهذا - بالضبط - ما تمَّ وَصْفه في الإنجيل: لُوقَا (23: 53)، ومَرْقُس (15: 46) يخبران أن السَّيِّد المَسيح وُضِعَ في قبر جديد في مكان قريب. مَتَّى (27: 6) يضيف بأنّ القبر كان يملكه يُوسُف من الراما، الرجل الغني والمُؤثِّر. يُوْحَنَّا (19: 41-42) الذي - دائماً - يعطينا العديد من التفاصيل الإضافية، يضيف بأنه كان هناك حديقة حول هذا القبر، ويشير - ضمنياً - إلى أنّ الحديقة كانت خاصّة، ربما - أيضاً - ليُوسُف من الراما.

يشدّد يُوْحَنَّا - أيضاً - بأنّ السَّيِّد المَسيح أُنزل بسرعة، ووُضِعَ في هذا القبر الجديد. ثمّ، في إضافة فضولية جدَّاً، يذكر بأنّ يُوسُف من الراما وزميل له يُدعَى نيقوديموس «Nicodemus» زارا القبر أثناء اللّيل، وجلبا معهما كمِّيَّة كبيرة جدَّاً من التوابل:

«خليط من المُرّ والعود، وزنه نحو مئة درهم» يُوْحَنَّا (19: 39). صحيح أن ذلك يمكن - ببساطة - أن يُستعْمَل كعطر، ولكنْ؛ يمكن أن يكون هناك تفسير آخر معقول أيضاً. تلك الموادّ كان لها استعمال طبّيّ؛ بشكل خاصّ، نبات المُرّ كان يُستعمَل كمساعد لإيقاف النزف. ولا واحد من هَذَيْن النوعَيْن من التوابل كان يُعرَف بأن له دور في تعطير الجُثث.

مَرْقُس (16: 1) ولُوقَا (23: 56) نوَّها - بشكل غير مباشر - لهذا الموضوع أيضاً، فقد أضافا إلى القصّة أنّ نسوة - مَريَم المَجْدَلِيَّة، ومَرْيَم «أمّ يعقوب» - جَلَبَتَا الطيبَ والحنوطَ معهما، عندما زارتا القبر بعد انتهاء السّبت.

ممَّا يثير الفضول - أيضاً - أن السَّيِّد المَسيح كان قد صُلِبَ بجانب حديقة، وقبر، والأخير - على الأقلّ - كان يملكه يُوسُف من الراما. على أقلّ تقدير؛ يمكننا القول إن ذلك - بالأحرى - أمر مريح. هل يمكن أن يكون الصَّلْب - بحَدّ ذاته - خاصّاً أيضاً. ربما لكي تتمَّ السيطرة على الشهود على ما كان يحصل. لُوقَا (23: 49) يخبرنا بأنّ الحشود كانت تُراقب عن بُعْد. ربما تمَّ إبعادهم عن الموقع. في الواقع، وَصْفُ أحداث جُلجُثَة يقترح بأنّ موقع الصَّلْب كان - في الحقيقة - في وادي قَدْرون «Kidron»[1]؛ حيث يوجد هناك الكثير من بقايا القبور إلى يومنا هذا، وحيث حُدِّد - أيضاً - مكان حديقة جتسيماني «Gethsemane»، التي - لربّما - كانت الحديقة الخاصّة التي تعود لشخص كان يعرفه السَّيِّد المَسيح.

لكنْ؛ هناك - أيضاً - أمر غريب علينا ملاحظته: في إنجيل مَرْقُس، يُوسُف من الراما وُصِفَ بأنه زار بيلاطس، وطلب منه جسدَ السَّيِّد المَسيح. يسأل بيلاطس إنْ كان السَّيِّد المَسيح ميتاً، ويُفاجَأ عندما أُخبر بأنّه - في الحقيقة - كذلك، موته يبدو سريعاً جدَّاً بالنسبة إلى بيلاطس. ولكنْ؛ بما أن السَّيِّد المَسيح كان ميتاً، بيلاطس سمح ليُوسُف بإنزال الجسد. لو نظرنا إلى النصّ اليوناني الأصلي، سنلاحظ نقطة مهمّة: عندما يطلب يُوسُف من بيلاطس جسدَ السَّيِّد المَسيح، الكلمة التي استُعْمِلَتْ للتعبير عن الجسد هي «soma». في اليونانية ذلك يدلُّ على الجسد الحي. عندما يوافق بيلاطس على إمكانية إنزال يُوسُف للجسد من على الصليب، الكلمة التي استعملها للدلالة على الجسد هي «ptoma» مَرْقُس (15: 43-45). هذا يعني الجسد الميت؛ أيْ جثّة، أو جيفة. بكلمة أُخرى؛ النصّ اليوناني لإنجيل مَرْقُس

(1) وادي «ستّي مَرْيَم» يقع - تماماً - خلف الجدار الشرقي لمدينة أورشليم القديمة، احتلَّته (إسرائيل) عام 1967م. المُترجم.

يُوضّح بأنّه بينما يطلب يُوسُف الحصول على الجسد الحيّ للسَّيِّد المَسيح، يمنحه بيلاطس ما كـان يعتقد بأنه كان جثّة. نجاة السَّيِّد المَسيح مُوضَّحة هناك - تماماً - في الرواية الإنجيلية الفعلية.

لو أن كاتب هذا الإنجيل رغب بأن يُخفي تلك الحقيقة، لـربما كـان مـن الـسهل جـدَّاً أن يستعمل - ببساطة - كلمة واحدة للحالتَيْن؛ أيْ أن يكون عندها يُوسُف وبـيلاطس يـتكلّمان عن «ptoma»؛ أيْ «جثّة». لكنَّ الكاتب فضَّل أنْ لا يستقرَّ على كلمة واحدة. هل من الممكن أن ذلك حَدَثَ لأن تلك الحقيقة كانت مشهورة جـدَّاً، لدرجـة أن الكاتـب لـن يـتمكَّن مـن الإفلات من العقاب إنْ تمَّ التلاعب بها؟ ذلك يجب أن ينتظر ترجمة العهد الجديد من اليونانية إلى اللغة اللاتينية: في التوراة اللاتينية «Vulgate» كلمة «corpus» (جثّة) استُعْمِلَتْ من قِبَـل بيلاطس ويُوسُف من الرامة، وهذا - ببساطة - يعني باللاتينية «جسداً حياً»، و «جثّـة» في آن واحد. اختفاء سرِّ الصَّلْب أُكمل.

مرة ثانية، يحتاج الأمر - فقط - لتغيير طفيف للمنظور، وأن نتنحَّى جانباً، بعيداً عن العقيـدة اللاهوتية، لنتمكَّن من رؤية الصَّلْب بصورة جديدة، لنرى كيف أمكن للسَّيِّد المَسيح أن ينجو.

«ما مملكتي من هذا العالم»، هكذا قال السَّيِّد المَسيح لبـيلاطس البنطـي أثنـاء اسـتجوابه، يُوْحَنَّا (18: 36). السَّيِّد المَسيح وضَّح: «لو كانت مملكتي من العالم، لدافع عني أتباعي». هـذا بيان آخر، كتلك النصيحة لدَفْع الضرائب، والتي - لربما من المؤكّد - أنهـا أدَّت إلى إغـضاب الزَّيْلُوت المُتشدِّدين.

لكنْ؛ ما الذي يعنيه هذا حقّاً؟ وما هو أكثر فضولاً، أين تعلَّم هذه النظرة التـي تختلـف جـدَّاً عن زملائه، والنشطاء سياسياً، وعن معاصريه؟

السَّيِّد المَسيح لا يمكن أنه تعلَّم مهنته في الجليل؛ لأن الجليل كـان الوسـط الـذي يعـيش فيـه الزَّيْلُوت؛ لأن الزَّيْلُوت كانوا سيسيطرون على تدريبه، وتعليمه، وخُصُوصاً لتحقيق القدَر الـذي خطَّطوا له. وحتى لو أنه - لسبب ما، ورغم كل شيء - كـان قـد أقـرَّ بـذلك المنظـور البـاطني، والنظرة السياسية التي تماشت مـع المُتطلّبـات الرومانيـة، عنـدها؛ مُعلّمـوه مـن الزَّيْلُـوت كـانوا سيعرفون بذلك التغيير في آرائه، وبالتالي؛ سيمنعونه من دخول القُدْس بصفة المَسيح المُنتظَر.

ذلك كلّه يقترح بأنّ السَّيِّد المَسيح كان يعمل بموجب خطّته الخاصة، خطّة لم تشتمل - فقط - على تكريسه كمَسيح مُنتظَر من قِبَل امرأة مُقرَّبة منه، بل إنها تؤكّد على أنّ الزَّيْلُوت لم يشكّوا بحقيقة الأمر، إلا بعد أن كان الوقت متأخِّراً جدَّاً. يجب علينا - إذاً - أن نستنتج بأنّ السَّيِّد المَسيح تعلَّم مهنته في مكان آخر.

دليل يمكن معرفته في تصريح فضولي جدَّاً للسَّيِّد المَسيح ذُكِرَ في أحد الأناجيل. يقول: «سراج الجسد هو العَيْن. فإنْ كانت عينكَ سليمة، كان جسدكَ كلّه منيراً» لُوقَا (11: 34).

هذه نوع من الروحانية الصافية، لا يوجد مثله في العهد الجديد؛ ولا يوجد في تعليمات الزَّيْلُوت، التي وجدناها في مخطوطات البحر الميت. هذا فريد في بيئة سُكَّان اليهوديَّة. ذلك يُجبرنا على استنتاج أن السَّيِّد المَسيح كان - إنْ جاز التعبير - قد تعلَّم في مكان آخر. كان يمتلك تجربة «النُّور المُقَدَّس»، التي أبلغ عنها الصوفيون عبر كلّ الأجيال.

نحتاج لفَهْم هذا التصريح بشكل أكبر؛ لأنه أمر حاسم. إنه المدار ذاته الذي يدور حول حقيقة السَّيِّد المَسيح. إنْ تمكَّنَّا من فَهْم هذا التصريح، يمكن - آنذاك - أن نفهم السَّيِّد المَسيح؛ يمكننا أن نفهم لماذا انفصل عن الزَّيْلُوت، والسبب الذي دفع الكَنيسَة لتلفيق الأكاذيب عنه منذ ذلك الوقت. الكَنيسَة كان لابُدَّ لها أن تحافظ على ديمومة هذه الأكاذيب؛ لأنه - بشكل واضح - إن تمَّ إخبار الحقيقة عن السَّيِّد المَسيح، فتلك ستكون نهايتها. إن الأمر - بحقّ - مهمّ لتلك الدرجة.

كان هناك - فقط - مكان واحد؛ حيث يمكن للسَّيِّد المَسيح أن يتعلَّم فيه هذه النظرة. فقط مكان واحد؛ حيث هذه الأنواع من المفاهيم الباطنية نُوقِشَتْ، وعُلِّمَتْ بين الجالية اليهودية؛ حيث كان التيار السياسي الراهن في اليهوديَّة «فلسطين» إمَّا غائباً، أو مُصمتاً بشدّة. وذلك المكان كان مصر.

من المستحيل فَهْم السَّيِّد المَسيح وتعاليمه وأحداث القرن الأول في اليهوديَّة (فلسطين) بدون فَهْم تجربة الدّيانة اليهودية في مصر.

الفصل الثامن

السَّيِّد المَسيح في مصر

إن المكان الذي نشأ فيه السَّيِّد المَسيح منذ سنّ المُراهقة المُبكّر، وحتى ظهوره في الجليل، ليُعمَّد في الأردن، هو لغز حقيقي. لُوقَا (3: 1–23) يُؤرِّخ هذه المعمودية في السنة الخامسة عشرة للإمبراطور تَيْبِريوس – الذي وافق للفترة بين عامَيْ 27–28 بعد الميلاد – ويضيف بأنّ السَّيِّد المَسيح كان بعُمر الثلاثين سنة – تقريباً – في ذلك الوقت. يمكننا أن نكون متأكِّدين بشيء واحد فقط: المكان الذي عاش فيه السَّيِّد المَسيح لم يكن (إسرائيل).

هذه الحقيقة مُوجَّهة عبر منطق نصوص الأناجيل: لو أن السَّيِّد المَسيح عاش في اليهوديَّة، أو في الجليل، أو في السامرة، لكانت هذه الحقيقة مذكورة بإشارات استثنائية وعجيبة جدَّاً عن عظمته الوشيكة، وبالضبط؛ بالطريقة نفسها التي وُصِفَتْ بها – بمودَّة – الحوادث التي حصلت في شبابه، وفي فترة معموديته من قِبَل أناجيل مَتَّى، ومَرْقُس، ولُوقَا، ويُوْحَنَّا.

بالرغم من حقيقية أن الأناجيل كانت مُهتمَّة – بشكل أولي – بمهمَّة السَّيِّد المَسيح بعد معموديته، إلا أنها تُقدم – أيضاً – تفاصيل حول ولادته، وسفرات عائلته، وبشكل ملحوظ؛ المناقشة مع الكَهَنَة في المعبد، عندما كان في سنِّ الثانية عشر لُوقَا (2: 41–47) . لو أن المَسيح قام بمثل تلك الأدلَّة والأحداث في تلك السنّ المبكّرة من عمره، والتي تدل على بصيرته الدِّينية، لكان – بالتأكيد – إنجيل واحد – على الأقلّ – ذكرها، خُصُوصاً عندما وصل السَّيِّد المَسيح إلى سنّ الرُّشْد. سيكون مريباً جدَّاً إنْ لم يكن هناك مثل هذه الأحداث. لكنْ؛ تلك – بالضبط – هي الحالة: بَحْثٌ في العهد الجديد كَشَفَ أنه لا يوجد فيها أيّ شيء عن السنوات الثماني عشرة الأولى تقريباً من مقتبل عُمر السَّيِّد المَسيح.

هناك أمر آخر يثير الفضول: مَتَّى، ومَرْقُس، ولُوقَا، كلّها مُتّفقة في الرأي بأن السَّيِّد المَسيح كان يعيش في بلدة الناصرة في الجليل. لُوقَا يورد معلومات أكثر بعض الشيء، يضيف بأنّ السَّيِّد المَسيح بلغ سنّ الرُّشْد هناك، وبأنّ أبوَيْه كلاهما كانا يذهبان كلّ سنة إلى القُدْس للاحتفال بعيد الفصح. وكانت أثناء إحدى هذه الزيارات التي اكتُشِفَ فيها جلوس السَّيِّد المَسيح في المعبد مع العلماء المُتعلِّمين ونقاشه معهم عن أمور الدِّين. لسوء الحظّ، ليس هناك أيُّ دليل على الإطلاق، على أن الناصرة كانت موجودة حتى في عهد السَّيِّد المَسيح. أول ذِكْر لها لم يظهر في أيِّ وقت قبل القرن الثالث بعد الميلاد. هل من الممكن أن تلك الرواية عن تبادله الحديث في المعبد وُضِعَتْ هنا كنوع من قصّة تلفيقية للفترة من حياة السَّيِّد المَسيح، التي كانت غير مُفسَّرة، أو واردة عادة؟

بقدر ما هي مُهتمّة الأناجيل بالسَّيِّد المَسيح، إلا أنه يبدو أنه اختفى أثناء فترة شبابه وأوائل سنِّ الرُّشْد. لكنّه - في تلك السنوات - كان قد تعلَّم المعرفة، والمعتقدات، والتعاليم، التي علَّمها لاحقاً. لذلك أين كان بالضبط؟ ولماذا مكان وجوده بقي سرَّاً؟ هل سبق وأنْ كان كشَّافاً للمواهب[1] من الكَهَنَة، أو الأحبار، وسافر لعقدَيْن - تقريباً - من التدريب السِّرِّيِّ؟ بالتأكيد؛ التلاميذ لابُدَّ أنهم كانوا يعرفون أين كان السَّيِّد المَسيح. لكنْ؛ ما الشيء الذي - لربما - كان مُهدَّداً بالضياع، وما المشكلة التي - لربما - كانت ستحدث من خلال المشاركة بتلك المعلومات؟ في الحقيقة؛ لا نستطيع تجنُّب طَرْح السؤال التالي: ما الذي كان كُتَّاب الإنجيل ينوون إخفاءه؟

هذه الفجوة في رواية حياة السَّيِّد المَسيح لُوحِظَتْ من قِبَل العلماء لعدّة سنوات، وفتحت الطريق أمام تخمينات كثيرة. هناك أدلّة - من مختلف الدرجات - على إمكانية سفره إلى الشرق، إلى ما هو أبعد بكثير عن السلطة القضائية للرومان، إلى بلاد فارس «Parthia؛ Persia»، أو ما بعد، إلى أفغانستان، أو الهند. حتى اليوم؛ هناك الكثير ممَّنْ يعتقدون بأنّ ضريح «Yus Asaph» في كشمير هو للسَّيِّد المَسيح بنفسه؛ حيث يقال بأنه بعد نجاته من الصَّلْب عاد إلى موطنه في الشرق؛ ليعيش، ويموت في النهاية. هناك - أيضاً - اقتراحات بأنه

(1) شخص يسعى إلى اكتشاف المواهب للإفادة من أصحابها في حقل من حقول النشاط. المُترجم.

درس في طفولته التعاليمَ البُوذيّة، هذا سيُوضِّح ما يقال عن التكافؤ الذي قد يوجد بين تعاليم السَّيِّد المَسيح، وتلك التي من بوذا. ولدينا المجتمع المَسيحي القديم جدّاً، المرتكز في مالابار على الساحل الغربي للهند، الذي يدَّعي بأنه قد أُسِّس من قِبَل الحواري تُوما. بالتأكيد؛ تُوما كان سيذهب إلى المكان الذي ذهب إليه السَّيِّد المَسيح.

ما هو ظاهر، الدليل على أن السَّيِّد المَسيح انتقل نحو الشرق يتمتَّع بأشكاله المختلفة باستحقاق كبير، لكنّه - بالأحرى - يبقى صعب الإثبات. استكشف هيو سكونفيلد الاعتقادات الكشميرية في كتابه «رحلة الأسنيين الطويلة»، الذي نُشِرَ أولاً في عام 1984. اكتشف بأنّ فرعاً أو زعيماً لمجموعة يهودية مَسيحية - مجموعة الزَّيْلُوت - كانوا - في الحقيقة - قد هربوا من المناطق التي كانت تقع تحت السيطرة الرومانية، وتحرَّكوا نحو المنطقة الشمالية الشرقية، وصولاً - في النهاية - إلى شبه القارَّة الهندية.

سكونفيلد يعتقد - بحَزْم - بأنّ وثائق وُجِدَتْ لتأكيد هذا النزوح الجماعي. في تصريح شخصي قاله لي قبل موته في 1988، أوضح بأنّه حدَّد موقع البحث للدليل الحاسم الذي كان موجوداً في دَيْر نَسْطُوريّ[1] في منطقة الموصل في العراق، لكن الرهبان هناك - ما يُسمَّون - الآن - بالمَسيحيين الآشوريين - لم يسمحوا له بالوصول إليه. هو لم يعطني أيّة تفاصيل محدِّدة للدَّيْر، وللأدلَّة. أعتقد بأنّه كان مايزال - آنذاك - يتمنّى الحصول عليها، ولذلك كان يحتفظ بالمعلومات سرَّاً. لكنَّ دليلاً يظهر في كتاب «رحلة الأسنيين الطويلة»؛ حيث يُشير إلى مُؤرّخ عربي اسمه عبد الجبّار، الذي يبدو أنه يمتلك وثائق يهودية - مَسيحية هامّة يعود تاريخها إلى القرن السادس، أو السابع، بعد الميلاد، وهذه الوثائق كانت موجودة في أديرة، نَسْطُوريَّة على ما يبدو، في منطقة الموصل. بالطبع؛ هذا كان قبل فترة طويلة من الحربَيْن ضدّ صدام حسين في العراق. سواء بقي أيّ شيء من الأديرة، أو الوثائق، أم لا، هو مجرد تخمين.

(1) نَسْطوريّ: ذُو علاقة بمذهب نَسْطُوريوس، الذي عُدَّ هرطقةً عام 431، والذي ذهب إلى أن الطبيعتَيْن الإلهية والبشرية ظلَّتا مُنفصلتَيْن في يسوع المَسيح. المُترجم.



الطرق الرئيسية التي تؤدي إلى مصر في وقت هجرة العائلة المقدسة.

هؤلاء اليهود المَسيحيون الذين تركوا فلسطين – طبقاً لسكونفيلد، وآخرين – عملوا ذلك بسبب الاضطهاد من السلطات، التي أصبحت عنيفة جدّاً بحلول القرن الأول. يمكن الفَهْم بأن الرغبة في الانتقال هي – ببساطة – بحثاً عن مكان أكثر أمناً؛ حيث الاعتقادات الاجتماعية يمكن أن تبقى بدون إعاقة. على أية حال؛ السَّيِّد المَسيح لا ينتمي – بسهولة – إلى هذا النَّمَط. قبل أنْ يُعمَّد، وأن يبدأ مهمَّته، هو لم يكن محطّ أنظار، أو انتباه، أيّ من السلطات الرومانية، أو اليهودية الموالية لها. في أيّ حال من الأحوال، كان هناك العديد من الزَّيْلُوت الآخرين، الذين كانوا سعيدين بأن يُسبِّبوا المشاكل، وخُصُوصاً عندما واصل الرومان محاولاتهم لوَضْع صُور الإمبراطور في المعبد في القُدْس. المعارضة اليهودية الثابتة لهذه الحركات أظهرت أنه لم يكن هناك خمول في الحسّاسية ضد مُتطلّبات الرومان. أيّاً كان ما يفعله السَّيِّد المَسيح في ذلك الوقت، لم يُسجّل بأنه اشترك في هذه المعارضة، التي تحمل كلَّ دلائل نشاط الزَّيْلُوت. لذا؛ لم يكن هناك أيّة حاجة للسَّيِّد المَسيح للهروب من السلطة القضائية الرومانية. أيُّ تحرُّك قام به إلى خارج اليهوديَّة، أو الجليل، لابُدَّ وأنه كان بمحض إرادته، بدلاً من الإجبار. ولكنْ؛ إلى أين كانت مغامرته؟ ولماذا؟

هناك فكرة وحيدة في التوراة، واحدة من العهد القديم، والتي تمَّ تكرارها في العهد الجديد. كما رأينا، كان من المُهمِّ للسَّيِّد المَسيح أن يتبع، وأن يُمثِّل – تماماً – التَّنبُّؤات التي أوردها أنبياء العهد القديم في وصف مجيء المَسيح المُنتظَر. رأينا التعبير الحرفي جدّاً لهذه التَّنبُّؤات أثناء دخول السَّيِّد المَسيح إلى القُدْس، عندما أعلن عن ادّعاءاته المَسيحية أخيراً. لذلك، يمكننا أن نكون واثقين في توقُّع أنّ كلَّ تنبُّؤ يسوعي في العهد القديم سيتمُّ الضغط على استعماله بهذا الأسلوب.

في إحساس حقيقي، هذه التَّنبُّؤات من قِبَل الأنبياء حدَّدت السَّيِّدَ المَسيح. زوَّدت بمجموعة من الحدود التي ضمنها احتاجت مهمَّته اليسوعية التعبير عن نفسها. تنبُّؤ مثير جدّاً أُعطي من قِبَل النبي هوشع (11: 1): «يوم كان إسرائيل فتىً أحببته، ومن مصر دعوت ابني». مَتَّى (2: 15) يلتقط هذه النُّبُوءة ليوردها في إحدى أول التَّنبُّؤات التي ذَكَرَهَا: في رواية

تاريخية مُحرَّفة، يروي بأن العائلة المُقَدَّسَة هربت إلى مصر، عندما كـان الـسَّيِّد المَسيح مـايزال طفلاً رضيعاً، مُوضحاً: «فأقام فيها إلى أن مات هيرودس، ليتمَّ ما قـال الـرّبّ بلـسان النبـي: (من مصر دعوتُ ابني)».

في هذه النقطة، نحن لا يسعنا سوى أن نسأل، لماذا مصر؟! هذا يُعـدُّ أمـراً بـسيطاً في إنجيـل مَتَّى، وكذلك في الكَنيسَة الرومانية. لكنْ؛ للكَنيسَة القبطية المصرية - التي فُـصلت عـن رومـا في 451 بعد مجلس خَلْقِيدونية «Chalcedon»[1] - هو - في الحقيقة - مسألة ذات أهمية كبيرة. لألف سنة - تقريباً - كان هناك أسطورة حول رحلة للعائلة المُقَدَّسَة إلى مصر، وحول كلّ المواقـع التـي زاروها، أو استقرّوا فيهـا، وحـول كـلّ المعجـزات التـي رافقـت حـضور الـسَّيِّد المَسيح. هـذه الأسطورة تُدعَى «رؤية ثيوفيلوس». ثيوفيلوس كان بابا الإسكندرية، وزعيم الكَنيسَة المصرية من 385-412 بعد الميلاد، ولكنْ؛ يبدو أن الرؤيا لم تكتب حتى القرن الحادي عشر، أو الثاني عشر.

نظراً للطبيعة التَّعبُّدية جدَّاً للقصّة، والاستعمال الواضح جدَّاً لها في تبريـر تفرُّديـة الـسَّيِّد المَسيح، ولاهوتيته، يمكننا أن نحدّد مكان لاهوتيتها بأنه أبعد بكثير عـن اعتقـادات المجتمـع اليهودي في مصر؛ المجتمع الذي كان قد مَنَحَ المأوى لعائلة السَّيِّد المَسيح. ما هـو أكثـر، هـذه العوامل نفسها تُحدِّد أصول علْم اللاهوت في العصر مـا بعـد القـرارات الدوغماتيـة لمجلـس إزنيك في 325 بعد الميلاد. يبدو واضحاً جدَّاً بأنّ الرؤيا - على أقل تقدير - هـي منـتج الفكـر المَسيحي في القرن الرابع بعد الميلاد، أو لاحقـاً، وبالتأكيـد؛ لـيس مـن الدّيانـة اليهوديـة، أو المَسيحية-اليهودية. لذلك لا يمكن أن تكون رواية دقيقة لأيّ رحلة كهذه، بـالرغم مـن أنّهـا قد تحتوي على بعض العناصر لرحلة حقيقية. لـذلك، نحتـاج إلى أن نـسأل: مَـنْ تخـدم هـذه القصّة؟ مَن الذي كان سيستفيد من إخبارها؟

على الرغم من سياقها المَسيحي تماماً، تكشف الرؤيا بأنّه - في فـترة متـأخّرة تـصل حتـى فترة الحملة الصليبية، عندما كانت مصر تحت الحُكْم الإسلامي لعدّة مئات من السنين - كان هناك أولئك الذين يتمنّون رَبْط السَّيِّد المَسيح بمـصر. هـل مـن الممكـن أن القـصّة خُلِقَـتْ

(1) (مدينة قديمة بآسية الصغرى على البوسفور)، أو بالمجمع المسكوني الذي عُقِد فيها عام 451 م. المُترجم.

لتشجيع الصليبيين على غزو مصر، وتحرير الكَنيسَة القبطية المَسيحية من الإسلام؟ ربما، ولكن هذا الدليل يبدو أقلّ إمكانية للاحتفاظ به لو نظرنا بشكل أعمق: الكَنيسَة القبطية كانت على خلاف مع روما لأكثر من ستّمائة سنة، وإيمانها سُمِحَ به - على الأقلّ - من قِبَل الحُكّام المسلمين. لذلك، يبدو أن المستفيد الأكثر وضوحاً هو إنجيل مَتَّى: بياناته حول انتقال العائلة المُقَدَّسَة قد وردت بكثافة في القصّة. ولكن الكَنيسَة القبطية تظهر بأنها مستفيدة أيضاً، ولكنْ؛ بوضوح أقلّ. إنْ كان إنجيل مَتَّى يحظى بمصداقية أكبر، إذاً؛ يجب أن تكون الأماكن المُقَدَّسَة المصرية المختلفة ضمن القصّة هي - أيضاً - تحظى بمصداقية، بذلك ينفتح طريق حجّ جديد سيتضمّن مصر. مع الحجّاج - بالطبع - جاءت التجارة، والذهب.

على الرغم من نقائصها، تبدو الحكاية أنها اعتمدت على التقاليد أو الأساطير الشفهية المحلِّيَّة. والأسطورة محلِّيَّة تُنبَذ - فقط - في حال أنها تُهدِّد بالخطرَ للفرد؛ لأن الذكريات المحلِّيَّة طويلة الأمد. كان هناك - بالتأكيد - حضور يهودي قديم، وواسع الانتشار جدَّاً في مصر، شامل - بما فيه الكفاية - لتبرير إخبار القصّة بشكل جيد، حتى في أوقات الحُكْم الإسلامي.

الجالية اليهودية في مصر لم تكن كبيرة فقطن بل مُؤثّرة جدَّاً أيضاً. كخُلفاء للفاتحين اليونانيين البطليموسيين، تمتّعوا بمركز اجتماعي أعلى من ذلك الذي كان للمصريين المحلِّيين، الذين عُدُّوا - بعد الغزو - «رعايا»، مواطنين من الدرجة الثانية في بلادهم الخاصة، لا أهلية شرعية لم ينج منها إلا القليل، أو لا أحد. البطليموسيون - في الحقيقة - ما أرادوا - أبداً - تعليم اللغة المصرية حتى النهاية تماماً. كليوباترا، الحاكم الأخير، كانت الوحيدة القادرة على تحدُّث اللغة الأصلية على الأرض التي حَكَمَتْهَا[1]. حتماً، الاستيلاء سببه التَّمرُّد الناجم عن الاحتلال. الثورات الهامّة حدثت في الثيبات (الآن الأقصر) من أواخر القرن الثالث، عندما تمَّ إعلان فرعونَيْن مصريَّيْن محلِّيَّيْن، الواحد تلو الآخر. هذه الثورة القومية أُخْمِدَتْ بسرعة، ولكنْ؛ طوال القرن الثاني قبل الميلاد كان هناك عدد كبير من محاولات الانقلاب الجدِّيَّة.

(1) ومَنْ علّمها إذاً؟!. المُترجم.

على الرغم من هذا، عدد صغير من الفاتحين تمكَّنوا من أن يحكموا عدداً كبيراً من السُّكَّان المحلِّيين، وذلك باستخدام تعليمات، وقيود، لا تُعدُّ، ولا تُحصى، بالإضافة إلى إذلال اجتماعي، وتحطيم نفسي واسع الانتشار، كان يؤدّي إلى تحطيم الثقة بالنَّفْس لدى السُّكَّان المحلِّيين. هذه التقنية استُعْمِلَتْ بتطوُّر ونجاح من قِبَل البريطانيين - بعد ذلك بكثير - في الهند.

الهجرة اليهودية إلى مصر كانت واسعة، وخُصُوصاً أنها شُجِّعَتْ بإزالة كافة الحدود بين مصر و(إسرائيل) من عام 302 قبل الميلاد حتى 198 قبل الميلاد، وهي الفترة التي كانت تُشكِّل فيها (إسرائيل) جزءاً من الإمبراطورية البطليموسية. أصبح هؤلاء المهاجرون مُنغمسين - بسرعة - بالثقافة اليونانية السائدة؛ تعلَّموا اللغة اليونانية، وسمَّوا الأسماء اليونانية، وتبنّوا العديد من الميزات اليونانية التجارية والاجتماعية، كتشكيل الاتحادات المهنية، التي كانت تُعقَد اجتماعاتها في الكِنِيْس. في الحقيقة، اللغة العبرية أصبحت مَنْسِيَّة عملياً، بينما أصبحت اليونانية اللغة اليومية التي اختارها اليهود المصريون. في العديد من الكِنِيْس، حتى الخدمات كانت تحصل باللغة اليونانية.

هذا كلّه قد يكون منسوباً لتأثير ألكساندر الكبير. احتلَّ مصر عام 332 قبل الميلاد، وبعد زيارة سرِّيَّة إلى معبد آمون في واحة «Siwa»[1] أُعلن بأنه «ابن الرّبّ»، وأصبح فرعوناً. أسَّس الإسكندرية عام 331 قبل الميلاد كمدينة هِلينيّة[2] في مصر، وليست - في الحقيقة - خارجها. لم يُكتَب له - أبداً - رؤية نجاحها كالمدينة اليونانية الأعظم في العالم الهِلينيّ؛ في الحقيقة، كانت أكبر وأكثر أهميّة حتى من أثينا. ألكساندر مات - بشكل غامض - في الحملة على بابل عام 323 قبل الميلاد، وبعد ذلك؛ تمَّ تقسيم إمبراطوريته بين جنرالاته اليونانيين: استلم بَطْلَمْيوسُ مصرَ، وبدأت السلالة البطليموسية الشهيرة للملوك والملكات

---

(1) تُعرَف - الآن، في مصر - بالصحراء الغربية. المُترجم.

(2) هِلينيّ؛ خاصّ بتاريخ الإغريق، أو ثقافتهم، أو فنّهم، بعد الإسكندر الكبير. المُترجم.

الذين انتهوا – تماماً – بموت كليوباترا الشهيرة عام 60 قبل الميلاد. في الوقت المناسب؛ سلوقَس[1] حصل على سوريا، وتمركز في إنطاكية.

تحت الحُكْم البطليموسي اليوناني، تمتَّعت مصر بالنجاح التجاري الهائل. أولاً؛ كانت مصدر تمويل روما بالحبوب، وليس هناك مبالغة في القول بأن مصير الأباطرة ارتبط بالنجاح المستمرّ لهذه التجارة. مثل هذا النجاح سمح للبطليموسيين بتجهيز جيش قوي، وقوات بَحْرِيَّة. نجحت المنطقة كثيراً؛ العائدات السنوية كانت ما يُكافئ لحوالي 288 طن من الذهب. بنك مَلَكي كان مقرُّه في الإسكندرية كان يقبل الإيداعات، ويُنظِّم الرهونات العقارية، والقروض. نجحت الحياة الثقافية أيضاً، وتمَّ تحفيزها كثيراً من قِبَل المكتبة الاستثنائية للمنطقة الأكبر في العالم. المسافرون على كلّ سفينة إلى الإسكندرية كانوا يُفتَّشون بحثاً عن الكُتُب، وأيُّ كُتُب كان يُعثَر عليها كانت تُنسَخ؛ بعد ذلك؛ كانت الكُتُب الأصلية تُؤخذ وتُوضَع في المكتبة، بينما النُّسَخ تُعطى للمالكين السابقين. بالإضافة، يُقال إن جميع المكتبات العامة في جميع أنحاء العالم المعروف تمَّ شراؤها من قِبَل البطليموسيين، وحتى إنه قيل بأن المُدّخرات الأدبية التي كانت في الإسكندرية بلغت حوالي سبعمئة ألف لفيفة، والتي أغلبها أُوْدِعَتْ على رفوف القاعات العظيمة السبع في المكتبة الرئيسة التي كان اسمها

---

(1) سلوقس الأول، جنرال مقدوني، أحد وَرَثَة ألكساندر الكبير، أسَّس السلالة السلوقية. أصبح ملك بلاد بابل عام 312 قبل الميلاد، وسيطر على الأرض الممتدَّة من الهند إلى آسيا الصغرى، لكنه مات في محاولة الاستيلاء على عرش مقدونيا. ورد هذا الاسم بعدّة أسماء وهي «Seleucid»، أو «Seleucis» بالإنكليزية، وباللاتينية «Seleucides»، والأصل يعود للكلمة اليونانية «Seleukidēs»، المُشتقَّة من «Seleukos»، ومن هذا الاسم الأخير جاءت التسمية العربية سلوقس. المُترجم.

«The Mouseion»[1]، وأكثر من أربعين ألف بقليل كانت قد أُوْدِعَتْ في مكتبة أصغر في معبد سيرابيس «Serapis»[2].

كنتيجة لهذه الطاقة الدينامية كان هناك نُمُوّ سريع للبلدات الجديدة في مصر، وتمَّ إجراء الإضافات للبلدات التي كانت موجودة. ربما حملت الإسكندريةُ الجاليةَ اليهوديةَ الأكبرَ من أيِّ مدينة في الإمبراطورية الرومانية ما بعد حدود (إسرائيل). حوالي ثلاثمئة ألف يهودي عاشوا في مصر: النصف استقرَّ في المُدُن الإقليمية، أو في البلاد كمُلَّاك أراضي، والنصف الآخر عاشوا في الإسكندرية.

الجالية اليهودية كان مقرُّها في ربعها الخاصّ على الجانب الشرقي للإسكندرية؛ على أية حال، هذا لم يكن غَيْتاً[3] لليهود، بل هم استقرّوا - أيضاً - في أجزاء أُخرى من المدينة؛ وأعضاء الجالية اليهودية تمتَّعوا بسُمعة عظيمة. هذا المجتمع اليهودي عمل بشكل نصف مستقلّ عن بقيّة الإسكندرية. ذلك المجتمع أدار محاكمه تحت رئاسة حاكم، وأعضاؤه المُحنَّكون توصَّلوا لمناصب عالية في البلاد. في الحقيقة، أثناء عهد بَطْلَمْيوس السادس وكليوباترا الثّانية في القرن الثاني قبل الميلاد، كانت الإدارة الكاملة لكلِّ مصر والسيطرة العامّة على الجيش والأسطول قد مُنِحَتْ لاثنَيْن من اليهود، هما أونياس، ودوسيثيوس. لاحقاً؛ كان هناك - أيضاً - جنرالان يهوديَّان في جيش كليوباترا الثّالثة، التي حكمت من 115 إلى 101 قبل الميلاد.

بالطبع؛ كان هناك تاريخ طويل من الاتصالات اليهودية مع مصر قد سبقت ذلك الوقت، حتى لو وضعنا جانباً حقيقة قَصَص يُوسُف وموسى. لكنّنا على قدر أكبر من التأكّد عندما نلاحظ أنّ الجنود اليهود خدموا الفراعنة اللاحقين، ربما بحدود القرن السابع قبل

---

(1) («Mouseion»: كلمة يونانية؛ ومنها اشتُقَّتْ كلمة «Museums» الإنكليزية، التي تعني «المتحف»، والتي استُعْمِلَتْ لأول مرَّة باللغة الإنجليزية في القرن السابع عشر. الكلمة اليونانية تعني «seat of the Muses»؛ أيْ «مجمع الآلهة التسعة» آلهة الفنون الجميلة والعلوم، وتلك الأماكن كانت تُشكِّل المعابد أو الأماكن المُقَدَّسَة التي كُرِّسَتْ للآلهة التسعة، والتي أصبحت - فيما بعد - مستودعات للهدايا والعروض للأنصار. المُترجم.

(2) إله مصري عبدهُ الإغريق والرومان. المُترجم.

(3) الغَيْت: حيّ اليهود بمدينة. المُترجم.

الميلاد، وخُصُوصاً في البعثات الجنوبية في النوبـة «Nubia»[1]. إِرْمِيَـا (44: 1)، يهتـاج بـشكل مرير في القرن السابع قبل الميلاد ضدَّ المستعمرات اليهودية في مصر، مخاطباً إيَّاهم، وقـد أورد بشكل محدَّد بأنّ ممفيس، عاصمة مصر في ذلك الوقت، كانت مضيّفاً لإحدى هـذه البعثـات، وكذلك ذكر مواقع أُخرى في أعلى وأدنى مصر أيضاً.

في القرن الخامس قبل الميلاد، طبقاً لوثائق البُردي التـي اسـتُعِيْدَت، مـستعمرة عـسكرية يهودية كانت قد أُسِّست على جزيرة الفيلة في النيل – خارج المدينة الحديثـة لأسـوان – وهـي الجزيرة التي حرست الحدود الجنوبية لمصر. المستعمرة تضمَّنت قلعة، ومركز جمـارك، وقـسماً إدارياً للجنود، وعوائلهم، الذين أُعطوا أرضاً كـانوا يعيـشون عليهـا عنـدما يتقاعـدون مـن الخدمة الفعلية.

المصريون كان لديهم على الجزيرة معبد الإله خنوم «Khnum»؛ وللجالية اليهوديـة، كـان هناك معبد يَهْوَه. المعبدان كانا قريبَيْن من بعضهما البعض. في الحقيقة، في الجـزء الأعظـم مـن القرن السادس قبل الميلاد، وبعد أن تمَّ تدمير المعبد في القُدْس، وبعد أن أُخِذَ السُّكَّان لـلأسر إلى بلاد بابل، المعبد على جزيرة الفيلة كانت المعبد هو المعبد اليهودي الوحيـد النـشيط الـذي حافظ على وجود الدِّين بإجرائه للتضحيات المطلوبة.

لسوء الحظّ؛ التَّوتُّر ساد بين اليهود والمـصريين، وأثنـاء عهـد داريـوس (522 – 486 قبـل الميلاد)، عندما الفُرْس سيطروا على مـصر، حطَّـم المـصريون معبـدَ يَهْـوَه في جزيـرة الفيلـة. التفويض الإمبراطوري بإعادة بنائه لم يحدث حتى عام 406 قبل الميلاد؛ بحلول عام 401 قبـل الميلاد أُعيدَ بناء. لكنّه حطِّم ثانية بعد فترة وجيـزة، ولم يُـسمَع عنـه شيء، أو عـن المـستعمرة العسكرية اليهودية بعد ذلك التاريخ. حوالي 400 قبل المـيلاد، مـصر تخلَّـصت مـن الفـاتحين الفُرْس، وتمَّ تتويج فرعون جديد. النهوض القومي بدا أنه – بـاحتمال كبـير – كـان العامـل الرئيس في فناء المستعمرة اليهودية.

---

(1) منطقة في وادي نهر النيل، شمال شرق أفريقيا، بين أسوان في مصر، والخرطوم في السودان. المُترجم.

بقايا المجتمع اليهودي الكبير هناك مايزال يُنقَّب عنها من قِبَل المدرسة الآثارية الألمانية في القاهرة. اكتشافاتهم هي قليلة الأهمية رَسْمياً – المتحف الصغير على جزيرة الفيلة يُهمل الطبيعة اليهودية للمستوطنة – لكن علماء الآثار الذين يعملون – في الواقع – على التنقيب مقدّمون بشكل أكبر.

في زيارة للموقع؛ صُعِقْتُ من مقدار اتّساع وروعة أطلال هذه البلدة اليهودية: الأطلال الطينية المسودّة للبيوت المتعدّدة الطوابق، تفصلها الشوارع الضيّقة، تجثم على الأرض العالية في الرأس الجنوبي للجزيرة، في إطلالة إلى النيل في الأسفل، بينما تمرُّ عبره الفلوكة[1] وهي تعبر، وأشرعتها البيضاء أشبه بأجنحة النورس في الماء الأزرق، والجزر الصخرية، والكثبان الذهبية الكبيرة للضفّة الغربية القاحلة.

علماء الآثار الذين يعملون في الموقع وضَّحوا لي بأنّهم كانوا يجدون الـ«ostraca» – وهي قطع خزف مكسورة كُرِّرَتْ لتُستخدَم كموادّ للكتابة – الذي كُتِبَ بالنصّ الآرامي، وكانت تحتوي على أسماء وشوارع يهودية. البقايا أظهرت بأنّه عندما حلَّت نهاية المجتمع اليهودي، كانت نهاية أبدية: كلُّ البيوت أُحْرِقَتْ بالنار. يُفترَض أن معبد يَهْوَه واجه المصير نفسه. الأطلال الحالية لمعبد خنوم يعود تاريخها إلى العهد البطليموسي، ويُعتقَد بأنه بُني فوق البناء اليهودي السابق. بالتأكيد؛ هو – تماماً – بجانب البلدة اليهودية المُخرَّبة، ممَّا يبدو أنه مكان غريب لبناء معبد غير يهودي هناك. على أية حال، معبد يَهْوَه على جزيرة الفيلة لم يكن الملجأ اليهودي الأخير في مصر.

إنه – على الأغلب – سرٌّ. بالتأكيد؛ تمَّ كتمانه. أثناء عهد السَّيِّد المَسيح، كان في مصر معبد يهودي يعمل، المعبد الذي نفَّذ فيه الكَهَنَة اليهود التضحيات اليومية المطلوبة بالأسلوب نفسه المُتَّبع في القُدْس. هذا المعبد – علاوة على ذلك – يُدعَى بأنه كان الوحيد في العالم اليهودي الذي خُدِمَ من قِبَل الكَهَنَة الشرعيين، ولمدَّة بضع سنوات – على الأقلّ – نجا من دمار المعبد في القُدْس.

---

(1) الفَلوكة: سفينة شراعية سريعة ضيّقة. المُترجم.

ادِّعاؤه بالشرعية بأنه كان المعبد الوحيد الذي خُدِمَ بالكَهَانة الحقيقية للدِّين اليهودي يجد دَعْماً في معظم الأدلَّة الحيّة الباقية. تقريباً؛ المصادر كلّها تتفق بأنّ كَهَنَتَهُ - على خلاف أولئك في القُدْس - كانوا من كَهَانَة «الصدّوقيين» الحقيقية، أيْ؛ هم كانوا سليلين شرعيين، أو وَرَثَة الكَهَنَة اللاويّين، «بنو صادوق»، الذين تمَّ وصفهم في حَزْقِيَال (44: 15-16) بأنهم مخوَّلين من الله للدخول إلى المعابد؛ لكي يحموها، ويخدموا الله، ويؤدُّوا القدَّاس. نجد بأنّ هذا التراث ذو أهمية حيوية لأعضاء المجموعة التي أنتجت مخطوطات البحر الميت: في إحدى تسمياتهم استخدموا عبارة «benei Zadok»؛ أيْ «بنو صادوق»؛ في الحقيقة، أخذوا على عاتقهم هذه المسؤولية بجدِّيَّة كبيرة، إحدى اللفائف؛ «وثيقة دمشق»، التي كانت تُسمَّى - في وقت سابق بـ«العمل الصادوقي» - تُعلن: «أبناء صادوق هم المُختارون من بني إسرائيل».

الأستاذة جوان تايلور من جامعة وايكاتو في نيوزيلندا، وهي إحدى العلماء الحديثين القلائل الذين درسوا هذا المعبد، وضَّحت بأنّه - بالتأكيد - يُعدُّ مُؤسَّسة صدوقيّة. هذا يربط المعبد ببيئة لفائف البحر الميت، ويجذبها بشكل أقرب لقصّتنا.

واحد من العديد من الألغاز التي تحيط لفائف البحر الميت يتعلَّق بالكهف 7 في قمران: النصوص التي وُجِدَتْ في هذا الكهف - أجزاء عن النزوح الجماعي، وجزء من رسالة إِرْمِيَا، وسبعة عشر جزءاً صغيراً لم يتمّ تمييزها - كُلّها كُتِبَتْ باللغة اليونانية، وعلى ورق البُرْدي. اللفائف كلّها التي وُجِدَتْ في الكهوف الأخرى كُتِبَتْ باللغة العبرية، أو الآرامية، وعلى رقِّ الكتابة. نظراً لأن طائفة قمران عُوْرِضَتْ - بشكل عنيف - من الأجانب، فمن المستحيل بأنْ يكون أيُّ يوناني من أعضاء مجموعتهم. إنّ التفسير الوحيد هو أنّه كان هناك زَيْلُوت لغتهم الأصلية كانت اليونانية، والذين لم يكونوا قادرين على تكلُّم العبرية، أو الآرامية. أين يمكن لمثل هؤلاء اليهود - الذين كانوا من الزَّيْلُوت أيضاً - أنْ يكونوا قد عاشوا؟ كما نعرف الآن، هم كان يمكن أن يعيشوا في مصر.

من المدهش الاعتقاد بأنه حتى هذا اليوم وجود بقايا هذا المعبد ماتزال مسألة حسَّاسة. منذ عهد بعيد؛ المُؤرّخ جوزيفس - ولأسبابه الخاصة - تآمر على إهمال هذا المعبد إلى

الغموض؛ نظراً لوجود مؤسّسة انشقاقية كانت تعمل ضدّ القانون اليهودي. هذا الحُكْم - كما يُقال - مَنَعَ الشرعية عن أيِّ معبد ماعدا الموجود في القُدْس. حتى «موسوعة اليهوديّة الحديثة» تتّفق مع هذا الموقف الرافض، فهي تذكر: «المعبد لم يُنجِز أيَّة وظيفة دينية في المجتمع اليهودي في مصر؛ إذْ إن ولاءه كان - فقط - للمعبد الذي في القُدْس». إجماع علمي يؤيّد وجهة النظر هذه: المُؤرّخ الأستاذ جيزا فيرمس من جامعة أكسفورد سعيد بوَصْفه للمعبد على أنه مُنشأة غير شرعية نُصِبَتْ «في خَرْق مباشر للقانون التوراتي». يعلن - بدون أيّ دليل على الإطلاق - بأنّ هذه المؤسّسة «لابُدَّ وأنها أثارت كلَّ محافظ فلسطينيّ، حتى أولئك الكَهَنَة الذين انتموا - أو تحالفوا - مع السلالة الصادوقيّة». قد يُغفَر لنا على هذه الأرض إنْ تساءلنا عن أيِّ شيء يتحدَّث هذا المُؤرّخ.

إنّ القصّة وراء تأسيس هذا المعبد اليهودي في مصر بسيطة جدَّاً: في بادئ الأمر؛ السلالة البطليموسية حَكَمَتْ كُلَّاً من مصر و(إسرائيل). طالما أن الضرائب قد دُفِعَتْ، الحُكَّام المصريون كانوا سعداء بترك (إسرائيل) خاضعة لحُكْم الكاهن الأكبر، ومجلسه. عمل الكاهن الأكبر كان أشبه بنائب الملك. بتلك القدرة، كان يقود الجيش اليهودي، الذي وُضِعَ تحت تصرُّف البطليموسيين.

حوالي عام 200 قبل الميلاد، سلوقس حاكم سوريا فتح (إسرائيل). عام 175 قبل الميلاد، إنطاكيوس ايبيفانيس نجح كحاكم؛ صمَّم على زيادة تأثيره في اليهوديَّة ومصر، هاجم القُدْس ومصر عام 170 قبل الميلاد. كاهن الصدّوقيّين الأكبر، أونياس الثّالث، صديق مقرَّب من بَطْلَمْيوس السادس، قاد قواته اليهودية لمساندة الجيش المصري ضدّ السلوقيّين. لكن القوات السورية انتصرت، وأونياس أُجبر على الهروب إلى مصر - تقريباً - في التاريخ نفسه مع العديد من كَهَنَتِهِ. في هذه الأثناء؛ المعبد في القُدْس سُيْطِرَ عليه من قِبَل الكَهَنَة اللا صدّوقيّين الحلفاء للحاكم السوري.

عام 169 قبل الميلاد، غزا إنطاكيوس ثانية، وفي هذا الوقت، استولى على الكنوز التي في المعبد. انتقل في غزواته - ثانية - إلى مصر في السنة التالية، لكن الرومان الأقوياء طردوا

إنطاكيوس خارجاً. كانوا يرغبون بحماية الحبوب المهمّة جـدّاً لإمـدادات رومـا. بعـد ذلـك، إنطاكيوس عام 167 حرَّم المزيد من العبادة اليهودية في المعبد، وبدلاً مـن ذلـك كرَّسـه للإلـه زيوس. لقد كان هذا الفعل هو الذي قاد - أخيراً - اليهود المُتبقّين في (إسرائيـل) إلى التَّمـرُّد، تحت قيادة المكابيِّين.

عندما كان في المنفى، أونياس أراد الحفاظ على خدمة المعبد الشرعية. وجد معبداً مُخرَّباً منـذ مدّة طويلة اسمه بوباستس «Bubastis»[1] في الدلتا المصرية، وسأل بَطْلَمْيوس إنْ كان بإمكانـه أن يأخذه ويعيد بناءه كمعبد يهودي؛ مُنِحَ بَطْلَمْيوس طلبه. المعبد - كـما يقـال لنـا - بُنـي عـلى التصميم نفسه، الذي في القُدْس. بشكل ملحوظ؛ بعد أن بدأت فيه الشعائر، كان هذا المعبد هو الوحيد الذي خُدِمَ من قِبَل الكَهَنَة الشرعيين من النسب الصدّوقي. في الحقيقـة؛ كـان هـذا هـو المعبد اليهودي الشرعي الوحيد. لكنْ؛ بما أنه كان خارج اليهوديَّـة، شـهرته كانـت غامـضة. في الحقيقة؛ يبدو - على الأغلب - بأنّ الهدف كان الحفـاظ عـلى الـشعائر والخـدمات الـشرعية في مصر فقط، حتى تتمكَّن الكَهَانَة الشرعية من السيطرة على المعبد الـذي في القُـدْس؛ لـو حـدث ذلك، لكان الكَهَنَة جاهزين ومستعدّين للعودة على الفور. لسوء الحظّ، ذلك لم يحـدث مطلقـاً، ولذلك هذا المعبد وكَهَنَتُهُ الصدّوقيّون حافظوا على الخدمات لحوالي مئتَيْ سنة بعد ذلك.

لذلك هو ليس واضحاً بأيّ وسيلة أنّ هذه المؤسّسة المصرية كانت غير شرعية، وأنها على نقيض تعاليم القانون اليهودي الرّبّاني الذي يُناقَش في الهيكل، وبشكل خـاصّ الحـديث عـن إمكانية إنجاز النذور في المعبد المصري، بدلاً من القُدْس، وسواء كـان مـن المحتمـل لكـاهن المعبد المصري الخدمة في معبد القُدْس. هذه النقاشات تكشف بأن الخـبراء الـدِّينيين الأقـرب من العلماء الحاليين إلى تلك الفترة كانوا يدعمون كُلّاً وجهتَيْ النَّظَر. بكلمة أُخرى؛ أيّاً كان ما قالته التوراة عن الموضوع، لا شيء يُشكِّل شجباً واضحاً لمعبد أونياس.

إذاً؛ من الصحيح أنّه يجب علينا أن ننظر إلى تاريخ هذا المعبد، وأن نحاول أن نفهـم لمـاذا كان يُعَدُّ وجوده حسَّاساً جدّاً؛ بحيث كان من الـضروري تهميـشه إلى درجـة كبـيرة؛ بحيـث

---

(1) يقع في الزقازيق في دلتا النيل، وهي مدينة مصرية قديمة. المُترجم.

اليوم لا يعرف عنه إلا القليل جدّاً من الناس. ولماذا منذ 1929، لم يُبـد أيّ مـن علـماء الآثـار أيَّ اهتمام بهذا الموقع؟ ولماذا - أيضاً - هو لم يسبق أن نُقِّب فيه بشكل مُنظَّم، على الرغم من الحقيقة بأنّه تـمَّ العثـور هنـاك عـلى جـزء مكتـوب باللغـة العبريـة؟ عـالم الآثـار فلنـدرز بيـتري أبلـغ - أيضاً - عن وجود شواهد لقبور يهودية هناك، وعن وجود جزء من نصّ يحمل اسم إبراهيم.

إحدى الإمكانيات الراهنة هي أن المخاوف السياسية جعلت الموقع إضافة غير مرغـوب فيها لعلْم الآثار المصري. من المحزن أن هذا التحدّي قد يجعـل الأمـر أكثـر سـهولة لأولئـك الذين يرغبون بدَفْن هذا الموقع إلى الأبد. الموقـع الـذي اسـمه «Tell el-Yehoudieh» (تـلّ اليهوديَّة)، والذي يبعد حوالي عـشرين مـيلاً عـن القـاهرة، خُـرِّب بـشدَّة، وقريبـاً سـيُغطَّى بالضواحي التوسُّعية للبلدة الحديثة شبين القناطر[1]. الوقت للقيام بأيٍّ عمل ينفد بسرعة.

إنّ قصّة هذا المعبد يقدّمها المُؤرّخ اليهودي جوزيفس. في عمله الأول «حـرب اليهوديّـة» يصف بأنَّ مَنْ بنى المعبد في مصر هو الكاهن الأكبر أونياس، ابن كاهن أسبق اسـمه سِـمعان وصديق لبَطْلَمْيوس السادس. هذا الكاهن عرفه التاريخ باسم أونياس الثّالـث، الـذي كـان من سلالة الصدّوقيّين الشرعيين.

بعد خمسة عشر سنة تقريباً، ألّف جوزيفس كتاب «العصور القديمة لليهـود». ولكـنْ؛ في هذا العمل غيَّر تفاصيل القصّة: نسب بناء المعبد في مصر إلى أونيـاس الرّابـع - ابـن أونيـاس الثّالث. ذلك لم يخدم - فقط - بنَقْل فترة بناء المعبد إلى تاريخ لاحق، بل الأكثـر أهميّـة لهـدف جوزيفس هو وَضْع شخص ما لم يكن كاهن أكبر من السلالة الصدّوقيّة، كـما كـان المُؤسّـس الحقيقي. أونياس الرّابع كان قائداً عسكرياً في الجيش المصري، كما كان ولداه من بعده. بتغيير النَّسَب، أزال جوزيفسُ الشرعيةَ عن المعبد اليهودي في مصر. لماذا أراد القيام بهذا؟

هذا الخطأ مايزال يُمارَس حتى يومنا هذا. يُصرِّح جيزا فـيرمس أسـتاذ جامعـة أكـسفورد - بشكل واضح - بأنّ أونياس الرّابع هو الذي أسَّس المعبـد المـصري، وبـذلك يحـافظ عـلى استثناء هذا المعبد من الاعتبار الأكاديمي الجدِّيِّ. في هـذا المثـال، العمليـة واضـحة: إنْ قبـل

(1) شمال القاهرة مباشرة. المُترجم.

التاريخ باختيار أونياس الثّالث كمُؤسّس، هذا سيجعل المعبد هو المعبدَ الشرعيَّ، ولن يجعل معبد القُدْس شرعياً. إنِ اختار التاريخ قبولَ أونياس الرّابع كمُؤسّس، سيكون المعبد المصري هو غير الشرعي. لكنْ؛ على ضوء أدلّة جوزيفس في كتاب «حرب اليهودية» وعلى ضوء التقاليد الرّبّانية المُبكّرة، وبشكل مثير للانتباه، أونياس الثّالث كان مَنْ بنى هذا المعبد، وبالتالي؛ يجب علينا أن نستنتج بأنّ المعبد المصري كان – في الحقيقة – شرعياً.

مخطوطات ورق البُردي اليونانية التي وُجِدَتْ في الكهف 7 في قمران تشهد على ارتباطات وثيقة بين المُتطرّفين اليهود «الزَّيْلُوت» في الخارج، وأن مصر كانت المصدر الأكثر احتمالاً، وأن أولئك المُتطرِّفين كانوا نشطاء داخل اليهوديَّة والجليل. الجاليتان كلاهما – على ما يبدو – كانا من أبناء صادوق. ولكنْ؛ هناك بشكل ملحوظ صلات أقرب تجعل معبد أونياس يرتبط بيئة المُتطرِّفين «الزَّيْلُوت». هذا يمكن توضيحه بواسطة التقويم الذي كان يُستخدَم.

أغلب اليهود استخدموا التقويمَ القمريَّ، والذي يُحدَّد فيه الشهر الجديد باليوم الذي يُشاهَد فيه القمر الجديد أولاً، واليوم كان يُقاس من الغروب. على أية حال، هذا التقويم كان عديم الثقة، ويمكن أنْ تتمَّ العملية بمجرد إضافة أيام عند الضرورة. الزَّيْلُوت مُؤلّفو لفائف البحر الميت، والذين يبدو بأنهم كانوا يمتلكون مركزاً في قمران، استعملوا تقويماً مختلفاً جدّاً. كان التقويم الشمسي، لذلك – بالنسبة لهم – يبدأ اليوم عند شروق الشمس. اثنان من النصوص اليهودية المُبكِّرة التي وُجِدَت في قمران، وهما «كتاب الرجوع» و«كتاب أخْنوخ»[1]، كلاهما استعمل التقويمَ الشمسيَّ، وكذلك «لفيفة المعبد» الطائفية.

معبد أونياس ربما – أيضاً – كان يستخدم التقويم السنوي الدِّيني على أساس التقويم الشمسي: طبقاً للفيلسوف اليهودي والزعيم الأرستقراطي الثقافي فيلو الإسكندراني، الذي كَتَبَ في عهد السَّيِّد المَسيح الشمعةَ المركزيةَ للشمعدان ذي السبعة فروع في معبد القُدْس كانت تُمثِّل الشمس. على أية حال، طبقاً لجوزيفس، معبد أونياس لم يحتو شمعداناً بسبعة فروع، ولكنْ؛ بدلاً عن ذلك كان فيه «مصباح مُعلَّق وحيد، يمنح ضوءاً ساطعاً». هذا – بكلّ

(1) أخْنوخ وفقاً لرسالة يهوذا في العهد الجديد هو سابع الآباء من آدم. المُترجم.

احتمال – يُمثِّل الشمس، ويقترح بأنّ معبد أونياس – في الحقيقة – كان يستعمل التقويمَ الشمسي. إذا كان الأمر كذلك، ذلك سيكون برهانا كافياً لوَضْعه في عالم الزَّيْلُوت الأوسع.

الآن؛ هو الوقت لجَمْع كلّ تلك الخيوط المُعقَّدة معاً، ولنرَ لماذا أَحْدَثَ هذا المعبدُ كلَّ تلك العداوة، والتي – كما يبدو – ماتزال حسَّاسة جدَّاً حتى اليوم. بالرغم من أن هذا قد يبدو أمراً بسيطاً في بادئ الأمر، لكنه سيُثبت بأنه على درجة كبيرة من الأهمية؛ كالعديد من الحقائق الأخرى التي لاحظناها، والتي كانت تبدو بسيطة كدهن السَّيِّد المَسيح بمرهم الناردين، أو الزيارة الليلية الغامضة ليُوسُف من الراما ونيقوديموس لقبر السَّيِّد المَسيح وهما يحملان معهما الزيوت والتوابل الطِّبِّيّة. عندما نصبح أكثر ألفة بالبيئة، ونتمكَّن من فَهْم هذه التفاصيل في عقولنا، سنكون – عندها – قادرين على المراقبة بمنظور مختلف جدَّاً لتجلّي هذه الأحداث.

عندما جوزيفس كان يكتب كُتُبَهُ التاريخية، وكان – بلا شكّ – يجلس في تَرَف كبير في القصر الإمبراطوري في روما، ويتأمَّل الحياة بعد دمار المعبد في القُدْس، وذَبْح الآلاف العديدة من مواطنيها، كان لديه أسباب كافية لذمِّ الزَّيْلُوت وكلّ ما كانوا يستندون إليه. بعد كلّ شيء، كان ذلك أقلّ ما أمكنه فعله لرُعاته الجُدُد، العائلة الإمبراطورية الرومانية.

لقد ألقى اللائمة على الزَّيْلُوت في تفشِّي الحرب المُدمّرة، التي سبَّبت كلّ تلك الخسارة. لقد حرَّف تاريخه الشخصي كقائد للزَّيْلُوت بشكل ذكي؛ لكي يُعفي نفسه من أيَّة لائمة. بالطريقة نفسها، عمل – بجهد – لنشر الصورة البريئة للأمّة اليهودية: الذين هم كما يصفهم بالرعايا المُوالين لسادتهم الكبار، البطليموسيين في مصر والرومان في اليهوديَّة، وبأنهم ضُلِّلُوا من قِبَل الزَّيْلُوت المشاغبين، والقَتَلَة المُتهورِّين. وهنا لدينا النقطة الهامة الحيوية للمسألة: كما رأينا، كَهَنَة المعبد اليهودي المصري كانوا من الصدّوقيّين؛ الزَّيْلُوت في اليهوديَّة والجليل كانوا – أيضاً – من الصدّوقيّين؛ أولئك الذين كتبوا لفائف البحر الميت كانت من الصدّوقيّين والزَّيْلُوت. الحرب الكارثية كان سبَّبها الصدّوقيّين، وأعضاؤها من الصدّوقيّين، الذين كانوا «مُتشدِّدين في الدِّين». بالطبع؛ جوزيفس كان لابُدَّ أن يُقلِّل من الوَضْع القائل بأن المعبد

اليهودي في الدلتا المصرية خُدِمَ من قِبَل الكَهَنَة الصدّوقيّين الشرعيين. هو لم يكن عنده خيارات أُخرى، إنْ أراد الاحتفاظ بمكانته المميّزة في قلب الأرستقراطية الرومانية.

علاوة على ذلك، يجب علينا أن نتذكَّر بأنّ الجالية اليهودية المصرية، خُصُوصاً الحضر الإسكندرانيون الواسعو الانتشار، تمنّوا - بالطريقة نفسها - أن يتفادوا المشاكل التي حلَّت مُؤخّراً بإخوتهم في (إسرائيل). عندما الزَّيْلُوت الهاربون وصلوا إلى الإسكندرية، وبدؤوا هناك بخَلْق الإثارة، وقاموا بقَتْل بعض اليهود البارزين الذين عارضوهم، قام السُّكَّان اليهود - بسرعة - بتسليمهم إلى الرومان، الذين سرعان ما عذَّبوهم حتى الموت. بشكل واضح، اليهود الإسكندرانيون كانوا يرغبون بالابتعاد قدر الإمكان عن الحركة الصدّوقيّة؛ جوزيفس من الواضح أنه كان سعيداً جدَّاً بالالتزام بذلك.

لاحظوا - أيضاً - أنّه - رغم وجود المعبد اليهودي في الدلتا - اليهود الإسكندرانيون البارزون كانوا من كبار المُؤيّدين للمعبد في القُدْس؛ افتقار المعبد في القُدْس للشرعية الكهنوتية الصدّوقيّة كان - على ما يبدو - على قدر قليل من الأهمية بالنسبة لهم؛ أو على الأقلّ، قدر قليل من الأهمية للأرستقراطيين اليهود، الذين نعموا بالثروة، والسلطة. المدير المالي لمصر، الأرستقراطي اليهودي ألكساندر ليزيماخوس، كان المُتبرّع الرئيس لمعبد القُدْس. دفع - شخصياً - ثمن الصفائح الذهبية والفضِّيَّة السميكة التي كست البابَيْن اللَّذَيْن بلغ ارتفاعهما خمسين قدماً على مدخل محكمة النساء. ابنه، الجنرال تَيْبِريوس ألكساندر - حاكم مصر من 46 بعد الميلاد إلى 48 بعد الميلاد، وفي عام 66 بعد الميلاد - كان - كما لاحظنا - صديقاً مُقرَّباً من تيطَس، ورئيس هيئة أركان الجيش الروماني الذي حطَّم المعبد عام 70 بعد الميلاد. لا الأب ولا الابن كان لديهما أيّ محبَّة للزَّيْلُوت؛ أو بالامتداد، الصدّوقيّين. وكما لاحظنا - أيضاً - الجنرال تَيْبِريوس ألكساندر كان صديقاً مُقرَّباً لجوزيفس.

ألكساندر ليزيماخوس كان لديه أخ مشهور: الفيلسوف فيلو الإسكندراني. فيلو حاول دَمْجَ الفلسفة الأفلاطونية واليهودية معاً، مُتَّخذاً نظرة باطنية للفكْر اليهودي. من بين أعماله التي كُتِبَ لها البقاء، هناك كُتُبٌ عن العديد من المجموعات الدِّينية اليهودية التي عدَّها مُهمَّة.

كان لديه ميول إلى المشاركة شخصياً بتلك المجموعات ذات الطبيعة الباطنية، وحتى السّرّيّة، وهي - بحسب رأيه - ضمن الدّيانة اليهودية، التي بدت بأنها المكافئ اليهودي للتقاليد الفلسفية اليونانية التي كان يحترمها بشكل أكبر، كالتقاليد الأفلاطونيّة، والفيثاغوريّة. رغم ذلك، في استطلاعاته للدّيانات اليهودية المختلفة كلّها ، فيلو لم يذكر المعبد الذي بُنِيَ مرَّة من قِبَل أونياس في الدلتا.

هذا الصمت مثير للفضول، لكنّنا لا نستطيع أن نقرأ أكثر في هذا الموضوع، إلا أن نستنتج بأنّه كان - لسبب ما - قد قرّر إهمال وجوده. لكن هذا - بحَدِّ ذاته - إيضاح. لأن المرء قد يتوقَّع بأنّ اليهود الأكثر بروزاً في الإسكندرية قد يفخرون بوجود معبد يهودي كهذا، يتمتَّع بسلف مهيب جدَّاً، ومايزال يواصل العمل في مصر. السبب الذي لم يجعلهم كذلك، والذي جعلهم - كما فعل شقيق فيلو - يواصلون دَعْم المعبد في القُدْس - ذلك المعبد الذي أداره كَهَنَة كانوا مُعارَضين - بشكل عنيف - من قِبَل الزَّيْلُوت - هو - ربما - سبب هامّ. هل هذا الصمت من قِبَل فيلو سببه بعض المعرفة بالتعاطف مع الزَّيْلُوت من قِبَل الكهانة التي تخدم المعبد في الدلتا؟ هل من الممكن أنه كان مُدركاً للطموحات السياسية للزَّيْلُوت، وكان مُعارضاً لها؟ هو اقتراح معقول فيه فائدة لفَهْم الإهمال المثير للفضول الذي قام به فيلو.

هذا المعبد كان على الطريق من اليهوديَّة إلى مدينة الشمس «Heliopolis»[1]، وهي مدينة مُهمَّة في مصر، وفي الوقت الراهن هي في موقع مطار القاهرة. المسافرون برّاً من اليهوديَّة إلى مصر كانوا سيبدؤون رحلتهم على الطريق إلى مدينة الشمس. بينما الطريق المُؤدِّية إلى المُدُن اليونانية نوكراتيس «Naucratis»[2] ، والإسكندرية كانت تتفرَّع نحو الغرب، وعبور مستقيم إلى أسفل الطريق، يُؤدّي إلى المعبد، ومدينة الشمس، وإلى ممفيس «Memphis»[3]، ومصر العليا. إنْ كان السَّيِّد المَسيح قد سافر مع أبوَيْه إلى مصر، وبصفتهم من الزَّيْلُوت الصالحين، فإنهم كانوا سيرغبون

(1) الآن؛ هي مصر الجديدة، مدينة قديمة تقع - الآن - ضمن القاهرة، تعني باليونانية «مدينة الشمس»، كانت مركز إله الشمس، تقع على بُعْد 10 كلم شمال شرق القاهرة. المُترجم.

(2) على الضفة الغربية لدلتا النيل في مصر. المُترجم.

(3) مدينة أثرية مصرية، تقع على رأس دلتا النيل جنوب القاهرة. كانت عاصمة قديمة لمصر. المُترجم.

بتفادي الجاليات اليهودية المُتأثِّرة – بقوة – باليونانيين، وبالتالي؛ كانوا سيتحرَّكون جنوباً على طول هذه الطريق، التي تمرُّ بمعبد أونياس. ببساطة؛ من المستحيل تفاديها.

ومن المستبعد جدَّاً أن السَّيِّد المَسيح وعائلته – الذي نشأ في بيئة الزَّيْلُوت، وهو الشخص الذي تمنّى وصلّى من أجل إرجاع كَهَانَة الصدّوقيّين إلى معبد القُدْس، كانوا – فقط – سيمرُّون مرور الكرام من أمام هذا المعبد اليهودي المصري. هذه الملاحظات كلّها تقود – بشكل طبيعي – إلى الاعتقاد بأن معبد أونياس خدم كموقع التدريب الأول للسَّيِّد المَسيح. ربما كان ذلك المعبد هو المكان الذي استهلّ فيه معرفته بالعالم السياسي النشيط للزَّيْلُوت.

بمعنى آخر، يمكننا أن ننظر إلى المعبد على أنه الفرع الخارجي للجليل؛ حيث من المفترض أن الزَّيْلُوت الناطقين باليونانية قد تعلَّموا مهنتهم. كان – أيضاً – مكاناً جيداً بالنسبة لعائلة السَّيِّد المَسيح؛ لكي يجلبوه إليه، وبالتالي؛ بإمكانه أن يتعلَّم بأن يكون المَسيح المُنتظَر لإسرائيل؛ لأن كلّ النصوص والملاحظات على مهمَّة المَسيح المُنتظَر – رُبَّما – كانت متوفّرة هناك. لذلك لدينا – الآن – سبب جيّد لسفر العائلة المُقَدَّسَة إلى مصر، وسبب للتعليق القصير الذي أورده إنجيل مَتَّى؛ ليُقنع بأن الهروب كان من خطر الوَأْد الذي وعد به هيرودس. في الحقيقة، يبدو بأنه لم يكن هروباً على الإطلاق، بل بالأحرى، كان عملاً ذا أثر إيجابي، حَدَثَ للسماح للسَّيِّد المَسيح بالنُّمُوِّ والدراسة والتعليم، بعيداً عن المشاكل في اليهوديَّة، والجليل.

على الرغم من تدريبه على قضية الزَّيْلُوت، السَّيِّد المَسيح – كما رأينا، في وقت ما – اتَّبع – سرَّاً – طريقاً أخرى، طريقاً كُشِفَتْ – فقط – عندما تمّ تكريسه بالزيت ليكون المَسيح المُنتظَر؛ أيْ عندما كان الأوان قد فات على كلّ مَنْ أراد تحدِّيه. تلك الطريق كانت طريقاً أكثر باطنية. رغم ذلك، في أيّ مكان من العالم اليهودي في مصر يمكن أنه تعلَّم مثل هذا المذهب؟ للجواب عن هذا السؤال، نحتاج للنظر إلى إحدى المجموعات الباطنية في ذلك الوقت، واحدة وُصِفَتْ من قِبَل فيلو الإسكندراني.

تمتدّ بحيرة ماريوت بعيداً نحو المنطقة الجنوبية الغربية للإسكندرية. بين البحيرة والبحر هناك تلٌّ كِلْسي منخفض، يمتدُّ – تقريباً – لمسافة ثمانية عشر كيلومتراً عن جدران المدينة. أثناء

عهد فيلو الإسكندراني - على جانبَيْ هذا التلِّ - كان هناك أرض منخفضة، فيها مساكن، ربما بيوت صيفية كان يملكها أغنياء الإسكندرية، بالإضافة إلى عدد من القرى والبلدات الصغيرة. بسبب قُربه من البحيرة، ومن البحر، هذا النُّتُوء الكِلْسي كانت تتخلَّله النسمات العليلة، التي حافظت على نظافة الجوّ، وبرودته، مقارنة بهواء المدينة. على هذا التَّلِّ؛ سكنت جالية يهودية صغيرة من الفلاسفة، الذين استغلّوا الهدوء الريفي، والأمن النسبي الذي قدّمته الفيلات، والبلدات القريبة، والهواء البَحْري البارد، والصّحّي لتكريس أنفسهم لحياة التَّأمُّل.

سُكَّان هذا المجتمع كان اسمهم الشفائيّون «Therapeutae»[1]، والتي - كما أوضح فيلو - تحمل الإحساس بالشفاء - ليس شفاء الجسم، فحسب، بل - أيضاً - شفاء الروح - والإحساس بالعبادة. عبادة الشفائيّين تركَّزت على «حقيقة الذات»؛ الإيمان بالحقيقة القُدْسية للإنسان، وأنَّ القُدْسيّة لا تُخلَق، بل هي أبديّة. كان هذا مفهوماً لاهوتياً أبعد بكثير من أن تصفه اللغة.

في إحدى الطُّرُق المُهمَّة، الشفائيّون كانوا مختلفين جدَّاً عن المجموعات الأخرى المُكرَّسة، التي وصفها فيلو، كالأسنيين مثلاً. عند الشفائيين، كان يُعترَف بالنساء مُساويات للرجال، وكنَّ يشاركنَ - بالكامل - في الحياة الروحية للمجتمع، على نقيض ما كان عند الأسنيين، الذين كانوا - طبقاً لفيلو، وجوزيفس، وبلينيوس - فخورين بحقيقة أنّهم استثنوا النساء؛ اعتقدوا بأن النساء لَهْوٌ. يجب أن نتذكَّر - هنا - الموقف الشامل للسَّيِّد المَسيح نحو النساء في حاشيته، والنَّقْد الذي أحدثه ذلك لدى البعض من تلاميذه الذُّكُور، كما ورد في الإنجيل، لذلك كان هناك العديد من المحاولات التي كانت تُشكِّك بتحالف المَسيح مع الأسنيين.

الشفائيّون كانوا مجتمعاً من النخبة، التي كانت - على ما يبدو - من الإسكندرانيين المُتعلّمين بشكل حسن، والأغنياء من الطبقة الأرستقراطية، التي كان فيلو منها، والتي فضَّلت التَّخلِّي عن كلِّ أملاكها، وأن تعيش حياة البساطة العامة المُكرَّسة للعبادة. يبدو أن فيلو - نَظَرَاً لتعليقاته التي تتَّسم بالتجربة الشخصية - قام بزيارة هذه المجموعة، وبأنه شاركها في البعض من طقوسها، وخدماتها.

---

(1) كلمة «therapeutic» تعني «علاجيّ»، ومن هنا جاءت التسمية. المُترجم.

لكن هذه المجموعة لم تكن وحدها: يصف فيلو وجود مجموعات أُخرى كهذه كرَّست نفسها لأنواع من التَّأمُّل، وأنها انتشرت في أنحاء المناطق المصرية كافة. كما يُوضِّح فيلو بأنّ مجموعات مماثلة وُجِدَتْ في أجزاء أُخرى من العالم ضمن تقاليد دينية أُخرى، الشفائيّون كان يُمثّلون النسخة اليهودية للتقاليد الباطنية الواسعة الانتشار التي توجد في كلّ البلاد.

على أية حال، إنّ نتيجة قبول الشفائيّين للنساء، هي أنّه عندما تُكرِّس المجموعة نفسها في التجربة التَّأمُّلية الأعلى للروح - إلى البصيرة الروحية «التي هي الوحيدة القادرة على معرفة الفرق بين الحقيقة والباطل»- فإن جنس العابدين لا علاقة له. هذا قد يبدو واضحاً بالنسبة لنا اليوم، ولكنْ؛ في زمان فيلو والسَّيِّد المَسيح هذا المفهوم كان ثورياً حقَّاً.

الشفائيّون كانوا صوفيين وحالمين: يقول فيلو: «الشفائيّون - الذين هم شعب تعلَّم - من البداية - كيفية استعمال بصيرتهم - كانوا - تماماً - يرغبون برؤية الحقيقة، وكانوا يَسْمون لما هو أعلى من أحاسيسنا».

أراد الشفائيّون أن يكون لديهم رؤيا مباشرة للحقيقة - أو «لحقيقة الذات» كما وصفه فيلو - لكي يختبروا ما هو موجود حقّاً وراء العالم القاسي والفاني لهذه الحياة العابرة. هذا - أيضاً - كان هدف العديد من المجموعات التي نشطت في العالم الكلاسيكي، خُصُوصاً تلك الطوائف العظيمة والسِّرِّيَّة التي تُدعَى «الغامضة». هذه المجموعة التي لدينا هنا هي نسخة يهودية، تبحث عن الهدف نفسه ، ولكنْ؛ تعمل بطريقة أسهل بكثير ضمن التقليد اليهودي.

الشفائيّون كانوا يُصلُّون عند الفجر والغروب. أثناء النهار كانوا يقرءون النصوص المُقَدَّسة، ولكنْ؛ بدلاً من عَدِّها تاريخاً للأمة اليهودية، فهموها حكاية. طبقاً لفيلو، عدّوا أن النصَّ الحرفي هو رمز لشيء اختفى، وبأنّهم قادرون على العثور عليه - فقط - إنْ هم بحثوا عنه.

كلّ سبعة أيام كانوا يجتمعون، ويسمعون الحديث من قِبَل أحد الأعضاء الكبار؛ كلّ خمسين يوماً كانوا يعقدون اجتماعاً رئيساً، يرتدون فيه - جميعهم - عباءات بيضاء، ويأكلون وجبة طعام مُقَدَّسَة بسيطة، ويُشكّلون جوقة من الرجال والنساء لإنشاد التراتيل المُركَّبة من المفردات والألحان. هذا المهرجان يستمرُّ طوال اللّيل حتى الفجر، ويكشف الطبيعة الشمسية لعبادتهم:

«يقفون ووجوههم وأجسامهم بالكامل مُتَّجهة نحو الشرق، وعندما يرون الشمس وهي تـشرق يرفعون أيديهم إلى السماء، ويُصلُّون من أجل أيام ومعرفة ساطعة للحقيقة».

بشكل واضح؛ هذا نوع مختلف جدَّاً عن الدّيانة اليهودية، نـوع لا يعتمـد – مطلقـاً – عـلى عبادة الهيكل. في عبادة الشفائيّين – التي لها صبغة فيثاغورسية قويّة – لم يكـن هنـاك أيّ اهـتمام بالعبادة اليهودية، التي كانت مُهمَّة جدَّاً للكَهَنَة في معبدَيْ القُـدْس والـدلتا المـصرية، أو بنقـاوة الكَهَنَة الكبار الذين يخدمون تلك الطائفة، وكان عنـدهم اهـتمام كبـير بـالزَّيْلُوت، أو بمجـيء المَسيح المُنتظَر من سلالة داود. للأعضاء الذُّكُور والإناث من الشفائيّين، كان هناك – ببساطة – إمكانية حالمة بملاقاة الله.

مملكتهم حقَّاً لم تكن في هذا العالم: السَّيِّد المَسيح أثبتَ ذلك.[1]

هناك ملابسة أُخرى في اعتقادات الشفائيّين، والتي تستحقّ المزيد من النقاش، وهـي عَـدُّ كامل العهد القديم على أنه رمزي. كانوا يعدُّون أن كلّ التَّنبُّؤات عن المَسيح المُنتظَر التي قالهـا الأنبياء هي رمزية. لم يكن هناك سـبب – في اعتقـادهم – بـأن مَـسيحاً مُنتظَـراً فعليـاً سـيأتي لتحرير (إسرائيل)؛ لم يكن هناك أيُّ سبب لأنْ يكون السَّيِّد المَـسيح الملـك والكـاهن الأكـبر الفعلي؛ التصريحات النبوية للمَسيح المُنتظَر – رُبَّما – كانت – حقَّاً – رمزيـة لـشيء مـا أعمـق وأكثر غموضاً. رأينا – من قبلُ – كيف أن «النَّجْم» كان يرمز للمَسيح المُنتظَـر، ولكـنْ؛ هـل بالإمكان – الآن – أن نتجاوز هذا المفهوم قليلاً للأمام؟ هل بإمكاننا أن نرى تصريح بُطرُس في العهد الجديد على أنه يعكس هذا النوع مـن التخمـين، ولـو أنـه في سـياق مَـسيحي؟ هـل العبارة «..، إلى أن يطلع النهار، ويُشرق كوكب الصبح في قلوبكم» في رسالة بُطرُس الرسول الثانية (1: 19) يمكن أن تُفسَّر كتشجيع لجَعْل النور الباطني يشرق من أعماقنا؟

بمثل هذه المواقف التي تبـدو واسـعة الانتـشار، والـشائعة أيـضاً، لا عجـب أن الدّيانـة اليهودية في مصر، والمَسيحية بعد ذلك، كانتا تتمتَّعان بشكل مُتميّز من النوعية الباطنية: إنهـما

(1) «ما مملكتي من هذا العالم»، هكذا قال المَسيح لبيلاطس البنطي أثناء الاستجواب. وهنا يُشير الكاتب إلى أن المَسيح كان – بالتأكيد – ينتمي إلى طائفة الشفائيين؛ أيْ أنه تعلَّم في معبد الدلتا في مصر. المُترجم.

في مصر؛ حيث بدأت الرهبانية المَسيحية أولاً؛ إنها في مصر في نجع حمّادي؛ حيث قام شخص ما بإخفاء النصوص الغنوسطية، تلك المجموعة من النصوص الباطنية المَسيحية والكلاسيكية - بما فيها واحدة لأفلاطون، وواحدة من نصوص هرميز الثلاثي العظمة «Hermes Trismegistus»[1]، وواحدة آسكليبيوس[2] - التي كانت قد جُمِعَتْ واستُعْمِلَتْ من قِبَل دَيْر في الصحراء.

الكَنيسَة المَسيحية في مصر كانت تمتلك شخصيات باطنية التفكير حتى نهاية القرن الثالث؛ كعالمَيْ الدِّين كليمنت الإسكندراني، وأوريجن، على سبيل المثال. تقاليد مصرية كانت قد تسرَّبت إلى اليهودية منذ البدايات الأولى - عهد يُوسُف وموسى - وفي أزمنة أحدث، كما نرى في كتابات فيلو. في وسط ذلك كلّه كان لدينا مجموعات كالشفائيّين يمارسون نوعاً باطنياً من الدّيانة اليهودية، ولدينا معبد أونياس، الذي احتفظ بالكَهَنَة اليهوديين الصدّوقيّين الحقيقيين.

في هذه النقطة قد يرغب المرء بأن يسأل: «ما الذي حَدَثَ في مصر التي منحت ذلك التركيز الباطني للدّيانة اليهودية، ونشأت المَسيحية منها؟ ما هي التربة التي نمت فيها تلك المعتقدات الغريبة؟

إنّ التعبير الساخر عن هذه الأسئلة هو أن الأرض لم تكن هي التي كان لها الدور الكبير في تغذية هذه المعتقدات كما كانت الشمس، التي سكبت الحياة من الأعلى. الدليل يكمن - في الحقيقة - أنّ كلَّاً من الشفائيّين والصدّوقيّين اليهود تبنّوا التقويم الشمسي من المصريين، الذين كان إلههم الرئيسي رَعْ[3]، والذي هو - في الحقيقة - تعبير عن الشمس كمصدر للحياة، مصدر كلِّ الخَلْق. تكشف النصوص بأنّ الفرعون - على الأقلّ - كان يرغب باتحاد غامض مع الإله، «وذلك للوصول إلى الإنجاز الأعمق لطبيعتنا القُدْسية الإنسانية».

---

(1) هرميز: رسول الآلهة عند الإغريق، وإله الطُّرُق، والتجارة، والاختراع، والفصاحة، والمَكْر، واللصوصية. وثلاثي العظمة جاءت من الكلمة اليونانية «Trismegistus»، وقد أُطْلِقَتْ هذه التسمية على الإله المصري ثوث «Thoth» من قِبَل الأفلاطونيين الجُدُد؛ لأنهم كانوا يعدُّونه مُعلِّماً لثلاثة: الدِّين، والسِّحْر، والخيمياء. المُترجم.

(2) آسكليبيوس: إله الطّبّ عند الإغريق. المُترجم.

(3) إله الشمس عند المصريّين القدماء، وكبيرُ آلهتهم. المُترجم.

الروحانية العميقة التي تكمن - تماماً - في صميم التجربة المصرية للحقيقة أثَّر - بشكل واضح - على العديد من المعتقدات الأخرى، التي أسَّست نفسها هناك. هذه الروحانية المصرية - التي استخدمت قراءات سرِّيَّة للأساطير، واستخدمت طقوساً خاصّة - كانت - في أغلب الأحيان - تُنفَّذ في غرف، ومعابد معزولة تحت الأرض، مُعلنة بأن ذلك من أجل الرَّبْط بين هذا العالم والعالم الآخر، الرَّبْط بين السماء والأرض.

نظرة المصريين لم تكن نوعاً من الفلسفة، أو توقُّع الإمكانيات المُقَدَّسَة، أو الإيمان الذي بُني - فقط - على الأمل بحياة أفضل بعد الموت. المصريون لم يكونوا باطنيين فقط، بل كانوا عمليين جدَّاً. هم لم يريدوا التَّحدُّث عن السماء، أرادوا الذهاب هناك، والعودة؛ مثل لِعازر.

حان الوقت - الآن - للنَّظَر في الألغاز المُخفيَّة في مصر.

الفصل التاسع

الأسرار المصرية

في البداية، طبقاً للمصريين القدماء، كلّ شيء كان مثالياً. أيُّ سقوط من هذه الحالة من الانسجام الأبدي – الذي كان يُسمَّى «مات» (Ma'at) – كان سببه النقائص البشرية، وأعظم تلك النقائص الإنسانية كانت تلك التي سببها الطمع.

لقد كانت مهمَّة كلّ شخص، العظماء بالإضافة إلى المتواضعين، العمل على الحفاظ على هذا الكمال، وعلى إصلاح أيّ عدم توازن فيه. لكنَّ المسؤولية النهائية توقَّفت على الفرعون، الذي كانت تساعده شبكة من المعابد، التي كانت تُغطِّي كلَّ مصر.

في كلّ صباح كانت تُمارَس الطقوس ذاتها؛ لإيقاظ الآلهة في المعابد عند لحظة شروق الشمس، عندما تُفتَح أبواب «الحَرَم الداخلي». مدير مُتحف بيتري في لندن، الدّكتور ستيفن كوورك شبَّه المعبد المصري – على سبيل الدعابة – بأنه: «آلة لحفْظ الكون، عملية تقنية تتطلَّب مُوظَّفين تقنيين، أو معرفة تقنية... لضمان أنّ المهمَّة الحاسمة في البقاء لن تضعف أبداً».

في الوقت نفسه؛ المعبد كان بوّابة إلى المجهول: لقد كان المكان الذي فيه الأرض والسماء ينضمّان إلى بعضهما البعض، كما يفعلان في الأفق، ولهذا السبب العديد من النصوص تشير إلى المعبد كأُفُق سماوي. الكلمة القديمة الدالَّة على كلمة أُفُق هي «akhet»، كان لها عدد من المعاني الهامّة: لم تكن تدلُّ – فقط – على انضمام السماء إلى الأرض، بل – أيضاً – إلى جزء مُعيَّن من الأُفُق؛ حيث إله الشمس يستيقظ من الـ«Duat» (العالم الآخر) في كلّ صباح، ويعود إليه كلّ مساء. بشكل واضح، الأُفُق بالنسبة للمصريين كان يُشير إلى بوّابة العالم الآخر.

الأهرامات - أيضاً - صُبِغَتْ بهذه النوعية: الهرم العظيم للفرعون خوفو في الجيزة كان يُسمَّى «akhet of Khufu» (العالم الآخر لخوفو). علاوة على ذلك، جذر كلمة «akhet» يعني «التَّوهُّج، التَّألُّق». أحد المعاني التي أشار إليها هذا التعبير هو توهُّج النور عند غروب أو شروق الشمس، ولكنْ؛ هناك - أيضاً - معنى سرّيّ أكبر بكثير، سنكتشفه لاحقاً.

الدور الأساسي للفرعون كان أن يعمل كضامن للـ«مات» (الانسجام الأبدي). الشيء الأعظم والوحيد الذي كان يُطلَب من البشر هو العيش في الـ«مات» (الانسجام الأبدي)؛ أيْ خَلْق انسجام بين الكون والعالم الطبيعي. هذه الحالة التامّة من التوازن كانت تُجسَّد بالآلهة «مات»، التي صُوِّرَت بريشة نعامة في شعرها. وهي التي جلبت الحقيقة والعدالة وثمار الانسجام إلى العالم.

ضمن هذا الكمال العالمي كان يتواجد عالمان: العالم الطبيعي، الذي نحن وُلدنا، ونعيش فيه، والعالم الآخر الذي نرحل إليه بعد الموت، وكان يُسمَّى «Duat» (العالم الآخر). العالم الآخر لم يُنظَر إليه على أنه منفصل عن عالم الدنيا، كأنْ يوجد جنّة، أو جحيم، وبأنهما بعيدتان، أو غير مرتبطتَيْن بالوجود الدنيوي. بالأحرى؛ العالم الآخر كان دائم الحضور. كان يُعتقَد بأنه موجود - سوية - مع العالم الطبيعي، ومتشابك معه كالأفعتَيْن اللَّتَيْن كانتا تُحيطان بصولجان هرميز. إنه موجود معنا في كلّ وقت، ورغم ذلك نحنُ - عادة - لا نستطيع أن نراه، أو أن نسافر إليه إلى أنْ نموت.

هَذَان العالمان كانا يحتلّان المكانة نفسها بطريقة غامضة، وغير مُفسَّرة، والشيء الوحيد الواضح هو أن العالم الطبيعي يبقى ضمن الزمن، بينما العالم الآخر يوجد وراء الزمن. بدأ الزمن بالخَلْق، بينما العالم الآخر نُظِرَ إليه على أنه أزلي، ليس بمعنى أن وجوده ممتدّ من اللانهاية في الماضي، وصولاً إلى الأبدية في المستقبل، بل - بالأحرى - هو ما وراء الزمن تماماً. حاكم العالم الآخر كان الإله أوزيرس «Osiris»، ومرشد الموتى كان ثوث «Thoth»، الذي قادهم إلى مملكة الآلهة.

سمة إضافية للعالم البعيد هي أنّه كان يُعدُّ الخَلْفيَّة الأبديّة لكلِّ شيء في الكون المرئي. عُـدَّ المصدر القُدْسي لكلِّ الأشياء، مصدر كلِّ القـوّة، وكـلِّ الحيويـة. الحيـاة بنفـسها اعتُقِـدَ بأنهـا جاءت من العالم الآخر؛ حيث تسرَّبت إلى العالم الطبيعي، وكشفت نفـسها في كـلِّ الأشـكال التي نراها حولنا.

بالنسبة للمصريين القدماء، عالم الموت كان – دائماً – قريباً جدَّاً من عالم الحياة، كان هنـاك أُلفة بين الاثنَيْن. على سبيل المفارقة، عالم الموت كان مصدر عالم الحياة. في الحقيقة؛ كان يُعتقَـد بأن الأموات هم الأحياء فعلاً.

نَقْشٌ على قبر يعود تاريخه إلى المملكة الجديدة (حوالي 1550 – 1070 قبل المـيلاد) يُـذكِّرنا بأن: «هذا العالم هو شيء تافه جدَّاً من الحياة، »،ولكـنَّ« الخلـود في عـالم المـوتى». قـبر يعـود تاريخه إلى المملكة المتوسّطة (حوالي 2040 – 1650 قبل الميلاد) للكاهن نِفرْحوتِب في الثيبـات – الآن، الأقصر – يحتوي على عدّة أغاني، والتي تنتهي الأغنية الثانية منها بالتالي:

بعد أن تنتهي الحياة عـلى الأرض، تكـون لحظـة الحُلـم. يقـال: «مرحبـاً بخـير وسـلام» للشخص الذي يصل إلى «الغرب».

«الغرب» – بالنسبة للمصريين – كانت تعني أرض الموتى. القبـور والأهرامـات كانـت – دائماً – تُبنى على الضفّة الغربية لنهر النيل؛ حيث كان يُعتقَد بأن الشمس تختفي في الليـل في العالم البعيد (العالم الآخر).

لفَهْم هذا، من المفيد النَّظَر إلى المفهوم المصري القديم للزمن: اعتقدوا بـأنّ هنـاك نوعـان من الزمن يعملان في آن واحد. كان هنـاك نـوع مـن الـزمن يُـدعَى «neheh»، وهـو الـزمن الدوري المرتبط بالأنماط الطبيعية – فصول السنة، وسَيْر النجـوم، إلـخ. الـزمن الآخـر كـان يُعرَف بـ«djet»، والذي لم يكن فيه زمن على الإطلاق؛ حالة من الوجود ينعـدم فيهـا الـزمن كُلِّيَّاً. الزمن يتقـدَّم – فقـط – في الـ«neheh»؛ بيـنما في الـ«djet» الزمـان مُعلَّـق. الزمـان في الـ«neheh» لا نهائي؛ بينما في الـ«djet» هو أبديّ؛ أحد النقوش يقول:

«الأشياء في الـ»djet» الأبدي لا تموت».

هذا المنظور الثنائي مختلف جدَّاً عن مفهومنا الحديث للزمن، الـذي نتقـدَّم فيـه – دائـماً– للأمام؛ أملاً منا بأن يكون المستقبل مثالياً؛ وهو أمل – بالنسبة للعديد مـن الأديـان – يـستند على إنجاز الوعد بظهور المَسيح المُنتظَر يوماً ما؛ للانتصار في المعركة النهائية ضدَّ قوَّات الـشَّرِّ، وفي القيام بذلك ستكون فاتحة العالم المثالي. فلسفتنا السياسية – أيضاً – مُعتمدة – بشكل كبير – على المُخطَّط الزمني، على امتداد يسير من الماضي إلى المستقبل الـذي – إن أدرنـا فيـه تـشريعنا بشكل صحيح – سوف نُنجز الراحة للمواطنين كلّهم ، كما لو أنّ التشريع هو شيء مـا يعمـل بشكل أفضل من ضمادة الجروح.

وأيضاً، أولئك – في ثقافتنا – الذين تجاوزوا الـزمن، كالـصُّوفيين، أبلغـوا – كالمـصريين القدماء – بأن عالم الموتى – في الحقيقة – هو عالم الحياة، وبأنّـه دائـم الحـضور، وبأنـه قريـب جدَّاً. في التسامح بالاختلافات العظيمة في الثقافة واللغة، يمكننا أن نرى أن هذا المعنى بذاتـه يتقارب مع مفهوم العالم القُدْسي، الذي شدَّدت عليه تقارير القـرن الـسادس عـشر للقدِّيـسة الباطنية العظيمة تيريزا من بلدة أفيلا، التي كانت – غالباً – تستسلم لـ«نشوة» باطنية؛ حيـث كانت «تغوص» كُلِّيَّاً في المملكة الإلهية. في كلام عن الله قالت: كـان هنـاك شيء واحـد كنـتُ أجهله في البداية. أنا لم أعرف – حقَّاً – بأنّ الله موجود في كلّ الأشياء؛ وعنـدما بـدا لي الـرّبّ بصورة قريبة جدَّاً، اعتقدتُ بأنّ ذلك كان مستحيلاً.

المساعد الرئيس أولئك الذين يحافظون على الـ«مـات» (الانـسجام الأبـدي) كـان الإلـه العظيم «Tehuti» (تيهوتي)؛ يُدعى ثوث من قِبَـل اليونـانيين، ويتمثَّـل بهرميـز. كـان يعـرف أعمق أسرار الانسجام الأبدي، وكان بإمكانه أن يُعلِّم الأموات والأحياء كلَيْهما حكمة ذلك الانسجام الأبدي. ثوث عرف «أسرار الليل». العالم الآخر كان المكان الذي يحكمـه الكـمال، وبمساعدة ثوث – أيْ بتعليم التقنيـات الـصحيحة – كـان بإمكـان البـشر أن يـزوروا ذلـك المكان؛ أيْ كان بإمكانهم أن يزوروا مملكة الآلهة، ويعودوا منها.

منذ أن بدأت السجلّات والنصوص الأقدم في التاريخ، يمكننا أن نرى بأنّ طقوس المعبد كلّها صُمِّمَتْ للحفاظ على الانسجام العالمي. وفي هذا المعبد؛ الرجال والنـساء أُطْلِعُـوا عـلى أسراره. لكـنّهم أُخْـبِرُوا – أيـضاً – بأنّـه يجـب علـيهم أن يلتزمـوا الـصمت حـول مـا رأوه

في الحقيقة، فكلُّ شيء يتعلَّق بأسرار المعبد كان محروساً. من بين العديد من النصوص التي نُقِشَتْ على جدران معبد حوروس «Horus» في إدفو هناك تحذير واضح: «**لا تكشفوا ما رأيتُم في ألغاز المعابد**».

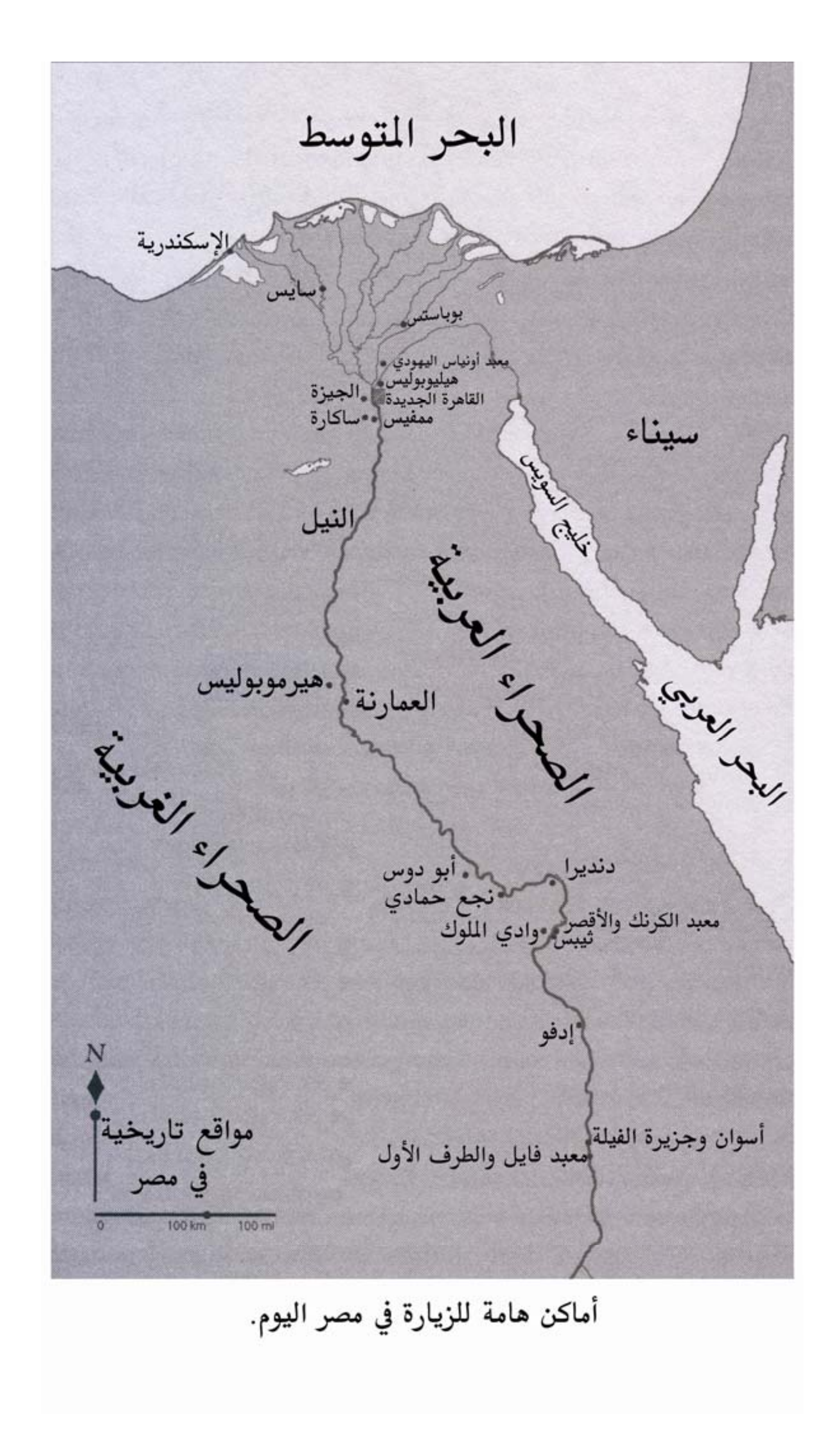
كيف - إذن - يمكننا أن نكتشف ما الذي حَدَثَ في هذه «الألغاز»؟ هل قام أحدهم - على الإطلاق - بخَرْق القانون، وكَشْف تلك الأسرار؟!

إحدى المشاكل التي نواجهها عندما نسعى لفَهْم الممارسات الدِّينية القديمة للتَّنوُّع الواسع من الثقافات القديمة هو أنّنا لا نعلم ما كان يؤمن به أسلافنا، إلى أنْ تمَّ اختراع الكتابة، ليس اختراعها فقط، بل إلى أنْ تمَّ تطويرها بما فيه الكفاية لتسجيل الأفكار والمعتقدات. بالرغم من أن نظام التسجيل الرمزي للصفقات التجارية، الذي كان يستعمل ألواحاً طينية صغيرة بدأ حوالي عام 8000 قبل الميلاد، إلا أنه لم يُطوَّر إلى الكتابة حتى عام 3000 قبل الميلاد تقريباً.

مثال عن هذه المشكلة يمكن ملاحظته في التنقيب الذي حصل في الزِّكّورة[1] العظيمة في «إريدو» (Eridu)، التي كانت - مرّة - مدينة سومرية في ما يُعرف - الآن - بالعراق. الزِّكّورة - بحَدِّ ذاتها - قد يعود تاريخها إلى عام 2100 قبل الميلاد، والنصوص كشفت بأنّه كُرِّسَتْ إلى إله المدينة، الذي كان اسمه إنكي «Enki»، إله الحكمة، والتعليم، والمياه الجوفية. على أية حال، تنقيبٌ حَذِرٌ كشف بقايا لثلاثة وعشرين معبداً أقدم، كانت تكمن تحت الزِّكّورة في مستويات متسلسلة أعمق، أقدمها كان مُصلًّى بسيط، بُني على كُثيّب رملي قديم، يعود - على الأقلّ - إلى عام 5000 قبل الميلاد. تمَّ الكَشْف عن ثماني عشرة طبقة تعود إلى فترة الحضارة القديمة لبلاد ما بين النهرَيْن «فترة عبيد» (Ubaid period)، والتي سبقت ظهور الكتابة.

---

(1) هيكل بابليّ أو آشوري هَرَميّ الشكل، مُؤلّف من عدّة أدوار، أو طوابق. المُترجم.



أماكن هامة للزيارة في مصر اليوم.

الزِّكّورة كُرِّسَتْ إلى الإله «إنكي»، ولكنْ؛ ماذا نقول عن المعابد التي في المستويات الأعمق والأقدم؟ هل يمكننا أن نقول بأنّه انطلاقاً من أن المعبد كان نفسه، فإن طائفة الإله «إنكي» لابُدَّ وأنها كانت موجودة منذ البداية؟ بالطبع؛ نحن لا نستطيع. الاحتلال – مثلاً – يمكنه – بسهولة – أن يفرض شريعة على الطائفة الأقدم، وأن يحتلَّ أملاكها، وممتلكاتها المُقَدَّسَة. في الحقيقة؛ هذا يحدث كثيراً جدّاً. أو – رُبَّما – قامت طائفة ما بالرحيل إلى موقع آخر، تاركة المعبد مهجوراً؛ لتمتلكه طائفة أُخرى مختلفة. بالتأكيد؛ يوجد هناك أمثلة عديدة عن معابد وُضِعَتْ لاستعمالات مختلفة عن استعمالات الطائفة الأصلية التي بَنَتْهَا. رأينا مثل ذلك في معبد أونياس في مدينة بوباستس «Bubastis» في الدلتا المصرية، الذي كان مخصَّصاً لعبادة سُكَّان تلك المدينة، ولكنْ؛ عندما هُجر، تحوَّلت العبادة فيه إلى الدّيانة اليهودية. إنّ الطبيعة الفيزيائية للبناء تدلُّ – فقط – على وجود طائفة مُنظَّمة؛ لا يمكنها أن تخبرنا أيَّ شيء عن طبيعة الطائفة التي كانت فيه.

حتى وجود الكتابة الرمزيّة ليس من الضروري أن تُساعد. بدون نصوص، لا نستطيع أن نفهم ما كان يقصده بتلك الرموز أولئك الذين استعملوها. مثلاً، الجدران الحجرية العارية للغرف الداخلية الغريبة للهَرَم العظيم تختلف عن الأخرى، التي في هضبة الجيزة، وذلك يتركنا بدون أدنى فكرة عن الاستعمال الأساسي لذلك البناء.

بالمقابل؛ بلدة «Chatel Huyuk» في جنوب تركيا، وهي البلدة الحَجَرِيْحِدِيْثية[1] الأكبر في الشرق الأدنى، يعود عمرها إلى ثمانية آلاف سنة تقريباً، وفيها أكثر من أربعين ضريحاً؛ مُلِئَتْ بالنقوش الرمزيّة المُوزَّعة على عدد كبير من الطبقات تحت الأرض. إنّ البعض منها مُزيَّن من الداخل بلوحات؛ إحداها رُسِمَ فيها قرنا الثور البرّي المُنقرض – الأُرْخُصّ – على منصّة؛ ولوحة أُخرى فيها رؤوس ثيران، وقرونها؛ وأُخرى تحتوي على ثديَيْ امرأة مع قرنَيْ ثور؛ وهناك الكثير من النماذج الهندسية. كلُّ ضريح كان مختلفاً عن الآخر؛ ما عدا الهَوَس بقرنَيْ الثور، ومن الصعب جدّاً معرفة أيّ اتساق بين هذا المدى المُحيّر من الزينة الرمزية.

---

(1) حَجَرِيْحِدِيْثي: خاصّ بالعصر الحجري الحديث. المُترجم.

وخارج الأضرحة هناك تماثيل صغيرة لإلهة. لماذا لا يوجد هناك أيّ منها ضمن الأضرحة؟ إنّ المنطقة غنية بالرمزيّة، رغم ذلك؛ لا يمكننا بدون نصوص أن نحصل على أدنى فكرة لما تعنيها الرموز.

على أية حال، يمكننا أن نجمع بعض الأفكار العامة: يمكننا أن نرى أنه كان هناك اهتمام كبير في العلاقة ما بين هذا العالم مع العالم الآخر. عندما بدأ الأدب بالظهور، أحد النصوص القديمة كان مُهمَّاً جدَّاً؛ لدرجة أنه كُتِبَ لمرات عديدة: ملحمة جلجامش العظيمة، ملك الوركة «Uruk»[(1)] يسافر إلى العالم الآخر بحثاً عن الخلود، لكنه أخفق في مهمَّته؛ لأنه لم يستطع البقاء «مستيقظاً»، وعاد - بعد ذلك - لرواية قصّة رحلته الروحية.

من غير المحتمل أن هذه الملحمة كُتِبَتْ - ببساطة - لاستغلال التَّطوُّر الأدبي الكتابي. يمكننا أن نكون مُتأكِّدين بأن التقليد الشفهي القديم لبلاد ما بين النهرَيْن كان مُهتمّاً بعلاقة العالم الآخر بالعالم الطبيعي. حتى هذا يُعَدُّ نتيجة بارزة. ولكنْ؛ يمكننا العودة إلى الأزمنة الأقدم بكثير للحصول على دليل أصول هذا المفهوم: يبدو من المحتمل بأنّ البشر عندما بدؤوا - للمرة الأولى - بمراقبة المراسيم الطقوسية لدَفْن الموتى، أسَّسوا علاقة وارتباط بين هذا العالم والعالم «الآخر»؛ لأنّه أُقِرَّ بوجود العالَمَيْن، ولأنّ المراسم كانت تُعَدُّ ملائمة للعبور النهائي من عالم لآخر.

المثال الأقدم المعروف عن الدَّفْن المُتعمَّد كان للإنسان النياندرتالي[(2)]: قبل مئة ألف سنة دُفِنَ شابٌ في وسط آسيا. اكتشف علماء الآثار الرُّوس بقاياه التي كانت محاطة بزوجَيْن من قرون عنزة. الهيكل العظمي النياندرتالي الآخر نُقِّبَ عنه في «لو موستير» في فرنسا، وهو موقع يعود تاريخه إلى حوالي خمس وسبعين ألف سنة. هذا الدَّفْن كان - أيضاً - خاضعاً لطقوس جنائزية. الرجل الميت كانت مُغطَّى بالمَغْرَة[(3)] الحمراء، يمتدُّ رأسه على حجر من الصوَّان،

(1) مدينة قديمة في بلاد ما بين النهرَيْن، في العراق. المُترجم.

(2) نياندرتالي: منسوب إلى وادي النياندرتال قرب دوسيلدورف بألمانية؛ حيث وُجِدَتْ بقايا هيكل عظمي لإنسانٍ قديم. المُترجم.

(3) المَغْرَة: أكسيد الحديديك المائيّ الطبيعي، (وتكون صفراء، أو حمراء عادةً). المُترجم.

ونُشِرَ حوله عظام محروقة للماشية. دَفْن آخر - بعد ذلك التاريخ - وُجِدَ في كهف كبير في «شانيدار» (Shanidar) في العراق، يعود تاريخه إلى قبل ستِّين ألف سنة تقريباً. أحد الأشخاص كان قد مُدِّد على طبقة من الزهور، كلّها تمتلك خصائص طبِّيَّة. حوالي ستّ وثلاثين عملية دَفْن رسمية أُخرى تمَّ العثور عليها، في أوروبا وآسيا، في الألفيات التي تلت تلك التواريخ. يمكننا أن نكون واثقين - إلى حدٍّ معقول - بأن العالم الآخر كان مُهمّاً لعشرات آلاف السنين من قبلُ؛ على أقلّ تقدير. والأكثر من ذلك، ضمن هذا الاهتمام، يُطرَح السؤال عن مصدر الحياة بحَدِّ ذاتها، وعن مصدر وجود الوعي الذاتي الإنساني لهذا الأمر.

لكنّنا مانزال نكافح التَّحدِّي الذي شكَّلتْهُ حقيقة عدم وجود نصوص مطلقاً داخل الهرم العظيم، أو الهرم الآخر في هضبة الجيزة. كلُّهم تمَّ بناؤهم من قِبَل فراعنة السلالة الرابعة حوالي عام 2500 قبل الميلاد. النصوص الأقدم تظهر في نهاية السلالة الخامسة، وأثناء السادسة - حوالي 2300 قبل الميلاد. الأقدم كُتِبَتْ على الجدران في الغرف التحت أرضية لهرم أوناس «Pyramid of Unas»، الفرعون الأخير للسلالة الخامسة. بعد ذلك، أثناء السنوات المئتَيْن التالية، أو أكثر، خمسة أهرامات أُخرى - بالطريقة نفسها - نُقِشَتْ بالنصوص. تُسمَّى - لأسباب واضحة - بنصوص الهرم. زوَّدتْنَا بمعلومات ثمينة، لكنّها - أيضاً - وَضَعَتْنَا في لغز. يبدو بأنّها تُرْجِمَتْ بشكل جيد، ولكنها فُهِمَتْ بشكل سيِّئ.

ليس من المفاجئ أن سُوء الفَهْم حَدَثَ لأنه - الآن - بدأ علماء الآثار بشقِّ طريقهم خارج غُرفهم. إنهم يشعرون بعدم الراحة؛ لأنهم يعرفون بأنّ الأشياء أوشكت - بوضوح - أن تصبح غريبة. ولكنْ؛ لم يقلْ أحد إنها لم تكن كذلك.

في الحقيقة، الأمر كان - فقط - مسألة وقت.

لأن النصوص التي وُجِدَتْ في بعض الأهرامات يُفترَض بأنها كانت مُهتمَّة - فقط - بالموت، والدَّفْن، النصوص - أيضاً - افتُرِضَ بأنها تتعلَّق - فقط - بالموت. شيء يدعم وجهة النَّظَر هذه هو كلام نُقِشَ على جدار في غُرف تحت أرضية في هذه الأهرامات: «الروح تتَّجه إلى السماء، الجثَّة تتَّجه إلى الأرض».

لكنْ؛ هناك بعض الفصول بحاجة إلى أن ننظر فيه: «أيها الملكُ، أنتَ لم تغادر ميتاً، أنتَ غادرتَ حيّاً»، هذه إحدى العبارات من نصوص الأهرامات. بالتأكيد؛ هذا أمر غامض: يمكن أن يُفسَّر بأنه بعد أنْ مات الملك سينتقل إلى الحياة الأبديّة، وبذلك المفهوم هو حيّ في العالم السماوي، ولكنّه – على حَدٍّ سواء – يمكن أن يُفسَّر بأنه بعد أن مات الملك سيغادر إلى العالم الآخر، وفي هذه الحالة، سينتقل إلى هناك، وهو مايزال حيّاً.

إذا كان الأمر كذلك، هذا يعني بأنّه كان يتوقَّع العودة بعد رحلته. أم أننا نبالغ في التفسير؟! هل من الممكن أن فكرة كهذه قد ساندَتْها – فعلاً – هذه النصوص؟!

سطر آخر في نصوص الأهرامات يقول: «ذهبتُ، وعُدتُ... أتقدَّمُ اليوم في الشكل الحقيقي للروح الحيّة». من الصعب عدم فَهْم ذلك بأنه يدعم – مباشرة – فكرة الانتقال الحي للعالم البعيد (العالم الآخر).

هناك – أيضاً – العديد من الإيضاحات عن أرواح الموتى – أو كما هو كانت تُدعَى في مصر القديمة، بَعْ «Ba» – في الأدب الجنائزي، الذي وُجِدَ في القبور، والتوابيت. هناك يتمُّ تصوير البَعْ (الرُّوح الميتة) بالطير، ولكنه برأس ووجه الشخص الميت. في مخالب هذا الطير تظهر – غالباً – علامة «shen» (حلقة مستديرة)، والتي هي رمز الخلود – كاشفة عن الهدية التي تجلبها من العالم الذي تسكن فيه.

رغم أنه تتمُّ ترجمة بَعْ عادة كـ«روح»، إلا أنها تدلُّ على ما هو أكثر بكثير. تكشف هذه الكلمة بأنّها السِّمَة الداخلية والمَخْفِيَّة للشخص الذي مات، وبأنها كالعربة، والتي تنتقل فيها روح الشخص الداخلية بشكل مُستقلّ عن الجثّة، وتطير عائدة إلى مصدرها السماوي. وحتى إنها تدلُّ على ما هو أكثر من هذا: أولاً، البَعْ – دائماً – موجودة؛ هي – ببساطة – لا تُخْلَق عند الموت. طبقاً للكَهَنَة المصريين، هي عنصر مُكمِّل لكلِّ إنسان. إنْ كان هذا حقيقياً، فلن يبدو أنه هناك أيّ سبب يجعل الإنسان غير قادر على تجربة هذا البَعْ الخاصّ به قبل موته.[1]

---

(1) أي أن يختبر الإنسان روحه بأنْ يفصلها عن جسده، وينتقل بها إلى العالم الآخر؛ ثم يعود إلى جسده. المُترجم.

الدّكتور جيرمي نيدلر، الذي قام بدراسة الألغاز الأعمق في النصوص المصرية، يؤكّد بأنّنا لا يجب - أبداً - أن نسمح لأنفسنا بنسيان الطبيعة التجريبية لهذه الكتابات الدِّينية القديمة. لقد طرح النقطة المُهمَّة التي تقول: «إن البَعْ يمكن أن تُعرَّف بأنها فرد منفصل عن الجسد». يُوضّح بأنه عند الموت هذه الحالة «تحدث تلقائياً، ولكنْ؛ أثناء الحياة يمكن أن تحدث هذه الحالة بشكل إرادي، وذلك عن طريق التحفيز». بكلمة أُخرى، التحفيز يعني ممارسة طُرُق شعائرية مُعيَّنة، أو طرق أُخرى، يتعلَّمها المرء من المُطَّلعين. تحليل نيدلر يتضمَّن اقتراح أن المصريين القدماء زاولوا بعض التقنيات الشعائرية الاستثنائية، التي أدَّت إلى معرفة العالم الآخر، وهكذا سمحت للأفراد بزيارة ذلك العالم، والعودة منه.

هناك - في الحقيقة - ميزة في بعض طقوس المعبد المصري تثير الكثير من الفضول، لدرجة أن العلماء لا يفهمونها بالكامل: طبقاً للنصوص التي وجدناها، الكاهن الذي يترأَّس الشعائر كان يجلس في مكان هادئ، ويستعمل تقنيات معيّنة؛ لكي يدخل حالة وُصِفَتْ بالهيروغليفية بكلمة «qed». في الظروف العادية، هذه الحالة تُترجَم كـ«نوم». ولكنْ - في هذا السياق الطقوسي المُعيّن - أقرب ما تُشير إليه هو حالة من الغيبوبة، أو التَّأمُّل. ويعتقد العلماء أن استعمالها الرئيس كان أثناء منسك إحياء التماثيل المُقَدَّسَة، وكان يُدعَى منسك «فَتْح الفم». في تلك الحالة المُقَدَّسَة يتمُّ استدعاء القُوَّة السماوية للنزول والاستقرار في التمثال، الذي يُعَدُّ أنه أصبح - بذلك - مُقَدَّساً. هذا المنسك نفسه شكَّل - أيضاً - جزءاً من الشعائر الجنائزية. من الواضح - في الحالة الأخيرة على الأقلّ - أنه بينما يكون الكاهن في هذه الحالة الطقوسية، فإنه ينتقل - بطريقة ما - إلى عالم الموتى، العالم الآخر، وعند عودته يكون قادراً على أن يصف ما واجه كشخص ميت. نحتاج لأَخْذ هذا الموضوع بجدِّيَّة؛ لأن هذه النصوص لا تُسجِّل الشّيء الذي حَدَثَ فقط، ولكنْ؛ يبدو أنه كان يحدث بانتظام أثناء هذه الطقوس.

يمكننا أن نكون واثقين - أنا أقترح - بأنّ هذه الرحلة الطقوسية لم تكن - فقط - اختراعاً ثقافياً، أو نوعاً من مسرحية يقوم بها الكاهن، «الاحتيال الدِّيني» هو الذي يُزوّد بالدخان والضوضاء الكفاية لإثارة الإعجاب بنار الحقيقة الزائفة. تقريباً؛ في الفترة بين أواخر

القرن الثالث وبداية القرن الرابع بعد الميلاد، الفيلسوف آيامبليشس من أفاميا، أحد العلماء الأفلاطونيين الأبرز من عصره، كان يُعلِّم في ما تُسمَّى – الآن – بلُبنان. تعليمه كان مُركَّزاً على ما كان يُدعَى «السِّحْر»، الذي ذكرناه بشكل سريع مُسبقاً؛أيْ «العمل مع» الآلهة. قام بمقارنة السِّحْر مع علْم اللاهوت؛ أيْ «التحدُّث عن» الآلهة. اهتمَّ بالتأثيرات العملية بدلاً من الأدلَّة الثقافية: أراد طُلَّابَهُ أنْ يعرفوا، لا أنْ يعتقدوا فقط.

آيامبليشس كان على اطِّلاع على التعليمات السِّرِّيَّة المصرية. إحدى أعماله الرئيسة كان بعنوان «حول ألغاز المصريين»؛ فيه يكشف معظم أعماق المعرفة الداخلية للمعابد. لقد كان مُطَّلعاً – تماماً – على قدرات الكَهَنَة في فَصْل وعيهم عن أجسامهم، والتَّحرُّك بها إلى العالم الآخر. يذكر بأنّ أرواح الكَهَنَة كانت ترتفع لأن الآلهة «جعلتهم يألفون ذلك، رغم أنها ماتزال في الأجساد، إلا أنها تُفصَل عنها»، وذلك ليتمَّ إرشادها إلى مصدرها الأبدي.

يذكر آيامبليشس – لاحقاً، وبشكل واضح، وفي العمل نفسه – بأن الكَهَنَة لم يكسبوا معرفتهم من العوالم القُدْسية «بالنقاء الفكري المجرَّد فقط» – والذي، على سبيل المصادفة، كانت تحدِّياً مُوجَّهاً ومُتعمَّداً للنظرة العامة لأرسطو – لكنْ؛ بالأحرى، بواسطة سِحْر كَهَنتوتي، «يعلنون بأنّهم كانوا قادرين على الوصول إلى (حقائق) أكثر سُمُوَّاً، وعالمية».

آيامبليشس لا يتكلَّم عن الإمكانيات، أو التَّخيُّلات. هو يذكر حقيقة بسيطة عن الكَهَانَة المصرية. يؤكِّد بأنّهم عرفوا كيف يسافرون إلى العالم الآخر. إنّ الأسئلة الحقيقية:

لماذا يجب علينا أن نُفاجأ؟ وهل كسبنا – أو فقدنا – شيئاً نتيجة لتشكُّكنا وشُبهتنا الحديثة؟

تقريباً من الألفية الثانية قبل الميلاد، بدأت نصوص بالظهور في التوابيت الخشبية. هذه النصوص اشتُقَّت من نصوص الأهرامات الأقدم منها زمناً، لكنّها تكشف ما هو أكثر حول المفاهيم الروحية ذات الصلة. تركيزها كان في قوّة العدد 76، والذي كان يُمكِّن من «الصعود إلى السماء... والتَّحوُّل إلى «Akh». «Akh» تعني «الإنسان المُشرق»، وكذلك «التَّحوُّل إلى نور» وهي – أيضاً – جذر كلمة «akhet»، أو «الأُفُق». تلك النصوص تصف النهاية التي يطلبها البَعْ (روح الميت): التَّحوُّل إلى التألُّق الروحي النقي. فيما يتعلَّق بالموتى، تكشف بأنّ

الشخص - بعد الموت، بعد الفترة التي يتخلَّص فيها من جسده، ويتحوَّل إلى روح؛ أيْ إلى «بَعْ» - يصعد - في النهاية - للدخول في حالة التفوُّق، ويندمج مع مصدر التألُّق الكُلِّيِّ. ستيفن كوورك يُوضِّح بأنّ الـ«Akh» هي «الروح المُتحوِّلة التي اتَّحدت مع النور». الكلمة التي استُعْمِلَتْ في النصوص للدلالة على هذه العملية هي «sakhu»- والتي تعني «تحويل [الميّت] إلى [Akh]... أيْ إلى نور».

في تطوُّر أبعد لهذه النصوص في منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد، ظهر ما يُعرَف بـ«كتاب الموتى». لكن هذا ليس الاسم الأصلي لهذه المجموعة من النصوص، والتي كانت تُدعَى «كتاب التَّحوُّل في النهار»، الذي - رُبَّما - سيكون من الأفضل إعادة تسميته ليصبح «تعليمات التَّحوُّل إلى النور». شكل آخر لعنوان ذلك الكتاب ظهر في أواخر الألفية الثانية قبل الميلاد، وكان يتضمّن كلمة «sakhu»؛ أيْ «تبدل الهيئة»، والتي تشير - ضمنياً - إلى أنّ هذه النصوص هي التي تُسْتَعْمَل لتحويل الشخص إلى «Akh».

هذا المفهوم يُظهِر بأنه يعود لأزمنة أقدم: مجموعات من نصوص الأهرامات ونصوص التوابيت التي حُفِظَتْ في مكتبة معبد أوزيريس في أبيدوس «Abydos»[1] قد نُسِخَتْ - أو أُعيد نَسْخُهَا ثانية - إلى أوراق البُردي في القرن الرابع قبل الميلاد، بالطريقة نفسها التي كُتِبَتْ فيها - تقريباً - قبل ألف وخمسمئة سنة من ذلك الوقت. تلك المجموعة حملت في عنوانها - أيضاً - كلمة «التَّحوُّل». كَهَنَة المعبد علموا ما كانت تتحدَّث عنه تلك النصوص، رغم أن المترجمين الحديثين لا يعلمون.

بلوتارك «Plutarch»، مُؤرِّخ ومُؤلّف يوناني، كان في أوائل عشرينياته، ومن المحتمل أنه كان مايزال طالباً في أثينا عندما سقط معبد القُدْس - أخيراً - في أيدي القوات الرومانية عام 70 بعد الميلاد. كان قد تعلَّم ألغاز دَلْفيّ[2]. ومن أواخر القرن الأول بعد الميلاد عمل كاهناً لهذه الألغاز؛ لذلك، كان يعرف بعض الشيء عن الجانب المَخْفي للدِّين. بسبب طلب السِّرِّيَّة بين

---

(1) مدينة مصرية قديمة إلى الشمال الغربي - تماماً - من نجع حمّادي. المُترجم.

(2) دَلْفيّ: منسوب إلى مدينة دلفي اليونانية القديمة. المُترجم.

الكَهَنَة المصريين، لا يبدو بأن هذه الألغاز قد دُوِّنَتْ. في الحقيقة، رواية بلوتارك لقصّة إيزيس[1]، وأوزيريس[2]، هي النصُّ الوحيد المعروف والمُفصَّل بالكامل. في تلك الرواية، روى تعليقاً مثيراً: كلاماً عن غرف وممرَّات المعابد المصرية، يكتب: «وفي الجزء الآخر [من المعابد] هناك غرف سرِّيَّة للِّبَاس الكَهَنوتي في الظلام تحت الأرض، كالحُجرات، أو المُصلّيات؟

لكنّه لا يضيف أيّة معلومات أُخرى، ولا يتابع بالتَّحدُّث أكثر عن هذه الفكرة المثيرة. بالتأكيد؛ أكثر المعابد المصرية لها غرف، أو صالات، تحت الأرض. معبد دنديرا «Denderah»، على سبيل المثال، فيه عشرة من تلك الغُرف - غرف مفردة، وممرَّات، وصالات واسعة، البعض منها في ثلاثة طوابق. في معبد حوروس «Horus» في إدفو، هناك مدخل في جدار مُصلَّى أوزيريس (إله العالم الآخر) يؤدِّي إلى نَفَق ضمن الجدار ذاته، يؤدّي إلى غرفتَيْن تحت الأرض. كنتُ فيها عدَّة مرَّات للتَّأمُّل بشكل هادئ في الظلام، والصمت. إنّ النَّفَق مُغلَق بباب مُقفَل.

يدَّعي علماء الآثار - غالباً - بأنّ هذه الغُرف السِّرِّيَّة استُعْمِلَتْ لخَزْن المواد التي كانت تُسْتَخْدَم في الشعائر، أو موادّ نَفيسة.

لكن بلوتارك يكشف شيئاً مُهمّاً، يُلمِّح بلُغز أعظم وراء وجود تلك الغرف. في دنديرا«Denderah»، على سبيل المثال، الأماكن المَخْفيَّة منقوشة بالطلاسم والصور الرمزية، ومن غير المحتمل أن ذلك يدلُّ على أنها كانت مستودعات، أو مخازن.

هيليودوروس من حمص[3]، كتب في القرن الثالث بعد الميلاد، يضيف بعض المعلومات بخصوص هذه المناسك المتعلّقة بألغاز إيزيس، وأوزيريس:

---

(1) «Isis»: آلهة الأمومة والخصب المصرية. المُترجم.

(2) «Osiris»: في علْم الأساطير المصرية هو إله العالم السُّفلي، والموتى، زوج إيزيس، ووالد هوروس إله الشمس. المُترجم.

(3) كاتب يوناني، وُلد في «Emesa» (الآن حمص) في سوريا. كَتَبَ الرومانسية اليونانية «إيثيوبيكا»، والتي أثَّرت على عديد من المُؤلّفين اللاحقين. المُترجم.

يُصرّح بأنّ قصّة هذَيْن الإلهَيْن تحتوي على الأسرار، التـي لم تُوضَّـح لأولئـك النـاس، الـذين كانت تعوزهم الخبرة، وبأنّ أولئك الذين كانوا ماهرين في أسرار الطبيعـة «يُوجّهـون أولئـك الذين ائتمنوا بمعارف هذه الأمور الخاصّة في مُصلّياتهم على ضوء الشّمعة».

بضعة علماء في الآثار المصرية يتابعون هذه الأمور. أكثر العلماء المُرتعبين من الأمـور الباطنيـة يرغبون بالاحتفاظ بالناحية «العلمية» لمهنتهم، وهذا يعني التمسُّك بالتفسيرات العقلانية – عـلى ما يبدو – لكلّ شيء يجدونه، وحتى عندما يقومون بـذلك هـم – إلى حَـدٍّ مـا – أشـبه بمحاولـة تكديس دُمية قابلة للنَّفْخ في غلافها الأصلي.

هناك بضعة علماء – على أية حال – لديهم الشجاعة والثقة في الكلام حـول الجانـب المَخْفـي للطوائف المصرية: الأستاذ كلاس بليكر، اختصاصي في تاريخ الدِّين في جامعة أمستردام، اعترف – بسهولة – «بأنّه من الواضح أنه في مصر القديمة وُجِدَ هناك بعض الألغاز الطائفية، التي كانت معروفة – فقط – عند المُتعلِّمين». وقال – أيضاً –: إنـه – في الحقيقـة – أحـد المـشاركين في تلـك المناسك السِّرِّيَّة روى – بـشكل فخـور – : «أنـا في ذلـك المكـان تعلَّمـتُ...، لكنّـي لـن أخـبره لأيِّ شخص».

أدرك – أيضاً – عالم الآثار المصرية والتر فيديرن الخلفية الطائفية الباطنيـة للكتابـات الدِّينيـة المصرية، ووضَّح بأنّ الرقيات التي وُجِدَتْ في نصوص التوابيت والأهرامات «كانـت متـوفرة – أيضاً – للحياة»، ويضيف: «تتوسَّع – أحياناً – إلى نصوص تلقين».

هناك نصٌّ استثنائي – لحَدِّ الآن – لم ننظر إليه:

كتاب الـ«Amduat» «كتاب ما يوجد في العالم الآخر»، النُّسخ الأولى منـه يعـود تاريخهـا إلى حوالي 1470 قبل الميلاد، وتحمل العنوان الأصلي «بحثاً عن الغُـرف الـسِّرِّيَّة» يُـسجّل الرحلـة، في اثنتَيْ عشرة ساعة، لإله الشمس رعْ في مركبته الـسماوية إلى العـالم الآخـر كـلّ ليلـة، وهـو يُقـدِّم تعليمات عن اجتياز الأخطار والصعوبات كافة. ويُزعَم بأنه كُتِبَ ليكون المُرشد للفرعـون الميـت لمساعدته في رحلتـه الخاصـة بعـد موتـه. لكـنْ؛ مـا هـو هـامّ حـول الـنصّ التـالي بأنّـه يقـول – بشكل واضح – إن الكتاب مفيد – أيضاً – للأحياء: «من الجيد للميـت أنْ يكـون عنـده هـذه المعرفة، ولكنه – أيضاً – مُهمّ للشخص الذي على الأرض».

هذه الصلة بالعالم الطبيعي يُشدَّد عليها - بانتظام - في أنحاء النصّ كافة. هناك القليل من الشَّكّ بأنّ هذه الرحلة خلال العالم الآخر ترتبط بالأحياء والأموات كلَيْهما. في الحقيقة، ينتهي الكتاب بتصريح واضح: «ذلك الذي يتعرَّف على هذه الصور الغامضة سيكون مجهَّزاً بشكل جيد بروح «Akh» (النور). دائماً [هذا الشخص] يمكنه أن يدخل ويغادر العالم السُّفلي. يتكلَّم - دائماً - مع الأحياء. مُثبت أن ذلك حقيقة، مليون مرة». لا يمكن أن يكون النصّ أوضح من ذلك. هذه الرحلة يجب أن تُنفَّذ بالتجربة. تحتاج إلى تلقين.

هذه النقطة لم تنجُ من العلماء: عالم بالآثار المصرية في جامعة شيكاغو، الأستاذ إدوارد وينت، استنتج بأنّ بعض النصوص - بما فيها كتاب «Amduat» (كتاب ما يوجد في العالم الآخر)، وآخر يُسمَّى «كتاب البوَّابات» - لربما - أصلاً - أُعِدَّت للاستعمال في هذا العالم، ولم تُصمَّم - فقط - للاستعمال الجنائزي في القبور. يُوضِّح بأنّ مثل هذه الأعمال: هل أمثلة عن «علْم اللاهوت العملي»، والتي - من خلالها - «يدخل الأحياء في حالات ومراحل مختلفة موجودة في العالم السُّفلي»، وبأنّه لم يكن من الضروري انتظار وقت الموت للحصول على الفوائد؛ أيْ يمكن ذلك من خلال الطقوس. وينت يضيف:

يبدو أسهل بكثير - في رأيي - افتراض أن كتاب «Amduat»، بالإضافة إلى «كتاب البوَّابات» قد صُمِّما - أصلاً - للاستعمال على الأرض، وكذلك في العالم الآخر، وبأنه تمَّ تبنِّيها - بشكل ثانوي فقط - كأدب جنائزي مَلَكي مُحدَّد.

كتاب «Amduat» بنفسه يقول بأنّه كان يُعَدُّ سرِّيَّاً؛ فقط؛ بعض الناس سُمِحَ لهم بالنَّظَر في محتوياته. وينت يستنتج:

المرء قد ينظر إلى هذَيْن المُؤلَّفَيْن العظيمَيْن بأنهما مُتمِّمان لبعضهما البعض في تزويد الوسائل المختلفة، أو من المحتمل «طريقتان» لدخول العالم السفلي، والمشاركة في عملية الموت، والتجديد.

يمكننا أن نكون مُتأكِّدين جدَّاً بأنه كان هناك بعض الممارسات الباطنية والسِّرِّيَّة جدَّاً التي كانت تُجرَى - بانتظام - في الغرف والمُصلّيات المعزولة في المعابد المصرية، وبأن الرجال - وبلا شكٍّ النساء أيضاً، كاهنات إيزيس - بدؤوا تعلُّم أسرار مملكة الآلهة، وتعلَّموا كيف يسافرن - بسلامة - خلال الليل الأبدي، وكيف يتفادون الأخطار المفاجئة كلّها، حتى أصبحوا نورانيين كالنَّجْم.

في السنوات القليلة الماضية قُمتُ بقيادة مجموعات من عشرين إلى ثلاثين شخصاً في أنحاء مصر. عادةً في مثل هذه الجولات، تجمَّع الزُّوَّار في مجموعات حول المعابد المختلفة – وهم يتقاتلون على مكان للوقوف – المليئة بتاريخ الغزوات والمعارك والميزّات المعمارية، كلّها تحمل صبغة الفراعنة. ما لم يُعطَ – عادة – هو معلومات حول هدف تلك المعابد والطقوس التي كانت تحدث فيها، ومعنى تلك الطقوس بالنسبة للمصريين القدماء. الميزة الحاسمة الأخرى لمثل هذه الجولات هي أن تلك الحشود والبرامج المستمرّة – التي يبدو بأنها تدور بين المطاعم التي يمتلكها أخوة، أو أبناء عمّ – تترك فرصة قليلة للسّيَّاح بمحاولة الإحساس بالمواقع بشكل فعلي.

لا يهمُّ – حقَّاً – بالنسبة لي مَن الذي بنى المعابد. ما هو أكثر أهمية هو ما كان يجري فيها. في مجموعاتنا السياحية، كنّا نحاول تجربة المواقع تماماً، وبالقيام بذلك يحدث – غالباً – شيء مُهمّ؛ يحصل نوع من الانفجار العاطفي غير المُتوقَّع، والعميق بقدر عمق الماضي السحيق، ولكنه آنيٌّ، كأن الماضي دائمَ الحضور. في الحقيقة، تعلَّمنا أن نتوقَّع بأن هذه اللحظات هي جزء من التجربة التي تُوفِّرها الأرض، وبأن نعدَّها دليلاً على أنّ في مكان ما في أعماق أنفسنا تستريح ذاكرة قديمة، تنتظر – تماماً – الوقت المناسب للفَلْت. إنه لشائع في مجموعتنا أن نجد أن شخصاً ما يجد نفسه – فجأة – وقد فاضت عيناه بالدموع، أو أن يشعر – ببساطة – أنه «أُبْعِدَ». أتذكَّر – بشكل جيد – أن أحد الأشخاص كان يتجوَّل، وكأنّه في حُلم حول معبد أوزيريس في «أبيدوس» وهو يتمتم في نفسه – كما لو أنّ ذلك كان كلّ ما بإمكانه أن يفعله – قائلاً: «هذا هو الشيء الحقيقي. هذا هو الشيء الحقيقي».

بالطبع؛ كان على حقّ. كان لابُدَّ لي من التأكُّد بأنّه كان في الحافلة عندما غادرنا.

أتذكَّر – أيضاً – حادثة بعد الزيارة واحدة إلى «Abu Simbal»في أقصى الجنوب المصري. عندما كنّا نغادر، سفينة رحلتنا كانت تتراقص – بهدوء – في بحيرة ناصر أمام معبدَيْن: أحدهما كان لرمسيس الثّاني، والذي يتميّز بالأجسام الأربعة الضخمة الجاثمة في المدخل، والآخر هو أكثر اعتدالاً، وكان لابنته نفرتاري«Nefertari». بينما كانت السفينة تتأرجح ببطء، كانت نغمات مختارة من أوبرا عايدة وأوبرا نابوكو تطير مع النسمة الخفيفة قادمة من السَّمَّاعات، التي وُضِعَتْ في الطابق الأعلى؛ لقد انتابتْنَا كلّنا الدهشة بشكل مفاجئ.

ما هو أفضل من ذلك المشهد المسرحي، كانت البهجة. وجدتُ أن الموسيقى والرقص الرشيق للسفينة أمام المعابد والآلهة القديمة هي أمر لا يُصدَّق، جعل بدني يقشعرّ. السكون العميق سيطر على قواي، وجعلني أقف، وشلَّ حركتي، لقد سيطر عليَّ فعلياً. لقد أردتُ لتلك اللحظة أنْ تدوم إلى الأبد. بطريقة ما، ربما حصل ذلك. أعضاء مجموعتي أخبروني - بعد ذلك - بأنّ شيئاً ما كان يحفّزهم على البكاء؛ كان ذلك في أحد أيام الثلاثاء المشمسة.

أتذكَّر - بشكل حسن - المرة الأولى التي أخذتُ فيها رَبِيْبَتي[1] إلى وادي الملوك. هي مُحرِّرة أزياء لمجلَّة أزياء إنجليزية رئيسة، تستهدف الأعمار ما دون الثلاثين. حياتها - عموماً - تدور حول الأزياء المعاصرة، والسَّفَر، والتصميم؛ ليس لديها وقت إضافي للانشغال بالماضي. كان ذلك في وقت مُبكِّر من الصباح، والشمس كانت - للتَّوِّ - تشرق على حافلتنا، بينما كانت تستدير مُتَّجهة إلى مدخل الوادي الضيّق؛ حيث واجهنا - ولأول مرَّة - الوادي الصخري الجافّ المشمس بمداخل قبوره، وتلاله العالية، التي امتدَّت أمامنا. فجأة؛ بدأت تذرف الدموع بغزارة. بكت بشكل لا يمكن السيطرة عليه. شيء ما قوي انفجر في أعماقها، وسيطر عليها. كلّ ما أمكنها قوله: «شعرتُ كما لو أنّني كنتُ هنا من قبلُ». كان ذلك كافياً.

ليس - فقط - الذكريات الشخصية هي التي يمكنها أن تظهر؛ هناك بعض الذكريات الأخرى التي تتأخّر في الظهور، وفي بعض المناسبات، تُظهِرُ نفسها. الذكريات - على ما يبدو - حملتها الأحجار والمواقع بذاتها. كما لو أنّ الماضي منفصل بغشاء خفيف، يتمُّ قَشْرُهُ من حين لآخر؛ لكَشْف ما يكمن خلفه. أحبُّ التَّحدُّث مع الحُرَّاس الذين يقومون بدوريّات في تلك المواقع ليلاً، والذين ينامون هناك، ويعرفون الأماكن الهادئة، واللحظات الهادئة. أحبُّ - أيضاً - أن أتحدَّث مع علماء الآثار المصرية، الذين غمروا أنفسهم في المواقع، وأيضاً؛ يعرفون الأماكن الهادئة. سمعتُ قَصَصاً عن الرُّؤى المفاجئة للطقوس القديمة، عن كَهَنَة يتجمَّعون في البحيرات المُقَدَّسَة، عن آلهة تمشي عبر الممرَّات، والغُرف. تمَّ أَخْذي إلى المُصلّيات الصغيرة في الأجزاء البعيدة من المواقع الكبيرة؛ حيث يمكنني أن أقول بأن شيئاً خاصاً جدَّاً يوجد هناك؛ شيئاً خاصّاً تتمُّ تجربته.

(1) ابنة الزوجة، أو الزوج. المُترجم.

لكن البعض من هذه الأماكن يجب - دائماً - أن يبقى رصيناً، وتتمُّ زيارته - فقط - من قِبَل أولئك الذين يفهمون كيف يقتربون منه بالوقار الذي يستحقُه، والذين بإمكانهم أن يستلموا هداياهم من تلك الأماكن. تلك الأماكن رائعة؛ لدرجة أنه في مصر - في كلّ يوم تقريباً - يوجد هناك مجموعات صغيرة من الزُّوَّار - الحجّاج - الذين يبحثون عن هذه التجارب، ويمتلكونها. هم يتعلَّمون معرفة الماضي الحيّ لهذا البلد المُدهش.

بالنسبة لكلّ «الحجّاج» منا، من الواضح أن الأهرامات هي أكثر من مجرَّد قبور، كما تمَّ إرشادنا لأنْ نؤمن بأنها كذلك. يذكر ستيفن كوورك - بشكل صريح - أن الأهرامات - وكذلك العديد من الأبنية الأخرى التي تحلَّلت بمرور الوقت - تُشكِّل جزءاً مُزخرفاً مُركَّباً كُرِّسَ لتطبيق ديانة الفرعون، وعُدَّ مكاناً مُقَدَّساً، يضيف «بأنّها مجرَّد قبور ثانوية». يُوضّح بأن هَرَم دجوسر «Djoser»، وأبنية أُخرى في مجمع في السقارة «Saqqara»، تُزوِّد بـ«دليل واضح» عن استعمالها بشكل طقوسي، في هذه الحالة، ذلك هو سبب الاحتفال بمهرجان «سيد» (sed)، الذي هو مهرجان عظيم يُعقَد كلّ ثلاثين سنة، أو أكثر، وكان يهدف لتجديد قوّة الفرعون.

الدراسة الأهمّ لطائفة الفرعون قد أُكْمِلَتْ مُؤخَّراً من قِبَل الدّكتور جيرمي نيدلر، وقُدِّمَتْ في كتابه الذي يحمل عنوان «الحكمة الشامانيّة[1] في نصوص الأهرامات». يُوضِّح بأنّ مهرجان «سيد» أُجْرِيَ للسماح للفرعون بخَلْق انسجام بين العالم الطبيعي والعالم الآخر. انسجام من شأنه أن يُفيد كلّ مصر. «المنسك المركزي» لمهرجان «سيد» يتضمَّن اختراق الملك للعتبة بين العالَمَيْن، بهدف إيصال نفسه إلى «علاقة مباشرة إلى القوى الروحية المَخْفيَّة عادة». للسماح لذلك بأن يحدث، وأثناء الأجزاء الأكثر سرِّيَّة من المراسم الطقوسية، يبدو بأن الملك كان يصل إلى «تجربة نبوية مُنتشية». هذه التجربة كان يشعر بها - بشكل تلقائي - أولئك الذين يمارسون المناسك، والذين كانوا يفهمون جيداً الترابط بين العالَمَيْن، وأهمية الفرعون كنقطة اتصال بين الاثنَيْن.

(1) دين يتميّز بالاعتقاد بوجود عالَمٍ محجوب، هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح السَّلَف، وبأن هذا العالم لا يستجيب إلّا للكاهن الشّاماني. المُترجم.

نيدلر يُصرِّح: استنتاجه من دراسته لنصوص الأهرامات هي أنها «أبعد ما يكون عن النصوص الجنائزية، [هذه النصوص] كانت مُهتمَّة - بشكل أساسي - بالتجارب الباطنية من النوع المشابه لتلك التي كانت عند الملك الحيّ أثناء الطقوس السِّرِّيَّة في مهرجان «سيد»؛ لأنه يمكن رؤيتها - بوضوح - بأنها تعود إلى نوع من التجارب الإنسانية البدائية في نقطة العبور بين هذا العالم وعالم الروح».

بالطبع؛ أكثر العلماء يعارضون هذه النظرة التجريبية إلى النصوص والمناسك. يُفترَض بأن الكمية الضخمة من الأدب المصري القديم التي تصف العالم الآخر - هي - ليست علماً حقيقياً، بل هي حصيلة اعتقادات التَّخيُّل لآلاف السنين لأجيال من الكَهَنَة، الذين - لربما - كانوا يؤمنون بما كانوا يكتبون، ولكنهم - رغم ذلك - كانوا يحاولون أن يصفوا شيئاً ما من المستحيل معرفته. ولكنَّ نيدلر أشار أنه «من الممكن - أيضاً - أنّ هذه المعرفة كانت مُؤكَّدة تماماً، وأنها كانت نتيجة نوع من التجربة الباطنية، التي تضمَّنت عبور الشخص لعتبة الموت، بينما مايزال حياً».

هنا؛ أتذكَّر - ثانية - عبارة «akhet of Khufu» (العالم الآخر لخُوفُو) المنسوب للهَرَم العظيم للفرعون خُوفُو في الجيزة، والذي أشرتُ إليه في بداية الفصل. هل من الممكن أن هذا الاسم - الذي يعني «التَّألُّق» و«التَّحوُّل إلى نور» ونقطة الدخول إلى العالم الآخر في الأُفُق - يقترح أنّ الأهرامات كانت المكان الذي يعبر منه خُوفُو إلى العالم الآخر؟ والمكان الذي كان يعود منه؟

في المسؤولية المُلقاة على عاتقه في الحفاظ على الـ«مات» (الانسجام الأبدي)، هل من الممكن أنَّ خُوفُو كان يبحث عن أجوبة من الكائنات الروحية في العالم الآخر عن كيفية ضمان الانسجام في هذا العالم؟ وإنْ كان - في الحقيقة - قد عبر العتبة إلى مملكة الآلهة، فكيف عمل ذلك؟ ما التقنيات المُعيَّنة التي عرفها الكَهَنَة المصريون، الذين كانوا يساعدون خُوفُو والمصريين الآخرون قبله وبعده؟

نظرة عن كثب لمناسك التلقين كُشِفَتْ في مكان آخر في العالم القديم ستُساعد - بالتأكيد - في دراستنا، وتلك هي المحطَّة القادمة من رحلتنا.

الفصل العاشر

التلقين

بعض الأماكن هي غامضة حقّاً. قد يبدو بأن هناك منطقاً في بنائها، لكن أجزاء منها تتحدَّى التفسير بصمود، ترفض الإذعان لأيّ قواعد واضحة للهدف الذي بُنِيَتْ من أجله. أثناء السنوات العديدة لأبحاثي، من كلِّ الأقبية، والصالات، والقبور القديمة، والمُبهَمَة التي استكشفتُهَا، إحدى الأماكن الغريبة تماماً، التي لم يسبق لي - أبداً - أنْ كنتُ فيها تقع في إيطاليا، في الزاوية الشمالية الغربية لخليج نابولي، فوق الميناء الصغير لبايا. مدخله الضيّق مَخْفِيّ بشكل ذكي بين الأطلال الرومانية المنهارة، التي انتشرت على مصاطب على طول سفح التلّ.

تسلَّقتُ - بشكل حذر - على جدار حجري، ووجدتُ سُلّماً معدنياً، و انحدرتُ - تقريباً - مسافة خمسة عشر قدماً إلى القاعدة، عبر ممرّ ضيّق، كان قد حُفِرَ من صخرة بركانية - رُبَّما - قبل 2600 سنة. كان في انتظاري في القاع صديق لي، الكاتب والأكاديمي روبرت تيمبل، خبير في التكنولوجيا القديمة. بعد سنوات عديدة من تقديم الطَّلَبَات، مَنَحَت السلطاتُ الإيطالية الآثارية رخصةً لروبرت بدخول الموقع؛ دعاني للزيارة للاستعانة بخبرتي في استكشاف الأماكن التحت أرضية، والتصوير الفوتوغرافي. كان ذلك يوم الخميس 24 مايو/ مايس 2001.

أمامنا كان هناك مدخل ضيِّق محفور في وجه المنحدر، يؤدّي إلى مجمع غامض تحت الأرض. بالنسبة لنا، اللحظة كانت هامّة؛ لأنه ليس هناك اليوم أحد حيّ ممَّنْ دخلوا هذا المكان قبلنا. ثَبَّتْنَا قُبّعاتنا الصلبة، وأَشْعَلْنَا الأضوية، ومشينا من الشمس اللاهبة إلى الظلام الدامس فجأة. التغييرُ المفاجئ سبَّبَ القلقَ.

في الحقيقة، كنَّا مُتردِّدَيْن – نوعا ما – في بـادئ الأمـر في الاسـتمرار؛ لأنـه لم يكـن لـدينا – بالتأكيد – أية فكرة عن كيفية الأوضاع في الأماكن الأكثر عمقاً. التخمينات حول مـا كـان سيأتي – فيما بعد – في الداخل كانت سلبية جدَّاً. أصرَّت السلطات الإيطالية ولمدّة طويلة بأنّ الممرّات التحت أرضية تملؤها – بشكل خطير – الغازات الـسامّة، ولـذا؛ طلبـوا منَّـا توقيـع تعهُّد قبل الدخول يُعفيهم من كلّ المسؤولية عن العقبات التي قد نواجهها حتى الموت.

نَفَق المدخل كان ارتفاعه ستّة أقدام تقريبـاً، ولكـنَّ عرضـه – فقـط – واحـد وعـشرون بوصة، كان هناك مجال يكفي – فقط – لشخص واحد للعبور. عـلى الجـانبَيْن، وفي مـسافات منتظمة، رأينا كوّات صغيرة صُمِّمَتْ – بوضوح – لحَمْل المصابيح. ممَّا حيَّرنا كثـيراً، أن هـذا النَّفَق كان يسير – مباشرة – من الشرق إلى الغرب، بينما ينحدر ببطء. خلفنا اختفـى المـدخل المضاء تماماً، وبشكل سريع، تاركاً إيَّانا في صمت، في صمت كريه.

كان الجوّ حاراً، بالرغم من أنه لم يكن حارّاً جدَّاً، إلا أنه كان رطبـاً جـدَّاً؛ أصـبح لباسـنا مُبلَّلاً بالعَرَق سريعاً. النَّفَق ممتلئ بآلاف الأعداد من البعوض الكبير، الذي أثبـت – ولحـسن الحظّ – بأنه كان أكثر فضولاً من المحاربين. لبسنا الأقنعة الكيميائيـة الواقيـة تجنُّبـاً لإمكانيـة الوجود الفعلي للأبخرة الضارَّة. الضوء الذي كان معنا سُلِّط للأمـام: النَّفَـق كـان يـستمرّ في خطٍّ مستقيم، وطريقه في انحدار ثابت. بدأ يبدو – بـشكل سريـع – بأنـه مُـوحش، وغريـب جدَّاً. على الرغم من هذا، تابعنا المشي.

بعد أنْ تقدَّمنا – تقريباً – أربعمئة قَدَم، النَّفَق تغيّر. رأينا بناءً فضولياً على الجانب الأيسر، الذي بدا كمدخل مُطوَّب؛ في الوقت نفسه؛ النَّفَق تفرَّع إلى اليمين، وبدأ بالنزول بدرجة أكبر، وبشكل حادٍّ. تابعنا النزول إلى الأسفل في تلك الـصخرة. بعـد مئـة وخمـسين قَـدَمَاً أُخـرى، توقَّفْنَا فجأة: واجَهَتْنَا المياه. والنَّفَق اختفى في أعماقه في الأسفل، كما لو أنه قد أُغْرِقَ بنهر تحت أرضي. لكنَّ هذا الممر المائي تحت الأرض كان قد بُنِيَ بشكل فنّيّ، مثل النَّفَق. عـدّة درجـات ضحلة كانت تقود لداخل الماء، لكنَّ مستوى الماء من الواضح بأنـه ارتفـع – إلى حَـدٍّ كبـير – منذ الأوقات القديمة، والسقف أصبح أمامنا أكثر انخفاضاً، وقد انحدر – بتقدُّم تـدريجي – إلى الأسفل، حتى مسَّ الماء بشكل واضح. لقد كان غير قابل للعبور.

مباشرة؛ قبل وصولنا لهذا الممرّ المائي التحت أرضي رأينا فتحة في الحائط الأيمن للنَّفَق؛ عُدنا، وزحفنا خلاله على أيدينا، ورُكبنا. بعد ذلك بقليل؛ وجدنا أنفسنا في نَفَق جانبي آخر، الذي انعطف - بحدَّة - إلى اليسار، وبعد ذلك، اتَّجه إلى الأعلى في زاوية حادَّة؛ من الواضح بأنه كان هناك درجات سُلّم في السابق، لكنَّ - الآن - المنحدر مُغطَّى بالأنقاض الكثيرة. بصعوبة استطعنا الصعود عليه زحفاً.

بعد تسلُّق عشرين قَدَم تقريباً، وجدنا أنفسنا أمام شيء مُدهش حقَّاً: مدخل مُطوَّب إلى غرفة، أو صالة تحت الأرض؛ ربما ملجأ، أو معبد صغير، أو قاعة ما خاصّة ذات أعمدة. الأنفاق كانت في الاتجاهَيْن اليساري واليميني كلَيْهما. انحرفنا نحو اليمين، وبعد عشرين قَدَم تقريباً، أصبح النَّفَق مسدوداً بأنقاض مُكتظَّة، لكنَّا عرفنا - من التحقيقات الأصلية - بأنّ هذا النَّفَق يصل إلى النهاية البعيدة للممرّ المائي التحت أرضي.

بعد ذلك؛ زحفنا عائدَيْن إلى المدخل المُغلق للملجأ، وعبرنا النَّفَق اليساري. هذا قادنا إلى نَفَقَيْن آخرَيْن، على الأقلّ؛ واحد منهما بدا بأنه يقودنا للخلف إلى الاتّجاه الذي دخلنا منه أولاً إلى المجمع، ولكنْ؛ على مستوى أعلى، وبذلك يتفادى الممرّ المائي.

هذا النَّفَق - أيضاً - كان - مرَّة - مُكتظّاً بالأنقاض، ولكنْ؛ على مدى السنوات الألفَيْن، أو أكثر، منذ أنْ تمَّ خَتْمُهُ يبدو بأن تلك الأنقاض قد استقرَّت، تاركة - تقريباً - ثمانية عشرة بوصة بين قمَّة الأنقاض والسقف. امتدَّ إلى الأمام بقدر ما استطاعت أن تكشف الأضواء التي كانت معنا. ثمَّ اختفى - بعد ذلك - في الظلام. كنتُ مُصمِّماً على استكشافه.

إنْ قلنا إن الحالة كانت خانقة فذلك أقلّ تعبير يمكن وصفه. على أية حال، أمضيتُ بعض الوقت في الماضي أستكشف فيه الكهوف والأنفاق في المواقع الآثارية في أنحاء الشرق الأوسط كافة ، وعرفتُ بأنّني يمكن أن أتعامل مع الرُّعب العَرَضي الذي قد يظهر حينما يكون المرء وحده في مكان عميق ومُغلق يُشعِرُ بأنه - من حين لآخر - كالقبر الحي.

عندما كنتُ مستعداً لاستكشاف هذا الممرّ، روبرت رفَضَ الالتحاق بي. العاملان الآثاريان الإيطاليان، جينو وبيب، بدءا - أيضاً - بالنَّظر إلى اتجاه آخر، وهما يعبثان بحقائبهما

الظهرية، وبحبالها. على أية حال، قرّروا بأنّه يجب عليّ أن أربط حبلاً حول أحد ساقي. أفترض بأن اعتقادهم كان أنه - لربما - أُصاب بنوبة قلبية، وأموت، بينما أنا في ذلك النَّفَق، وبالتالي؛ يمكنهم - بسهولة - أن يسحبوني. ذلك الأمل بدا - بالنسبة لي - يائساً في ذلك الوقت، وأثبتُّ - أيضاً، بسرعة - بأنه مستحيل - تماماً - بالنسبة لي.

سقف النَّفَق كان قريباً جدّاً؛ لدرجة أن قُبَّعتي الصلبة كانت تحميني من الحجارة القاسية التي في الأعلى، كان لابُدَّ أن أزحف على معدتي، وأن أدفع بقدمَي، وأسحب بيدَي. كنتُ غير قادر على أن أرفع رأسي لرؤية المكان الذي أنا ذاهب إليه. كنتُ - أيضاً - غير قادر على الاستدارة؛ لأن النَّفَق كان - تقريباً - بعرض واحد وعشرين بوصة فقط. تمنَّيتُ - ببساطة - بأنّ كلّ ذلك التقدُّم سيقودني إلى مكان ما، وبأنّه عندما أصل أن أكون قادراً على الاستدارة للخروج ثانية. وإلَّا كان علي أن أعود أدراجي زحفاً بشكل خَلْفي. فرصة مُرهقة، تلك حقيقة، ولكنها ممكنة، ولذلك لم أكن قلقاً بذلك الشأن. بدأتُ أزحفُ بوجهي على الأرض، والقناع الذي كنتُ أرتديه أثبتَ أنه يستحقُّ سعره. كان لابُدَّ عليَّ أن أدفع حقيبتي - التي فيها آلات التصوير - أمامي، بينما كنتُ أزحف معها؛ لأنه لم يكن هناك فراغ كاف في النَّفَق لأتمكن من ارتدائها على ظهري.

تابعتُ التَّلوِّي عبر النَّفَق بقدر استطاعتي، بينما كنتُ - بشكل آني - أُخمِّن المسافة التي كنتُ أقطعها. توقَّفتُ - من حين لآخر - لأُصفِّر؛ لأُطمئن أصدقائي، ولأطمئنَّ من صافرة أصدقائي، وبأنهم مايزالون على مقربة مني. ولكنْ؛ قريباً، بينما نزلتُ بشكل أعمق في النَّفَق، لم أعد أستطيع سماع أيِّ رَدٍّ. وبعد ذلك، في مستوى أبعد، انتهى الحبل. حَلَلْتُهُ من قدمي، وتابعت الزحف من دونه.

السقف والجدران كانت تقترب مني أكثر. كنتُ وحيداً. لقد خيَّم الصمت. قرَّرتُ مرَّتَيْن بأنه لابُدَّ عليّ أن أتوقَّف. على الرغم من محاولاتي لتفادي مثل هذه الأفكار، أدركتُ الوزن الهائل للصخرة، الذي كان يضغط إلى الأسفل في سقف النَّفَق في الأعلى. السقفُ قَشَطَ رأسي، والجوانب قَشَطَتْ مرافقي، جسمي كان عُرضة للأنقاض، التي يعود عمرها لأكثر من ألفَيْ سنة. خلفي كان هناك نَفَق طويل؛ ما كان يكمن أمامي كان لُغزاً تامَّاً. المهمَّة برُمَّتها بدت - فجأة - بأنها جنونية جدَّاً، بل مُتهوِّرة.

إن انهار السقف في هذه اللحظة بالذات، لا أحد كان سيأتي لإنقاذي: بدأ الرُّعب القاتل ينتاب أفكاري. على الرغم من أن الجوَّ الطبيعي حارٌّ، إلا أن البرد جمَّد ظهري، وتصلّب جسمي؛ في أداء لا يمكن السيطرة عليه من فنِّ التمثيل الداخلي الهاوي، بدأت بالشُّعُور كما لو أنّني كنتُ في قبري، وأنتظر – تماماً – اللحظة التي سأُغطَّى فيها في الأرض. كان لابُدَّ عليَّ أن أُهدِّئ أعصابي؛ النَّفَق موجود منذ زمن طويل، ولم يكن على وشك الانهيار بشكل مفاجئ – فقط – لأنني في داخله.

تنفَّستُ – بعمق وهدوء – لمرات عديدة، وانحسر الشعور أخيراً. دفعتُ حقيبة التصوير أمامي، وانزلقتُ للأمام. قريباً؛ وصلتُ إلى مسافة، ظننتُ أنها مئة قَدَم، ومازال النَّفَق يسير – بلا تغيير – ضمن الصخرة البركانية الصّلبة.

عند نقطة المئة والعشرين قَدَمَاً، تغيَّر النَّفَق مرة أُخرى: سقفه أصبح أعلى إلى حِدٍّ ما، وعرضه تضاعف. بدأ بالانحدار بنسبة قَدَم واحد لكلّ ثلاثة أقدام تقريباً. شعرتُ بالارتياح؛ إنْ كان ضرورياً، يمكنني أن أستدير الآن. ولكنْ؛ أمامي – وبشكل غير قابل للتوضيح – يمكنني أن أرى بأنّ النَّفَق قد تحوَّل إلى نَفَقَيْن. المداخل المظلمة الثنائية حدَّقت فيَّ، وكأنها فتحات بندقية (الجفت). اخترتُ دخول النَّفَق الأيمن أولاً، وتحرَّكتُ ببطء فيه على يدَي، ورُكبتَي.

لكنَّ هذا النَّفَقَ وصل – فقط – إلى مسافة قصيرة؛ بفضول، انتهى ذلك النَّفَق – فجأة – عند مسافة – تقريباً – مئة وخمسين قَدَمَاً من المدخل الرئيس. هذا لم يكن مُهمَّاً على الإطلاق. هل تمَّ إغلاقه؟ فَحْصٌ سريع أخفق في كَشْف أيِّ دليل بأنّ تلك كانت الحالة. إلى يساري كان هناك فتحة في الصخرة تنزل إلى نَفَق آخر، لذلك زحفتُ خلالها. بغرابة، وجدتُ نفسي في نهاية النَّفَق اليساري. هذا التعقيد اللامركزي بدا أنه بلا فائدة تماماً. فلماذا يقوم أيّ شخص ببناء نَفَقَيْن ينتهيان في المكان نفسه؟ مباشرة؛ أمامي، رأيتُ بقايا فسحة – مدخلاً من نوع ما قد تمَّ إغلاقه بكُتَل من الحجارة، دُعِّمَتْ بشكل يحفظ أمن ذلك المكان. على اليسار؛ كان هناك جدار آخر حُفِرَ فيه فتحة. وضعتُ رأسي فيها. كَشَفْتُ – أيضاً – نَفَقاً آخر، لكنّه – أيضاً – أُغْلِقَ بالأنقاض بعد بضعة أقدام. ركلتُ الأرضيةَ المُغطَّاة بالأنقاض، والحلقة الناتجة الغريبة بدت بأنها تشير إلى وجود نَفَق آخر تحتي، وأعمق. دائماً؛ أحمل معي مالجاً في حقيبتي، ولكنَّ هذا لم يكن وقت البدء بالتنقيب.

على الرغم من هذا، أَخْرَجْتُهُ، وضربتُ مراراً وتكراراً على المبنى الحجري للمـدخل المُغلـق، بينما كنتُ أصرخ – بشكل آني – بأعلى صوتي. لم أسـمع أيَّ شيء، ولكـنْ؛ كـما تبـيَّن أن روبـرت تيمبل كان بإمكانه أن يسمعني. كنتُ أقف على الجانب الآخر من الجزء المُطوَّب للجدار الذي كنّا قد اجتزناه في طريقنا، والذي كان – مباشرة – قبل النَّفَق الرئيس، الذي يسير يميناً إلى الأسفل.

بدا كما لو أنّ هذا النَّفَق – أصلاً – كان يُزوّد بمدخل – أيـضاً – إلى «معبـد»، أو «ملجـأ»، في عمق الأرض، ويُزوِّد بطريق كان أعلى من النَّفَق الآخـر، ويتجـاوز الممـرّ المـائي الاصـطناعي في الأسفل. في تلك اللحظات؛ أصبح لدي بعض الأفكار حـول منطـق ذلـك المكـان: هـذا البنـاء الغريب كان – في الحقيقة، كما اعتقد روبرت تيمبل – مكـان حيـث جـاء النـاس لكـي يتعلَّمـوا الأسرارَ القُدْسيةَ للعالم الآخر. هؤلاء المُلقَّنون – كما كان يُطلَق عليهم – يدخلون الطريق الأيمـن – الذي أُوصي به – دائماً – في النـصوص القديمـة – ويُجـذِّفون عـلى طـول النهـر الاصـطناعي؛ للوصول إلى الملجأ الداخلي، الذي عمل كالمدخل، أو البوَّابة إلى العـالم الـسفلي، الـذي أرادوه إلى مملكة الآلهة. للعودة، المُلقَّنون كان بإمكانهم أن يعودوا عبر النهر. في هـذه الأثنـاء، النَّفَـق البـديل كان يُؤمِّن وصول الكَهَنَة إلى الموقع المباشر للملجأ؛ حيث كانوا ينتظرون وصول المُلقَّنين.

هي – بالأحرى – كانت جميعها تشبه الزيارات إلى العالم السفلي، التـي وصـفها الكُتَّـاب الكلاسيكيون. بدؤوا بروايات عن زُوَّار المناطق الجهنمية بأنهم كانوا يُجذِّفون عبر أُسطُقْس[1] من قِبَل المركبيّ الصامت شارون. بعد ذلك، بعد الدخول إلى المملكة المُقَدَّسَة، المسافر يواجـه – كما يصفه فيرجل –: «أماكن البهجـة، أرض المُتنزّهـات الخـضراء؛ حيـث تطمـئنُّ الأرواح وسط البساتين المباركة».

عدتُ إلى حقيبة التصوير التي لديَّ، وببعض الصعوبة في ذلك الفراغ المحصور، أخرجـتُ إحدى آلات تصويري المحبوبة «Leica»، وعدّة عدسات، وفلاشاً، وبـدأتُ التـصوير بـشكل شامل لكلِّ شيء يمكنني أن أراه. من تجربتي الطويلة في تقلُّبات الاستكشاف، أعمل – دائـماً – كما لو أنني لن أكون – أبداً – قادراً على العودة. المبدأ الذي أتَّبعه هو «أَنْجِـز العمـل التـصويري كاملاً»، إنه مبدأ جيد، وتنبُّؤي (نَظَرَاً لما حصل في هذه الحالة).

---

(1) أُسطُقْس: نهرُ الجحيم الرئيس (عند الإغريق). المُترجم.

بعد ساعة، أو أكثر، فيما بعد، عدتُ إلى أسفل النَّفَق؛ حيث وجدتُ جينو وبيب يجلسان في انتظاري، مُتوتِّرَيْن بعض الشيء. لم يكن بإمكانهما سماع تحرُّكي لمدَّة من الوقت، ولم أكن أردُّ على أيٍّ من نداءاتهم. عندما ارتخى الحبلُ، سحبوه، ولكنني لم أكن مربوطاً فيه. لابُدَّ وأنهم أبلغوا عن مخاوفهم للسلطات؛ لأنه في كلّ فرصة مستقبلية أزور فيها ذلك المجمع كُنتُ أُمْنَعُ فيها من دخول هذا النَّفَق. بالطبع؛ لم يحدث ذلك بأيّة طريقة واضحة، لم يقل لي أيَّ شيء أبداً، ولكن أحدهم - دائماً - لابُدَّ وأن يبقى قريباً جدَّاً مني، وعندما أقترب من مدخل النَّفَق الضيّق العميق، هم يُرتِّبون للجلوس بيني وبينه. هم - بشكل واضح - تبلَّغوا بأوامر: عُدَّ ذلك النَّفَق خطيراً جدَّاً. لذلك، الصُّور الملوَّنة التي قُمتُ بتصويرها في المرّة الأولى، هي - الآن - الوحيدة الموجودة.

لا أحد يعرف مَنْ بنى هذا المجمع الذي تحت الأرض. ربما حُفِرَ من قِبَل اليونانيين بحدود القرن السابع قبل الميلاد. لا أحد - لحَدِّ الآن، وبدون أدنى شكّ - يمكنه أن يقول سبب استعماله. لا أحد يعرف متى أُغْلِقَ، أو لماذا أُخفي وجوده. أفضل اقتراح هو أنّ ماركوس آغريبّا[1]، جنرال وعميد روماني بارز في عهد القيصر أوغسطس وجَدّ الإمبراطور نيرو، ولأسباب نجهلها، قرَّر بأنّ ذلك المكان كان خطيراً جدَّاً؛ بحيثُ كان من الضروري استأصاله من وجه الأرض، ولذلك أمر بملئِهِ بالأنقاض، من المحتمل أن ذلك حصل - تقريباً - بين عامَيْ 37 - 36 قبل الميلاد، عندما تمَّ بناء أسطوله القريب وبَحَّارته كانوا يتدرَّبون في بحيرة آفيرنوس[2]، وبحيرة لوكرينا قبل معركتهم البَحْرية الأخيرة والمنتصرة في حرب صقلية.

---

(1) آغريبّا، ماركوس فيبسانيوس (63 ـ 12 ق. م.): قائد روماني. كان رجل الإمبراطورية الثاني في عهد الإمبراطور أوغسطس. المُترجم.

(2) «Avernus»: مُشتقَّة من كلمة «aornos» اليونانية، وتعني «بلا طيور». وهذه البحيرة كانت على فوهة بركانية. الأبخرة الكبريتية والسّامَّة التي تصاعدت منها في الأوقات القديمة يُعتقَد بأنها أدَّت إلى قَتْل الطيور، التي كانت تطير فوقها، ومن هنا؛ جاءت التسمية. بسبب المظهر المُوحِش للبحيرة، الكُتَّاب اليونانيُّون والرومان القدماء اعتقدوا بأنها كانت المدخل إلى «حادس» («Hades»، وهي مثوى الأموات في الميثولوجيا الإغريقية). في ذلك=

أيّاً كان ذلك المسؤول، فقد كان مُركِّزاً - بالتأكيد - على مهمَّة: دمار المجمع التحت أرضي، الذي تطلَّب جهداً هائلاً - التقديرات تقترح ثلاثين ألف رحلة بشرية - يشهد على تصميم شديد، إنْ لم يكن مفرطاً،على إغلاق الموقع إلى الأبد. إنْ كان آغريبّا هو المسؤول، فما الذي كان يخيفه؟ وإنْ لم يكن آغريبّا، مَن الآخر الذي يمكن أن يقوم بذلك؟ ولماذا؟

ذلك كان قبل ألفَيْ سنة تقريباً. المدخل الخارجي للمجمع اكتُشِفَ ثانية أثناء التنقيب الأثري عام 1958، لكنَّ النَّفَق لم يُدخَل إلا لمسافة قصيرة في ذلك الوقت. التعقيد الكامل للموقع لم يُكشَف حتى عام 1962، عندما تمَّ استكشافه - ولكنْ؛ ليس تنقيبه - من قِبَل المهندس الكيماوي المتقاعد روبرت باجيت. بعد جهود باجيت، الحكومة الإيطالية تسلَّلت للداخل، وخَتَمَت المدخل، محتفظة بوجوده السِّرِّيّ التّامّ. لم يدخله أحد ثانية، حتى قمنا - أنا وروبرت تيمبل، سويَّة مع جينو وبيب - بالمخاطرة بالقيام بذلك بعد أربعين سنة تقريباً. لجميع الأغراض والمقاصد، أُزِيلَ البُعْدُ الأثري - بهدوء - من الموقع. أيُّ شخص يسأل عنه يتمُّ إخباره بأنّه كان مجرّد نَفَق آخر غير مُهمّ يؤدّي إلى مصدر للماء الحارّ، وبأنه قد بُني أثناء العهد الروماني كحمَّامات حارَّة لهم. أكثر العلماء فقدوا الاهتمام بالموقع. فقط؛ روبرت تيمبل أخذ الموقع بجدِّيَّة.

في 21 سبتمبر/ أيلول 1962، روبرت باجيت وزميله دخلا الموقع أولاً. لا أحد غيرهما قام بذلك لألفَيْ سنة. ما الذي اكتشفه بالضبط، والذي جعل الحكومة الإيطالية تتصرَّف بالطريقة التي اتَّبَعَتْهَا؟!

الموقع - وفقاً لعلْم الأساطير - يقع كهف العرَّافة الكيومية (نسبة إلى بلدة كيومي التاريخية الإيطالية)، وهي العرَّافة الأكثر شهرة في التاريخ، وكذلك يقع البستان الذي يعيش فيه إله العالم السفلي اليوناني «Hecate». الجنرال الروماني ورجل الدولة ماركوس فيسبانيوس آغريبّا البحيرة إلى قاعدة بَحْرية، وقاموا ببناء قناة تصلها ببُحيرة لوكرين، وبالبحر. التغييرات في التضاريس المحيطة أغلقت القناة بعد فترة قريبة، وأعادت البحيرة. المُترجم.

باجيت كان – لفترة طويلة – مفتوناً باحتمال وجود أوراكل[1]، للأموات في تلك المنطقة. اعتقد بأن رواية فيرجل عن إينياس[2] القائلة بزيارته للعالم السفلي كانت تستند على تجربة زيارة حقيقية لهذه الروح المشهورة. بشكل حاسم؛ يُوضّح فيرجل بأنّ روح العرَّافة في كيوما – التي وجودها هناك فعلي بلا شكّ – كانت تختلف عن أرواح الموتى، الذين يقال إنها موجودة في مكان ما، في منطقة بحيرة آفيرنوس، والتي هي حفرة بركانية مليئة بالماء، تبعد حوالي ميل عن بلدة كيوما، وميل أو اثنَيْن إلى الشمال من مدينة بايا «Baia» الإيطالية.

في إنيادة فيرجل، يزور إينياس عرَّافة كيوما، ويسأل عن الطريق إلى العالم السفلي. تجيبه: «الطريق إلى الأسفل هو سهل من آفيرنوس». بكلمة أُخرى؛ فيرجل يذكر أن المدخل إلى العالم السفلي قريب، ضمن ميل، أو أكثر، كما رأينا.

هل هذا مجرَّد اختلاق أدبي؟ أم أن فيرجل كان يمتلك معلومات من المصدر الأصلي وتجربة حقيقية للمكان؟ اعتقد باجيت بأن الافتراض الأخير كان حقيقياً. هذه الإمكانية لا يمكن إهمالها؛ لأنه يعرف بأنّ فيرجل كان ساكناً في المنطقة لفترة من الوقت. باجيت كان متأكِّداً من أنَّ تلك الأرواح – كروح العرَّافة الكيومية – قد وُجِدَ حقَّاً. وليس هناك شكٌّ بأنّه كان مُحقَّاً حول التالي: عندما سَلَبَ هَنِّيبعلُ[3] المنطقةَ عام 209 قبل الميلاد، اهتمَّ بتقديم القرابين في موقع مُقَدَّس مُهمٍّ؛ أيْ أوراكل، والذي يُقال بأنه كان – أيضاً – قرب بحيرة آفيرنوس. بالطبع؛ البعض من المُشكِّكين يمكنهم القول بأنّ ذلك كان مصدر نصِّ فيرجل، وبالتالي؛ ليس من الضروري أن يكون فيرجل قد رأى الأوراكل بنفسه على الإطلاق.

---

(1) مصدر للحكمة والنُّبُوءة من قِبَل شخص ما، أو من قِبَل رُوحه، إلخ؛ أيْ الوسيط الروحي للآلهة، أو مهبط الوحي. المُترجم.

(2) («Aeneas»: البطل الطروادي في علْم الأساطير الكلاسيكي: في علْم الأساطير اليوناني والروماني، هو بطل طروادة، الذي هرب بعد سقوط طروادة، وأمضى سبع سنوات يسافر قبل الاستقرار قرب موقع روما في إيطاليا. وفي وصف لتلك الرحلات كَتَبَ فيرجيل – كبير شعراء الرومان – ملحمة الإنياذة «Aeneid» المُترجم).

(3) هَنِّيبعل (247 ـ 183 ق. م.): قائد قرطاجيّ. عَبَرَ جبال الألب في محاولة للاستيلاء على رومة (عام 218 ق. م). المُترجم.

لإثبات نظريته، باجيت وزوجته انتقلا إلى بايا عام 1960 سويّة مع كيث جونز - زميله - كانوا من المتحمِّسين في علْم الآثار، وزميله كان يخدم في القوة البَحْرية الأمريكية في قاعدة مُنظّمة حلف شمال الأطلسي في نابولي، وقد صمَّموا على بدء استكشاف منهجي، في محاولة محدَّدة لإيجاد بقايا الأوراكل.

بدؤوا بالتفتيش في المدينة اليونانيّة القديمة كيوما، والتي تقع على بُعْد ميلَيْن تقريباً شمال غرب بايا. استكشفوا كلَّ الأنفاق والكُهُوف العديدة في المنطقة، بما فيها المنطقة الشهيرة «أوراكل العرَّافة»، والتي تمَّ اكتشافها ثانية عام 1932، ونُقِّبَتْ بعد ذلك. لكنّهم كانوا غير قادرين على العثور على أيِّ شيء يشبه أوراكل الموتى.

باجيت وجونز - بعد ذلك - حوَّلا انتباههما إلى بحيرة آفيرنوس؛ حيث العديد من التقاليد حدَّدت الأوراكل. وجدوا دليلاً كبيراً عن مَسَافن[1] آغريبّا، وإنشاءاته العسكرية، بما فيها النَّفَقان الكبيران؛ أحدهما كان بطول ميل، وعرض عشرة أقدام مُربَّعة، ويسير تحت الأرض من بحيرة آفيرنوس على طول الطّريق إلى كيوما. ومرة أُخرى؛ استكشفوا العديد من الأنفاق، والكهوف، لكنهما مايزالان غير قادرَيْن على العثور على أيّ فكرة تدلُّ على أوراكل الموتى. لذلك، تحرَّكا ثانية.

على طول الساحل - تقريباً على بُعْد ميلَيْن جنوب بحيرة آفيرنوس - تقع المدينة القديمة لبايا، والتي يقع معظمها - الآن - تحت البحر بسبب السِّمات الجيولوجية غير المستقرّة للمنطقة. لقد كانت - يوماً - بلدة رومانية مُهمَّة جدّاً. الجَغرافي الروماني والمُؤرِّخ سترابو - الذي مات تقريباً عام 24 بعد الميلاد، قبل سنوات قليلة من تعميد السَّيِّد المَسيح - وصفا بايا وينابيعها الحارَّة كـ«مكان مائي عصري... لعلاج الأمراض». كانت منتجعاً ساحلياً أنيقاً؛ حيث كانت تُمضي نخبةُ روما عُطَلَهَا. كانت - أيضاً - المكان الذي احتفظ فيه الإمبراطور والأرستقراطيون الآخرون بفيلات كبيرة، وهي الأطلال التي مايزال من الممكن رؤيتها على سفوح التلال، أو تحت البحر؛ لأن الأرض انخفضت، وأغلب الأطلال يمكن رؤيتها اليوم

(1) المَسْفَن: موضع تُبْنَى فيه السُّفُن، أو تُرَمَّم. المُترجم.

تحت الماء ممتدَّة لمسافة ميل، أو أكثر، حول خليج بوزولي مـن خـلال قـارب زُجـاجيّ القـاع. مايزال على سفح تلّ بايـا بـين أطـلال الحمّامـات المعـدني الحـارّة يوجـد بقايـا ثلاثـة معابـد: وهي دايانا، وميركوري، وفينوس. بايا الحديثة هي – الآن – مجـرّد ميـنـاء صـيد صـغير، مـع مركز للمطاعم الصغيرة، ولكنْ؛ رفيعة المستوى، مكان مُتحفِّظ، يأخذ فيـه – عـادة – رجـال الأعمال الإيطاليون رفيقاتهم الجميلات للغداء.

التنقيب في سفح تلّ بايا من عام 1956 حتى 1958، كشف عن مجمَّع رومـاني للحمَّامـات، ولكنَّ كلَّ شيء كان في فوضى عارمة، بسبب جهود إعادة البناء العديدة، والتي لربما تضرَّرت من الزلازل المُتكرِّرة في المنطقة. في الحقيقة؛ زلزال ضخم عام 63 بعد الميلاد، سبَّب انزلاقـات أرضية، غطَّت العديدَ من الأبنية الأصلية.

باجيت وجونز بدءا بتفتيش الأنفاق كلِّها في هذه المنطقة، كما عملوا في بايـا، وآفيرنـوس. يعتقدان بأنّهما دخلا – على الأقلّ – مئة نَفَق في عملهما، حتى هذه اللحظة. هنـا انتـابهما تحـوُّل إلى جزء مُعيَّن من الموقع: منصَّة كانت تدعم بقايا معبد يونانيّة قديم قُدِّر عمره حتى بأنه يعود – على الأقلّ – للقرن الخامس قبل الميلاد، تحت هذه المنصَّة كانت العديد من الأنفاق والغُرف التحت أرضية.

باجيت استنتج بأنّه وَجَـدَ المسـاكن الأصـلية لكَهَنَـة الأوراكـل، والـذين قيـل مـن قِبَـل إيفوروس[1] إنهم لم يروا النور أبداً، وبأنهم كانوا يتواصلون عبر الأنفاق تحت الأرض. أَخْـبَرَ مديرُ موقع بايا باجيتَ وجونزَ أنَّ تحت المعبد بذاته كان هناك نَفَق آخر، هما لم يرياه. ادَّعى بأنّ النَّفَق الأوطأ كان خطراً بسبب «هوائه السّامّ». المُنقِّبون الـذين استكـشفوه كـانوا قـد دخلـوا – فقط – لمسافة قصيرة، قبل أن يعودوا أدراجهم. في الحقيقة؛ باجيـت ذَكَـرَ: «مُفـتِّش الآثـار أعطى أوامر بأنه لا يُسمَح لأيِّ شخص بأنْ يخـاطر في المزيـد مـن الاستكـشافات. قـرَّروا أن يتركوا هذا النَّفَق للنهاية.

(1) «Ephorus»: أحد المُؤرّخين الإغريق الوحيدين الثلاثة الذي كتبوا عن اليونـانيين في القـرن الرابـع قبـل المـيلاد، في الفترة الهيلينية. المُترجم.

في هذه الأثناء، فتَّشوا الأنفاق الأخرى كلّها. في أحدها، زحفوا ببطء لمسافة مئة وخمسين قَدَم، قبل أن يُدركوا بأنه لم يكن هناك مكان للاستدارة. في النهاية؛ كان لابُدَّ عليهم أن يعودوا أدراجهم. جاء – أخيراً – الوقت للنَّظَر إلى النَّفَق الذي يقال إنه خطر جدَّاً. مُتطوِّع من مجموعة باجيت رُبِطَ بحبل بطول خمسة وعشرين قَدَمَاً. الإجراء كان عسكرياً محضاً:

«الفكرة كانت بأنَّ عليه أن يزحف للأمام للحدود القصوى للحبل. إذا نهض افترضنا أن الهواء جيّد... إذا سقط تمنَّينا بأنْ نتمكَّن من سَحْبه إلى بر الأمان. هو لم يسقط».

باجيت وجونز قرَّرا دخول النَّفَق بنَفْسَيْهما لاستكشافه. زحفا عبر المدخل بشكل حذر:

في الغبار على الأرض كان بإمكاننا أن نرى آثار المُنقِّبين الذين دخلوا النَّفَق عام 1958. تلك الآثار توقَّفت... ورأينا أمامنا، الغبار النظيف للأرض، الذي لم يمسّه أحد، يمتدُّ بعيداً في ظلام النَّفَق.

عندما استمرّا، أصبحا خائفَيْن جدَّاً، وبعد أربعمئة قَدَم، ودرجة الحرارة مازالت ترتفع، قرَّرا بأنّهما عملا ما فيه الكفاية، وبالتالي؛ عادا بسرعة إلى السطح، وإلى الهواء النقي.

قرَّرا أنْ لا يقولا أيَّ شيء حول ما قاما به للسلطات الإيطالية، التي مازالت تعتقد بأن الموقع مايزال مُمتلئاً بالأدخنة السّامّة الخطيرة.

بعد ذلك بفترة قليلة؛ دخل باجيتُ وجونزُ النَّفَقَ ثانية، وفي هذا الوقت، دخلا لمسافة خمسمئة وخمسين قَدَمَاً إلى الأسفل، إلى أنْ توقَّفا عند مخزن ماء تحت أرضي. بدا – بالنسبة لهما – أنّ ذلك كان نهاية النَّفَق. لقد كان الجوُّ رطباً وحارَّاً جدَّاً في النَّفَق، وعانيا من قلَّة الأوكسجين. كان بإمكانهما أن يتوقَّفا عن حافَّة الماء – فقط – لخمس عشرة دقيقة آنذاك، والتقطا العديد من الصور الملوَّنة على فيلم من الشفائف؛ ليتمكنا – فيما بعد – من مشاهدتها على الشاشة لاحقاً للدراسة. وعلى الشاشة، اكتشفا وجود مجموعة من الآجرّ في السقف فوق الممرّ المائي.

عندما عادا، دفعا الآجرَّ، فتحرَّك. كانا قادرَيْن على تحريكها جانباً بما فيه الكفاية لتشكيل فجوة صغيرة، استطاع كيث جونز أن ينزلق منها. عندما وصل إلى الجانب الآخر، جونز وجد نفسه في نَفَق يميل – بشكل حادٍّ – إلى الأعلى. كان يُؤدّي – مباشرة – إلى المدخل المُغلق

لـ«المكان المُقَدَّس»التحت أرضي، والذي حسباه - لاحقاً - بأنه كان على عمق ستّمئة قَدَم عن سطح المنحدر، وعلى عمق مئة وأربعين قَدَمَاً تحت سّطح الأرض. لقد دخلا المجمع التحت أرضي الأكثر غموضاً، والذي سيستمرَّان في استكشافه بتفاصيل عظيمة.

ذكر باجيت بأنّ درجة حرارة النَّفَق كانت 120 درجة فهرنهايت، وللماء كانت 8 درجات. في مايو/ مايس عام 1965، غوَّاص في الجيش الأمريكي، العقيد ديفيد لويس، وابنه استكشفا الممرَّ المائي؛ سوية اكتشفا بأنّه – في النهاية الأخرى للممر المائي، وبطول ثمانين قَدَمَاً تقريباً – كان هناك هبوط يُؤدِّي إلى النَّفَق، الذي يقود – مباشرة – إلى الملجأ (المكان المُقَدَّس) التحت أرضي. على عمق أكثر بثلاثين قَدَم تقريباً، وجد لويسُ اثنتَيْن من الغُرف المنحوتة بشكل اصطناعي، والتي تحتوي ينابيع حارَّة جدَّاً، تصدر ماء، حرارته أكثر من 120 درجة فهرنهايت. وفي الأمام، الماء أصبح حارَّاً جدَّاً؛ بحيث كان لابُدَّ من إيقاف المزيد من الاستكشاف. منذ ذلك الوقت، درجة الحرارة – على الأقلّ في الجزء السهل الوصول من الممر المائي – هبطت إلى حَدٍّ كبير. عندما اِسْتَكْشَفْنَا الموقعَ، وجدنا أن الماء أصبح – الآن – 83 درجة فهرنهايت، والنَّفَق – بذاته – قد انخفض درجة واحدة.

كما يظهر، روبرت باجيت وروبرت تيمبل كان لديهما الكثير من الاهتمام المشترك. عام 1984، روبرت تيمبل أَلَّف كتاباً ساحراً يُدعَى «مناقشات مع الخلود»، والذي يستكشف التَّكهُّن والأوراكل في العالم القديم. في الكتاب، يتحدَّث عن هذا المجمّع التحت أرضي الفضولي في بلدة بايا، ويصفه. اشتريتُ الكتابَ عندما صدر لأول مرة، وكنتُ قد صُعِقْتُ بالطبيعة الاستثنائية للمكان، وهذا السِّحْر مايزال يلازمني. بشكل خاص؛ ذُهلت بدقَّة الهندسة التي تمَّ اكتشافها: المدخل النَّفَقي الطويل مُوجَّه – مباشرة – نحو نقطة شروق الشمس عند الانقلاب الصيفي، والملجأ التحت أرضي مُوجّه نحو الغروب، في اليوم نفسه.

اللُّغز العميق الآخر الذي انطلق من هذه المواصفات: كيف عرف البُناة بأنه كان هناك نهر تحت أرضي، أو مصدر يقع على عمق ستّمئة قَدَم أسفل النَّفَق، ومئة وأربعين قَدَم تحت سطح التلّ؟ كما لاحظنا:

ليس هناك آثار تدلّ على استكشاف الموقع، أو تدلّ على ممرَّات عشوائية، أو بدايات خاطئة[1]. إن الصخرة المسامية الصّلبة التي فيها كلّ تلك المسارات لا تحتوي على كهوف، أو أنفاق، أو قنوات طبيعية، والتي تسمح بالوصول الاستطلاعي الاستكشافي، أو تسمح بحدوث الجداول المائية الطبيعية.

عندما سُئل روبرت باجيت عن غرابة الموضوع سمح لنفسه بقول ملاحظة خالية من التعبير «هناك عدَّة مشاكل في فنِّ الهندسة الصناعية، والتي تدعو إلى القليل من المناقشة». تعبير فضولي جدّاً، قرَّرتُ - في وقت ما - أنْ أُلقي عليه نظرة.

ثمّ قابلتُ روبرت تيمبل وأوليفيا في سيارة أجرة في القاهرة عام 1998؛ حيث كنَّا بين عدد من الكُتَّاب في جولة في مصر، نُظِّمَتْ من قِبَل زميل وصديق هو الكاتب روبرت بوفال، هو وجراهام هانكوك مُؤلّفا كتاب يبحث في الألغاز المصرية اسمه «حامي التكوين». كنَّا في طريقنا للتَّحدُّث مع مجموعته.

سؤالي الأول - تماماً - لتيمبل كان: «كيف بإمكاني أن أذهب وأشاهد الملجأ التحت أرضي الغريب الذي تكتب عنه؟» بدا مسروراً لأنّني أتحدَّث عن كتاب له كَتَبَهُ قبل أربعة عشرة سنة، ولكنّه بدا محرجاً أيضاً. وضَّح بأنّه حتى هو لا يُسمَح له بالدخول؛ لأنه كان قد أُغْلِقَ من قِبَل الحكومة الإيطالية بالأحجار والأنقاض في السبعينات. الآن؛ لا أحد يُسمَح له بالدخول. قال: «ولكنْ؛ أحاول الحصول على الترخيص منهم لإعادة فتحه». على أية حال، في هذه الأثناء كان قد أمضى - تقريباً - عشرين سنة في المحاولة، ولكنْ؛ دون جدوى. حتى المدرسة البريطانية في روما أخبرتْهُ بأن النَّفَق «بالتأكيد؛ لا يمكن الوصول إليه لأسباب أمنية»، والسلطات الإيطالية قالت بأنّ الممرّات كانت «مليئة بالغازات السّامّة».

بعد ثلاث سنوات، عام 2001، اتّصل بي روبرت تيمبل - والذي كنتُ أراه بانتظام منذ لقائنا الأول - وأخبرني بالأخبار المثيرة: السلطات الإيطالية سمحتْ له بدخول مجمع بايا، وسألني إنْ كنتُ أرغب في المجيء، واستعمال تجربتي في التصوير الفوتوغرافي لجَمْع سِجِلٍّ

(1) أيْ الذين حفروا ذلك المكان كانوا دقيقين في حَفْره بلا تردُّد، ومتأكّدين من المسار الذي يتبعونه في الحفر. المُترجم.

شامل عن الموقع. لقد احتاج الأمر مني - فقط - لجزء من بليون من الثانية لأوافق. في ذلك الشهر في مايو/ مايس، أنا وزوجتي جين سافرنا مع روبرت وزوجته أوليفيا إلى نابولي؛ حيث استأجرنا سيارة، وذهبنا إلى بايا. قُمنا بالتنسيق لاستئجار شقَّة فوق مطعم على رصيف البحر طوال مدّة إقامتنا.

في عصر أول يوم من دخولنا الموقع، وبعد غداء رائع، ذهبنا أنا وروبرت للعمل في أعماق ذلك المجمّع، نبحث عن آثار لمواقع أبواب في النَّفَق، وفجأة؛ سمعنا صدى أصوات - أصوات نساء. هل عادت الأوراكل القديمة إلى الحياة؟ كما بدا، لقد كان ذلك الصوت من زوجَتَيْنَا اللَّتَيْن شَقَقْتَا طريقهما - بشجاعة - إلى أسفل النَّفَق إلى الممرّ المائي. بالنسبة لاثنتَيْن من النساء اللواتي يُعانينَ من رُهاب الاحتجاز[1]، كان ذلك شيئاً يدعو للفخر. بشكل واضح؛ لا أحد كان يرغب بالتَّغيُّب عن اكتشافات ذلك اليوم. الآن؛ الوقوف عند حافَّة النهر يؤدّي إلى «العالم السفلي»، تلك ذاكرة كلّنا نشترك فيها.

في ذلك اليوم؛ فهمنا - أيضاً - موقف السلطات الإيطالية حيال الموقع. عالمة الآثار المسؤولة الدّكتورة باولا منيرو كانت مُؤيّدة للرأي القائل بأن الأنفاق - ببساطة - كانت حمَّامات ساخنة رومانية. المنطقة كانت مشهورة بمثل هذه الحَمَّامات، وعدد من الأنفاق الأخرى، في سفح التلّ؛ بُنيت لهذا الغرض. لكنَّ تلك الأنفاق كانت بسيطة، ووعرة؛ أنفاقنا كانت مستقيمة، وملساء. على الرغم من هذا، تلك كانت وجهة النَّظَر الرسمية. ولذلك أدرَكْنَا أن التأخيرات - لربما - كان سببها عدم الاهتمام، وليس البُغْض الشديد.

في محاولة لتغيير فكْر الدّكتورة منيرو حول هذه المسألة، أنزلناها إلى الموقع. أُدْهِشَتْ في التعقيد الموجود، واعترفتْ بأنّ النَّفَق لا يُلائم النمط العادي للأنفاق، التي توصل إلى مصادر الماء الحارَّة. قالت بأنّها ستُفكِّر بشأن ما كان يعنيه ذلك كلّه. علاوة على ذلك، كان بإمكاننا أن نرى - من التغيير في موقفها - أنها فهمت - الآن - لماذا نحنُ كنَّا مهتمّين به.

---

(1) رُهاب الاحتجاز: الخوف المَرَضيّ من الأماكن المُقفلة، أو الضّيّقة. المُترجم.

في تلك الأثناء، قد أصبح من الواضح لي ولروبرت بأنّنا كنا بحاجة إلى تنقيب مُنظَّم ومدروس للموقع. شعرنا – أيضاً – بأنّه، انطلاقاً من قيام شخص ما بالأمر بملء تلك الأنفاق بالأنقاض نظراً لانزعاجه الشديد منها، فمن غير المحتمل أنّ أولئك الذين قاموا بذلك قد أخذوا أيّ شيء إلى خارجها. بدا أكثر احتمالاً أنّهم حطّموا وهدموا كلّ شيء وجدوه في الداخل، وبعد ذلك قاموا – ببساطة – بتغطية الفراغ بالأنقاض. فإن أخذوا أي شيء إلى الخارج فإنَّ ذلك سيتركهم عُرضة لخوف المؤمنين بالخرافات من الأرواح الغاضبة، التي ستطاردهم. هذه الطريقة في التفكير خلقت احتمالاً كبيراً بأنّ المواد كلّها التي كانت تستخدمها – مرَّة – تلك الطائفة هي ماتزال ترقد ضمن الموقع.

طلبنا من السلطات الإيطالية رُخصة للتنقيب، وبينما كنّا ننتظر، حصلنا – أيضاً – على ورقتَيْن صغيرتَيْن للدعوة إلى مؤتمر الخبراء الأكاديميين المُختصّين في الطوائف اليونانية القديمة، وكان المؤتمر في كيوما/ إيطاليا في يونيو/ حزيران 2002. وبينما كنّا هناك، أنزلنا عدّة من الخبراء الزائرين إلى الأنفاق لرؤيتها بأنفسهم؛ أُقْنِعُوا بأهميتها. في المؤتمر، روبرت تكلَّم حول منطقة بايا، وصلاتها بالأوراكل، التي ذُكِرَتْ في الأعمال الكلاسيكية. بعد ذلك؛ قمتُ بتقديم محاضرة قصيرة، ركَّزتُ – فقط – على المنطق الداخلي للسمات المعمارية للموقع: كان هدفي أن أُقدّم الدليل على أن ذلك العمل لم يكن – ببساطة – نَفَقَ ماء، بل بناءً طائفياً يستحقّ التنقيب الأثري.

شدّدتُ على أنّ هذا النَّفَق كان قد بُنِيَ بدقّة، وبمهارة، وبشكل هادف، وإنْ كان مجرّد نَفَق للماء، فقد تمَّتْ هندسته بشكل غريب، وشاذّ. النَّفَق الرئيس كان يسير من الشرق إلى الغرب، وهو الاتّجاه المألوف الذي وُجِدَ في الأماكن المُقَدَّسَة الدِّينية؛ ينتهي في غرفة تحت أرضية، ذات حجم مجهول، مرتبطة بعدد من الأنفاق المُعقَّدة. ناقشتُ قائلاً بأن المنطق يدلُّ على أنها مخصّصة لرحلة تحمّل الميزّات التي كانت كلّها مُتَّسقة مع المواضيع الأسطورية التي وُجِدَتْ في الأدب الكلاسيكي، والتي تصف أماكن التلقين، والمدخل إلى عالم الموتى. يبدو بأن الفكرة من انطلاق الرحلة من خلال هذا النَّفَق هي أن تُغْرَس التجربة الحقيقية ضمن الشخص الذي يقوم بالرحلة. ختمتُ الحديث بالقول بأنّ الموقع كان مُبهماً بما فيه الكفاية لإعلامهم بأنه من المُهمّ – الآن –

البدء بالتنقيب، والحصول على فَهْم أكثر للموقع. الردود التي تلقّيناها أَقْنَعَتْنَا بأنّنا أَوْصَلْنَا فكرتنا، وفي الحقيقة؛ عدد من الخبراء الحضور وعدوا بمساعدتنا بأية طريقة تُمَكِّنهم من تنظيم عملية تنقيب لمعرفة المزيد.

بالرغم من أن رخصة العمل في الموقع لم تُمنَح من السلطات الإيطالية حتى تلك اللحظة، إلا أننا كنا متفائلين: على الأقلّ؛ دخلنا في مناقشة مع هذه السلطات بخصوص التكاليف والمدّة التي يتطلّبها الشروع بالتنقيب الأولي. في الحقيقة، أنا وروبرت كنا نتمنّى لو أننا كنا نمتلك الرخصة والمال منذ وقت أقدم بكثير. في هذه الأثناء، كتب روبرت عن استكشافاتنا في بايا في كتابه الأخير عن موضوع الأوراكل والكَهَانَة بعنوان «العالم السفلي» (Netherworld)، والذي نُشِر عام 2002، وبالطبع؛ رافقه - أيضاً - عدد من الصور التي أُخِذَتْ داخل المجمَّع.

هناك لغز واحد أخير: فيرجل كَتَبَ عن العالم السفلي في ملحمته «الإنياذة»: إينياس ينزل ويعبر نهر الجحيم «أُسطُقْس»، ولكنه - قبل أن يتمكّن من دخول «البساتين المباركة» - كان عليه أن يُنفِّذ القربان، وهو أن يترك غُصناً من الهدال[1] على الباب. يتوقَّف إينياس عند المدخل، «وعلى العتبة أمامه ثبَّت الغصن». إنها - تماماً - حادثة عرضية في القصّة، ولكنْ؛ رغم ذلك، عندما كنّا ننظر إلى المدخل المُطوَّب للمكان المُقَدَّس التحت أرضي في بايا، صُعِقْنَا بمشهد يبدو تافهاً جدّاً. إلى الجهة اليمنى الأوطأ للباب كان هناك فجوة محفورة صغيرة ذات قاعدة مستوية، وهي مخصّصة لحَمْل القربان. إنّ هذه النتائج هامّة: وهي أن وَصْفَ فيرجل للرحلة إلى العالم السفلي لم يكن خيالاً أدبياً، بل كان - في الحقيقة - مستنداً على حَدَث حقيقي، ومكان حقيقي؛ إنه المجمّع التحت أرضي في بايا.

روبرت باجيت، الذي عرف فيرجل، ولاحظ الفجوة، أُقْنِعَ بأنّها كانت حقيقة، وأطلق على الممرّ المائي التحت أرضي اسم «أُسطُقْس» (نهر الجحيم الرئيس الإغريقي). من الواضح أن جزءاً من الرحلة تضمَّن - على الأقلّ - ركوب مركب على طول هذا الممرّ المائي، وبالنسبة للدرجات التي وُجِدَتْ في النهاية الأخرى كانت تسمح بالمرور إلى النَّفَق المُؤدّي إلى الملجأ المُقَدَّس التحت أرضي.

---

(1) الهَدال؛ الدِّبق: نبات طفيليّ. المُترجم.

روبرت تيمبل - الذي عرف فيرجل أيضاً - يتفق في الرأي.

الفكرة ذاتها في العبور إلى عالم الموتى كانت - لمدة طويلة - موجودة في التقليد في العالم اليوناني. التقرير الأسبق لمثل هذه الرحلة يظهر في الكتاب المشهور الحادي عشر عن ملحمة هوميروس العظيمة، والذي عنوانه «الرحلة الطويلة». أوديسيوس، في رحلة العودة المُعقَّدة إلى بيته بعد المعارك في طروادة، تطلب منه الساحرة سيرس «Circe»[1]، النزول إلى عالم الأموات؛ حيث توجد الملكة بيرسيفون، وذلك لكي يحصل على النصيحة من الروح المشهورة، ولكن الميتة لـ«ثيبان». هوميروس يصف أوديسيوس بأنه أبحر إلى مكان «ضبابي» يُدعَى «مدينة السُّحُب الدائمة» وهو المكان الذي لا تخترق فيه الشمس - أبداً - السماء الغائمة بشدّة. هناك المكان الذي أوديسيوس هبط فيه إلى عالم الموتى.

يُبلغ سترابو عن اعتقاد قديم بأنّ المكان المخيف المظلم و«الضبابي» - والذي ذكره هوميروس - كان منطقة بايا القديمة؛ ويخبرنا بأن تلك المنطقة كانت - مرَّة - «مُغطَّاة بالغابات البرّية الهائلة، والمنيعة، والتي كانت تمنح الشعور بالرهبة الخرافية. وكان ذلك المكان مليئاً بالكبريت والنار والينابيع الحارة»، وهي النشاطات البركانية المخيفة والخطرة، التي تعتمد - في الأساس - على القوى التَكْتونيّة[2] نفسها كجبل فيسوفيوس على بُعْد خمسة عشر ميلاً تقريباً.

سترابو يروي التفاصيل التي قدّمها المُؤرّخ السابق إيفوروس، الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد. إيفوروس أُخبر عن موقع الأوراكل التحت أرضي قُرب بايا القديمة. تكلَّم عن الكَهَنَة الاختصاصيين الذين خدموا الأوراكل، والذين عاشوا تحت الأرض، ولم يظهروا أبداً تحت الشمس، وكانوا يتّصلون مع بعضهم البعض عبر الأنفاق التحت أرضية، وكانوا يأخذون الباحثين عن مركز الأوراكل، «وهو مبني أوطأ بكثير من سطح الأرض». سترابو، رغم أنه يُكرِّر هذه القصّة، إلا أنه يعدّها خرافة.

---

(1) ساحرة يونانية: في الأساطير الإغريقية، ابنة آلهة الظلام والشمس، والتي أغرت البحّارة للنزول في جزيرتها؛ حيث مارست معهم الجنس، وبعد ذلك حوَّلَتْهُم إلى خنازير. المُترجم.

(2) تَكْتونيّ: مُتعلِّق بتشوُّه أديم الأرض، والقوى المؤدّية إليه، والأشكال الناشئة عن ذلك. المُترجم.

يعتقد بعض العلماء الحديثين بأنّ هذه الأوراكل مكانها محدّد على حافّة البحيرة القريبة آفيرنوس. آخرون - ممَّنْ يعترفون بأهمية الأوراكل - يُدركون غموض المصادر المُبكِّرة، ويُقرُّون بإمكانية أنَّ الإشارات إلى آفيرنوس هي إشارات إلى بايا القديمة. لكنَّ أولئك الذين دخلوا - حقيقة - إلى الأنفاق، ورأوا الدليل بأنفسهم، عندهم القليل من الشَّكِّ. هذا المركز التحت أرضي العظيم في بايا القديمة، والذي كان يديره الكَهَنَة الذين لم يروا النور أبداً - إنْ كان بالإمكان تصديق إيفوروس - كان الأوراكل المشهورة للموتى. ليس هناك مُرشَّحون آخرون في المنطقة.

الأوراكل - التي كانت واسعة الانتشار في جميع أنحاء العالم القديم - كانت الأماكن التي يذهب إليها الملوك والزعماء للحصول على النصيحة السياسية. وكانت - أيضاً - الأماكن التي يأتي إليها أيّ شخص - أو على الأقلّ؛ أولئك الذين يمكنهم أن يدفعوا الأجور المطلوبة - للحصول على أجوبة لأسئلة تتعلّق بقرارات مُهمّة كانوا على وشك القيام بها. ولكنَّ بعض مراكز هذه الأوراكل كانت خاصّة؛ وتلك المراكز التي كانت مشهورة هي «أوراكل الموتى».

كان هناك أربعة مواقع رئيسة تمَّ فيها تشجيع التواصل مع الموتى هي: المكان الذي هو - الآن - قيد المناقشة، والذي كان في بايا القديمة، ومايزال - أيضاً - يُسمَّى - أحياناً - بآفيرنوس، ويقع في الجزء الشمالي الغربي من خليج نابولي في إيطاليا؛ المكان الآخر في آشيرون، قرب المدينة القديمة ايفيرا، في ثيسبورشا، في شمال غرب اليونان؛ المكان الثالث في الهرقليّة في بونتوس، في شمال تركيا على شاطئ البحر الأسود؛ والمكان الرابع والأخير تينرون، في لاكونيا، في الرأس الأقصى لجنوب الجزيرة اليونانية. ليس هناك آثار موجودة للمُوقعَيْن الأخيرَيْن؛ الأطلال في آشيرون نُقِّبَتْ في أواخر الخمسينات، وَكَشَفَ التنقيب عن وجود كَنيسَة مَسيحية بُنِيَتْ أسفل الموقع. رغم ذلك، هذه الأطلال مُختلَفٌ عليها؛ فالبعض يقول بأنّ البقايا هي لبيت ريفي مُحصَّن، وبأنّ أوراكل الموتى لم تُكتَشَفْ لحَدِّ الآن، هذا؛ إنْ بقي أيٌّ منها حتى اليوم. بكلمة أُخرى، في الوقت الحاضر، في بايا - إنْ كان التحديد صحيحاً - توجد أوراكل الموتى الوحيدة الباقية من العصر القديم، وهذا وحده يجعل الموقع أحد الأماكن ذات الأهمية الكبيرة.

رغم أن كلّ مراكز الأوراكل في العالم القديم كانت غامضة، إلا أن أوراكل الموتى كانت ذات نوعية خاصّة: لقد كانت نقاط الدخول إلى العالم السفلي، والاجتماع بالآلهة. لهذا السبب، البعض منها – على الأقلّ – كان لابُدَّ وأنْ يتضمَّن التلقين أيضاً؛ تلقيناً إلى أسرار العالم الذي كنّا قد أشرنا إليه بـ«العالم الآخر».

يشير الدّكتور بيتر كينجسلي في كتابه «الفلسفة القديمة، الغموض والسِّحْر» إلى أن مفاهيم قديمة جدّاً عن السَّفَر إلى العالم الآخر بقيت موجودة في المجتمعات غير المثقّفة بواسطة الكَهَنَة السَّحَرَة، الذين عَلَّموا – بثبات – بأنّه من المستحيل الوصول إلى «السماء» بدون الذهاب – أولاً – إلى الجحيم، وبأنّ هذه الرحلات القديمة إلى عالم الآلهة تبدأ بالهبوط إلى المناطق الجهنمية بواسطة «الموت»، الذي يأتي بعد وصول الباحثين إلى المكان الذي يعطي مدخلاً فورياً إلى العالمَيْن الأعلى والأسفل كلَيْهما. نشاهد ذلك في تقرير كاتب يوناني من القرن الثاني يقطن في روما اسمه لوتشيوس أبيوليوس. وصف – بشكل مشهور ومُبهم – تعاليمه لطائفة إيسيس:

«اقتربتُ من حدود الموت، وضعتُ قدمي على عتبة بيرسيفون، سافرتُ خلال كلّ العناصر[1]، ورجعتُ، رأيتُ الشمسَ عند منتصف الليل، تتألّق بنور أبيض، اقتربتُ من آلهة العالم الأعلى والأسفل، وَعَبَدْتُهُم عن قرب».

بينما من الصعب إنكار أن أوراكل الميت والتلقين تحمل شيئاً ما مشتركاً، نفتقر إلى الدليل المُعيَّن لتلك العلاقة. في هذا النطاق، من المثير جدّاً للذاكرة أن أوراكل الموتى الموجودة في بايا وأن مركز الأوراكل في أبولو في كلاروس قُرب كولوفون في تركيا فيما بينهما الكثير من الشبه؛ بالإضافة، الدليل الدامغ هو أن الأوراكل في كلاروس عُدَّتْ موقع تلقين أيضاً. ليس هناك حاجة لاقتراح أيّة ضوضاء، أو وسائل مسرحية للتأثير؛ هو كافٍ أن الباحث يهبط إلى «حادس» – وهو التعبير اليوناني لمثوى الأموات، العالم الآخر – ويجتمع بالآلهة، ومن ثمّ؛ يطّلع على أسرارهم، أسرار اللاهوت – تماماً – مثل أبيوليوس.

(1) العناصر الأربعة للطبيعة: الماء، والهواء، والتراب، والنار. المُترجم.

بالنسبة لليونانيّين القدماء، التلقين والموت كانا مُتشابكَيْن بحميمية. ذلك ضمني في لُغتهم: «telos» تعني النهاية، والكمال، والتمام. في حالة الجَمْع تُصبح الكلمة «telea»، وهي «كانت الكلمة الأساسية للمناسك الأولية - والتي تعني الكمال، أو التمام، ولكنْ؛ في الوقت نفسه، تتضمَّن معنى النهاية، أو «الموت». إنّ الكلمة - في معانيها الكثيرة - توجد ضمن كلّ مناسك التلقين: «telein» تعني التعلُّم؛ «telesteron» هي القاعة التي يحدث فيها التلقين؛ «telestes» كاهن التلقين؛ «telete» هي مراسم التلقين بنفسها؛ وأخيراً؛ «teloumenoi» هي أولئك الذين حصلوا على التلقين».

عندما حُكِمَ على الفيلسوف اليوناني سقراط بالموت - لأنه افتقر إلى احترام الآلهة الأثينية - طُلِبَ منه الانتحار بشُرب السُّمِّ. أفلاطون - في كتابه «Phaedo» - يُنشئ سجلّاً لمناقشات سقراط في اليوم الذي مات فيه، وهو سجلٌّ لا يُفترَض بأنه كان تحقيقاً صحفياً، ولكنه - بالأحرى - حوار مُتخيَّل يستند على معرفة أفلاطون بسقراط، واعتقاداته.

الحديث - بشكل طبيعي - يميل نحو الموت، وموقف الفيلسوف منه. أفلاطون - يتحدَّث باسم سقراط - يُوضِّح بأنّه بينما الناس قد لا يكونون مُدركين للموت، أولئك الذين هم محاطون بالفلسفة اللاحقة بشكل صحيح «هم لا يزاولون أيَّ شيء عدا الموت، ويكونون أمواتاً». بعد ذلك بقليل؛ يُشدِّد بأنّ العمل الحقيقي للفلاسفة هو أن يسمحوا للروح بأنْ تتحرَّر من الجسم، وبأن تنطلق بحُرِّيَّة. يقول سقراط: «والحقيقة هي أنه - بعد ذلك - أولئك الذين يزاولون الفلسفة - بشكل صحيح - يمارسون الموت».

وَصْفٌ نُسِبَ إلى ثيميستوس (لكنْ؛ من المحتمل أنه - في الحقيقة - من قِبَل بلوتارك) في أطروحته «على الروح» يُقدِّم التعليم السِّرِّيَّ الذي يجب تعلُّمه هو أن يواجه المرء نفس المعرفة التي يحصل عليها عند الموت، مع ذلك - بالطبع، ومن خلال التلقين - يعود الباحث إلى هذا العالم.

عند نقطة الموت، ثيميستوس يُعلّمنا: «أن [الروح] لها التجربة نفسها التي لأولئك الذين يتعلَّمون الألغاز العظيمة».

هذا الزعم الجازم يمكن أن يُؤخَذ كتعبير حقيقي عن الشخص الذي يمتلك معرفة الألغاز العظيمة. هذا ليس مجرّد اعتقاد ثقافي، بل شيئاً يتمُّ تعلُّمه من المشاركة في رحلة كالرحلة إلى العالم الآخر.

ثيميستوس يتابع:

في بادئ الأمر، الشخص يتيه، ويركض بعجلة وضجر ذهاباً وإياباً، ويسافر - بريبة - عبر الظلام كالشخص غير المُلقَّن: ثمّ يأتي الرعب كلّه قبل التلقين النهائي، الرعدة، الارتجاف، التَّعرُّق، الدهشة: ثمّ يُذهَل الشخص بنور رائع، ويُوضَع الشخص في مناطق ومروج صافية، فيها أصوات ورَقْص وَعَظَمَة مُقَدَّسَة من الأصوات والأشكال: بين هذا، يتجوَّل حُرَّاً ذلك الشخص الذي أنجز التلقين، ويحمل تاجه منطلقاً للانضمام إلى الصِّلة القُدْسية، ويرافق الرجال الطاهرين والمُقَدَّسين.

بعد ذلك؛ يصف الحالة المتواضعة والمنخفضة المستوى لأولئك الذين لم يبحثوا - أبداً - عن التلقين: الباحث يمكنه أن يرى «أولئك الذين يعيشون هنا غير متعلّمين... باقين في تعاستهم من خلال الخوف من الموت وسوء الظنِّ بالبركات الموجودة هناك».

سنيكا «Seneca»[1]، من القرن الأول بعد الميلاد، رجل دولة، ومثقّف روماني، فَهِمَ أهمية التلقين، وهدفه. يقول: «هناك [حِكَم]، ومناسك تكريسية لا يتمّ عن طريقها كَشْف ألغاز المعبد المحلّي فحسب، بل ألغاز العالم كلّه، ألغاز المعبد الواسع لكلّ الآلهة». أفلاطون يذكر: «أنْ تموت هو أنْ تكون مُلقَّناً». أستاذ التاريخ الدِّيني في جامعة شيكاغو لعدّة سنوات الأستاذ مرسيا ايليد يُوضِّح بأنّ التلقين هو - بشكل جوهري - لقاء المُقَدَّسين.

بطريقة مماثلة إلى التي رأيناها في مصر القديمة، في العالم اليوناني القديم، الشعائر تكمن - تماماً - في صميم حياتهم الروحية القديمة المُسجَّلة في ثقافتهم، رغم ذلك؛ كلّها نُسِيَتْ، واستُؤصِلَتْ بتعمُّد.

(1) سنيكا، لوسيوس آنايوس: خطيب وزعيم سياسي روماني. وضع عدداً من المُؤلّفات الفلسفية والمسرحيات التراجيدية. المُترجم.

بعد هوميروس - ولكنْ؛ قبل أفلاطون - توجد فترة غامضة جدّاً من التاريخ اليوناني القديم. إنها الفترة التي لم يكن فيها الفلاسفة جالسين يحتسون الخمر فحسب، بل هي الفترة التي كانوا فيها في أوج نشاطهم: لقد شفوا المرضى، وعلَّموا، وغنّوا، وهتفوا، وكتبوا، وقرؤوا الشعر، واستعملوا الطقوس المُقَدَّسَة، وتأمّلوا، واستعملوا كلّ التقنيات التي عرفوا بأنها قادرة على إيصال الراغب إلى المصادر القدسية الأعمق تماماً للحقيقة. قبل كلّ شيء، أرادوا دخول الصمت، والسكون. بدلاً من التَّحدُّث عن فلسفتهم، عاشوها؛ عاشوا في العالم الحقيقي بدلاً من العالم المثالي للنخبة الثقافية المعزولة. نحن - الآن - ندعو هؤلاء المُعلّمين الدِّينيين الأوائل بالفلاسفة القَبْسُقْراطيّين[1]، لكنَّ هذا مجرد اسم، سخافة حديثة وُلِدَتْ من هَوَسِنَا بالتصنيف.

البعض من الأسماء التي بقيت على قيد الحياة لهؤلاء المعلّمين: بارمينيديس، وايمبيدوقليس، وهِرَقل، وفيثاغورس، كانوا كلّهم من هذه المجموعة. أفلاطون درسهم، وعاش لمدة في مجتمعات أتباعهم في صقلية وإيطاليا. سيطر على أعمالهم، وحوَّلها إلى أدلَّة، وذلك بترشيح كلّ النوعيات التجريبية من تلك الأعمال. أكمل أرسطو تلميذ أفلاطون عمليةَ تقديس الفكر الإنساني، مُصرِّحاً بأنّ كلّ ما يمكننا أن نعرفه يمكننا أن نكتشفه - فقط - بواسطة عقولنا، وأن الحقيقة سيتمُّ العثور عليها بالمناقشة، والحجّة المنطقيّة. بالرغم من أنّه دعا للتَّعلُّم بالتجربة، إلا أنه حدَّد التجارب التي عُدَّتْ مصادر مقبولة للتَّعلُّم. القَبْسُقْراطيّين كان سيضحكون في وجهه.

كما يجب علينا - وفي الحقيقة، وكما رأينا - هناك شيء يجب تجربته بشكل مباشر بدلاً من معرفته بشكل ثقافي. كما أشرنا، لهيب النار يمكن أن يُعتقَد بأنه يُسبِّب الألم، ولكنْ؛ ما لم يتمَّ وَضْع اليد عليه، فإن ذلك الألم لا يمكن معرفته. من البديهي أن يختبر الإنسان - دائماً - أعظم من أنْ يعتقد.

(1) قَبْسُقْراطيّ: خاصّ بالفلاسفة اليونان قبل سقراط. المُترجم.

هذه الأمور ليست مشهورة بسبب السياسة، القديمة والحديثة كلَيْهما. أفلاطون وأرسطو كانا أثينيَّيْن؛ بارمينيديس، وفيثاغورس، والآخرون كانوا من سُكَّان المُدُن اليونانية التي كانت قد أُسِّسَتْ في جنوب إيطاليا وصقلية، وهذه المُدُن كانت - في أغلب الأحيان - في حالة حرب مع أثينا. كان عندهم - أيضاً - تماسٌّ مباشر بالباطنية والتيارات الكَهَنوتية السِّحْرية التي جاءت عبر آسيا الصغرى إلى المُدُن الإيجية[1]. وقبل كلّ شيء، هذه المُدُن كان عندها تماسٌّ مباشر مع المصريين القدماء، وفلاسفتهم البارزون درسوا - في أغلب الأحيان - في المعابد المصرية. فيثاغورس بنفسه - عندما كان عمره اثنين وعشرين عاماً ذهب للدراسة في مصر؛ حيث بقي - تقريباً - لثلاث عشرة سنة في المعابد، قبل أن يُؤخَذ إلى بابل من قِبَل غزو الفُرْس.

الجامعات الحديثة أثينية في نظرتها إلى التاريخ والفلسفة القديمة؛ أيْ أنَّ توجيههم مَبْني نحو السياسة والفكر الذي نشأ عن أثينا القديمة. هذه الأفكار مُنِحَتْ منزلة أكبر بكثير ممَّا تستحقُّه، ومازالت، وذلك بسبب ثقتنا الحديثة بالعقل، وبالقدرة الثقافية؛ هذه المنزلة السامية الاصطناعية لأثينا، وللفلسفة الأثينية، يبدو أنها راسخة، ولا يمكن منافستها. انتقادها سيُعَدُّ راديكالياً، بل هدَّاماً. على الرغم من حقيقة أنه في الأوقات القديمة - كما أوضح بيتر كينجسلي الخبير في الفلاسفة القَبْسُقْراطيّين -: «العديد من المراكز الثقافية اليونانية فضَّلَتْ تأييد الفُرْس بدلاً من أثينا. عَدُّوهم أكثر تحضُّراً».

وأضاف: «بالتأكيد؛ أفلاطون وأرسطو لم يكونا الكلَّ، أو النهاية للفلسفة القديمة؛ و الطُّرُق كلّها ليس - بالضرورة - أن تعبر أثينا».

أتذكَّر - بمرح كبير - حديثاً نُقِلَ من قِبَل كينجسلي إلى مجموعة تتألَّف - تقريباً - من عشرين من مُدرِّسي الجامعات - كلّهم خبراء في الفلسفة الكلاسيكية - في كُلِّيَّة «All Souls» في أكسفورد. كينجسلي كان يتكلَّم عن موضوع الفيلسوف بارمينيديس. قال لجمهوره اللطيف والمُؤدَّب: «لا يمكنكم أن تتجاهلوا التجريبية في عمل بارمينيديس». ثمّ ضرب

(1) نسبة إلى بحر إيجه. المُترجم.

بقبضته على المنضدة، جاعلاً إيَّاها وجمهوره يقفزان معاً: «كيف تجرؤون على إهمال التجريبية في عمل بارمينيديس»، صرخ وهو يتحدَّى - بشكل مباشر - جمهوره كلّه، الذي تعلَّم، وعَلَّم. أفواههم أُغْلِقَتْ، وهم ينظرون إليه؛ شيء كهذا لا يجب - أبداً - أن يحدث في كُلِّيَّة من كُلِّيَّات أكسفورد.

لكن فكرة كينجسلي كانت مُهمَّة: بارمينيديس لم يكن - ببساطة - «فيلسوفاً» قديماً، كما يعترف به الأثينيون، وكما هي الطريقة التي يُنظَر إليه بها في الأزمنة الحديثة؛ لم يكن مجرَّد مُتقدِّم في الألعاب الثقافية التي سمّوها فلسفة.

بارمينيديس كان مُهمّاً؛ لأنه سافر - شخصياً - إلى العالم الآخر، وعاد منه. وقد كتب عنه في قصيدة تعويذية.

كينجسلي يُوضِّح: «في كتابات بارمينيديس من الواضح أنّه مُنِحَ الحِكْمَةَ التي لديه نتيجة دخوله عالم الموتى. يمكنه أن يعمل ذلك - فقط - بالموت، قبل أن يموت؛ يقوده توقه الخاص».

بارمينيديس يستهلّ قصيدته: «الفَرَسُ تحملني بعيداً بقدر تَوقي... »، يجب أن نلاحظ الأهمية الروحية التي منحها بارمينيديس لـ«التَّوق»؛ ذلك يعني الحاجة الفطرية للعودة إلى بيتنا الحقيقي.

بارمينيديس يستمرّ: «سارت الفَرَسُ، ومرّة جَلَبَتْنِي إلى الطريق الأسطوري، إلى الآلهة التي تحمل الرجل، الذي يعرف عبر العالم المجهول الواسع والمُظلم».

بارمينيديس كان في طريقه إلى العالم الآخر.

عام 1879، عالم آثار إيطالي أجرى دراسة، لاحظ فيها عدداً كبيراً من القبور قرب موقع المدينة القديمة «ثوري» (Thurii)، التي أُسِّسَتْ من قِبَل المستعمرين اليونانيين في إيطاليا حوالي عام 444 قبل الميلاد. أربعة من القبور كانت كبيرة جدّاً، ولذلك؛ قام باستكشافها. اثنان منها كانا يحتويان على طبقَيْن ذهبيَّيْن رقيقَيْن قرب جسد الشخص الميت. هذان الطبقان كان كلّ منهما ملفوفاً في رزمة صغيرة مشابهة لتلك التعاويذ التي وُجِدَتْ في مكان آخر، في العالم الكلاسيكي. عندما فُتِحَتْ، أثبتتْ بأنها تحتوي على نصٍّ مكتوب باللغة اليونانيّة القديمة.

ما يثير الفضول هو ليس - فقط - أن هذه النصوص صُمِّمَتْ لمساعدة الشخص الميت في الرحلة خلال العالم السُّفلي، ولكنَّ البعض منها كان مُشابهاً جدَّاً للنصوص المصرية الأخرى التي في «كتاب الأموات»، والتي تقدّم بعض الإرشادات المتعلّقة بالرحلة إلى العالم الآخر، لدرجة أنه بدا من المستحيل تجنُّب رؤية وجود اتِّصال مباشر بين الاثنَيْن. بدا بأنّ الطوائف اليونانية القديمة التي كتبت هذه النصوص - وخُصُوصاً تلك التي كانت نشيطة في إيطاليا - قد اشتقَّت من / أو/ استعملت - بطريقة ما - المادّة التي استخدمتْهَا طوائف المعابد المصرية القديمة.

«أيُّها الشخص المحظوظ والمُبارك، أنتَ إلهٌ، لم تعدْ إنساناً هالكاً بعد الآن»؛ هذا ما كُتِبَ على أحد الطبقَيْن في مدينة «ثوري» الإيطالية، والذي يعود تاريخه إلى القرن الربع، أو الثالث قبل الميلاد، مخاطباً الشخص الميت. هذا مماثل - تقريباً - لبعض المقولات في نصوص الهَرَم، والتي سبقت ذلك التاريخ بألفَيْ سنة.

من منطقة «بيتيليا» (Petelia) في جنوب إيطاليا يأتي الطبق الذهبي الآخر، وبالتاريخ نفسه، ويحمل النصّ المؤثّر جدَّاً. كلام عن بعض الحُرَّاس الذين يقفون أمام ينبوع مُقَدَّس، والذين - على ما يبدو - سيطلبون أن يعرفوا مَنْ هو ذلك المسافر إلى العالم الآخر، وبالتالي؛ النصّ ينصح الميت قائلاً:

قُلْ: «أنا طفل من الأرض، ومن السماء المليئة بالنجوم؛

ولكنَّ سُلالتي من السماء (وحدها)».

طبق ذهبي وُجِدَ مُؤَخَّراً في قبر في بيلينا، في ثيسالي، في اليونان، يشير إلى احتفال، أو أداء طقوسي يقوم به «الأشخاص المباركون» تحت الأرض: «وأنتَ ستذهب إلى تحت الأرض، تؤدِّي المنسك الذي يقوم به - أيضاً - الأشخاص المباركون». ذِكْر «المباركين» يُذكّرنا بشيء آخر: الكاتب المسرحي اليوناني أريستوفان «Aristophanes»[1]، الذي امتدَّت مهنته من

(1) أريستوفان (450؟ ـ 388؟ ق. م.): مُؤلّف مسرحي يوناني. يُعدُّ أعظم شعراء الكوميديا في الأدب الإغريقي القديم. المُترجم.

القرن الخامس حتى القرن الرابع قبل الميلاد. في مسرحيّته «الضفادع» يُصوِّر هرقل يتكلَّم عن زيارة العالم السفلي، ويصف الاحتفالات العظيمة «للمباركين». ديونيسوس[1] يسأله: «مَنْ هم؟». يجيب هرقل: «المُقَدَّسون، الذين يفهمون الألغاز». كما هو واضح، ذلك يعني أنهم أولئك الذين كانوا قد حصلوا على التلقين، وتعلَّموا.

نحن لا نستطيع تفادي الأمر: نحن نُجبَر على أن نأخذ - بجدِّيَّة - فكرة التلقين في الغرف التحت أرضية، وفكرة اشتراك المُطَّلعين في المناسك والمعرفة السِّرِّيَّة للموت. هذا ادِّعاء غريب لأن يأخذه الشخص العصري بجدِّيَّة، لكنّنا يجب أن ننظر إلى العبارات الخاصة التي استخدمها القدماء: هكذا وضَّحوا ما يحدث، ويبدو بأن هناك - فقط - القليل من الغموض، أو الشّكّ، ضمن ما قالوه. ببساطة؛ لأننا نجد صعوبة في التصديق، لا يعني أن ذلك سبب في الاعتقاد بأنّهم أساؤوا فَهْم ما كان يحدث، أو الأسوأ من ذلك، بأنّهم اختلقوا ذلك كلَّه كجزء من «الاحتيال الدِّيني». الأدلَّة كلّها التي تحت أيدينا تُوصلنا إلى نتيجة مفادها أنّ أولئك الذين اجتازوا مراسيم التلقين شعروا بأنّهم قد خُدِمُوا بشكل حسن. ليس هناك تقارير عن مُلقَّنين ساخطين ممَّنْ طالبوا باستعادة أموالهم.

ربما - الآن - حان الوقت للنَّظَر إلى كيفية قيام الكَهَنَة بذلك؛ أيْ كيف ساعدوا المُلقَّنين - بشكل فعلي - على مغادرة أجسامهم، والسفر إلى العالم الآخر.

هذه الأمور قد تبدو - إلى حدٍّ بعيد - غامضة، في كونها تمتُّ بأيّة صلة - على الإطلاق - لقصّتنا التي - بعد كلّ شيء - تتعلَّق بالسَّيِّد المَسيح، ومصدر تعليماته. رغم ذلك، السَّيِّد المَسيح - كما سنرى قريباً - حصل على نظرة تجريبية - أيضاً - لتصوُّفه. هل الرجال - مثل بارمينيديس - تمكَّنوا من إرسال أفكار إلى العالم الكلاسيكي في عهد السَّيِّد المَسيح؟ هل يمكن إضافتها إلى المزيج الخصب للتقنيات التي وجدت مركزاً لها في المدينة العظيمة للإسكندرية، وإلى التعبير اليهودي في المجموعة «الشفائية» المُتأثّرة بالفيثاغورسية، والتي وصفها المُؤرِّخ فيلو بأنها كانت تعيش في مجتمع خارج المدينة؟!

---

(1) إله الخمر عند الإغريق. المُترجم.

علماء الآثار قاموا باكتشاف مُدهش في إيطاليا عام 1958:

بينما كانوا يُنقِّبون أطلالَ مدينة «فيليا» (Velia) القديمة - التي هي موطن الفيلسوف القَبْسُقْراطيّ بارمينيديس - اكتشفوا ما كان - مرَّة - صالة مُخبَّأة في بناء قديم. هناك استعادوا قواعد حجرية لثلاثة تماثيل. بالطبع؛ التماثيل اختفت منذ مدّة طويلة، ولكنَّ كلّ قاعدة كانت تحمل نقشاً. لقد كانت أدلَّة على أن سلسلة طويلة من الكَهَنَة المُعالجين في أبولو قد نجوا في مدينة «فيليا». الأول لم يكن سوى بارمينيديس بنفسه. التاريخ الأخير المنقوش كان بعد 446 سنة من وفاة بارمينيديس؛ وذلك يشير إلى وقت قريب من بداية الفترة المَسيحية. وبسهولة؛ من الممكن أن يوجد هناك كَهَنَة آخرون؛ لأنه ليس هناك طريقة يمكنها إخبارنا أن تلك القاعدة الحجرية كانت تُجسِّد الكاهن الأخير.

هؤلاء الكَهَنَة المعالجون كانوا مُهمِّين: إحدى ألقابهم كانت «Pholarchos»؛أيْ «سيد الملجأ». هذا يكشف بأن هؤلاء الكَهَنَة كانوا مختصّين في تقنية قديمة، كانت - مرة - مشهورة في العالم القديم باسم «تقنية الخلوة».

في العصر القديم، أفضل طريقة - في الحقيقة - للاتّصال بآلهة العالم السُّفلي كانت من خلال ممارسة «الخلوة»؛ وهي انتظار حُلم، أو رؤيا أثناء النوم، إمَّا فوق الأرض، أو داخلها أيضاً.

الممارسة الطقوسية للخلوة تتضمَّن الدخول في حالة من السُّكُون والصمت الكامل في غرفة تحت الأرض، أو ربما كهف، لكي يتمَّ الحصول على حُلم نبوي، أو للسقوط في حالة من الوعي، التي هي ليست استيقاظاً، ولا نوماً. في تلك الأماكن المظلمة المُغلقة - لربما - كان الراغبون يُجرِّبون العبور إلى العالم الآخر؛ حيث يمكنهم أن يحصلوا على الرؤيا من الله، مصدر كلّ شيء. إله الخلوة كان أبولو.

إله البساتين المُقَدَّسَة - التي كانت حول منطقة بحيرة آفيرنوس، والتي قُطِعَتْ من قِبَل الجنرال آغريبّا ليستخدمها في صناعة سُفُنه - كان - أيضاً - أبولو؛ لذلك - نحن - نتوقَّع بأن الخلوة كانت تحصل في مكان ما في تلك المنطقة؛ أيْ إن ذلك يعيدنا إلى الأنفاق التحت أرضية في منطقة بايا.

الرحلة المُقَدَّسَة كانت تُتَّخذ للشفاء، أو للحصول على تجربة إلهامية. هؤلاء الكَهَنَة الشفائيون في أبولو كانوا خبراء في الخلوة، وكما كينجسلي يُوضِّح: «استعملوا الرقيات لدخول حالات أُخرى من الوعي».

يمكن أن نرى - هنا - بأن تلك ممارسات اليونان القديمة، والتي استخدمت مثل هذه المواقع؛ كالتي وُجِدَتْ في بايا، أو الكهوف، أو المواقع التحت أرضية العميقة، التي لابُدَّ وأن وُجِدَتْ في «فيليا»، لا تختلف كثيراً عن استعمالات الأقبية التي توجد تحت المعابد في مصر القديمة. أماكن معزولة ومظلمة كهذه، تمَّ اختيارها من قِبَل الباحثين الذين - بعد التحضير المُطيع، والطقوس، والرقيات الملائمة - يدخلون في حالة من السُّكُون، ويدخلون في حالة أُخرى من الوعي. ليس لدينا إلا بديل صغير واحد، وهو أن نَعُدَّ - بجدِّيَّة - أنهم كانوا - في الحقيقة - يغادرون أجسادهم وهم على هيئة الـ«بَعْ» (روح الميت) (طبقاً للمصريين)، أو على هيئة نَفْس، أو روح (طبقاً لليونانيين). ويسافرون إلى العالم الآخر.

يمكننا أن نرى - أيضاً - بأنّ هذَيْن التقليدَيْن أصبحا أقرب لدرجة أكبر من بعضهما البعض بحلول عهد السَّيِّد المَسيح. في الحقيقة، أثناء الهيمنة اليونانية والرومانية على بلادهم، المصريون يئسوا من أسرارهم الباقية؛ في القرن الأول أو الثاني بعد الميلاد، النصُّ السِّحْري الذي اسمه «آسكليبيوس» يندب:

سيحين الوقت الذي سيظهر فيه أنّ المصريين احترموا إلى اللاهوت بعقل مخلص، ووقار جاهد، بلا فائدة. كلّ عبادتهم المُقَدَّسَة ستكون خائبة الأمل، وتموت بلا تأثير، واللاهوت سيعود من الأرض إلى السماء، ومصر ستكون متروكة... عندما يحتلُّ الغرباءُ الأرضَ... الحظر تحت العقوبة الموصوفة بالقانون سيُشرَّع ضدَّ العبادة المُقَدَّسَة والمُوقّرة والمُخلصة. بعد ذلك، هذه الأرض الأكثر قُدْسية، مرقد الأضرحة والمعابد، ستُملأ - بالكامل - بالقبور، والجثث. الكلمات الوحيدة التي نُقِشَتْ في الحجارة هي التي ستبقى لإخبار أعمالك المُخلصة.

من الواضح أن المصريين اتخذوا خطوات للحفاظ على أسرارهم: الفيلسوف آيامبليشس يخبرنا بأنّ الكَهَنَة المصريين تعلَّموا أن يُعبِّروا عن أنفسهم بالكلمات الفلسفية اليونانية، ممَّا أدى إلى ظهور مجموعة من نصوص الحكمة، التي - كما لاحظنا - «نُشِرَتْ تحت اسم هرميز»،

واكتسبت جوهرها من التقاليد المصرية. وبشكل مدهش، هذه المجموعة تُرشِّح أسراراً حتى النصوص الأكثر قِدَمَاً، كنُصُوص الأهرامات، ونصوص التابوت، وكتاب الموتى، وكوزمولوجيا[1] القدماء المتناقضة في أغلب الأحيان.

هذه المجموعة من الأدب نُسِبَتْ إلى الإله المصري القديم ثوث، الذي في العالم الكلاسيكي المُتأخِّر كان المعروف بهرميز الثلاثي العَظَمَة. هناك عدد كبير من هذه النصوص، ولكنّ النصَّ الأول هو الذي يُسمَّى «البيماندر المُقَدَّس» (The Divine Pymander)، أو كما هو - بالأساس - (The Divine Poimandres).

حتى العنوان يفشي مصدره المصري: «Poimandres» هو تلاعب يوناني بالكلمات، التي من أصل مصري قديم، والتي هي «P- eime nte-re»، والتي تعني «معرفة رَعْ»، الذي هو إله الشمس في مصر القديمة. رواية الخَلْق التي وُجِدَتْ في هذا النّص يبدو أنها - أيضاً - مُشتقَّة من الأصل المصري. العادة المصرية في التحريك السِّحْري للتماثيل والمُجسَّمات الأخرى للآلهة - أيضاً - شقَّتْ طريقها ضمن النصوص الهرميزية. قبل كلّ شيء، والأكثر صلة بتحقيقنا، المفهوم الهرميزي للرجل هو أنه «مخلوق كوني بدلاً من أرضي». الطبق الذهبي اليوناني يُوضّح ذلك بشكل أفضل: «سلالتي من السماء [وحدها]».

القيمة الخاصة لهذا الأدب الهرميزي هي أنه يأتي من المصدر ذاته لألغاز القدماء، على الرغم من إنتاجه المُتأخِّر، ولذلك يمكن أن يُستعمَل كَعَدَسَة، يمكن - من خلالها - النظر إلى النصوص السابقة، ويسمح لنا بكَسْب فَهْم أعمق لأعمالهم الحقيقية. بشكل ملحوظ؛ تماماً في صميم النصوص الهرميزية يوجد مفهوم التلقين الباطني: «بعد ذلك، هي [معرفة رعْ] أرسلَتْنِي إلى الأمام، شجَّعَتْنِي، وأَرْشَدَتْنِي إلى طبيعة الكون، وإلى الرؤية الأسمى».

مايزال الأكثر فضولاً هو أن إنتاج هذه الكُتُب الهرميزية بدأ حوالي عهد السَّيِّد المَسيح، ويحاذي نشوء المَسيحية. في نهاية القرن الثاني بعد الميلاد، كليمنت، الأسقف المَسيحي للإسكندرية، أشار إليها بأنها «تحتوي الفلسفة الكاملة للمصريين». الفيلسوف الوَثَني

(1) الكوزمولوجيا؛ علْم الكونيات: علْم يبحث في أصل الكون، وبنيته العامة، وعناصره، ونواميسه. المُترجم.

آيامبليشس - الذي كَتَبَ في فترة بعد ذلك بقليل - كان مُدركاً - أيضاً - لأهميتها: «كرَّسَ أسلافُنا إبداعاتِ حِكْمتهم إلى هذا الإله، يُدوّنون كلّ كتاباتهم الخاصة باسم هرميز».

هذه المجموعة من النصوص التي نُسِبَتْ إلى هرميز الثلاثي العَظَمَة كان عندها تأثير هائل، ولا يمكن إحصاؤه على العقل الغربي. يمكن القول إن العالم الغربي ما كان ليتطوَّر بالطريقة التي هو فيها من دون تلك النصوص. العلْم بنفسه - لربّما - لم ينشأ بدون الحافز الذي قُدِّم من قِبَل الرجال والنساء المفتونين بهذه الأعمال. لأنها اكتُشِفَتْ ثانية في عصر النهضة، وتُرْجِمَتْ من قِبَل مارسيليو فيسينو حوالي عام 1463، بناء على رغبة المصرفي كوزينو دو ميديسي، الرجل الثري من مدينة فلورينس الإيطالية. عندما كوزيمو حصل على مخطوطة هذه النصوص، صمَّم على قراءتها قبل أن يموت. دعا فيسينو، وأخبره بأن يُهمِلَ أعمال الترجمة كلّها، وأن يُركِّز على أعمال هرميز. هكذا كانت أهميتها.

رغم أن النصوص التي وُجِدَتْ في عصر النهضة كانت جزئية فقط، منذ ذلك الحين؛ تمكنَّا من اكتشاف عدد من الإضافات إليها، بالإضافة إلى نصوص جديدة. اكتشفنا بأنّه حتى نصوص عصر النهضة قد رُوْقِبَتْ أيضاً، معظم السِّحْر والطُّقُوس حُذِفَتْ لجَعْلِهَا أكثر فلسفة. لكنّ ذلك - حقّاً، لا يهمُّ كثيراً - الجوهر منها بقي. وهناك الكثير الذي يمكننا أن نتعلَّمه منها.

في الحقيقة، إحدى المفاجآت الأهمّ في بداية النصّ الأول المُسمَّى «البيماندر المُقَدَّس» هو أنّ الطالب يُؤخَذ - أولاً - عبر رؤية حقيقية، وبعد ذلك؛ يرى نفسه كجزء من مجموعة المُلقّنين، الذين أغلبهم يُشبهون الناس النائمين، أو السكارى. في نهاية النصّ، المهمَّة التي تواجههم كلّهم تنكشف. هناك تكون مهمَّة «التقديس»: إعادة الروح إلى العالم لتعليم الآخرين الطريقَ إلى العالم الآخر.

كما نحن سنرى الآن، هذه - بالضبط - هي المهمَّة التي أَوْكَلَهَا السَّيِّدُ المَسيحُ لنفسه.

الفصل الحادي عشر

تجربة المصدر

أحبُّ السَّفَرَ إلى المواقع المُقَدَّسَة، والإحساس بها، والرغبة بفَهْمها.

أنا أُفَاجَأ دائماً - حتى بعد كلّ تلك السنوات - بأن الأماكن التي لم أتوقَّع بأنْ تمنحني الكثير من المشاعر هي - بالعكس - كانت الأماكن التي تمتلئ بالأمن والاستقرار من النوع الأكثر قداسة: قمَّة جبل سيناء؛ مَذْخَر[1] كاثوليكي روماني مُعيَّن، يمكث في مُصلّاه المُظلم؛ الكنائس، والمعابد المُتهدِّمة؛ مجموعة من الصخور القديمة التي كانت عُرضة للعوامل الجوية، والتي برزت في المنظر الطبيعي، الذي أحسّ - في أغلب الأحيان - بالمدِّ الدموي على شواطئه، والذي أرضه الخصبة - على نحو مُظلم - ماتزال تدفع للأعلى آنيتها المُحطَّمة.

هل مثل هذه الأماكن هي مُقَدَّسَة جوهرياً؟ أم أننا جَعَلْنَاهَا كذلك؟ ربما الأمران كلاهما. المواقع المُقَدَّسَة تتطلَّب مشاركة الزائر، وارتباطه بها، وتجربتها. وهناك يكمن الاختلاف بين الحاجّ والسائح.

ليس هناك فرد، أو ثقافة، أو حضارة لها الحقّ في احتكار الحقيقة. لهذا السبب، يجب علينا أنْ لا نقترف الخطأ في الاعتقاد بأنَّ تقنيات دخول العالم الآخر عُرِفَتْ - فقط - من قِبَل المصريين، أو اليونانيين. الباب إلى العالم الآخر هو - دائماً - مفتوح لأولئك الذين سئموا الدنيا، والذين توقهم عبر بهم إلى ما وراء الحَدِّ الفاصل (بين العالَمَيْن).

وكان هناك البعض من السائحين من الدنيا، وهم أولئك الذين جاؤوا لكي يُعمَّدوا في نهر الأردن من قِبَل يُوْحَنَّا المعمدان. ذلك حَدَثٌ فريدٌ؛ لدرجة أنه حتى المُحرِّرين

---

(1) مكان تُحفَظ فيه الذخائر الدِّينية. المُترجم.

الكاثوليكيين لتوراة القُدْس عدُّوا أن ذلك الحَدَثَ كان تلقيناً. هل - رُبَّما - كان هذا هو المعنى الحقيقي لمقولة يُوْحَنَّا: «... مَلَكُوت السماوات اقترب!» مَتَّى (3: 2)؟!

بالرغم من أنّه واضح أن السَّيِّد المَسيح تعلَّم مهاراته بين المجموعات اليهودية الباطنية في مصر، التعاليم والتقنيات التي كانت مُتوفّرة إليه هناك كانت لفترة طويلة مُشبعة بروحانية العديد من التقاليد السابقة. أحد الأمثلة الأساسية يمكن العثور عليه في قصّة سُلّم يعقوب في العهد القديم.

خرج يعقوب من بئر سَبْع في رحلة إلى حارَّانَ «Harran». «عند غروب الشمس، وصل إلى موضع رأى أن يبيتَ فيه، فأخذ حجراً من حجارة الموضع ووضعه تحت رأسه، ونام هناك. فحلم أنه رأى سُلَّماً منصوبة على الأرض، رأسها إلى السماء، وملائكة الله تصعد وتنزل عليها. وكان الله واقفاً على السُّلّم يقول: (أنا الرّبّ؛ إله إبراهيم، أبيكَ، وإله إسحق! الأرض التي أنتَ نائم عليها، أهبها لكَ، ولنسلكَ)... فأفاق يعقوب من نومه، وقال: (... ما هذا إلا بيت الله، وباب السماء) ... وبكَّر يعقوب في الغد، وأخذ الحجر الذي وضعه تحت رأسه، ونصبه عموداً، وصبَّ عليه زيتاً؛ ليُكرِّسه للرّبّ. وسمَّى ذلك الموضع بيت إيلَ، وكانت المدينة من قبلُ تُسمَّى لوزَ». سُمِّي ذلك المكان بيت إيلَ «Bethel»؛ «بيت الله». التكوين (28: 10- 19).

قَصَصٌ كهذه من العهد القديم لا تُعَدُّ - بالطبع - تاريخاً، بل «حكايات أبطال»، خضعت لأعظم - أو أقلّ - درجات التجديد الأسطوري؛ كالقصّة التي رأيناها عن جلجامش، ملك مدينة الورقة[1]، الذي عبر إلى عالم الموتى.

ما هو مُهمّ ليس الدّقّة التاريخية لهذه القَصَص، بل أنّها تخبرنا عن أعمق مخاوف واعتقادات الثقافات التي أنجَبَتْهَا. لا يهمُّ سواء كان جلجامش موجوداً أم لا؛ ما يهمُّ أن الناس - في ذلك الوقت - آمنوا بإمكانية السفر إلى العالم الآخر؛ لكي يحصلوا على البصيرة داخل الذات الإنسانية. فَهْمُ تاريخنا ليس - هو ببساطة - مسألة جَمْع وترتيب للحقائق؛

---

(1) مدينة قديمة في بلاد ما بين النهرَيْن، في العراق. المُترجم.

نحتاج - أيضاً - لفَهْم الاعتقادات التي حفَّـزَتْ أسـلافنا؛ لأن هـذه الاعتقـادات هـي التـي خَلَقَتْ - في أغلب الأحيان - كلّ الأحداث التاريخية التي نجدها مُسجَّلة.

في هذه القصّة عن يعقوب، من المحتمل جدّاً أن بيت إيل - في الواقع - يقع بين الأحجار المُقَدَّسَة على ضريح كنعاني[1] في قمّة تلّة ما؛ مثل هذه الأضرحـة كانـت - بـشكل تقليـدي - تُبنَى في «أماكن عالية». ربما كانت أماكن كهذه هي المكان المثالي للحصول على حُلم نبـوي في تقاليد الخلوة. حقيقة أنّ يعقوب - على ما يُقـال - رفـع حجـراً، وبعـد ذلـك كرَّسـه بـشكل شعائري بالزيت، يقترح بأنّ ضريح، «مكان إقامة الله»، قد وُجِدَ هناك. بالرغم من أنّ ذلك لم يرد - بشكل واضح - في النصّ، إلا أنه من الواضح أنه - بطريقـة مـا - شـعر يعقـوب بـأنّ الحجر ساهم في رؤيته، وامتلك نوعاً ما من الـسِّحْر المُقَـدَّس. مـن الواضـح أن هـذه القـصّة كُتِبَتْ للجمهور الذي كان سيفهم - فوراً - نتائج عمـل يعقـوب. مـع ذلـك، الإسرائيليـون الأوائل لم يكونوا غرباء عن الدِّين الكنعاني. نحن - فقـط - القـوم الجُـدُد الـذين نُخطـئ في فَهْم القصد.

الأكثر أهمية هو أن «حُلم» يعقوب يُفهَم - بشكل أفضل - بأنه رؤيا، وبأنها رؤيـا تُعلِّمنـا عدداً من الأشياء المُهمَّة. ربما الدرس الأكثر أهمية يكمن في القول بأن الملائكـة كانـت تـصعد وتهبط. هذا - بشكل واضح - توضيح رمزي بأن الصلة بين السماء والأرض هـي في نـشاط مُستمرّ، وأن الكائنات المُقَدَّسَة تتدفَّق - بشكل ثابت - ذهاباً، وإياباً. هذا يظهر الفكـرة التـي رأيناها في مصر بأن العالم الآخر والعالم الأرضي يتّصلان معاً بحميمية، وبفاعلية. هـذا دليـل - نحن بحاجته - على أن رؤيا يعقوب نشأت من التقليـد الحـيّ الـذي يعـدُّ هـذه الروايـة في العهد القديم مجرّد جزء منه، مجرّد لمحة على المنظر الطبيعي الخصب للأرض الموعودة.

يمكننا أن نكون متأكّدين بأنه تحت هَوَس العهد القديم الظاهر بالسُّلالة العائلية، والزنـا، والذنب، والعنف، وعدد الوفيّات في المعارك الغامضة، يكمن تعليم قديم يتعلَّق بالصِّلة بـين

---

(1) الكنعاني: واحد الكنعانيين، وهم شعب سـاميّ سـكن فلـسطين وفينيقيـة ابتـداءً مـن عـام 3000 ق. م، تقريبـاً. المُترجم.

العالم الأرضي، والعالم المُقَدَّس. ولكنْ؛ في هذا التقليد - كما هو نُقِلَ لنا من قِبَل الكُتَّاب الأوائل المجهولين - الصلة بين العالَمَيْن صُوِّرَتْ بأنها مُحطَّمة: الكائنات الملائكية بالسيوف الملتهبة تمنع الدخول إلى جنَّة عدن؛ يعقوب لم يُشجَّع على تسلُّق السُّلَّم إلى السماء. الإداريون الدِّينيون - على ما يبدو - سيطروا على التقليد، وقيَّدت رسالته عن الممر إلى العالم الآخر؛ أشبه - تماماً - بما فعله رجال الفاتيكان الأقوياء - لاحقاً - فيما يتعلَّق بتعاليم السَّيِّد المَسيح.

كما يمكننا أن نرى الفَهْمَ الحقيقي للعهد القديم بأنه ليس مسألة حَفْر في الأرض لإيجاد البرهان المادّي للأحداث، كما فعل العديد من علماء الآثار خلال القرنَيْن الماضيَيْن، ولكنْ؛ بالأحرى، بقراءة قَصَصه بشكل رمزي؛ كما عملت - بوضوح - المجموعة اليهودية المصرية التي كان اسمها «الشفائيّون». فيلو يذكر بأنّهم «يقرؤون الكُتُبَ المُقَدَّسة، ويبحثون عن الحكمة من فلسفتهم السُّلالية، ويعدُّون تلك الكُتُبَ كحكاية؛ انطلاقاً من إيمانهم بأنّ كلمات النصوص الحَرْفية هي رموز لأشياء ذات طبيعة مَخْفيَّة، يتمُّ العثور عليها بدراسة المعاني الخفية لتلك النصوص».

سُلّم يعقوب الذي وُضِعَ على الأرض في مكان مُقَدَّس يُمثِّل مفهوماً آخر رأيناه - أيضاً - مُسبقاً: الفكرة هي أنّه يوجد هناك أماكن مُعيَّنة؛ حيث يرتبط فيها العالم الآخر والعالم الأرضي، أماكن تعمل كقناة عبور مثالية بين العالَمَيْن.

من المثير للشفقة أن القصّة لا تُصوِّر يعقوب وهو يتسلَّق السُّلَّم، ليعبر من هذا العالم إلى العالم الآخر، لكي يعود مع ما كان بإمكانه أن يتعلَّمه. إن قيامه بذلك - لربما - سيجعل تاريخ الشرق الأوسط بطريقة مختلفة جدَّاً، نَظَرَاً للتأثير العميق الذي تمتلكه هذه القَصَص على المنطقة، وعلى سُكَّانها في الألفيَّتَيْن، ونصف الأخيرة.

لرؤية المزيد في التقاليد السابقة التي تركت أثرها الباطني على الدّيانة اليهودية، نحتاج للنَّظَرَ إلى اثنَيْن من أقوى التأثيرات على تطويرها؛ التأثير الأول يأتي من مصر، كما هو مُصوَّر في قَصَص يُوسُف، وموسى، ومن الإقامة التي دامت مئات السنين للجنود، والتُّجَّار، والمزارعين، والإداريين اليهود هناك. التأثير الثاني يأتي من بلاد ما بين النهرَيْن كنتيجة «سبي

بابل»: ملك بابل – يُعرَف بالنسبة لنا بـ«نبوخذ نصر» – حاصر وأَسَرَ القُدْس عام 587 قبل الميلاد، ونفى الملك اليهودي، سويَّة مع الآلاف من شعبه. العديد من الآخرين هربوا إلى المنفى، إلى مصر.

يمكننا أن نرى – على سبيل المثال – أن منسك المعمودية البابلي هو أصل الممارسة اليهودية للتنقية قبل أداء الشعائر، والهدف هو فَصْل الشخص عن العالم الأرضي، بينما – في الوقت نفسه – يُؤسّس علاقة نقية مع العالم المُقَدَّس. التقويم اليهودي مُشتقّ – أيضاً – من النظام الذي استُعْمِلَ من قِبَل البابليين اللاحقين. حتى طاسات الرقيات التي تُستعمَل من قِبَل الأحبار اليهود كانت من أصل بابلي. التلمود البابلي يمتلك معلومات طبِّيَّة – أيضاً – من العلْم البابلي السابق، والنصوص البابلية التنجيمية وُجِدَ أنها كانت مُستعمَلَة من قِبَل المجموعات اليهودية أيضاً. حتى الاعتقاد في الإله الواحد، الذي نُقِلَ إلى المَسيحية والإسلام، نُظِرَ إليه من بعض العلماء بأنه اشتقاق من بلاد ما بين النهرَيْن القديمة: اسم إله الآشوريين هو آشور «Ashur»، أو «Assur»، والذي يعني «الواحد»، أو «الوحيد»، أو «الإله الكُلّيّ».

تأثير بلاد ما بين النهرَيْن يمكن – أيضاً – أن نراه في البعض من الصور الباطنية التي وُجِدَتْ في كُتُب الأنبياء، خُصُوصاً في حَزْقِيَال. حَزْقِيَال (1: 26–27) في بداية روايته يصف رؤيا إلهية، شاهد فيها مخلوقاً مُقَدَّساً على شكل إنسان، يجلس على عرش من الياقوت الأزرق، محاط، ومنار باللون الكهرماني. في الحقيقة؛ العرش لم يُصنَع من الياقوت، ذلك كان خطأ في الترجمة: هو مصنوع من أحجار اللازورد، والتي هي قيِّمة كثيراً بالنسبة للبابليين. لكنَّ النقطة المهمَّة هي أنّ هذه صورة محدَّدة جدَّاً، ويُنظَر إليها على أنها منبثقة من تقليد موجود.

حَزْقِيَال عاش في بلاد بابل وشاهد تلك الرؤيا عام 593 قبل الميلاد، بينما كان بجانب القناة الرئيسة التي تربط نهرَيْ دجلة والفرات، قريب جدَّاً من بابل.

من الواضح أنّ رؤيا حَزْقِيَال – كما هي مكتوبة – اشتُقَّتْ من نصٍّ بابلي قديم، يصف الإله البابلي العظيم مردوق «Marduk»، وهو يجلس على عرش من أحجار اللازورد المُنارة

بالكهرمان المُتأَلِّق. هذا مُهمّ؛ لأنه يكشف بأنّ حَزْقِيَال لابُدَّ وأنه تلقَّن الألغاز الباطنية في بلاد بابل. نعرف ذلك لأن النصّ البابلي ينتهي بتحذير صارم:

«سرّ الآلهة العظيمة: دَع المُلقِّنين يكشفونه للمُلقَّنين، ولكن لا يُسمح لغير المُلقَّنين برؤيته».

هذا النصّ لا يشير - فقط - إلى اتّصال بين الكَهَانَة البابلية واليهودية، بل يشير - أيضاً - إلى أنّ هذه الصلات كانت أكثر عمقاً وقرباً ممَّا كان مفترضاً سابقاً.

يبدو - من الواضح - أن الكَهَنَة اليهود كانوا قادرين على الاطِّلاع على الأسرار الأعمق للطائفة البابلية.

كينجسلي يُوضِّح: «في التقاليد الرّبَّانية لليهودية، التفاصيل المركزية لرؤيا حَزْقِيَال بقيت سرِّيَّة، كَسِرٍّ محروس بقوة كما في التقاليد الكَهَنُوتية البابلية، التي سبقتها. بكلمة أُخرى، لم يكن هناك استعارة بسيطة للرمزيّة، أو المفاهيم فيما بين الثقافتَيْن، بل - بالأحرى - اتّصال حيّ «بين صميم أحد التقليدين وصميم الآخر». من هنا؛ يمكننا أن نرى بأنّ «حَزْقِيَال يقف قريباً من رأس ينبوع الباطنية اليهودية. ورغم ذلك هو يحتلُّ - أيضاً - مكاناً بمحاذاة القناة الأكبر بكثير للمذهب الباطني والكوزمولوجي، الذي يمتدُّ عبر القرون قبله».

تأثير بلاد ما بين النهرَيْن يمكن أن يُكتشَف - أيضاً - في أصل شجرة الحياة، التي هي - الآن - العمود الفقري للطريقة الباطنية اليهودية المعروفة بالقَبَلانية. العالم الفنلندي العظيم الأستاذ سيمو باربولا - الذي عمل كثيراً على ترجمة النصوص الباطنية للآشوريين وللإمبراطوريات البابلية - أصبح مفتوناً بالسِّمة المُعقَّدة للصور المنحوتة التي وُجِدَتْ في القصور الآشورية والبابلية القديمة: مئات النقوش المُجسِّدة لشجرة مُقَدَّسَة غامضة بحضور كَهَنَة تكسوهم أشياء غريبة، بعضهم يلبسون جلد السمك، والبعض بأجنحة، وآخرون لهم رأس نسر، ولكنْ؛ كلّهم يحملون سَطْلَ ماء في إحدى اليدَيْن، وكوز صنوبر في اليد الأخرى. هذه الصور التي كانت منقوشة على ألواح طينية كالتي نُقِشَتْ عليها الكتابات القديمة لم تتمّ مناقشتها على الإطلاق، ولذلك ماتزال مُبهمة منذ زمن طويل.

يشير باربولا إلى أن التعاليم الداخلية للشجرة المُقَدَّسَة لم يُسمَح بكتابتها، ولكنْ؛ بقيت حِكْرَاً على مجموعة صغيرة ومُنتقاة من المُلقَّنين. في الحقيقة، علماء الآثار عرفوا - لعدّة سنوات - أنه كان هناك كتلة كبيرة من التعليمات السِّرِّيَّة في إمبراطوريات بلاد ما بين النهرَيْن منذ الألفية الثانية قبل الميلاد على الأقلّ.

على أية حال، يعتقد باربولا بأنّ التعليمات السِّرِّيَّة كانت أقدم بكثير من ذلك. في رأيه، تلك التي تتعلَّق بالشجرة المُقَدَّسَة - على سبيل المثال - يمكنها - بسهولة - أن تعود إلى الألفية الثالثة قبل الميلاد. وأضاف - بشكل استفزازي - على هامش الصفحة بخطٍّ صغير «هذا؛ إنْ لم يكن قبل ذلك».

هذا التَّوقُّع أطلق العنان لاحتمال أنّنا نواجه مادّة قد تسبق - بسهولة - اختراع الكتابة، وربما كانت جزءاً من التعليم الشفهي السِّرِّيِّ للشعوب الأولى لآلاف السنين.

من الصعب تجنُّب رؤية الشجرة المُقَدَّسَة للحياة بأنها تتعلَّق بعِلْم الأساطير الأقدم جدَّاً للثقافة؛ أيْ أنها تتعلَّق بـ«شجرة معرفة الخير والشَّرِّ» التي تنتصب في جنّة عدن.

إنّ الفكرة الضمنية في القصّة هي أنّ مفهوم الشجرة المُقَدَّسَة هو قديم قِدَم البشرية ذاتها.

نحن هنا نمسُّ حافَّات الاعتقادات التي كانت تمرُّ عبر الثقافات القديمة التي ذكرناها مسبقاً، تلك التي تمَّ التعبير عنها بعمليات الدَّفْن الطقوسية.

أعتقد بأنه من غير الحكمة إهمال إمكانية أنّه في تعليمات الشجرة المُقَدَّسَة لدينا بقايا المعرفة التي امتلكها الإنسان النياندرتالي[1]، الذين وقفوا حول قبر أحد أفرادهم قبل أكثر من ستِّين ألف سنة في كهف في «شانيدار»، في العراق، تماماً في المنطقة الشمالية الشرقية من الأراضي، التي أصبحت - لاحقاً - إمبراطوريات بلاد ما بين النهرَيْن.

كان الفَهْم الأساسي لرمز الشجرة هو أنّها تُصوِّر «النظام العالمي القُدْسي المُصان من قِبَل الملك الآشوري»، والملك بنفسه عُيِّن في هذا النظام كـ«الإنسان المثالي». مقارنة الرمزية

---

(1) نياندرتالي: منسوب إلى وادي النياندرتال قُرب دوسيلدورف بألمانية؛ حيث وُجِدَتْ بقايا هيكل عظمي لإنسانٍ قديم. المُترجم.

التَّصوُّرية والعَدَدية للشجرة المُقَدَّسَة الآشورية مع شـجرة الحيـاة القَبَلانيـة[1]، تُظهِـر تطابقـاً استثنائياً. يستنتج باربولا بأنّ شجرة القَبَلانيين - بالتأكيد - تستند على أصول آشورية.

إنّ الشجرة في القَبَلانية تُمثِّل الأسلوب الذي يتجلَّى فيـه الإلـه في كـلّ أشـكال الخَلْـق. إنّ القوّة المُبدعة صُوِّرَتْ كوميض مُقَدَّس من النور ينشأ من الإله العديم الشكل، وينـدفع نحـو الأرض، ويحوِّل كُلَّ الأشكال إلى وجود. الشجرة مُكوَّنة - في أغلب الأحيـان - مـن عـشرة «Sefirot» (فروع)، والتي هي رموز للمبادئ القُدْسـية المنبثقـة. الـشجرة لهـا ثلاثـة أعمـدة شُكِّلَتْ من الجَذْع المركزي، ومن الاصطفاف العمودي للأغصان عـلى الجـانبَيْن؛ العمـودان الجانبيان يُمثِّلان النظائر الموجودة في العالم الأرضي، كالقسوة، والرحمة، والنظام، والتـسامح، والنظري، والعملي، والمُؤنَّث، والمُذكَّر؛ الجَذع المركزي يُجسِّد الطريق المتوازن بينها، ونلاحـظ ذلك في التعبيرات التي أُطْلِقَتْ عليه مثل «عمود القداسة»، «طريق المعرفة».

تُمثِّل الشجرة - أيضاً - الوسائل التي - مـن خلالهـا - يمكـن للبـشر الـسفر مـن العـالم الأرضي لتعود إلى العالم المُقَدَّس؛ فهي تُـزوِّد بالخريطـة والطريقـة الروحيـة. في هـذا المجـال، تعمل كصورة مماثلة لسُلّم يعقوب.

أمثلة عن التقاليد الباطنية الأقدم التـي كانـت تُـؤثِّر عـلى الدّيانـة اليهوديـة اسـتمرَّت في المجـيء: عـام 1768، المستكـشف الإسـكتلندي جـيمس بـروس سـافر إلى النيـل في محاولـة لاكتشاف مصدره. سفره كـان صـعباً، وحـافظ عليـه عـبر قدرتـه عـلى إنتـاج الـذهب عنـد الضرورة، وعبر استعماله لبنادقه، ومسدَّساته. السفر كان عملاً خطيراً، ناهيكَ عن الأمراض التي نتجت - في أغلب الأحيان - من الماء المُلوَّث، والغذاء الفاسد. بعـد عـامَيْن؛ وصـل إلى إثيوبيا، التي كانت في أوج حرب أهلية. نجا وعاد إلى أوروبا يحمل بعض الكنوز، والتي كـان من بينها ثلاثة من النُّسخ الأثيوبية لنصٍّ يهودي قديم يُدعَى «كتاب أَخْنوخ».

(1) فلسفة دينية سرِّيَّة، عند أحبار اليهود وبعض نصارى العصر الوسيط، مَبنيَّة على تفـسير الكتـاب المُقـدَّس تفـسيراً صوفياً. المُترجم.

هذا النصُّ كان قد أُقِرَّ من قِبَل باباوات الكَنيسَة في القرنَيْن الثاني والثالث أمثال كليمنت الإسكندراني، وتَرْتُلْيان. ولكنْ؛ رغم ذلك إدراجه في القائمة الرسمية للنصوص المُقَدَّسَة اليهودية لم يكن مُؤكَّداً؛ ذكر تَرْتُلْيان بأنّ بعض الأحبار لن يقبلوه. على أية حال، المَسيحيون - في ذلك الوقت - كان عندهم بضعة هواجس. عدُّوا النصَّ قانونياً، بما أن أجزاء منه يمكن قراءتها على أنها توقُّع لمجيء السَّيِّد المَسيح، وبما أنه ذُكِرَ في العهد الجديد في رسالة يهوذا (14). لكنْ؛ بعد مجلس إزنك عام 325 بعد الميلاد، كتاب أَخْنوخ تمَّ استثنائه. وفي النهاية؛ تمَّ حظره في نهاية القرن الرابع، وبداية القرن الخامس، من قَبَل علماء الدِّين أمثال جيروم أوغُسْطين، بالرغم من أن كتاب أَخْنوخ مُقدَّم في مُؤلَّف واحد، إلا أنه من الواضح جدَّاً بأنّه لم يُكْتَبْ من قِبَل مُؤلَّف واحد، في الحقيقة؛ هو خليط من النصوص التي كُتِبَتْ من قِبَل عدد من الكُتَّاب، وجُمِعَتْ تحت اسم أَخْنوخ. على الرغم من تضاربه الداخلي، إلا أنه عمل استثنائي.

إنه يستعمل العديد من المواضيع التي هي مألوفة - الآن - بالنسبة لنا: أَخْنوخ شاهد حُلماً نبوئياً (13: 8)؛ يسأل عن تفسير لشجرة الحياة (25: 1- 3)؛ يذكر ثلاث بوّابات شرقية تنقل من خلالها النجوم في الأفق الشرقي (36: 3)، بموجب الأسطرلابات البابلية والآشورية، والتي يعود تاريخها إلى حوالي 1100 قبل الميلاد؛ ويتكلَّم عن أن أعمال البشر تُوزن - أيضاً - في الميزان، كالمفهوم المصري للحساب بعد الموت (41: 1).

نحن - مرة أُخرى - على طريق مألوف: لدينا أمور باطنية عُلِّمَتْ لباحث بواسطة رؤيا عن العالم الآخر، وفي سياق يهودي. كما رأينا، هذه الرُّؤى الحالمة تحدث كجزء من تلقين، والحالم يذهب إلى مكان مُظلم، وهادئ، كالكهف، أو قبو مَعْبد، ويستعمل التقنيات التي تعلَّمها للدخول في حالة السكون، التي يتمُّ الوصول عبرها إلى العالم الآخر بسهولة. لذلك كنّا نتوقَّع أنه - في مكان ما من كتاب أَخْنوخ - يمكن العثور على إشارة إلى الحالات التجريبية، التلقينية. ولم يخبْ أملنا.

النصُّ يُوضِّح: «وَحَدَثَ أنَّ رُوحي انتقلت وصعدت إلى السماوات: ورأيتُ الأبناء المُقَدَّسين لله» أَخْنوخ (71: 1). هذا البيان يبدو - تماماً - بأنه رواية عن شيء ما قد حَدَثَ

– حقّاً – للكاتب – تجربة باطنية يمكن أن تكون مُقنعة لشخص ما يرغب في تعلُّم التقاليد السِّرِّيَّة الباطنية للديانة اليهودية.

أخْنوخ أُخِذَ للأعلى «من بين أولئك الذين يقطنون الأرض... رُفِعَ عالياً على عربات روحية» أخْنوخ (70: 2). هذه الصورة تبدو شبيه يهودي للبَعْ المجنّح المصري[1]. لكنْ؛ ليس هناك شكّ بأنّ هذا الحَدَثَ تعلَّق بتلقين ما، وذلك لأن النصَّ يُوضِّح ما حَدَثَ لأخْنوخ، بعدما تمَّ رَفْعُهُ إلى السماء، ولكنْ؛ قبل أنْ تُغيَّر روحه:

والملاك ميكائيل أمسكني بيده اليمنى، ورفعني إلى الأعلى، وأرشدني إلى كلّ الأسرار، لقد أظهر لي كلّ أسرار الصلاح. وأظهر لي كلّ أسرار نهايات السماء. أخْنوخ (71: 3–4).

الكاتب القديم المجهول يتابع، ويصف ما حَدَثَ بعد ذلك: «وسقطتُ على وجهي، وجسمي بالكامل أصبح مسترخياً، وروحي تغيّرت هيئتها» (71: 11).

هذا – بالضبط – نوع التجربة نفسها التي نتوقَّع العثور عليها عند طائفة الشفائيّين، على سبيل المثال. وبشكل حاسم في حال أخفقنا في اكتشافها، يهتمُّ النصُّ بتوضيح أنّ هذا الصعود إلى السماوات حَدَثَ بينما كان أخْنوخ مايزال حياً؛ كما أورد النصّ: «أثناء حياته».

هذا عملياً مماثل إلى التفسير في نصوص الأهرامات المصرية، والتي تقول بأن الملك «لم يغادر ميتاً»، بل «غادر حيّاً».

من الصعب أنْ لا ننظر إلى البيانَيْن على أنهما وصف لتجربة متماثلة جوهرياً، تجربة مُستمدَّة من تلقين ألغاز العالم الآخر.

هذه النصوص النُّبُوئية لا يمكن أن تكون إلا سجلَّات للتلقين – سجلَّات تجمَّعت تحت اسم أخْنوخ، وفي طريقة مشابهة جدَّاً لتلك التي في مصر، والتي نُسِبَتْ إلى هرميز الثلاثي العَظَمَة، والتي جُمِعَتْ سوية لتُشكِّل ما يُسمَّى «كُتُب هرميز».

---

(1) كما ذُكِرَ سابقاً في الكتاب، البَعْ – بالنسبة للمصريين القدماء – هي روح الميت، والتي جُسِّدَت بطَير له رأس ووجه الشخص الميت. المُترجم.

نَظَرَاً للطبيعة النُّبُوئية لهذا النصّ، من المثير جدَّاً للفضول أن نكتشف أن سبعة مقاطع من كتاب أخْنوخ تُشكِّل جزءاً من لفائف البحر الميت. كلّها وُجِدَتْ عام 1952، في كهف قمران على سطح منحدر ترابي كلْسي، قرب أطلال الجالية، هو ما يُسمَّى - الآن - بالكهف 4. لذلك، ما هو ظاهر، يبدو كأن مجموعة الزَّيْلُوت - التي أنتجت لفائف البحر الميت، وكانت مهمّة جدَّاً كجزء من بيئة السَّيِّد المَسيح السياسية، ومن المجموعة اليهودية المَسيحية التي سبَّبت نهوض المَسيحية - كانت مُدركة - بشكل جيد - لكتاب أخْنوخ. لكنَّ تحليلاً لذلك الأمر يكشف حقيقة مثيرة.

إنّ كتاب أخْنوخ - كما قلنا - هو مجموعة نصوص لمُؤلّفين مختلفين. في الحقيقة، فصل العلماء النصوص إلى خمسة أقسام، كلّ منها متميّز، ومختلف عن الآخرين.

القسم الذي يحتوي الرواية الباطنية عن الصعود، والتبدُّل في الهيئة هو القسم الثاني الذي يُعرَف بـ«الحكاية الرمزية الأخلاقية».

هذا القسم الباطني التلقيني هو - بالكامل - غائب عن النصوص التي وُجِدَتْ في قمران.

نصوص لفائف البحر الميت تحتوي مقاطع - كُتِبَتْ باللغة الآرامية - من الجزء الأول والرابع والخامس - فقط - من كتاب أخْنوخ.

ليس - فقط - القسم الباطني هو المفقود، ولكنْ؛ - أيضاً - القسم التالي الذي يتحدَّث عن الأمور الفَلَكية والتقويمية؛ بشكل خاص، القسم الذي يُزوّد بأُسُس التقويم الشمسي، والتي - كما نذكر - استُعْمِلَتْ - بشكل واضح - في المعبد اليهودي لأونياس في الدلتا المصرية.

يمكننا أن نرى هنا التصادم نفسه في التقاليد كالذي وجدناه في قصّة السَّيِّد المَسيح عندما رفض موقف الزَّيْلُوت من عدم دَفْع الضرائب إلى الإمبراطور.

السَّيِّد المَسيحُ اتَّبع نظرة باطنية؛ الزَّيْلُوت اتَّبعوا نظرة دنيوية. يرفض كتاب أخْنوخ - الذي لدى الزَّيْلُوت - يرفض - بوضوح - هذه النظرة الباطنية.

هذا يُشكّل دليل آخر على أن - كما قلنا من قبلُ - السَّيِّد المَسيح ليس من الممكن أنه تعلَّم مهاراته بين الزَّيْلُوت في الجليل.

النصوص الباطنية - مثل كتاب أَخْنوخ - هي النصوص التي - رُبَّما - كانت ثمينة جداً إلى طائفة الشفائيّين، وأيضاً؛ ثمينة جدّاً لأولئك الذين علّموا السَّيِّد المَسيح. في كتاب أَخْنوخ، لدينا - أخيراً - النصّ الذي يظهر أنه صادر مباشرة من البيئة اليهودية ضمن التي تربَّى فيها السَّيِّد المَسيح، وصادر من جماعة مهتمَّة بتلقين التعليمات السِّرِّيَّة، والصعود إلى السماء، وبتجربة النور المُقَدَّس.

بالنسبة لهذا ليس هناك أيُّ شكّ لأن كتاب أَخْنوخ يقول: «نور مشرق سيُنيركَ» (96: 3).

سافرنا - الآن - بما فيه الكفاية؛ رغم أننا لم نجمع كلّ شيء، إلا أننا جمعنا كلَّ ما يمكننا حَمْله.

لقد حان الوقت للعودة إلى اليهوديّة، وإلى مصر، وإلى الرجل الذي نذكر بأنه عيسى المَسيح - المَسيح المُنتظَر.

الفصل الثاني عشر

مملكة السماء

دائماً كان هناك أسرار في الدّيانتَيْن اليهودية والمَسيحية، والتي نشأت منها؛ أسرار لَمَّحْنَا إليها - بل ذُكِرَتْ أحياناً بشكل واضح - لكنها لم تُكْتَبْ - أبداً - في المذكّرات والرسائل التي أصبحت نصوص العهد الجديد المَسيحي التي نمتلكها اليوم. تلك الأسرار حُمِلَتْ بالتقاليد الشفهية. عَرَفَ باباواتُ الكَنيسَة الأوائل هذه التعاليمَ السِّرِّيَّةَ بشكل جيد؛ حتى إنْ هم لم يطَّلعوا عليها شخصياً، إلا أنهم عرفوا وجودها في الأناجيل.

في أحد أيام السّبت قبل إعدام يُوْحَنَّا المعمدان، السَّيِّد المَسيح كان يُعلِّم بجانب بحر الجليل؛ كانت الحشود التي جاءت لسماعه كثيرة؛ لدرجة أنّه كان لابُدَّ عليه أن يجلس في مركب ويتكلَّم من هناك. علَّم أولئك الذين يراقبون ويستمعون باستخدام الأمثال؛ قَصَص بسيطة كانت تحمل بصائر إلى طريقة الحياة التي أرادها لهم. لاحقاً، عندما كان وحده مع تلاميذه، سألوه: لماذا هو يتكلَّم - دائماً - في هذا الأسلوب. أعطاهم تفسيراً مُفاجئاً: قال - بشكل صريح -: إن الأمثال مُصمَّمة للجماهير، ولكنْ؛ لتلاميذه لديه حقيقة أعمق. وضَّح: «أنتم أُعْطِيْتُم أن تعرفوا أسرار مَلَكُوت السماوات، وأمَّا هم؛ فما أُعطوا» مَتَّى (13: 11)؛ مَرْقُس (4: 11)؛ لُوقَا (8: 9-10).

يمكننا أن نفهم من جواب السَّيِّد المَسيح أنه يوجد هناك مستويَيْن: الأسرار الداخلية التي تُمنَح لزملائه المُقرَّبين، والتعاليم الخارجية التي تُمنَح للجمهور. هذه التعاليم الداخلية تتعلَّق بـ«أسرار مَلَكُوت السماء».

إنجيل مَرْقُس، يصف المحادثة نفسها ، ويستعمل مصطلحاً مختلفاً قليلاً، فهو يتحدّث عن «مَلَكُوت الله». وكذلك عمل لُوقَا ويُوْحَنَّا فقد استعملا تلك العبارة في سياق آخر. إنّ مفهوم «المَلَكُوت» يوجد - أيضاً - في بعض النصوص الأخرى التي لم تُشمَل في العهد الجديد، كإنجيل تُوما. في أنحاء هذه النصوص كافة يمكننا أن نلاحظ اختلافات طفيفة في التعبير - «المَلَكُوت» «مَلَكُوت السماء»، «مَلَكُوت الله»، «مَلَكُوت الآب» - ولكنّنا لا نحتاج لأن نشكّ بأن هذه المصطلحات كلّها لها المعنى نفسه.

ماذا يكون بالضبط هذا المَلَكُوت الذي في السماء؟

إنّ العهد الجديد - ناهيك عن ذِكْره بأنّ هذا المَلَكُوت يتعلّق بشيء سرِّيٍّ لم يُعرض على الجمهور - يزوّد بتفسير آخر إلى حدّ ما؛ ليست هناك أفكار عن كيفية الوصول إلى تلك المملكة، أو ربما كيف نعرفها إن هي وصلت. في الحقيقة، الانطباع الذي أبداه المعلّقون هو أنّها تشير إلى مملكة مستقبلية من نوع مثالي، والتي - بعودة المَسيح المُنتظَر - ستجلب السماء إلى الأرض، وسيحلّ الرايخ المَسيحي الذي سيدوم ألف سنة. ولكنْ؛ أولاً هناك المسألة الصعبة التي تتعلّق بالمعركة الفاصلة؛ على الأقلّ، طبقاً لسِفْر الرؤيا، نصّ مخادع لا مثيل له.

على أية حال، هناك تلميحات في العهد الجديد يمكننا أن نميّزها كمواضيع صادفتنا من قبل، وذلك بعد أن أصبحنا - الآن - واسعي الاطّلاع على طُرُق التقاليد السِّرِّيَّة المصرية واليونانية.

الطريق إلى مَلَكُوت السماء لم يُقصَد به بأن يكون مكشوفاً - فقط - للمُلقَّنين، بل يبدو أنه هناك إحساس، لو تمَّ اكتشافه لأصبحت هذه «المملكة» موجودة دائماً. هو ليس شيئاً نحتاج لأن نتطَّلع إليه في مستقبل مجهول، لكنْ؛ بالأحرى هو الشّيء الذي يبدو أشبه بكثير لما دعاه المصريون بالـ«djet»، الزمان الذي لا زمان فيه. علاوةً على ذلك، هناك تأكيد على المُلازمة؛ لاحظنا مقولة يُوْحَنَّا المعمدان «اقترب مَلَكُوت الله» مَرْقُس (1: 15). يمكننا أن نفهم أن هذا يعني بأنها قابلة للوصول فوراً، لا حاجة لانتظار قدومها بعد شهر، أو سنة، أو عقد، أو أنها ستظهر لدى وصول المَسيح المُنتظَر لأداء مهمَّته التبشيرية في (إسرائيل)، والذي يبدو أنه التفسير الأكثر شيوعاً لهذا البيان.

بالأحرى، الوصول مُتوفّر لأولئك الذين يعرفون الطريق.

علاوةً على ذلك، الشجاعة مطلوبة: التَّمكُّن مـن الـدخول إلى مَلَكُـوت الـسماء يتطلَّـب تركيزاً حقيقياً، وأعصاباً ثابتة، والتزاماً كاملاً. يقول السَّيِّد المَسيح في لُوقَـا (9: 62): «مـا مـن أحد يضع يده على المحراث، ويلتفت إلى الوراء، يصلح لمَلَكُـوت الله». هـو صرَّح – أيـضاً – عن القليل من الصبر على أولئك الذين ادَّعوا الروحانية، رغم أنهم لم يـسمحوا لبـاب الـسماء بأنْ يُفتَح لأولئك الـذين أرادوه؛ اعـترض الـسَّيِّد المَـسيح قـائلاً: «الويـل لكـم؛ يـا مُعلِّمـي الشَّريعة، والفَرِّيسيين المُرائين! تُغلِقُون مَلَكُوت السَّماوات في وجوه النَّاس، فلا أنتم تدخلون، ولا تتركون الدَّاخلين يدخلون» مَتَّى (23: 13).

هذا ليس وَصْفاً لمهمّة تعليمية يقوم بها المَسيح في فلسطين، أو حتى في حُكْم الألـف سـنة في المستقبل عندما يعود. السَّيِّد المَسيح يريدنا أن نفهم بأنّ مَلَكُوت السماء هي مكان يمكننا أن نسافر إليه، مكان يمكننا أن ندخله.

هذه بداية تبدو مألوفة نوعاً ما بالنسبة لنا.

يضيف لُوقَا أكثر من ذلك بقليل: السَّيِّد المَـسيح سُـئل مـن قِبَـل الفرّيـسيين متـى يجـيءُ مَلَكُوت الله؟ من الواضح أنهم كانوا يقصدون رؤيتها مُجسَّدة على الأرض، إلى حَـدٍّ مـا أشـبه بالحالة الذاتية السيطرة التي تصوَّرها الزَّيْلُـوت عنـدما خطَّطـوا – أولاً – بـأنْ يكـون الـسَّيِّد المَسيح هو الكاهن الأكبر، والملك الذي يحكم جسدياً منطقة اليهوديّة المُـستقلَّة، وهـو الـدور الذي رفضه – بشكل شديد – عندما حمل العُملة المعدنيـة التـي تحمـل صـورة الإمبراطـور، وصرَّح بأنّ الضريبة يجب أن تُدفَع. بطريقة مباشرة مماثلة لابُدَّ أن ذلك كـان – أيـضاً – مثـيراً للصدمة بالنسبة للفرّيسيين، الذين بدا أنهم سألوا سؤالهم – بشكل ساخر – أكثـر مـن كونـه سؤالاً يتمتَّع بروح الجدِّيَّة، والصِّدْق، والسَّيِّد المَسيح أجاب:

«لا يجيءُ مَلَكُوت الله بمشهدٍ من أحـدٍ. ولا يُقـال: هـا هـو هنـا، أو هـا هـو هنـاك؛ لأن مَلَكُوت الله هو فيكم» لُوقَا (17: 20–21).

نحن لا نستطيع رؤية المَلَكُوت، نحن لا نستطيع إدراكه بالعقل وبالملاحظة المادية. رغم ذلك صرَّح السَّيِّد المَسيح بأنّه سهل الوصول، وبأنّه يمكن السَّفَر إليه. هنا هو يعلمنا بأنّه مستقرّ في الداخل. وكيف يسافر الإنسان إلى الداخل؟ هذا الكثير نعرفه الآن:

بالدخول في السكون. السَّيِّد المَسيح أعادنا إلى مفهوم الخلوة، وإلى الأقبية، والكهوف الساكنة الصامتة المظلمة، التي تحت الأرضية؛ حيث يتمكَّن الباحث من معرفة العالم الذي يعيش فيه الأموات - العالم الآخر.

هل «مَلَكُوت السماء» هو الاسم الذي أطلقه السَّيِّد المَسيح على العالم الآخر؟ يبدو أن ذلك ذا احتمال كبير، ولكنّنا يجب أن ننظر إلى بعض البيانات الأخرى.

في يناير/ كانون الثّاني 1941، كانت المُدُن الإنجليزية تُقصَفُ من قِبَل قوَّات الجوّ الألمانية، والحرب العالمية الثانية تسلك الطريق، الذي - على ما يبدو - رسمه هتلر (هو لم يكن قد غزا روسيا بعد)، والولايات المتّحدة كانت ماتزال محايدة رسمياً (حادثة ميناء بيرل كانت ماتزال على بُعْد أحد عشر شهراً)، طالب دكتوراه أمريكي شابّ اسمه مورتن سميث كان يدرس في القُدْس.

سميث كان يعيش في فندق يوناني بجانب كَنيسَة الضريح المُقَدَّس في المدينة القديمة للقُدْس. أيضاً؛ في الفندق، كان أحد المسؤولين الكبار في الكَنيسَة الأرثذوكسية اليونانية في (إسرائيل)، البابا كرياكوس سبيريدونيدس الذي أصبح وسميث صديقَيْن. بعد عيد الميلاد، البابا كرياكوس دعا سميث لمرافقته لبضعة أيام إلى دير مار سابا[1]، واحد من أقدم الأديرة التي مازالت تعمل. أبراجها وحيطانها السميكة عشَّشت في عمق الوادي، الذي يربط القُدْس بالبحر الميت، «مار سابا» مضى على وجوده ألف وخمسمئة سنة تقريباً.

بدأت الخدمات الدِّينية الأرثذوكسية اليونانية قبل ستّ ساعات من الفجر، وسميث وجدها فاتنة، ولكنْ؛ صعبة: الخدمات لم تكن طويلة المدة، بل كانت أبديّة. الطقوس كانت تخدم الله بطريقة مشابهة نوعاً ما لتلك الخدمات اليومية في أقدس المُقَدَّسات في المعابد

(1) «Mar Saba»: في الضّفّة الغربية في وادي ستّي مريم، أسفل بيت لحم. المُترجم.

المصرية. بالنسبة لسميث، كان ذلك كَشْفاً حقيقياً: «الخدمة لم تكن تتقدَّم نحو النهاية، بل كانت - ببساطة - تستمرّ، كما لو أنها منذ الأزل، وللأبد. وكأن الشخص يتوقَّف عنده الزمن، والشخص يتوقَّف عنده - أيضاً - الوجود في مكان محدّد».

عندما نظر للأعلى نحو سقف الكَنيسَة، بدت الشموع الصغيرة التي في الأعلى بالنسبة له كالنجوم، وبدت جدران الكَنيسَة الضخمة بأنها تقف على مسافة بعيدة، والنماذج الجصّية للقدّيسين، والرهبان بدوا «موجودين في هذا العالم بين النجوم، وفوق الزمان والمكان، المَلَكُوت الثابت للسماوات؛ حيث الخدمة الأبديّة قُدِّمَتْ إلى الله الخالد».

سميث من الواضح أنه تأثَّر - بعُمق - ممَّا واجهه في ذلك الدَّيْر. ولكنْ؛ بينما كان يشارك في القدّاس أدرك بأنّه لم يكن له؛ قدَّر الخدمة كتعبير عن جمال عظيم، بينما بالنسبة للرهبان كان - أولاً، وقبل كلّ شيء - واجباً روحياً. القدّاس كان يجب أن يُؤدَّى باستعمال كلمات مُعيَّنة، وأعمال محدَّدة؛ وكما أدرك سميث، كانت طقوساً سِحْرِيَّة بشكل أساسي. هذه البصيرة قادته إلى التحرِّي عن التقنيات السِّحْرية والباطنية المُستعمَلة من قِبَل الدّيانة اليهودية، والمَسيحية القديمة.

غادر الدَّيْر بعد ستّة أسابيع، ولكنْ؛ قبل مغادرته وجد بعض الوقت لإلقاء نظرة على الكهوف التي كانت الملاجئ الأولى للرهبان الذين عاشوا هناك قبل ذلك بألف وخمسمئة سنة، وبعد ذلك؛ اتحدوا مع البناء الرهباني. الكَنيسَة الأولى كانت في أكبر هذه الكهوف. رأى - أيضاً - العديد من الرموز، بالرغم من أن أفضلها كان قد حُطِّم في النيران الكارثية أثناء القرن الثامن عشر. تلك النيران دمَّرت - أو خرَّبت بشدّة - العديد من المخطوطات القديمة؛ أغلبية ما بقي أُخِذَ إلى المكتبة البطريركية في القُدْس لِحِفْظِهَا بأمان. على الرغم من هذه الإزالة، عدد كبير من الكُتُب مايزال موجوداً في مكتبتَيْن عامَّتَيْن: المكتبة الرئيسة في الكَنيسَة الجديدة، وواحدة أصغر واقعة في غرفة ضمن البرج العظيم؛ حيث خليط من الكُتُب يوجد على الرفوف المُتربة.

هذه المكتبة كانت موقع اكتشاف هامّاً جدَّاً؛ لدرجة أنها سيطرت على حياة سميث لاحقاً.

أنهى سميث أطروحته في الدكتوراه في القُدْس، وعـاد إلى هارفـارد؛ حيـث بـدأ دكتـوراه ثانية. بقي على اتصال مع الأب كرياكوس، وأنهى الدكتوراه، وبدأ مهنته اللامعة في التدريس والبحث كأستاذ دين، في جامعة كولومبيا، في نيُـو يُـورك. عـام 1958، احتـاج إلى اسـتراحة، وقرّر العودة إلى السلام والسكون في «مار سابا». فضَّل أن يـشغل نفـسه بإنـشاء دليـل لكـلّ المخطوطات والكُتُـب القديمـة، التـي حُـشِيَتْ - بـشكل عـشوائي - في صـناديق الكُتُـب، أو كُوِّمَتْ على أرضية مكتبة البرج. كلّ صباح عند الفجر كـان يتـسلّق الاثنَـيْ عـشر طابقـاً، أو أكثر، من الدرجات؛ ليصل إلى غرفة البرج؛ حيث كان يجمع بضعة كُتُـب، أو مخطوطـات، ويعيدها إلى زنزانته الرهبانية للفَحْص، والتسجيل.

اكتشف بأنّ العديد من الكُتُب احتوت - أيضاً - عبارات طويلة مكتوبة باليد، نـسخاً مـن النصوص السابقة، والتي حُصِرَتْ في كلّ فراغ، وكلّ صفحة فارغة؛ حتى الهوامش - أحيانـاً - كانت قد استُعْمِلَتْ. هذه الإضافات المكتوبة باليـد يعـود تاريخهـا إلى القـرنَيْن الثـامن عـشر والتاسع عشر، وقد أوحت إلى الصعوبة الكبيرة التي كانت في تلك الأوقات للحـصول عـلى الورق. اكتشف - أيضاً - أجزاء من مخطوطات قديمة، كانت قد استُعْمِلَتْ في عملية تغليف الكُتُب، وموادّ هامَّة للعلماء الكلاسيكّيين. ولكنْ؛ بين كُتُب وصُحُف هذه المكتبة المُتربة وجد سميث ما هو كنز حقيقي.

في عصر أحد الأيام، كان يجلس في غرفته يقرأ خلال مجموعة كُتُـب، كـان قـد أعادهـا في ذلك اليوم، وجد نصَّاً مكتوباً باليد على صفحات كانت فارغة مُسبقاً، ضـمن طبعـة لرسـائل القدّيس أغناطيوس، يعود تاريخها للقرن السابع عشر.

لقد كان نسخة عن رسالة من كليمنـت، أسـقف الإسـكندرية، في أواخـر القـرن الثـاني. عرف سميث بأنّ كليمنت كان قد كَتَبَ رسائل عديدة، بالرغم من أنه من غير المعروف أن أيّاً منها قد كُتِبَ له البقاء: لذلك، كان اكتشافه فريداً، ومُهمّاً. نَسَخَ النصَّ عدّة مرّات؛ لكي يكون عنده بعض النُّسخ التي تُمكِّنه من ترجمته، ومن عرضه على بعض العلماء الآخرين. هذه الترجمة أثبتت أموراً حاسمة، واستثنائية.

تقريباً عام 195 بعد الميلاد، كتب كليمنت إلى ثيودور، أحد أتباعه، عن موضوع حسّاس جدّاً. يتعلّق بإنجيل سري لمَرْقُس:

وضّح كليمنت بأنّ مجموعة ضلالية فاجرة تُدعى الكاربوقراطيين «Carpocratians» عثرت على الإنجيل السِّرِّيِّ بوسائل مخادعة، وأن النصّ لم يَعُدْ يُعَدُّ دقيقاً.

جوهرياً؛ كليمنت يؤكّد بأنّ هذا الإنجيل السِّرِّيَّ كان موجوداً، لكنّه كان يؤكّد - أيضاً - بأنّه لا هو ولا ثيودور يمكنهما أن يعترفا - عَلَنَاً - بأن هذا محتمل، بدون مَنْح هذه الطائفة الضلالية نوعاً من المصداقية.

كليمنت كان يطلب من ثيودور أن يخدم الحقيقة، وذلك بإنكار أن الإنجيل كان من قبلُ مَرْقُس، حتى ولو وُضِعَ تحت القَسَم.

وضّح كليمنت بأنّ مَرْقُس أمضى بعض الوقت في روما مع بُطرُس، وبدأ بكتابة رواية أعمال السَّيِّد المَسيح، التي أصبحت - فيما بعد - إنجيله هناك. بُطرُس - أيضاً - كان يكتب في خدمة الأجيال القادمة. بعد موت بُطرُس، انتقل مَرْقُس إلى الإسكندرية، جالباً معه كتاباته وكتابات بُطرُس. هناك كَتَبَ إنجيله، لكنْ؛ حَذَفَ بعض القَصَص التي كانت موجودة - فقط - في الإنجيل «السِّرِّيِّ» الخاصّ، الذي أُعْطِيَ للكَنيسَة في الإسكندرية؛ حيث كان في عهد كليمنت مايزال محفوظاً بعناية، «وكان يُقرَأ - فقط - لأولئك الذين يتعلَّمون الألغاز العظيمة».

«الألغاز العظيمة»؟! في المَسيحية؟! ما الذي كان كليمنت يتحدَّث عنه؟!

عرف كليمنت - بالتأكيد - عن التلقين، والألغاز. وكان قد تعلَّم - بشكل جيّد جدّاً - الفلسفة الكلاسيكية. كتاباته مملوءة بالاقتباسات من أفلاطون، وبارمينيديس، وايمبيدوقليس، وهرقل، وفيثاغورس، وهوميروس، والعشرات من الشخصيات التذكارية الأخرى من التراث الكلاسيكي. من الواضح أنه استكشف بالكامل، وفحص - بشكل حاسم - كلّ الفلسفات في زمانه، قبل اعتناقه المَسيحية في وقت ما من الجزء الأخير من القرن الثاني. علاوةً على ذلك، كان مُدركاً بأن المصريين أخفوا معرفة سرِّيَّة تكمن في الرمزيّة ضمن

كتاباتهم، وصُورهم، وعرف عن النصوص الهرميزية، وعرف المعاني الباطنية التي تكمن في العدد والنسبة، ومثل الشفائيّين الباطنيين في القرن السابق، عرف المعاني المَخْفِيَّة التي تحملها قَصَص العهد القديم. كليمنت - يمكننا أن نكون متأكّدين - لم يكن أحمقاً.

استعماله لهذه الكلمات يُصوِّر تنوُّع وتعقيد عالم الدّيانة المَسيحية في الإسكندرية. يمكننا أن نتوقَّع بأن هذه الدّيانة كانت تتضمَّن الكثير من الممارسات الطقوسية، ولا يجب علينا أن ننسى بأنّ المعلّمين الغنوسطيين القديمين - مثل باسيليدس، وفالنتينوس، ظهروا من الإسكندرية. الغنوسطية بنفسها طوَّرت وصانت الكثير من التقاليد السِّرِّيَّة التي عرفتها الدّيانة المَسيحية القديمة. العالِم الدّيني هيبوليوس من أوائل القرن الثالث صان ترنيمة غنوسطية، تنتهي بالادِّعاء التالي:

أسرار الطريق المُقَدَّس

تُدعَى المعرفة الروحية، سأُسلِّمها.

الغنوسطيون تمسَّكوا بادِّعاء أنّهم كانوا حُماة المَسيحية الحقيقية: في صميم نظامهم يوجد تلقين لمعرفة حقيقية اللاهوت.

كليمنت عارض - طويلاً - الغنوسطية، رغم ذلك كان يكنُّ بعض العطف لتعليماتهم. الألغاز والتلقين كانت ميِّزة قوية للمَسيحية في الإسكندرية، أيَّاً كانت درجة إقناعها، ولكنْ؛ عُمُوماً هذه التعليمات لم تُكتَبْ. بالأحرى، بقيت ضمن تقاليد شفهية. كليمنت يواجه هذا - مباشرة - في بداية كتابه الذي يحمل عنوان «المزيج»: «لكن الأشياء السِّرِّيَّة أُوْدِعَتْ في الخطاب، لا في الكتابة».

كليمنت - بعد حَثِّه لثيودور - بالتزام الصمت، قام - بشكل جدير بالملاحظة - بالاعتراف بالإنجيل السِّرِّيِّ في المضي قُدُماً في تزويد نصّه الكامل. هناك مقتطفان من ذلك الإنجيل؛ المقتطف الحاسم يتسلَّل - بعناية - في إنجيل مَرْقُس، ضمن الفصل العاشر، بين الشعرَيْن 34 و35. المقتطف الثاني والأصغر يكمن في الشعر 46؛ حيث تمَّ حذف النصّ الذي كان موجوداً.

إنّ الفكرة المركزية لإنجيل مَرْقُس السِّرِّيِّ هي أنّ شابَّاً تمَّ تلقينه - بشكل طقوسي - من قِبَل السَّيِّد المَسيح للوصول إلى «مَلَكُوت الله»!

كما يظهر، هذه الحادثة حَدَثَتْ في بيت عَنيا، في المكان نفسه؛ حيثُ تمَّ «إحياء لِعازر» يُوْحَنَّا (11: 1– 44). هل من الممكن أن يكون هذان الحَدَثان - هما، في الحقيقة - الحدث نفسه ؟ وبعد كلّ ما رأينا الآن، يجب علينا أن نتساءل: ما الذي كان يُقصَد - حقَّاً - بإحياء لعازر «من الموت»؟!. هل هو أُعِيْدَ - بشكل حرفي - من عالم الموتى؟ أم من العالم الآخر بعد التلقين في الظلام والصمت، في الكهف الذي تمَّ تغطية مدخله بالحجارة كما يُصوِّره لنا إنجيل يُوْحَنَّا (11: 38)؟ هل كان ذلك إعادة للعازر من زيارة لَمَلَكُوت السماء، كما - رُبَّما - قال السَّيِّد المَسيح؟!

وهل هذا النصّ يتعلَّق بالحَدَث الآخر الغامض جدَّاً في إنجيل مَرْقُس، الذي بقي شاذَّاً بشكل صامد؟! عندما تمَّ اعتقال السَّيِّد المَسيح في حديقة جتسيماني، بعد معركة قصيرة، تمَّ فيها قَطْع أُذن أحد رجال الكاهن الأكبر، تلاميذ السَّيِّد المَسيح لاذوا بالفرار. مَرْقُس - آنذاك - يصف شابَّاً يُشبه مواصفات الشاب نفسها، الذي قيل في الإنجيل السِّرِّيِّ لَمَرْقُس أن السَّيِّد المَسيح علَّمه. لا أحد على الإطلاق وجد تفسيراً لهذا الحَدَث. لكنْ؛ يبدو أنَّ ما لا يُصدَّق هو أنَّ الشابَّيْن - بطريقة ما - غير مُرتبطَيْن ببعضهما البعض.

لكنْ؛ كما يشير سميث: «**المعقولية ليست دليلاً**». رغم ذلك أضاف: «**التاريخ... بالتعريف هو البحث عن التفسيرات الأكثر احتمالاً للظواهر المحفوظة**».

بعد أن عثر على الرسالة، سميث كان لابُدَّ عليه - أولاً - أن يثبت بأنّها كانت حقيقية: لربما كانت تزييفا كاملاً تمَّ في وقت ما عام 1646، وهو تاريخ نشر طبعة رسائل أغناطيوس، التي هي نسخة منها. أو لربما كانت نسخة حقيقية لرسالة قديمة، هي - بالأصل - مُزيَّفة. أو - لربما - كانت أصيلة في الجوانب كلّها. كان لابُدَّ عليه أن يعرف.

عُرِفَ بأنّ مجموعة تتألَّف - على الأقلّ - من واحد وعشرين رسالة كُتِبَتْ من قِبَل كليمنت الإسكندراني كانت موجودة في دير «مار سابا» في أواخر القرن الثامن؛ لأن ثلاثة مقتطفات منها اقتُبِسَتْ من قِبَل يُوْحَنَّا الدمشقي عندما كان يُعلِّم فيه في ذلك الوقت. هذه هي

المجموعة المعروفة الوحيدة لرسائل كليمنت. سميث يعتقد بأنّه من المحتمل أن هذه المجموعة من الرسائل – على الغالب – أُحْرِقَتْ في الحرائق التي سبَّبت الكثير من الضرر في القرن الثامن عشر؛ بعد ذلك، تمَّ العثور على إحدى الرسائل المُتبقِّية، ونُسِخَتْ باليد في طبعة رسائل أغناطيوس. يُفهَم ذلك على أنه كوسائل بدائية للتسجيل، نَسْخ رسالة مخطوطة إلى نُسخة مطبوعة من الرسائل.

أول شيء قام به سميث هو إظهار صُور النصِّ إلى العلماء البارزين في الحقل. من الأربعة عشر عالماً من الذين اطَّلعوا على الصور، فقط؛ اثنان شعرا بأنّ الرسالة لا يمكن أن تكون من قِبَل كليمنت. سميث قرَّر أنْ يعدَّ – كـ «فَرَضية سارية المفعول» – أن الرسالة كانت حقيقية. بعد ذلك أمضى سنوات في القيام بتحليل مُفصَّل وشامل عن أسلوب الكتابة، وقام بمقارنته بالنصوص الأخرى التي كُتِبَتْ من قِبَل كليمنت، وبمقارنة ذلك المقتطف من الإنجيل السِّرِّيِّ بالنصّ القانوني لمَرْقُس. هذان التمرينان كلاهما دَعَمَا الفَرَضية.

لسوء الحظّ، سميث لم يكن قادراً – أبداً – على تقديم النسخة المكتوبة باليد لرسالة كليمنت للعلماء الآخرين للدراسة والفَحْص الشرعي، ولهذا؛ حصل على الكثير من النَّقْد. إن هذه اللامبالاة عُدَّتْ سيئة جدّاً بالنسبة لعالِمٍ يُعَدُّ – عادةً – شديد الدقّة والحرص. لسوء الحظ، أعرف – تماماً – أن ليست كلّ مخطوطة يراها المرء يمكن تقديمها – فيما بعد – للعلماء، ليقوموا بإجراء الاختبارات، والعمل عليها، مهما كان مقدار رغبة ذلك المرء بأن يتمَّ ذلك. وهذا صحيح؛ خُصُوصاً بالنسبة لتلك المخطوطات ذات القيمة التجارية، أو النادرة، أو تلك التي تُعَدُّ مثيرة للجدل والإحراج بالنسبة للمجموعة التي تحتجزها.

على أية حال، يجب أن يُسجَّل أنه رغم عدم قدرة سميث على تقديم النصّ الأصلي، علماء آخرون رأوا الرسالة الأصلية. عالمان في الجامعة العبرية هما غاي سترومسا أستاذ في مقارنة الأديان، وديفيد فلوسر أستاذ في الدّيانة اليهودية القديمة والأصول المَسيحية، كلاهما رآها. عام 1976، هاذان العالمان زارا مكتبة «مار سابا» خُصُوصاً لإلقاء نظرة على النصّ.

بَحْثٌ لبضعة دقائق هو كلّ ما تطلَّبه الأمر للعثور على الكتاب، الذي مازال يجلس على الرفِّ، حيث وضعه سميث. حصلوا على رُخصة لإعادة الكتاب إلى القُدْس إلى المكتبة البَطْرِيَرْكية الأرثذوكسية اليونانية.

كان هدفهم التحضير لتحليل كيميائي للحِبْر؛ لتحديد تاريخ الكتابة. ولكنْ؛ عندما كان الكتاب في القُدْس، اكتشفوا بأنّ الأشخاص الوحيدين الذين يمكن أن يُنفِّذوا هذا النوع من الاختبار كانوا الشرطة الإسرائيلية. السلطات الأرثذوكسية اليونانية رفضت تسليم الكتاب إلى الشرطة، ولذلك لم يحصل أيّ تحليل.

اكتشف سترومسا - لاحقاً - بأنّ الرسالة كانت قد أُزِيْلَتْ من الكتاب، وخُزِّنَتْ - بشكل منفصل - في مكان آمن. لا خطر في أن نفترض بأنه لن يراها ثانية أيّ علماء آخرين قريباً.

إنْ كان المُقتطف في الواقع أصيلاً، إذاً؛ ما هي «مَلَكُوت السماء»؟! وكيف يمكننا أن نذهب إلى هناك؟ حتى بدون الرسالة، يوجد هناك القليل - تماماً - من المعلومات المُتوفّرة لنا، إنْ كان باستطاعتنا تمييزها.

يُوضِّح السَّيِّد المَسيح في إنجيل لُوقَا (11: 34): «سراج الجسد هو العين. فإنْ كانت عينُكَ سليمة، كان جسدكَ كلّه منيراً. وإنْ كانت عينكَ مريضة، كان جسدك كلّه مظلماً». هذا البيان ذو الروحانية الأصفى يستحقُّ بأن يكون منتمياً لأحد الأديان البوذية، أو الطاويّة[1]، من الشرق. ما الذي يعنيه السَّيِّد المَسيح بذلك؟ جوهرياً؛ هو يقول بأنّه إنْ كانت رؤيتنا من الله، عندها سوف يُعانقنا النور المُقَدَّس. سنصبح مُنغمسين مع «الله»، كما أخبرتنا القدّيسة الكاثوليكية الباطنية تيريزا من أفيلا في القرن السادس عشر.

القدّيسة تيريزا واجهت - كثيراً - الحالة التي كانت تدعوها «النشوة» - وهي الحالة التي فيها رغبة روحية تتخلَّل كامل الروح في لحظة، وتبدأ بأنْ تصبح مرهقة جدّاً؛ حيث إنها ترتفع عالياً فوق نفسها وفوق كلّ المخلوقات. والروح ترتفع لتصبح منغمسة مع «الله» لفترة قصيرة. أثناء هذا الوقت، الأحاسيس لا تستطيع إدراك ما يحدث. ولكنْ؛ عندما تصل الروح إلى حالة

(1) الطاويّة: فلسفة دينية مَبنيّة على تعاليم لاوتسي، وتُعَدُّ - بالإضافة إلى الكونفوشيوسيّة، والبوذية - أحد أديان الصين الثلاثة. المُترجم.

النشوة، «الروح تصبح مَعْميَّة ومُنغمسة تماماً». تُوضِّح «بأنّه عندما تنظر الروح إلى هذه الشمس المُقَدَّسَة، فإنها تُبهَر بسطوعها».

القدّيسة تيريزا تكتب مدركة - أيضاً - التشابه بين هذه التجارب والموت:

فقدتُ - تقريباً - كلّ الخوف من الموت، الذي أَفْزَعَنِي دائماً. الآن؛ يبدو لي الموت شيئاً سهلاً جدّاً بالنسبة لأحد خادمي الله؛ لأن الروح - في لحظة واحدة - يجب أن تجد نفسها خُلِّصَتْ من هذا السجن؛ لتذهب إلى الراحة. هذه اللحظة التي يرفع وينقل فيها اللهُ الروحَ ليُطلعها على الفضيلة الرائعة التي تبدو بالنسبة لي أنها تشبه تلك الروعة التي تغادر فيها الروحُ الجسدَ.

لماذا - إذنْ - لم نُعلَّم كلَّ هذا من البداية؟ إنّ الجواب - بشكل جزئي - هو بسبب كراهية الكَنيسَة للحُرِّيَّة التي تطلقها الروحانية.

القدّيسة تيريزا - على سبيل المثال - عاشت في خوف ثابت من العقاب، ومن أن تُسْحَبَ بعيداً إلى السجون المظلمة لديوان التفتيش. تحدَّرت من عائلة يهودية - من ناحية جَدِّها - لكنها اعتنقت الكاثوليكية. لسوء الحظّ، هؤلاء المتحوِّلون بدينهم كانوا الأشخاص الأكثر شبهة بالنسبة لديوان التفتيش. بحثت عن المشورة، ورغم أنها خاطرت في العبور في طُرُق مذهبية مُريبة جدّاً، وتمَّ عَدُّها مصدر ريبة من قِبَل البعض من أولئك الذين كانت تثق بهم، إلا أنها نَجَتْ بسبب أمانتها، وتواضعها، وروحانيتها العميقة جدّاً، وبشكل مُهمّ بسبب علاقتها الجيدة مع كاهنها اليسوعي. الآخرون لم يكونوا محظوظين جدّاً؛ بالنسبة لهم، لم يكن هناك إلا السجن والحَرْق.

عظيم جدّاً هو كُره الكَنيسَة للروحانية؛ لدرجة أنها حرَّفت رواية لُوقَا الباطنية لتُجبرنا على تفسيرها تفسيراً بعيداً عن الباطنية؛ الكَنيسَة - حقّاً - شوَّهت الصبغة الروحانية للرواية. التعليق الكاثوليكي الرسمي على هذا النصّ يزيل كلَّ إحساس بالمأثرة والالتزام والمغامرة الباطنية، كما تُوضِّح هذه السطور:

هنا يشيرون ضمنياً إلى أنّ رؤية غير مُشوَّهة هي المطلوبة لرؤية نور السَّيِّد المَسيح... يبدو أن معناها هو: «عندما يكون الرجل من خلال النور الداخلي للعيون السليمة مليئاً بالنور، وليس فيه أثر للظلام (الشّرّ)، عند ذلك، وفقط عند ذلك، سيأتيه النور من الخارج، وسيُنيره كُلِّيّاً، النور الذي أشعله اللهُ في المَسيح».

بكلمة أُخرى، حتى التعليق الكاثوليكي الجديد ليس متأكِّداً ما يعنيه ذلك النور؛ لقد كان راضياً – بما يبدو – أنه يعنيه ذلك النور.

لكننا – الآن – نعلم ما هو أفضل من ذلك. يمكننا أن نكون متأكّدين ممَّا يعنيه ذلك: إنه يُمثِّل موقف ونصيحة باطنية شديدة عن كيفية تجربة المصدر المُقَدَّس لكلّ شيء «الله» – عن كيفية السفر إلى مَلَكُوت السماء.

المزيد حول مَلَكُوت السماء يمكن أن يوجد – بالطبع – في إنجيل تُوما. أستاذ جامعة هارفارد هيلموت كوستر يشعر – بقوة – بأنّ هذا الإنجيل يجب أن يتمَّ ضَمُّه إلى شريعة العهد الجديد، والعديد من العلماء الآخرين يتّفقون معه في الرأي. لقد كان نتاج المَسيحية المصرية في القرن الثاني، الذي كان فترة مُنتجة جدّاً.

في عيد الفصح عام 367 بعد الميلاد، أثاناسيوس، أسقف الإسكندرية، أعلن بأنّ الكتب غير القانونية كلّها في مصر يجب أن تُتْلَفَ. بضعة نصوص بقيتْ.

من المحتمل أن الرهبان في الدَّيْر الموجود قرب نجع حمّادي قرَّروا إخفاء نصوصهم المُقَدَّسَة بدلاً من إحراقها، لذلك وضعوها في جرَّة كبيرة، دفنوها في الصحراء، قرب النيل.

في ديسمبر/ كانون الأول 1945، تمَّ اكتشاف الجرَّة من قِبَل عامل كان يحرث لتخصيب الأرض. داخلها وَجَدَ اثنَيْ عشر مخطوطة من ورق بُردي، بالإضافة إلى ثمانية من الصفحات التي كانت تحتوي ثلاث عشرة مخطوطة إجمالاً، احتوت الجرَّة على ستَّة وأربعين نصَّاً مختلفاً. البعض من الصفحات أُحْرِقَ، لكن المخطوطات بِيْعَتْ – في النهاية – إلى المتحف القبطي في القاهرة؛ حيث ماتزال موجودة حتى الآن.

في النهاية؛ وضع العلماءُ أيديهم عليها. البعض منها نُشِرَ في وقت مُبكِّر، ولكنْ؛ إلى أن نظَّمَتْ مُنظّمة اليونسكو فريقاً دولياً من العلماء لترجمتها، مجموعة صغيرة من العلماء احتفظوا بها لأنفسهم. الأستاذ جيمس روبنسن – زعيم فريق منظمة اليونسكو – يتكلَّم – بحزن – عن التأخير غير المنتظم في النَّشْر، والصعوبات في السماح للعلماء الآخرين بالوصول إليها؛ ليس – فقط – بالنسبة لهذه المخطوطات، بل – أيضاً – إلى لفائف البحر الميت قائلاً: «اكتشافات المخطوطات تكشف – عادة – عن أسوأ الغرائز في العلماء الطبيعيين».

هذه المجموعة من المخطوطات التي وُجِدَتْ في نجع حمّادي هي – الآن – تُسمَّى – بشكل شائع – «الإنجيل الغنوسطي». إلين باجلز الأستاذة في جامعة برنستون[1] – رُبَّما – هي المُعلِّق الأكثر شهرة على هذه المخطوطات. السِّمَة المثيرة لهذه المجموعة هو التشكيلة الواسعة من النصوص التي عُدَّتْ بأنها روحية؛ ليست – فقط – النصوص الغنوسطية المُتعدّدة الفئات، بل أعمالاً لأفلاطون، ونصوصاً هرميزية. إنها تُظهِر النظرة اللاطائفية للروحانية في تلك الأوقات. الدَّيْر الذي كان يمتلكها أصلاً – لربما – كان مَسيحياً، ولكنّه كان مُهيَّأً لمعرفة الروحانية الموجودة في هذه النصوص، أيّاً كان مصدرها. يظهر بأن رسالة النصوص هي التي كانت مُهِمَّة، وليست التقليد الدِّيني، أو الفلسفي، الذي – لربّما – ظهرت منه. تركيز الرهبان كان على مَلَكُوت السماء، بدلاً من الوصول إلى الفكرة الطائفية.

إنجيل تُوما كان من بين النصوص التي وُجِدَتْ في نجع حمّادي. من الواضح أنّ معلوماته جاءت من تقاليد سرِّيَّة كانت تُمرَّر – فقط – إلى بضعة خاصّة من الناس؛ وكما تُظهِر الجملة الافتتاحية فيه: «هذه هي الأقوال السِّرِّيَّة التي قالها السَّيِّد المَسيح الحيّ، والتي دوَّنها ديديموس يهوذا تُوما».

هذا الإنجيل – بشكل من الأشكال، رُبَّما – هو الأقرب إلى الإنجيل الشرعي. على خلاف النصوص الغنوسطية الأخرى، هذا الإنجيل يحتوي عدداً من القَصَص والأمثال تضاهي تلك التي في أناجيل العهد الجديد. لكنّه يحتوي – أيضاً – المزيد. إنه يعطي معلومات

---

(1) في نيوجرسي. المُترجم.

جديدة حول «المَلَكُوت» - أو «مَلَكُوت الآب». تلاميذ السَّيِّد المَسيح يسألون: «متى يأتي العالم الآخر؟». والسَّيِّد المَسيح يجيب: «إن ما تنتظرون قدومه قد جاء، ولكنكم لا تدركونه». ويصف الإنجيلُ المكانَ الذي يمكن العثور فيه على «مَلَكُوت السماء» هذه: «المَلَكُوت في داخلكم، وخارجكم». وجودها ليس الوجود في العالم المرئي. يقول الإنجيل: «مملكة الآب تنتشر على الأرض، والبشر لا يرونها».

وكيف يمكن أن نقترب منها؟ وفي مُكافئ تصوُّري لجواب السَّيِّد المَسيح الذي ذكرناه مُسبقاً كانت الإجابة: «عيناكَ يجب أن تكونا عيناً واحدة، عندما تجعلوهم كذلك، ستصبحون أبناء الإنسان».

لكي ترى العالم الحقيقي من خلال العوالم المتعدّدة ينصح المَسيح:

السَّيِّد المَسيح قال لهم: «عندما تجعلون الاثنَيْن واحداً، وعندما تجعلون الداخل مثل الخارج، والخارج مثل الداخل، والأعلى مثل الأسفل، وعندما تجعلون الذَّكَر والأنثى واحداً ومُتشابِهَيْن... عندها ستدخلون [المَلَكُوت]».

وفي بيان إضافي مشابه لذلك الذي في إنجيل مَتَّى، السَّيِّد المَسيح يُوضِّح: «مُعلِّمو الشَّريعة والفَرِّيسيُّون حصلوا على مفاتيح المعرفة، وأخفوها. هم أنفسهم لم يدخلوها، ولم يسمحوا للراغبين بالدخول بأنْ يدخلوا».

بُولُس، رغم كلّ الامتثال والطاعة التي تواصلت في كلّ كلمة وتفصيل من كتاباته، لم يكن خارج الدائرة التي تضمّ أولئك الذين علموا بأنه يوجد أكثر بكثير في الإيمان الجديد ممَّا يمكن كتابته. يقول بُولُس: «ولكنْ؛ هناك حكمة نتكلَّم عليها بين الناضجين في الروح، وهي غير حكمة هذا العالم... بل هي حكمة الله السِّرِّيَّة الخفية..» كُورِنْثُوس الأولى (2: 6-7).

الوصف «الحكمة الخفية» هي ترجمة للعبارة اليونانية الأصلية «sophian en musterio» والتي تعني «الحكمة في سرّ»؛ أيْ الحكمة التي هي سرّ. بُولُس يذكر بأن هذا السِّرَّ يُمنَح - فقط - لـ«teleiois» (المثاليين) الذين يتعلَّقون بـ«telete» (مراسم التلقين)، وبـ«telestes» (الكَهَنَة الذين يقومون بتلقين الألغاز). بُولُس يستعمل المصطلحات الفنّية للتقاليد الكلاسيكية الغامضة.

لكنَّ بُولُس لم يكن يعرف السَّيِّد المَسيح. بل هو لم يقابله أبـداً. وهـو لم يتواصـل مـع الجاليـة اليهودية المَسيحية في القُدْس. هذا ليس أمر مدهشاً، نَظَرَاً لـدوره الأسـاسي الـسابق في القـوات الاضطهادية. جالية القُدْس لم تأتمن بُولُسَ. كتاب «أعمال الرُّسُـل» يُوضِّـح - بـشكل خجـول، ولكنْ؛ بحزم - بأنّه بُعِثَ بسرعة إلى طرسوس «Tarsus» في جنوب تركيا. الكتاب يقترح بـأنّ ذلك التصرّف كان لحمايته، بالرغم من أنه أقلّ وضوحاً في تحديد هوية الذين احتاج الحماية منهم بالضبط ، أعمال الرُّسُل (9: 30). إنّ الفكرة هي أنّ بُولُس نُقِـلَ مـن اليهوديّـة. الزَّيْلُـوت أرادوه بعيداً. في الحقيقة؛ كان هناك الكثيرون جدّاً ممَّنْ رتَّبوا - بسعادة - لإبعاد لبُولُس بشكل دائم.

رغم ذلك، معرفته تتماشى مع الكثير من الأدلَّة الأخرى على وجود تعاليم باطنية وسرِّيَّـة قد تمَّ تناقلها سرّاً ضمن الدّيانة المَسيحية. على أية حال، في وقت ما في أواخـر القـرن الثـاني، هذه التعاليم أُبْعِدَتْ عن الأنظار. لقد تـمَّ تخفـيض مقامهـا، وتـمَّ رفـض مـصداقيتها، إلى أن تلاشت. سترومسا يقترح سببَيْن رئيسَيْن لهذه التصرُّفات: أولاً، مُعلّمو الهرطقة كانوا يتبعـون تعليمات سرِّيَّة في وقت تمَّتْ فيه إدانة البِدَع، وفي ذلـك الوقـت نفـسه، تمَّـتْ إدانـة التعلـيمات السِّرَّيَّة كافة. ثانياً، كان هناك إدراك أنه لزيادة الرغبة العالمية بالدّيانة المَسيحية كـان لابُـدَّ مـن القضاء على أيّة مذاهب ابتعـدت عـن كتلـة المـؤمنين. وفي الوقـت نفـسه، بظهـور الإنجيـل المكتوب، فَقَدَ التقليدُ الشفهي أهميَّته، رغم أنه كان العربة الرئيسة لحَمْل هذه التقاليد السِّرِّيَّة.

هناك نصٌّ آخر يجب علينا أن نلاحظه؛ لأنه يجمع عدداً من الخيوط التي أصبحت طليقـة أثناء رحلتنا الطويلة بعيداً عن الطريق.

في عام 1896، مخطوطة من القرن الخامس كُتِبَتْ بالقبطية على ورق البُردي تمَّ اكتشافها في القاهرة. احتوت نصوصاً جديدة أربعة، واحداً منها تمَّ العثور عليـه - أيـضاً، فـيما بعـد - في نجع حمّادي، وكلّها كانت نصوصاً قديمة جدَّاً. أحد النصوص لم يُرَ من قبلُ، وعُرِفَ - فقـط - إلى الكَنيسَة المصرية، يُدعَى إنجيل مَريَم المَجْدَلِيَّة. يعـود تاريخـه إلى أوائـل القـرن الثـاني بعـد الميلاد، لذلك، له القدر نفسه - وكذلك إنجيل تُوما - في ادِّعـاء المـصداقية كأناجيـل العهـد الجديد. على الرغم من العثـور عـلى جـزأَيْن آخـرَيْن إضـافيَّيْن مـن الإنجيـل، إلا أنـه لم يبـقَ إلا نصف الأصلي. على الرغم من هذا، هو يكشف الكثير.

مثل النصوص التي رأيناها مسبقاً، إنجيل مَريَم المَجْدَلِيَّة يحمل تحذيراً من السَّيِّد المَسيح ضدّ البحث عن دليل ماديّ لَمَلَكُوت السماء. إنّ الكلمات التي استُعْمِلَتْ في هذا الإنجيل هي مختلفة - بعض الشّيء - عن تلك التي اعتدناها. المترجمة - هي كارين كينغ أستاذة اللاهوت في جامعة هارفارد - استعملت تعبيراً غير قياسي لاستبدال عبارة «ابن الإنسان»؛ استعملت عبارة «طفل الإنسانية الحقيقية»، والتي من المحتمل أنها عبارة أفضل، مُتجنِّبة - بذلك - النظريات الطائفية، والدوغماتية؛ لأسباب مماثلة، استبدلت كلمة «مَلَكُوت» بـ«عالم».

يقول السَّيِّد المَسيح: «كُنْ حذراً حتى لا يخدعكَ أحد بالقول، ابحثْ هنا! أو ابحثْ هناكَ! عن طفل الإنسانية الحقيقية، الذي يكمن فيكَ. اتبعْهُ! أولئك الذين يبحثون عنه سيجدونه. بعد ذلك، اذهبْ للتبشير بالأخبار الجيدة عن العالم».

رغم ذلك؛ هناك تطوُّر مفاجئ في هذا الإنجيل: في وَصْف للتلاميذ - وهم يتناقشون حول ما كان يعنيه السَّيِّد المَسيح - يقول بُطرُس لمَريَم المَجْدَلِيَّة: أختاه، نعرف بأنَّ المُنقذ أحبَّكِ أكثر من كلِّ النساء الأخريات. أخبرينا كلمات المُنقذ التي تتذكَّرينها، الأشياء التي تعرفين بأنّنا لا نعرفها؛ لأننا لم نسمعها.

يتوضَّح بأن مَريَم المَجْدَلِيَّة حصلت على بعض التعاليم السِّرِّيَّة من السَّيِّد المَسيح، والتي لم يحصل عليها الآخرون. أجابت بُطرُس: «سأعلِّمكَ ما هو مَخْفيّ عنكَ».

عدّة من التلاميذ كانوا غاضبين بالمعرفة التي صرَّحت بها مَرْيَم، وعارضوا أن السَّيِّد المَسيح قد قال مُطلقاً ما تدَّعيه، أو هم اعترضوا لأنَّه تكلَّم مع امرأة قبلهم، الأمر الذي وجدوا صعوبة في تصديقه. وكانت ردَّة فعل بُطرُس أنه طرح بعض الأسئلة: «هل يتكلَّم - حقّاً - بشكل سرّيّ مع امرأة، ولا يتكلَّم معنا علانية؟! هل علينا جميعاً أن نلتفَّ، ونستمع إليها؟! هل فضَّلها علينا؟!»

لكن تلميذاً اسمه لاوي دافع عن مَريَم المَجْدَلِيَّة قائلاً: «بالتأكيد؛ معرفة المُنقذ بها موثوقة جدَّاً. لهذا أحبَّها أكثر منَّا».

يمكننا أن نكون واثقين، ليس استناداً - فقط - على إنجيل مَرْيَم، وإنجيل تُوما، وعلى مقتطف سميث من الإنجيل السِّرِّيِّ لَمرْقُس، بل - أيضاً - استناداً إلى الروايات التي في العهد الجديد بنفسه، من أنَّ السَّيِّد المَسيح علَّم التعاليم السِّرِّيَّة التي تعلَّقت بالعبور إلى الأعلى إلى مَلَكُوت السماء، وذلك استعارة - كما نوَّهتُ مُسبقاً - للمفهوم الذي وُصِفَ من قِبَل المصريين القدماء بـ«العالم الآخر»، أو من قِبَل اليونانيين بشكل مختلف بـ«العالم السفلي»، أو «أرض المبارَكين». كلُّها تُصوِّر العالمَ المُقَدَّس. تلميذ السَّيِّد المَسيح الذي فَهِمَ تعاليمه بأفضل شكل كان مَريَم المَجْدَلِيَّة، وهي التلميذة التي أحبَّها أكثر من كلّ الآخرين، وهي - طبقاً لإنجيل فيليب - التي كان يُقبِّلها في أغلب الأحيان.

هل نحن - إذاً - أقرب لفَهْم لماذا تمَّ أداء مراسم تكريس السَّيِّد المَسيح - عندما دُهن بالزَّيت في بيت عَنيا - من قِبَل امرأة، مَرْيَم من بيت عَنيا، التي هي شقيقة لعازر، الذي تمَّ «رَفْعُهُ من بين الأموات» في طريقة يبدو بأنها رواية مُحرَّفة عن تلقين أسرار العالم الآخر. يُوْحَنَّا (11: 2)!

اقترحت - أيضاً - بأنّنا يجب أن نقبل التقاليد القديمة، وأن ننظر إلى أن مَرْيَم من بيت عَنيا هي نفسها مَريَم المَجْدَلِيَّة: الصديقة الحميمة للسَّيِّد المَسيح، وجدليا، زوجته.

كانت رفيقة السَّيِّد المَسيح؛ لم يكن هناك خصوصية للذُّكُور في الطريق الذي قال عنه السَّيِّد المَسيح إنه يؤدّي إلى مَلَكُوت السماء.

كانت مَرْيَم هي التي فهمت - بشكل أفضل من أيّ تلميذ آخر - أسرار مَلَكُوت السماء، وهي التي وقفت على المراعي الخضراء للأرض الموعودة، وهي التي امتلكت كلَّ مفاتيح السَّفَر إلى العالم الآخر.

بالطبع؛ مَرْيَم ستكون الشخص الذي دَهَنَ السَّيِّد المَسيح ليؤدّي دوره كمَسيح مُنتظَر. أحد المُكوّنات الأساسية لطقوس دَهْن كهذه هو أنها يجب أن تُنفَّذ من قِبَل شخص يفهم ما يحدث، ومن قِبَل شخص يستطيع المشاركة في الاعتراف بالمَسيح المُنتظَر؛ بالنسبة للدَّهْن كان مجرد عمل نهائي لعملية أطول، والتفاصيل لم تُسجَّل في الإنجيل.

لا عجب أن أصحاب النفوذ في روما أرادوا استثناء معرفة هذه الطريق المُقَدَّسة، بالإضافة إلى معرفة هذه الأناجيل الإضافية. لسوء الحظّ - بالنسبة لهم- لم يستطيعوا فعل أيّ شيء حيال الأناجيل، التي أصبحت - فيما بعد - تُشكِّل العهد الجديد، إلا السيطرة على تفسيراتها - السيطرة على «التلفيق» الذي فيها.

إنّ الوَهْم - بالطبع - هو أن بعض علماء الدِّين - بشكل راسخ ومُتعجرف - يفترضون بأنهم يفهمون ما كان يعنيه الكُتَّاب قبل مئات السنين، أو - رُبَّما - قبل ألف، أو ألفَيْ سنة، وبشكل أفضل ممَّا كان يعرفه الكُتَّاب الحقيقيون بأنفسهم. لماذا كان علينا أن نُصدّق ذلك على الإطلاق لكلّ تلك المدّة؟!

بالرغم من أنه كان هناك - دائماً - علماء ومُعلِّقون علموا بالتلفيق، إلا أنه - فقط في الآونة الأخيرة - أصبحت مسألة التلاعب والأخطاء ظاهرة وشائعة بشكل كبير. ولكنْ؛ حتى الآن، وخُصُوصاً في القاعات المُزخرفة للفاتيكان، لا شيء تغيَّر. السلطة تُفضِّل التلفيق على الحقيقة.

الفصل الثالث عشر

صُحُفُ المَسيحِ

مستوطنة كاليا «Kalia» كانت حارَّة وهادئة في ذلك العصر من شهر كانون الثّاني، كانون الثّاني كان يُفترَض أن يكون الشهر الأبرد. لبضع سنوات؛ هذه المستوطنة الزراعية – التي تقع في مكان على أطراف البحر الميت – كانت قد أصبحت قاعدة لبعثتنا السنوية، التي تترأَّسها جامعة ولاية كاليفورنيا في «لونغ بيتش»، تحت إشراف الأستاذ روبرت آيسنمان رئيس قسم الدراسات الدِّينية. هدفنا البعيد المدى كان اكتشاف لفائف البحر الميت الأخرى. لكنْ؛ أولاً كان لابُدَّ أن نكتشف – بطريقة منهجية – كلَّ الكهوف الممتدّة على مسافة أميال في المنحدرات العمودية تقريباً، والتي يصل ارتفاعها حوالي ألف ومئتَيْ قَدَم فوق مستوى البحر.

مَكَثْنَا في مجموعة من الوحدات الفندقية، التي بُنِيَتْ في المستوطنة، للاستفادة من القدوم الثابت للسُّيَّاح إلى خربة قمران الأثرية، والتي تقع في مكان قريب من الأطلال، التي أصبحت شهيرة بعد اكتشاف لفائف البحر الميت عام 1947. أعضاء «كاليا» اعتنوا بالموقع، وأقاموا مطعماً ومكتبة عند المدخل؛ التكييف المركزي فيهما كان مأوى مُرحَّباً به، جَذَبَ – بالتأكيد – كلَّ زائر لتلك المنطقة.

عَمَلُنَا كان يبدأ مُبكِّراً، وينتهي ظهراً؛ لأن الحرارة كانت تصبح – بعد ذلك – حارَّة بشكل مزعج حتى في هذا الوقت من السنة. كنا نعود إلى المستوطنة، ونأكل سوية مع كلِّ الأعضاء الدائمين في صالة العشاء العمومية الكبيرة. بعد ذلك؛ كنا نذهب إلى وحداتنا الفندقية لتحليل نتائج أعمال الصباح، ولتنظيف وتهيئة أجهزة ومعدّات العمل، أو بعد أن تنخفض درجة الحرارة، كنا نتجوَّل حتى الغروب في صمت الصحراء؛ حيث بقايا الحجارة،

وقطع الخزف، والحيوانات، والطيور الصغيرة، التي زوَّدت المكان بسِحْر أخَّاذ. بعد الغروب - على أية حال - الاعتبارات الأمنية كانت تُشجِّع على العودة إلى الأسيجة الوقائية، والدوريّات المُسلَّحة التي تحرس المُستوطنة. كنّا في منطقة حدودية. في كلِّ موسم كنا نواجه - على الأقلّ - حالة طوارئ واحدة. أثناء هذه الزيارة بالذات، كنّا منشغلين في محاضرة عندما اندفع الحارس إلى داخل الغرفة، وأمر بهَمْس «بإطفاء كلِّ الأنوار، والانبطاح على الأرض»؛ لقد تمَّ اكتشاف بعض الدُّخلاء. كشفت الأدلَّة عن عبور مركب صغير في البحر الميت. في اليوم السابق كان أحد الجيران من المستوطنة قد فَقَدَ ساقه بلغم أرضي.

لكنْ؛ في فترة هذا العصر بالتحديد، في 17 كانون الثّاني عام 1992، قائد البعثة روبرت آيسنمان ذهب إلى القُدْس - تبعد حوالي أربعين دقيقة - للاجتماع بعالم آثار إسرائيلي. كنتُ أجلس على حائط مُنخفض أتكلَّم مع خبير توراتي زميل اسمه جيمس تابر، الذي كان أستاذاً في العهد الجديد، في جامعة كارولاينا الشّمالية، في شارلوت، ومعه في الفريق طالب كاليفورني يدرس دراسات عليا اسمه دينس واكر. الأعضاء الآخرون للفريق كانوا إمَّا في فترة راحة، أو كانوا يتناقشون بشكل هادئ في مجموعات صغيرة. في هذا المشهد الريفي دخل إسرائيليان بملابس حَسَنَة، ويسيطر عليهم طابع الغرور، الذي يدلُّ على وظيفتهما الرسمية الهامَّة. كانا - أيضاً - يحملان ملفَّاً، فيه أوراق، ممَّا أثار شكوكي على الفور. في (إسرائيل)، جنون الارتياب هو أمر منطقي ومن مُتطلّبات الحياة. حِزَم الأوراق الرسمية تعني - دائماً - المشاكل. سمعتُ محادثة قصيرة:

- «هل الأستاذ آيسنمان هنا؟».

- «لا، هو ليس هنا».

- «متى يعود؟».

- «لاحقاً» كان الردّ الحذر.

مشاكل! لماذا؟!

كنا نعتقد جميعاً بأن الاحتكار الذي كان مفروضاً على لفائف البحر الميت، والذي دام – تقريباً – لأربعين سنة، قد أُوْقِفَ – أخيراً – قبل شهرَيْن من ذلك الوقت، عندما قرَّرتْ مكتبة هانتينجتن في كاليفورنيا جَعْل المجموعة الكاملة لصُور لفائف البحر الميت – التي كانت تمتلكها – في متناول العلماء؛ آيسنمان كان أول المُنسّقين معهم، في أول يوم من القرار. ولكنّه كان واضحاً من الأحداث السطحيّة أن مصالح قويّة وشخصية ماتزال تتحرَّك عند كلّ فرصة لادِّعاء حقوق احتكار لفائف البحر الميت، التي هي وثائق عُمرها ألفا سنة، والتي تكشف حقيقة كانت مَخْفِيَّة لمدّة طويلة، حقيقة محرجة للدّيانتَيْن اليهودية والمَسيحية، حقيقة تمَّ التلاعب بها لفترة طويلة من قِبَل مجموعة صغيرة من العلماء.

لفائف البحر الميت اكتُشفت – أولاً – في أوائل عام 1947. القصَّة لم يسبق وأنْ تمَّ إثباتها بالكامل؛ لأن الراعي البدوي الشابّ الذي وجدها، والذي اسمه محمد الدّيب « Mohamad Adh-Dhib» – لربما – كانت مهمّته أكثر من مجرّد راع بسيط، هناك بعض الحساسية تحيط بالأحداث التي قادته إلى منطقة قمران.

لكنْ، كما لاحظنا، القصّة التي أخبرها بعد ذلك كانت بسيطة جدّاً. هو كان يبحث عن عنزة مفقودة بين المنحدرات والوديان، عندما لاحظ مدخلاً صغيراً إلى الكهف. عندما رمى فيه حجرة كان يتوقَّع أن يسمع صوت العنزة. بدلاً من ذلك، سمع صوت تحطُّم آنية فخَّارية، لذلك زحف إلى داخل الكهف لرؤية ما الذي كان هناك.

وجد مجموعة من الجرار الفخارية المغلقة، كلّ منها بطول قدمَيْن تقريباً، وبعضها كان مكسوراً. يُعتقَد بأنّه – على الأقلّ – كان هناك ثمانية من هذه الجرار داخل الكهف، بالرغم من أنه لا أحد يمكنه التأكُّد الآن. داخل كلِّ جرّة كان هناك لفائف جلدية مُغطَّاة بنصوص قديمة. البدوي اعترف بأنه جلب – على الأقلّ – سبعة لفائف.

بما أننا نعلم بأنّ هناك لفائف أُخرى لم يسبق لها أنْ نُقِلَتْ إلى السلطات المختصّة، يمكننا القول – ببساطة – بأنه ليس لدينا أية فكرة عن الكمِّيَّة التي كانت موجودة هناك بالأصل. علماء الآثار قدَّروا بأنه يوجد في الكهف قِطَع من الفخاريات المكسورة تكفي لأربعين جرَّة.

لكنّنا لا نستطيع أن نكون متأكِّدين - الآن - سواء هي حُطِّمَتْ في العصر القديم، أم مُؤخَّراً، أم إنْ كانت تحتوي لفائف تمَّ إتلافها، أو إخفاؤها بعيداً عن الأنظار لبَيْعها في المستقبل.

من هذا البحث الأولي - الذي يُدعَى الكهف (1) في قائمة لفائف البحر الميت - جاءت اللفائف السبعة، التي كانت - تقريباً - كاملة، بالإضافة إلى قطع تُمثِّل واحداً وعشرين لفيفة أُخرى. السبب في أن بعض اللفائف فُصِلَتْ، بينما بقت الأخرى سليمة هو مجهول. بالطبع؛ التفسير يمكن أن يكون بسيطاً لدرجة القول إن الجرار كُسِرَتْ نتيجة سقوط الحجارة من السقف، وأن الحيوانات البرِّيَّة بعثرت وفرَّقت اللفائف المكشوفة. لقد زرتُ مئات الكهوف في المنطقة، ويمكنني أن أشهد على حقيقة أن الانهيارات السَّقْفية هي أمر شائع، وكذلك وجود الحيوانات اللصوصية مثل أبناء آوى بكثرة.

مرَّر الراعي البدوي اللفائفَ إلى خليل إسكندر شاهين، يُعرَف - أيضاً - باسم «كاندو»، وهو تاجر آثار مَسيحي، كان عنده محلّ في بيت لحم. كان تاجراً خبيراً في السوق السوداء، وهناك إشاعات أن كاندو وزميل له ذهبا إلى الكهف بنفسَيْهما بعد فترة وجيزة، ووجدا نصوصاً أُخرى، أو أجزاء من نصوص. في أبريل/ نيسان 1947، إحدى اللفائف أُخِذَتْ إلى مطران الكَنيسَة اليعقوبية السُّورية الموجودة في دَيْر القدِّيس مَرْقُس في القُدْس. المطران كان غير قادر على قراءتها، لكنّه عرف قِدَمَهَا، وأهمّيّتها. رغم أن ثلاثة منها بِيْعَتْ في مكان آخر، المطران كان قادراً على شراء اللفائف الأربعة الأخرى.

أخذها إلى عالِمٍ في مركز العصور القديمة، وبعد ذلك إلى آخر في المدرسة التوراتية الآثارية «cole Biblique et Archéologique» تحت الإدارة الدومنيكية في القُدْس، والتي هي - منذ عام 1945 - كانت تحت إشراف البابا رولند دو فوكس. بينما كان كلاهما يعتقدان أن اللفائف كُتِبَتْ مُؤخَّراً، خبير آخر في المدرسة حذَّر المطران حول العدد الكبير للقِطَع المُزيَّفة التي كانت في متناول تُجَّار الآثار.

الأستاذ لعازر سوكينك، رئيس قسم علم الآثار في جامعة القُدْس العبرية، سمع عن اللفائف بعد فترة وجيزة، وكان قادراً على إلقاء نظرة عليها. بعد عدَّة محاولات فاشلة لشرائها

كلّها، سوكينك استطاع – أخيراً – شراء اللفائف الثلاث، التي لم يتمكّن المطران من شرائها. كان ذلك في أواخر عام 1947، عندما اشترى سوكينك لفيفةَ إِشَعْيَاء، ولفيفة الحرب، ولفيفة التراتيل. لكنَّ اللفائف الأربعة التي يمتلكها المطران – نصّ آخر لإِشَعْيَاء، سجلّ حَبَقُّوق[1]، دليل قواعد الانضباط، وأبوكريفا[2] سِفْر التكوين الآرامي – ثبت أنه من المستحيل الحصول عليها. اللفائف الثلاثة التي اشتراها سوكينك كانت قد نُشِرَتْ من قِبَل الإسرائيليين بين عامَيْ 1955 – 1956.

اتّصل المطران – أيضاً – بالمدرسة الأمريكية لعلْم الآثار في القُدْس، وفي أوائل عام 1948، قدَّم لفائفه لهذه المؤسّسة. بالإضافة لذلك، أعطى رخصة للمدرسة الأمريكية بتصوير ثلاثة من اللفائف لنَشْر نسخة عنها، على أمل أنْ يزيد ذلك من قيمتها. هذا التصوير الفوتوغرافي أُكْمِلَ في مارس/ آذار 1948.

في عام 1949، (إسرائيل) انتهت من حربها الأولى، ووفقاً لشروط وَقْف إطلاق النار كانت قمران – آنذاك – جزءاً من فلسطين. في 24 أبريل/ نيسان 1950، فلسطين ضُمَّتْ – رسمياً – إلى الأردن. السلطة الرئيسة لأيّ استكشاف آخر كمن في أيدي المركز الأردني للآثار، وفي يدَيْ مديره جيرالد لانكستر هاردنغ. لكنَّ المطران أخذ اللفائف إلى الولايات المتّحدة؛ حيثُ تمَّ عرضها في أواخر عام 1949. في الوقت نفسه، هي كانت معروضة للبيع.

وأخيراً؛ في عام 1954، هذه اللفائف تمَّ شراؤها من قِبَل الحكومة الإسرائيلية عبر الجهود التي قام بها يايغل يادين، ابن سوكينك. اليوم هي معروضة سويّة مع نصّ ثامن – لفيفة المعبد التي تمَّ الحصول عليها عام 1967 – في «موضع الكتاب المُقَدَّس» في القُدْس.

في بادئ الأمر؛ العلماء لم يكونوا مُعجبين جدّاً باللفائف. ناهيكَ عن اتّهامات التزييف والاحتيال، خبراء بارزون آخرون رأوها على أنها أعمال حديثة جدّاً. عام 1949، عالم بارز في جامعة أكسفورد الأستاذ غودفري درايفر، حدَّد تاريخها بأنه يعود إلى القرن السادس،

---

(1) أحد كُتُب العهد القديم، وهو اسم كاهن حبري عاش في القرن السابع قبل الميلاد. المُترجم.

(2) الأبوكريفا: أربعة عشر سِفْراً، تُلحق – أحياناً – بـ «العهد القديم» من الكتاب المُقَدَّس. المُترجم.

أو السابع بعد الميلاد؛ السنة التالية عدَّل ذلك التاريخ إلى ليُصبح 200 بعد الميلاد، مايزال ذلك بعد عهد الدّيانة اليهودية المَسيحية. عالم آخر من جامعة مانشستر عدَّها بأنها أحدث من ذلك التاريخ بكثير، وقد حكم عليها بأنها منتجات من القرن الحادي عشر بعد الميلاد. آخرون سلكوا طريقاً آخر؛ البابا رولند دو فوكس، مدير المدرسة التوراتية، عدَّ - بشكل أساسي - بأن عمرها أقدم بكثير من العهد المَسيحي. حدَّد تاريخ الجرار - وكذلك اللفائف التي وُجِدَتْ فيها - بأنه يعود للفترة الهيلينية قبل الهيمنة الرومانية على مصر واليهوديَّة؛ أيْ إلى أوائل القرن الأول قبل الميلاد.

في نهاية كانون الثاني من عام 1949، ضابطان عسكريان أردنيان وجدا الكهف الذي عُثِرَ فيه على اللفائف. في الخامس من مارس/ آذار من السنة نفسها، رولند دو فوكس وجيرالد لانكستر هاردنغ قاما بتنقيبه. وجدا قطعاً من الكتَّان، وقدوراً مكسورة، وقطعاً صغيرة من نصوص مكتوبة لأعمال مختلفة، تبلغ واحداً وعشرين عملاً. الأحداث كانت تتقدَّم ببطء؛ التنقيب كان مثيراً، لدرجة أنه مهما صغر الشيء الذي كان يُعْثَر عليه كان يُقْلِقُ الكَنيسَة. لكنَّ هذا كلَّه كان على وشك أن يتغيّر.

في نهاية عام 1949، اللفائف كلّها كانت إمَّا في أيدي الإسرائيليين، أو في الولايات المتّحدة. لكن الأحداث كان لها زخمها الخاصّ، وبدأت سريعاً بالخروج عن السيطرة. في أوائل عام 1950، ظهر المُجلَّد الأول للمنشورات في المدرسة الأمريكية للأبحاث المشرقية. كان عنوانه «لفائف البحر الميت لدَيْر القدِّيس مَرْقُس». هذا الكتاب كان يحتوي صوراً ونسخاً لمخطوطة إِشَعْيَاء، ولمخطوطة سجلّ حَبَقُّوق - الآن المعروف بـ«بشر حَبَقُّوق». كلمة «بشر» (pesher) هي الاسم الذي تمَّ استخدامه - عُمُوماً - في لفائف البحر الميت للإشارة إلى النصّ القديم، الذي فسَّرتْهُ مجموعة قمران لخدمة اهتماماتها، خُصُوصاً اهتمامها بـ«آخر الزمان» عندما يُهزَم العدوُّ، و(إسرائيل) ستُحكَم من قِبَل ملك من سُلالة داود.

بملاحظة كيفية تفسير هذه المجموعة لنصوص العهد القديم، كان بإمكان العلماء أن يكسبوا نفاذ بصيرة قيِّماً في عقيدتهم، وأفكارهم.

العلماء حول العالم بدؤوا بالنَّظَر إلى المحتويات، خُصُوصاً سجلّ حَبَقُّوق؛ بدؤوا - أيضاً - بالتَّوصُّل إلى استنتاجاتهم الخاصة حول اعتقادات أولئك الذين كتبوا تلك النصوص، وحول مضمون محتوياتها. حتماً؛ كان هناك تماثل مع الدّيانة المَسيحية.

جاءت الصدمة الأولى في 26 مايو/ مايس 1950، عندما أندريه دوبونت - سومر، أستاذ اللغة والحضارة السامية في جامعة السُّوربُون في باريس، أعطى محاضرة عامّة حول سجلّ حَبَقُّوق في أكاديمية النقوش والأدب المحض. لقد سبَّبت الغضب المُطلق. دوبونت - سومر انتقل - تماماً - إلى صميم المواضيع المُحرَّمة: بشكل عَلَني ربط اللفائف بالمَسيحية. الكثير كانوا مُربَكين لشعورهم بأن ذلك كان تحدِّياً لعقيدتهم؛ آخرون أُغْضِبُوا تماماً، وبسرعة أعربوا عن اعتراضهم.

فرضيات دوبونت - سومر تقول بأن سجلَّ حَبَقُّوق كُتِبَ أثناء الفترة المَسيحية القديمة؛ وبأن اللفائف أُخْفِيَتْ أثناء الحرب بين عامَيْ 66 - 70 بعد الميلاد؛ وأن الجالية التي كانت تعيش في قمران - التي كانت مُهتمَّة بالتمسُّك بـ«الميثاق الجديد» في سجلّ حَبَقُّوق - هم الأسنيون،الذين وُصِفُوا من قِبَل جوزيفس؛ وأن زعيم جالية اللفائف هو شخص لم يُسمَّ أبداً، وعُرِفَ - فقط - بلقبه الذي كان «مُعلِّم الحقّ»، والذي تمَّ الاعتقاد بأنه كان مُقَدَّساً، ثمّ مات من قِبَل أعدائه، وتمَّ الاعتقاد بأنه قام من بين الأموات. دوبونت - سومر صُعِقَ - بشكل خاص - من التشابه بين السَّيِّد المَسيح و«مُعلِّم الحقّ»، ورأى أنه النموذج الأصلي للسَّيِّد المَسيح.

بشكل مخيف؛ بدا بأنه يهاجم - بشكل مباشر - وحدانية السَّيِّد المَسيح. في تلخيص لاستنتاجاته التي نشرها في كتاب في السنة نفسها ، كتب دوبونت - سومر:

من المؤكَّد الآن - وهذا أحد أهمّ مفاجآت اكتشافات البحر الميت - أن الدّيانة اليهودية - في القرن الأول قبل الميلاد - شهدت كامل لاهوت المَسيح المُنتظَر المعاني، المَسيح المُنتظَر الذي يجب أن يكون مُخلِّصاً للعالم، موجودة في شخص كان يُدعَى [مُعلِّم الحقّ].

لم تكن – فقط – تفرُّدية السَّيِّد المَسيح هي المُهدَّدة بالضياع، لكنَّ دوبونت – سومر كان يقترح بأنّ المَسيح والدّيانة المَسيحية وُجِدَا في بيئة يهودية، في وقت قبل الوقت المعروف لوجودهما:

الوثائق التي وُجِدَتْ في قمران تؤكّد أن الكَنيسَة المَسيحية البدائية كانت مُتجذِّرة في الطائفة اليهودية، التي كانت تتبع «الميثاق الجديد»، والتي كانت تُدعَى طائفة الأسنيين، ولدرجة لا يمكن الشكّ فيها، وبأنّ الكَنيسَة استعارت منها جزءاً كبيراً في تنظيمها، ومناسكها، ومذاهبها، و«أنماطها الفكرية»، والمُثُل العُليا الباطنية، والأخلاقية.

الدليل الدقيق هو أنّ الفاتيكان شعرت بالقلق؛ بالتأكيد؛ بدأت بتحريك قوَّاتها للعمل. وهذه القوَّات كانت – على أقلّ تقدير – قويّة. بالرغم من أن ديوان التفتيش لم يعد يحرق الناسَ الذين يُشكِّلون الخطر، إلا أن ديوان التفتيش مايزال موجوداً لحماية عقيدة الكَنيسَة، مهما كلَّف الثمن.

كما ذُكِرَ في وقت سابق، في عام 1902، البابا ليو الثّالث عشر أسَّس لجنة البابوية التوراتية للتوجيه والإشراف على ثقافة علماء اللاهوت الكاثوليك. بشكل خاص؛ عارضت العصرانية، التي هي عمل أولئك العلماء الذين تجمّعوا – كما رأينا – حول كُلِّيَّة سانت سولبيس في باريس، قبل أن تتمَّ إدانة هذه التعاليم في أواخر القرن التاسع عشر. زوَّدت اللجنةُ البابويةُ التوراتيةُ ديوانَ التفتيش بالخبراء – «المُستشارين». لقد كانت اللجنة هي خطّ الدفاع الأول ضدَّ الهجمات على الدِّين. أحد أدوارها الرئيسة كان – ومازال – تأسيس وتشريع «الطريقة الصحيحة لتعليم... الكتاب المُقَدَّس». في الواقع، هي «محور التلفيق» الفاتيكاني.

بالرغم من أن محكمة التفتيش واللجنة عُدَّا بأنهما مُنظَّمَتَيْن مُنفصلتَيْن، إلا أن هذا كان – في الحقيقة – وَهْماً؛ كان هناك– دائماً – تبادل مُعتَبر في العضوية بين قيادتَيْهما. تمَّ تشكيل التَّقرُّب بينهما عام 1971، عندما تمَّ وَضْع اللجنة البابوية التوراتية تحت قيادة محكمة التفتيش، والتي تُعرَف – الآن – باسمها الجميل «التَّجمُّع من أجل تعاليم الدِّين». المُنظَّمتان كلتاهما تعملان من البناء نفسه في روما. في عام 1981، ***الكاردينال جوزيف راتزينغر أصبح الكاردينال المسؤول، «المُحقِّق الأكبر»؛ في عام 2005، كما نعرف جميعاً، أصبح البابا.***

في عام 1951، المعارضة لأولئك الذين ربطوا لفائف البحر الميت بالمَسيحية كانت تتعاظم: كان هناك الكثير ممَّا هو مُهدَّد بالضياع بالنسبة لأولئك الذين أرادوا الحفاظ على وحدانية السَّيِّد المَسيح ولاهوتيَّته. في فبراير/ شباط من تلك السنة، كتب عالم يسوعي بارز هجوماً في مجلة «Etudes»، وهي مجلَّة أكاديمية يسوعية. موقفه كان واضحاً من قِبَل العلماء الآخرين: عُدَّ بأنه «أُقْلِقَ ممَّا بدا أنه تهديد لتفرُّدية السَّيِّد المَسيح». في الوقت نفسه تقريباً، تمَّ توجيه ضربة أُخرى أثارت قلق العلماء الكاثوليكيين لدرجة أكبر. قِطَعٌ من الكتَّان كانت قد وُجِدَتْ في الكهف (1) عندما عثر عليها جيرالد لانكستر هاردنغ والبابا رولند دو فوكس. تمَّ إرسال إحدى القِطَع إلى الولايات المتّحدة، ليتمَّ تحديد تاريخها بالفَحْص الكربوني:

النتيجة كانت 33 بعد الميلاد، قد يزيد، أو ينقص 200 سنة، فترة الإنتاج من القرن الثاني قبل الميلاد إلى أوائل القرن الثالث بعد الميلاد. إذاً؛ ذلك يعني بأنّ اللفائف قد - بالتأكيد - حصل إنتاجها في الفترة المَسيحية. تلك كانت البيانات التي على الكَنيسَة أن تتعايش وتتعامل معها.

بعد ذلك، في مارس/ آذار عام 1951، البابا دو فوكس، الذي كان بنفسه يُناور للسيطرة على اللفائف، نشر مراجعة سلبية جدّاً لكلمات وكتاب دوبونت - سومر في مجلة « Revue biblique»، التي هو بنفسه كان مُحرِّراً لها. دو فوكس لم يبخل في تهكُّمه: «أطروحته مُقدَّمة بطريقة مُغرية جدَّاً، مع حماس فاتن. هناك الكثير من العلْم والأكثر من الإبداع».لكنَّ دو فوكس كان عُرضة للأخطاء، واقترف خطأ رئيسياً في هذه المراجعة. أحد «براهينه» ضدَّ أطروحة دوبونت - سومر كان حقيقة أن «تلك الجرار - التي احتوت هذه المخطوطات - يعود تاريخها إلى نهاية الفترة الهيلينية، قبل العهد الروماني في فلسطين، وفقاً لعلماء الآثار المُؤهَّلين الذين رأوها». في هذا، كما في العديد من المزاعم الأخرى، البابا دو فوكس كان خاطئاً، وكان مُجبراً - فيما بعد - بالتراجع عن تصريحاته. لكنّه استطاع إحراز موقع مُبكِّر في المناوشات، التي أدَّت - في النهاية - إلى معركة رئيسة.

في أواخر عام 1951، البابا دو فوكس وجيرالد لانكستر هاردنغ بدءا بالتنقيب في خربة قمران. في تلك الأثناء، ضربة أُخرى وُجِّهت نحوهما: كلُّ العُملات المعدنية التي وجدوها،

والتي يمكن تمييزها يعود تاريخها للفترة بين بداية العهد المَسيحي حتى نهاية الحرب اليهودية عام 70 بعد الميلاد. وجدوا - أيضاً - جرَّة مماثلة لتلك التي وُجِدَتْ فيها اللفائف في الكهف (1) موضوعة في أرضية إحدى الغرف. هذه إشارة قوية إلى أنّ قمران واللفائف كانوا قيد الاستعمال أثناء العهد المَسيحي.

بعد ذلك، في سبتمبر/ أيلول 1952، البدوي ظهر بصناديق كرتونية مُلِئَتْ بأجزاء من اللفائف. وجد البدويُّ الكهفَ (4). ذلك الكهف زوَّد بآلاف القِطَع التي تُشكِّل ما يقارب ثمنمئة لفيفة مختلفة. ولكنَّ كلَّ هذه القطع كانت صغيرة، وبعضها صغير جدَّاً. لم يتمّ العثور هناك على لفائف كاملة.

تطلَّب الأمر جَمْع العديد من الأجزاء، وترجمتها، للحصول على لفيفة كاملة، الأمر الذي لا يتحمَّله أيّ عالم. كان هناك حاجة ماسّة لتشكيل مجموعة مُتخصِّصة من العلماء للعمل على إعادة تجميع وترجمة ونَشْر تلك المواد. هذا الأمر منح البابا دو فوكس فرصة لاستعادة بعض السيطرة على النصوص.

في عام 1953، تمَّ تشكيل فريق دولي صغير من سبعة علماء «لامتلاك» اللفائف، والعمل عليها. هذا الفريق كان تحت قيادة البابا دو فوكس، وسيطرة المدرسة التوراتية. أربعة من الفريق - بعد المغادرة المُبكِّرة لعالم ألماني - كانوا كَهَنَة كاثوليكيين؛ أحدهم، المُونْسِينْيَر[1] باتريك سكيهان، أستاذ في الجامعة الكاثوليكية الأمريكية في واشنطن، أصبح - لاحقاً - مدير المدرسة الأمريكية للبحث المشرقي، وعضو اللجنة البابوية التوراتية، اقتُبِسَ عنه القول إن: «الجزء الحقيقي من واجب كلِّ عالم في كتاب العهد القديم أن يتتبَّع في التاريخ المُقَدَّس تطوير الجاهزية لإدراك السَّيِّد المَسيح عندما يأتي».

بشكل واضح؛ هو لم يكن مُؤيِّداً قوياً للثقافة الموضوعية.

اللفائف حُفِظَتْ في متحف فلسطين للآثار، لاحقاً؛ سُمِّيَ متحف روكفيلر. كان يترأَّس متحف روكفيلر البابا رولند دو فوكس.

(1) لقب يُطلق على بعض الكَهَنَة ذوي المناصب العالية كالأساقفة. المُترجم.

البابا دو فوكس أصبح عضو اللجنة البابوية التوراتية في عام 1955. أيضاً، كرئيس للمدرسة التوراتية، هو كان في طليعة علم الآثار التوراتي. في الحقيقة، منذ زمانه فما بعد، كلّ مدير لاحق للمدرسة التوراتية كان – أيضاً – عضواً في اللجنة البابوية التوراتية.

البابا دو فوكس كان مُحرِّراً لصحيفة المدرسة التوراتية، التي كان اسمها « Revue biblique» (نَقْد توراتي)، والتي كانت مُكرَّسة للتحقيق الأكاديمي والآثاري في الأمور التوراتية. الصحيفة هَيْمَنَتْ – أيضاً – على مجلَّة جديدة كُرِّسَت للفائف البحر الميت، اسمها «Revue de Qumran» (نَقْد قمران). وعندما تمَّ إصدار الترجمة الكاثوليكية الجديدة للتوراة عام 1956، والتي كان اسمها «توراة أورشليم»، كان – لاحقاً – البابا دو فوكس المُحرِّر العامّ. أنتج – أيضاً – عملاً أدبياً رئيساً عن تاريخ (إسرائيل القديمة)، وعن لفائف البحر الميت، وعن تنقيبه في قمران. البابا دو فوكس كان – في الحقيقة – رجلاً مُؤثّراً جدّاً في هذا الحقل.

العلماء الذين تمَّ اختيارهم حافظوا على اللفائف بخصوصية شديدة: لم يُسمَح لأحد غيرهم، أو لأولئك الذين كانوا «مُجازين» أكاديمياً، بالوصول إليها. لكنَّ فضيحةً حصلت: بينما بعض العلماء – وبشكل خاصّ جون أليغرو – نشروا نصوصهم بشكل سريع نسبياً، آخرون احتاجوا إلى فترة أطول بكثير. أربعون سنة مَضَتْ، ومازالت بعض اللفائف المُهمَّة غير منشورة. كان هناك شكٌّ متزايد أن العلماء الكاثوليك يحتفظون بالموادّ التي تضرُّ بتفرُّدية السَّيِّد المَسيح.

العضو الإنجليزي في الفريق، جون أليغرو، كان لديه شكوكه الخاصة. بعد سماعه أن البابا دو فوكس وأعضاء آخرين من الفريق الدولي كانوا على وشك أن يكتبوا رسالة عَلَنية إلى صحيفة التايمز في لندن تدين تفسيره للمخطوطات، كتب إلى البابا دو فوكس في مارس/ آذار 1956، التحذير التالي:

في كلِّ محاضرة أُعطيها عن اللفائف، يظهر لي السؤال القديم نفسه: حقَّاً إن الكَنيسَة خائفة؟!... وهل بإمكاننا التأكُّد من أنَّ كلّ شيء سيُنشَر؟!... لا أحتاج إلى أن أُضيف ما هو التأثير الذي سيحدث لتوقيع الكَهَنَة الرومانيين الثلاثة في أسفل هذه الرسالة المقترحة.

لكن البابا دو فوكس والآخرين أهملوا هذا التحذيرَ، ومـضوا بعملهـم في تـشويه سُـمعة أليغرو. ما كانوا ليتركوه يفلت بعمله المُستقلّ بدون عقاب. السيطرة كانت هـي كـلّ شيء في حقل لفائف البحر الميت.

ومن منظورهم، هذا كان عملاً حكيماً. ما علينا إلا النَّظَر إلى نصّ «ابن الرّبّ» لرؤية ذلك.

في عصر أحد الأيام الحارَّة من شهر يوليو/ تمّوز عام 1958، تـمَّ شراء قطعـة جديـدة مـن النصوص؛ كانت باللغة الآرامية، وجاءت - بالأصل - من الكهف (4).

أحد الخبراء الحاضرين آنذاك، البابا اليسوعي يُوسُف فيتـزمير، الآن؛ أسـتاذ الدراسـات التوراتية في الجامعة الكاثوليكية الأمريكية، ومستشار اللجنة البابوية التوراتية، أخبرني بـأنّهم استطاعوا قراءة النصّ في الصباح التالي. نحتاج لفَهْم هذا بشكل صحيح: بحلول الـ10 مـن يوليو/ تمّوز عام 1958، الخبراء الذين كانوا في الفريق الدولي عرفوا بأنّهم يمتلكون جـزءاً مـن نصّ يشير إلى شخص «سيُدعَى ابن الله». الآن، مايزال هناك خلاف، سواء هذا الشخص كان مُؤيّداً، أم معارضاً لكَهَانَة قمران الصدّوقيّة، لكنَّ هذا لا يهمّ: إنّ الشيء المُهمّ هو لقـب «ابـن الله». سابقاً؛ كان يُعتقَد بأنّه استُعْمِلَ - بشكل خاصّ - للدلالـة عـلى الـسَّيِّد المَسيح في عـالم الدّيانة اليهودية، إلا أنه يبدو - الآن - أنه قد استُخْدِمَ في تاريخ يسبق ذلك الوقت.

بشكل طبيعي؛ ذلك كان مثيراً للجدل. العلماء الكاثوليك صمَّموا - قدر الإمكان - على تجنُّب رَبْط اللفائف بالمَسيحية؛ إن إصدار هذا النصّ سيُظْهِر بلاهة أدلَّتهم. لـذلك عملـوا مـا بوسعهم: احتفظوا بالنصّ لعدَّة سنوات. وجوده بقي طيَّ الكـتمان. أخـيراً، كـان ذلـك مـن مسؤولية العالم البابا يُوسُف ميليك عنـدما ذَكَـرَهُ في محـاضرة عـام 1972. في عـام 1990، تـمَّ تسريب النصّ إلى مجلّة شعبية اسمها «نَقْد علم الآثار التـوراتي»، والتـي - بـدورها - قامـت بنَشْره. ولكنَّ ذلك كان بعد 32 عاماً من الحصول عـلى الـنصّ، وترجمتـه. في غيـاب الحلـول الدائمة الأخرى، كإتلاف النصّ مثلاً، كان التلاعب بالوقت هو الحلّ الأمثل الأخير.

بالطبع، كلُّ مناورات التأخير كهذه انتهت في عـام 1991، عنـدما تـمَّ إطـلاق المجموعـة الكاملة لصور لفائف البحر الميت عن طريق مكتبة هانتينجتن في كاليفورنيا، وتبعها - قريباً -

كلّ المُؤسّسات الأخرى حول العالم التي قامت بنَشْر الصور التي كانت قد حصلت عليها – أيضاً – لحفظها بأمان. أولئك الذين مازالوا يتمنّون السيطرة على لفائف البحر الميت، على الرغم من أنهم فقدوا السيطرة المادّية على المادة الخام للفائف، أُجبروا – الآن – على تحويل تركيزهم للمحاولة على السيطرة على تفسير تلك اللفائف. هذا الكفاح مايزال مُستمرّاً حتى هذا اليوم.

لا تُخطئ: فالأمر مُهمٌّ للفاتيكان. إنه ليس بالشيء الصغير أن يتمَّ إنكار تفرُّدية السَّيِّد المَسيح ولاهوتيَّته.

قبضة الفاتيكان السابقة القوية غير المباشرة على هذه الوثائق شجَّعت الآخرين منّا على البحث عن الفَهْم في مكان آخر. لكنْ؛ أولاً كان لابُدَّ علينا أن نُفنِّد البعض من استنتاجات دو فوكس الخاطئة جدَّاً. على سبيل المثال، في نقطة ما أثناء احتكاره للنصوص كان قد أصبح مقتنعاً بأن قمران كانت مؤسّسة رهبانية احتوت على «غرفة طعام»؛ حيث كان الأعضاء يأكلون، وحُجرة النُّسّاخ؛ حيث الأسنيون – كُتّاب اللفائف – كانوا يعملون. هذا النموذج الرهباني كان يُوجِّه كلّ تفسيراته وتنقيباته اللاحقة. على أية حال، دراسات أكثر حداثة أطلقت شكوكاً خطيرة حول فكرة أن اللفائف كُتِبَتْ في قمران على الإطلاق. يبدو – من المحتمل جدَّاً – أنّها جُلِبَتْ من القُدْس، وأُخفيت في الكهوف.

في الحقيقة، بما أن البابا دو فوكس لم يُجهِّز – أبداً – تقريراً نهائياً عن الموقع، علماء الآثار استنتجوا أن قمران أبعد ما تكون عن كونها دَيْراً معزولاً، كانت – على الأرجح – مركز مزرعة تجارية، ربما كانت تُنتج الزيوت العطرية. يبدو أن البابا دو فوكس ادَّعى أن أقسام عمودية من الأرض المُتصلِّبة هي ليست إلا جدراناً طينية لبعض الغُرف، ولكنْ؛ في الحقيقة، أُخْفِقَ في تنقيبها. أخطاء كهذه هي التي جعلته يُؤسِّس فرضيَّته القائلة بأن قمران كان دَيْراً.

أخذتُ إلى قمران عالمَ آثار له خبرة في بلاد ما بين النهرَيْن وخبيراً في الأبنية الطينية، وذلك لرؤية هذه الجدران. نظر – فقط – إلى جدار واحد، وضحك، وصرَّح بأنّها لم تكن جدراناً على الإطلاق، بل هي مجرّد أرض غير مُنقَّبة. أثبت هذا التقييم صحَّته: في منتصف

شهر ديسمبر/ كانون الأول عام 1991، سقطت الأمطار في قمران بغزارة نادرة. أحد جدران البابا دو فوكس الطينية جُرِفَ بالسَّيل ليكشف عن قِدر طيني يجلس على رفّ. الذي أخبرني هو عامل في سلطة الآثار الإسرائيلية، أطلعني على صورة مُلوَّنة للقِدْر. كان يضحك أيضاً.

ولكنْ؛ كان بمقدورنا - أخيراً - أن نُفنِّد - علمياً - حجر الزاوية لنظرية البابا دو فوكس، التي ظهرت - بوضوح - في عمليته لإعادة بناء تاريخ مجمع البحر الميت: زعمه بأن الموقع دُمِّر بزلزال عام 31 قبل الميلاد، وأن حريق تبعه. ادَّعى أنه وجد شقّاً خلال الخربة، كان سببه هذا الزلزال. وكما قال إن ذلك هو السبب الذي جعل الموقع مهجوراً. في عام 1992، أخذنا أجهزة رادار أرضية وخبيرَيْن لتشغيلها إلى قمران. وجدنا بأنّ الشقّ الذي ادَّعاه في زلزاله غير موجود، وأن الضرر الذي ادَّعى أن سببه كان زلزالاً هو - على الأرجح، طبقاً للخبيرَيْن، كلاهما خبيران جيّدان في مثل هذا المَسْح - سببه انخساف طبيعي.

ما هو أهمّ من هذا كلّه هو سياق رحلتنا لاستكشاف أن لفائف البحر الميت أُصْدِرَتْ من مجموعة حقيقية من اليهود المَسيحيين، الذين عاشوا في عالم حقيقي، العالم نفسه الذي شهد ظهور السَّيِّد المَسيح، وتطوير الدّيانة المَسيحية. وفقاً لذلك، هذه الكتابات تعطينا بصيرة لم يسبق لها مثيل إلى الاعتقادات والمخاوف، وإلى حدّ معين، تاريخ هذه المجموعة ومواقفها اتجاه زمانهم. إنهم يكشفون العديد من المواضيع على غرار مواضيع المَسيحية القديمة التي توازي تلك التي عُبّر عنها في العهد الجديد. لكنّنا يجب أنْ لا ننسى بأنّ هناك اختلافات متميّزة أيضاً؛ لأن المَسيحية انفصلت عن الدّيانة اليهودية، والشريعة.

بشكل مُهمّ، اللفائف هي وثائق أصلية؛ لم يسبق أنْ تمَّ تعديلها بأيّة ترجمة، أو تنقيح لاحق، كما حدث لأغلب وثائقنا الأخرى من تلك الفترة. على الرغم من هذا، من الصعب الاقتراب من هذه الوثائق، وفَهْمها، بدون النظر إليها عبر عدسة بنية إيماننا المعاصر.

إنّ المشكلة المركزية في الثقافة التوراتية هي أنّ أكثر الخبراء في هذا الحقل دُرِّبُوا كعلماء دين، أو كمُؤرِّخين توراتيين. المُؤرّخون الموضوعيون في هذا الحقل - هم - نادرون. وأولئك المُؤرّخون الذين خاطروا في الدخول في هذا الحقل وجدوا أنفسهم - في أغلب الأحيان -

عرضة للهجمات العنيفة من قِبَل علماء الدِّين؛ لأن مثل هذا النظرة المحايدة في البيانات تـؤدِّي – على الأغلب – إلى استنتاجات مختلفة جدّاً، وهي غير مرغوب فيها في تعاليم الكَنيسَة.

تُؤثِّر اللفائفُ على المَسيحية بشكل مباشرة. إنها تطرح مُـشكلتَيْن عـلى الـدُّعاة المُتـشدِّدين للّاهوت المَسيحي؛ أولئك الذين يدعمون – بدون شكّ – لاهوت مجلس إزنك، الـذي ركَّـز على أن السَّيِّد المَسيح فريد، وديني، ومُؤلَّه.

أولاً؛ تُزوِّد اللفائفُ بدليل كاف بأنّ العهد الجديد والسَّيِّد المَسيح ظهـرا مـن بيئـة يهوديـة مَسيحية أقدم. هذا يكشف بأنّ المَسيحية ليست مستندة على حَدَث فريد في التاريخ، بل كانـت جزءاً من حركة موجودة، حتى إنها كان تستعمل تعبير «ابـن الله»، الـذي يُعتقَـد بأنـه لم يكـن معروف – مُسبقاً – في الدّيانة اليهودية، وبالتالي؛ هو علامة مميّزة للديانة المَسيحية.

ثانياً، اللفائف تُشكِّك في الوحدة اللاهوتية للأناجيـل. إنهـا تُـزوّد بالمفتـاح الـذي يكـشف التضارب اللاهوتي العميق بين يعقوب – شقيق السَّيِّد المَسيح وزعيم جالية القُدْس اليسوعية – وبُولُس، الذي ما عَرَفَ السَّيِّد المَسيح. هذا التضارب يكشف عن انـشقاق عميـق ومتنـاقض في العهد الجديد، خُصُوصاً فيما يتعلّق بالشريعة، كما هو موجود في كتابات بولين مـثلاً؛ حيـث تـمَّ التعبير عن التَّحرُّر من الشريعة، بينما في رسالة يعقوب، يتمُّ التعبير عن التَّشدُّد في التَّمسُّك فيه.

كنتيجة، تُزوِّد اللفائف بيانات إضافية للخلافات التي استكشفناها طوال طريقنا في إعادة النظر في لاهوت السَّيِّد المَسيح.

ولكنْ؛ ليست – فقط – اللفائف هي التي تُزوِّدنـا بمُـبرِّرات لوجهـة نظـر بديلـة: حتـى الأناجيل – بحَدِّ ذاتها – تُخفق في دَعْم اللاهوت، الذي تمَّ إقراره في اجتماع إزنك. **هل الـسَّيِّد المَسيح – حقّاً – قدَّم ادِّعـاء بأنـه هـو الله؟ يبـدو أن الأمـر لـيس كـذلك. في اعـتراف جـدير بالملاحظة، يُوسُف فيتزمير يجزم قائلاً: «الأناجيل – أيضاً – لم تُقدِّم ادِّعاء كهذا».**

ذلك يُعَدُّ مادة جدِّيَّة جدّاً: في صميم الدّيانة المَسيحية هناك اعتقاد بتفرُّدية – ولاهـوت – السَّيِّد المَسيح. لكـنَّ الأناجيـل لا تُقـدِّم هـذا الادِّعـاء، ولفـائف البحـر الميـت تُثبـت بأنّـكَ لا تستطيع فَصْل الدّيانة المَسيحية عن الدّيانة اليهودية المَسيحية، التـي لم تكـن تمتلـك مفهـوم

المَسيح المُنتظَر المُقَدَّس. لهذه الأسباب – على الأقلّ – الفاتيكان لم يكن لديه اختيار آخر إلا إبقاء اللفائف المتحيّزة مَخْفِيَّة لأطول فترة ممكنة. لم يكن لديها اختيار آخر إلا استغلال كلّ فرصة لإبعاد الدّيانة المَسيحية عن جالية اللفائف. والأبعد من ذلك، الفاتيكان لم يكن لديها اختيار آخر إلا محاولة السيطرة على تفسير هذه النصوص عندما ظهرت إلى النور؛ الجانب السلبي المحتمل كان هدَّاماً جدَّاً.

المشكلة الأساسية – كما أوضح بورتون ماك أستاذ العهد الجديد في مدرسة كليرمونت لعلم اللاهوت في كاليفورنيا – أنّ حركة السَّيِّد المَسيح الأصلية تمَّ السيطرة عليها من قِبَل علْم أساطير السَّيِّد المَسيح. ذلك أنتج حالة غير مُستقرَّة للكَنيسَة؛ لأن «أسطورة الدّيانة المَسيحية تدَّعي بأنها كانت تاريخاً حقيقياً، وبالتالي؛ تطلب من أتباعها الاعتقاد بأنّها كانت حقيقية». هو يُوضِّح الخطر قائلاً: إنْ تمَّ العثور على تفسيرات بديلة لهذا المزيج بين التاريخ وعلْم الأساطير، عندها «ستكون الأناجيل المَسيحية في مشكلة عميقة جدَّاً»، والدِّين المَسيحي سيكون بحاجة إلى القيام بتعديلات صارمة لوجهات نَظَرها؛ لأن الأناجيل هي مُؤسّسة «العالم المَسيحي الأسطوري». ماك صريح في نَقْده: «أسطورة السَّيِّد المَسيح خَلَقَتْ عالماً خيالياً رائعاً أكثر بكثير من أيِّ شئ تمَّ مصادفته في تعاليم السَّيِّد المَسيح».

تعاليم السَّيِّد المَسيح يهودية؛ أسطورة السَّيِّد المَسيح ليست كذلك.

يجب أن يكون واضحاً – الآن – أنّ هناك فجوة واسعة بين السَّيِّد المَسيح التاريخي والسَّيِّد المَسيح الدِّيني. يُصرُّ الحُماة الصارمون للاهوت السَّيِّد المَسيح بأنّهما يُشكّلان الشخصية نفسها، لكنَّ أيَّ مُؤرِّخ ينظر بأمانة في المعلومات المتوفّرة يمكنه أن يكتشف – بسهولة – بأنّهما شخصيّتان مختلفتان. رأينا – مثلاً – كيف كانت الفاتيكان مُجبرة – منذ فترة طويلة – على التَّصرُّف بطريقة قَمْعية، وبمُناورة. لكنَّ الحفاظ على هذا الموقف المُتشدِّد يصبح أصعب فأصعب مع مرور الوقت، الإجهاد ظاهر، والسَّدُّ يرشح. يبدو من المؤكّد أنّه في مرحلة ما سيصبح الضغط كبيراً جدَّاً، ممَّا سيؤدّي إلى انهيار البناء بالكامل تحت ثقل فرضيّاته الخاطئة، وكذبه الصارخ، وإساءة الفَهْم المُتعمَّدة.

من المفيد ملاحظة أن تفاصيل جالية لفائف البحر الميت يمكنها أن تجاري، خطوة بخطوة، الجاليةَ المَسيحية القديمة في القُدْس بزعامة يعقوب كما وُصِفَ ذلك في كتاب أعمال الرُّسُل. لذلك - إلى هذا الحَدِّ - تُعَدُّ لفائف البحر الميت وثائقَ مَسيحية قديمة، ويمكنها أن تساعدنا في الحصول على بعض وجهات النَّظَر للتأثير على علْم الأساطير الشامل، الذي نما بمرور الوقت. لكنَّ القصّة التي نكتشفها بهذه الطريقة هي - فقط - جزءاً صغيراً من الكُلّ.

على الرغم من هذا، يمكننا أن نقول - ببعض الثقة - بأنّه مع رحيل السَّيِّد المَسيح، التزم يعقوب بالمثل الأعلى للزَّيْلُوت، وهو معارضة الرومان، والدَّعْم الصارم للقانون اليهودي. كان بُولُس هو الذي حمل - بعد ذلك - جزءاً من الرسالة، وخَلَقَ الدّيانة المَسيحية لغير اليهود. يعقوب اهتمّ - فقط - بالدّيانة اليهودية، وبمنطقة اليهوديَّة. بُولُس - بكلّ خواصّه - حدَّق إلى أُفُق أكثر بُعْداً. لكنْ؛ يبدو أنه فَقَدَ السيطرة.

هل يمكننا إنقاذ المَسيح من العقيدة التي تمَّ توريطه فيها منذ فترة طويلة؟!

في هذا الكتاب، اقترحتُ بأنّ السَّيِّد المَسيح - بعد حصوله على بعض المساعدة من أصدقائه المُقرَّبين، وبتواطئ من الحاكم الروماني بيلاطس البنطي - نجا من الصَّلْب. بلا شكّ؛ عملية الصَّلْب كانت مُناورة حريصة ودقيقة جدَّاً. عندما يُوسُف من الراما ذهب يطلب جسم السَّيِّد المَسيح، يبدو أن بيلاطس فكَّر بأنّ الخطَّة لم تنجح، وأن السَّيِّد المَسيح - في الحقيقة - قد مات، كما تمَّ الإشارة في إنجيل مَرْقُس، باستعماله للكلمة اليونانية «ptoma» (التي تعني «جثّة») للدلالة على جسم السَّيِّد المَسيح.

السَّيِّد المَسيح لم يمتْ، لكنْ؛ يبدو بأنّه كان بحاجة عاجلة للمعالجة الطِّبِّيّة. أُنْزِل من الصليب، ووُضِعَ في قبر فارغ. ثمّ، عند حلول الليل، وطبقاً لإنجيل يُوْحَنَّا، يُوسُف من الراما ونيقوديموس جاءا بالجرعات الطِّبِّيّة. وكما اقترحتُ، عندما تمَّ اعتبار أن السَّيِّد المَسيح خارج نطاق الخطر، أخرجوه من القبر، بعيداً إلى الأمان، إلى مكان يمكنه أن يتعافى فيه. هذه هي الحادثة - إخراج السَّيِّد المَسيح الحي من قبره - التي تمَّ تصويرها في اللوحة المنقوشة، التي تُجسِّد المرحلة (14) من الصَّلْب في كَنيسَة قرية رين لُو شاتُو.

وماذا حَدَثَ بعد ذلك؟! لا نستطيع أن نعرف، لكنّه - على الرغم من الأساطير التي خُلِقَتْ عنه - لم يختفِ من على وجه الأرض. لقد ذهب إلى مكان ما.

إحدى مهامّ أيّة دراسة للتاريخ هي محاولة تفسير الحقائق. لسوء الحظّ، في هذه الحالة، ليس هناك حقائق، على الأقلّ؛ لا شيء يمكن التَّمسُّك به دون التَّعرُّض للنَّقْد. ليس لدينا نصوص عن السَّيِّد المَسيح، ولا سجلّات رومانية، ولا صُحُف، أو نقوش عائلية، تُثْبِتُ ذلك. كلُّ ما لدينا هو تصريح ذَكَرَهُ القسّ الدّكتور دوغلاس وليام غيست بارتليت: «أن السَّيِّد المَسيح كان حيّاً في عام 45 بعد الميلاد»، وبأنّ بقاءه كان نتيجة مساعدة من «الزَّيْلُوت المُتشدِّدين».

القسّ بارتليت سمع ذلك من ناصحه، كانون ألفريد ليلي، الذي ترجم الوثيقة الأصلية، وصرَّح بهذه الحقيقة. عَدَّ بارتليت - بشكل واضح - أن المعلومات كانت دقيقة. رغم ذلك، نحن نتعامل مع المخطوطة التي قرأها ليلي قبل أربعين سنة، أو أكثر، وكان يتذكَّرها في أواخر حياته. بارتليت كان يُكرِّر القصّة بعد خمسين سنة، أو أكثر، بعد ذلك. معنا حقٌّ بأن نتساءل عن مقدار دقَّة ذلك التَّذكُّر.

ذِكْر «الزَّيْلُوت المُتشدِّدين» يبدو بأنه رأي أكثر من كونه موجوداً ضمن الوثيقة ذاتها. أنْ تدعو أيّة مجموعة «مُتشدّدة التَّطرُّف» هو أن تُصدر حُكْمَ قيمة، في هذه الحالة، مَنْ أصدر ذلك الحُكْم؟ هل هو كانون ليلي؟ ربما. علاوة على ذلك - كما رأينا - السَّيِّد المَسيح - رُبَّما - كان مكروهاً من قِبَل الزَّيْلُوت، بعد أنْ رَفَضَ دَعْمَ معارضتهم إلى الضرائب الرومانية. لذلك هذا التصريح من الصعب دَعْمه، و كما أقترح: هو - على الأرجح - مجرد رأي.

لكنْ؛ ما هو مُهمّ هو تاريخ 45 بعد الميلاد، عندما قيل بأن السَّيِّد المَسيح كان مايزال حيّاً. هذه معلومات ثمينة؛ لأن التاريخ لا يمكن إعادة تأويله: 45 بعد الميلاد سهل التَّذكُّر، حتى بعد العديد من السنوات، وإنه لحقيقة تبقى صادقة مهما التفَّ حولها التلفيق.

هذا هو الجزء الوحيد من رسالة بارتليت، الذي يمكنني أن أقبل فيه - بلا شكّ، أو خلاف - بأن الرأي الشخصي لم يختلط فيه بالحقيقة.

وماذا عن السَّيِّد المَسيح بعد ذلك؟ إلى أين يمكن أنه ذَهَبَ للعيش؟ أين كان في عام 45 بعد الميلاد، وهو التاريخ الذي ورد في هذه الوثيقة؟ هل هو - حقّاً - كان في روما، ومسؤولاً عن الاضطرابات اللاحقة بين الجالية اليهودية هناك، كما ورد في سجلّات سوتونيوس؟

في هذه النقطة كلُّ ما يمكنني عمله هو التخمين، ولكنْ؛ بالتأكيد، بإمكاني القيام بذلك ضمن حدود ما هو معروف في تلك الأوقات. يبدو أنه - حقّاً - كان هناك مكان وحيد كان السَّيِّد المَسيح سيذهب إليه: العودة إلى مصر. إنْ كان يمتلك حقّاً الدَّعْم السِّرِّيّ من الرومان - لأكثر الأسباب تهكُّماً - عندها؛ الشيء الأسهل الذي كان بإمكانه القيام به هو أن يسافر سرّاً إلى ميناء القيصرية، ويُبحر من هناك. ومن الطبيعي - بالنسبة له - أن يصحب معه زوجته، التي اقتُرِحَ بأنها - ربما - كانت مَريَم المَجْدَلِيَّة التي اختفت عن الأنظار - بشكل مُؤكّد - بعد بضعة أيام من الصَّلْب؛ إذْ إنه ليس هناك أيُّ ذِكْر لها على الإطلاق في أعمال الرُّسُل.

لكنْ؛ إلى أين في مصر - رُبَّما - ذهب السَّيِّد المَسيح؟

يبدو من غير المحتمل بأنّه ذهب إلى الإسكندرية، التي كان يسيطر عليها آل فيلو والجنرال الروماني اليهودي تَيْبِريوس ألكساندر. لم يُتوقَّع منهم الترحيب بالمَسيح المُنتظَر اليهودي، أيّاً كانت درجة روحانيّته وغموضه. بالإضافة، بالرغم من أن العديد من الزَّيْلُوت المتعاطفين عاشوا في الإسكندرية، عدّة آلاف منهم ذُبِحُوا من قِبَل تَيْبِريوس ألكساندر عندما بدؤوا بثورة مفتوحة عام 66 بعد الميلاد، عند بداية ما أصبح يُعْرَف بالحرب المُدمِّرة ضدَّ الرومان في اليهوديَّة. المُتعاطفون مع الزَّيْلُوت لابُدَّ أنهم لاحظوا وعارضوا نجاة السَّيِّد المَسيح. لا، ربما كان من الحكمة له ولعائلته البقاء على بُعْد شاسع من الإسكندرية.

بالإضافة إلى الصعوبات في الوقت الذي وصل فيه السَّيِّد المَسيح ومَرْيَم إلى مصر؛ كان التَّوتُّر المتزايد بين اليونانيين واليهود في الإسكندرية، وبلا شكّ في المراكز اليهودية الكبيرة الأخرى مثل «إدفو» في الجنوب. هذه الأماكن تمَّت إثارتها من قِبَل الحاكم الروماني، وانفجرت في أحد أيام أغسطس/ آب من عام 38 بعد الميلاد، عندما اليهود كلّهم في الإسكندرية أُخْرِجُوا بالقوّة من بيوتهم، وتمَّتْ مُهاجمتهم، وسرقتهم؛ فَقَدَ الكثير منهم حياتهم.

كان ذلك – فقط – بعد سنتَيْن من الصَّلْب، هذا؛ إنْ كانت صحيحة إعادة التأريخ التي كَتَبَهَا هيو سكونفيلد عن الصَّلْب الذي كما قال إنه حَدَثَ في عيد الفصح عام 36 بعد الميلاد.

شعوري الشخصي بأنّ السَّيِّد المَسيح ومَرْيَم وجدا المأوى الأكثر أماناً في معبد أونياس، أو قربه؛ لأنه يبدو بأنه كان باطنياً، ولأنه يبدو أن الصدّوقيّين لم يكونوا مُتطرِّفين في الإحساس السياسي. أولئك الذين التزموا بهذا المعبد أُهْمِلُوا من قِبَل فيلو، ومن قِبَل الأرستقراطيين الإسكندرانيين؛ الإسكندرانيون المتعاطفون مع الزَّيْلُوت كانوا سيهتمُّون باليهوديَّة، وبمعبد أورشليم، بدلاً من الاهتمام بمعبد أونياس، وبالطبع؛ الزَّيْلُوت في اليهوديَّة كانوا قد أَهْمَلُوا منافسة هذا المعبد، وأَهْمَلُوا عدم التزامه بخُططهم السياسية الدنيوية تماماً.

يبدو – إذاً – أنه كان مكاناً آمناً؛ على الأقلّ، لفترة من الوقت. فترة كافية لنَشْر التقاليد الباطنية المُرتبطة بالسَّيِّد المَسيح ومَرَيَم المَجْدَلِيَّة، ولشَهْرها في التقاليد الشفهية.

ربما استمرّ السَّيِّد المَسيح بالتعليم بشكل هادئ هناك. ربما عاد إلى الحلقات التي درس فيها أصلاً. ربما هذا هو السبب في ظهور الجماعات المَسيحية اللابُولُسية[1] في مصر، في القرن الثاني بعد الميلاد، والتي كان العديد منها حليفاً للحركة الغنوسطية. هل كانوا يحملون بقايا تعليمات السَّيِّد المَسيح؟ أسئلة كهذه تجعلنا نُلقي نظرة – عن كَثَب – على النصوص التي خرجت من مصر، ورُفِضَتْ من الكَنيسَة المُتأثّرة بالتعاليم البُولُسية؛ لأنه في هذه النصوص – على الأغلب – يُسمَعُ الصوت الحقيقي الأصيل للسَّيِّد المَسيح.

وبعد انهيار كلّ شيء، بعد الحرب في اليهوديَّة، وبعد إغلاق معبد أونياس اليهودي، إلى أين ذهب السَّيِّد المَسيح؟ لابُدَّ وأنَّ السَّيِّد المَسيح وعائلته غادروا قبل فترة طويلة من هذا الوقت. مرة أُخرى، بعد انغماسي في التخمين المحض، أظن أنه من المحتمل أنّ السَّيِّد المَسيح وعائلته بقوا حتى الاضطرابات التي حصلت عام 38 بعد الميلاد. في هذه المرحلة كان من الواضح أنه من الحكمة أن يُغادروا، أنْ يسافروا إلى مكان آمن على بُعْد شاسع من مصر واليهوديَّة. في مكان ما تُحمَى فيه الجالية اليهودية من الكراهية اليونانية.

(1) التي لا تنتمي إلى تعاليم بُولُس الرسول. المُترجم.

ناربون، ميناء تجاري روماني رئيس في قمَّة نهر «أود» في فرنسا، ربما ضمَّ السُّكَّان اليهود الأقدم في المنطقة. كانت منطقة رومانية، وعلى خلاف مرسيليا، وليون، ووادي رون، تلك المنطقة احتاجت إلى وقت طويل لتُصبح مَسيحية، دليل على أن جهود البعثات التبشيرية المَسيحية البُولُسية المُتنوّعة كانت غائبة، أو غير مُؤثِّرة هناك. هو - أيضاً - المكان الذي وُجِدَ فيه الدليل الوثائقي الأقدم عن وجود جالية يهودية في فرنسا، ممَّا يدلُّ على وجود شعب يهودي نشيط هناك. ناربون ومرسيليا كانتا المدينتَيْن الرئيستَيْن في المنطقة التي أَخْبَرَت الأساطير اللاحقة عن وصول مَريَم المَجْدَلِيَّة إليها من الشرق الأوسط في زورق.

يبدو من المعقول - بشكل أكبر - أنّ هذه الجالية اليهودية في جنوب فرنسا كانت مصدر الوثيقة التي رآها كانون ليلي، والتي تذكر وجود السَّيِّد المَسيح عام 45 بعد الميلاد. كانون ليلي - كما ذكرنا - اعتقد بأنّ المخطوطة كانت - مرَّة - في أيدي المجموعة الغنوسطية الفرنسية الجنوبية، الكاثار. هذا التخمين يقترح - أيضاً - بأن مصدر الوثيقة هو من جنوب فرنسا.

هل كان الأمر يتعلَّق بأحد أشكال علْم الأنساب؟ أيْ أن النصّ قد تمَّ الاحتفاظ به بعناية من قِبَل أعضاء العوائل التي ادَّعَتْ بأنها تتحدَّر من سلالة داود، والتي عُرِفَ بأنها كانت تقطن في ناربون حتى أواخر العصور الوسطى؟ الرَّحَّالة اليهودي والكاتب الشهير بنيامين من تيوديلا زار ناربون حوالي عام 1166، وَكَتَبَ عن جاليتها اليهودية، التي كانت تُحكَم من قِبَل «سليل من آل داود كما هو منصوص في شجرة عائلته».

من الناحية الأخرى، هل نحن - رُبَّما - نتعامل مع ترجمة فرنسية من القرون الوسطى لوثيقة أصلية أقدم؟ ربما وثيقة من القُدْس نفسها، ويعود تاريخها للقرن الأول بعد الميلاد؟ كما سنرى، هذا محتمل جدّاً؛ لأنه تمَّ العثور على وثائق كهذه.

في العالم الغريب - غالباً - من العصور القديمة الشرق أوسطية، كان هناك - دائماً - إشاعات، ودائماً؛ اكتشافات جديدة قيِّمة، ودائماً؛ صفقات ليتمَّ عَقْدها. كان هناك - دائماً - تلميحات، وإشاعات متداولة، تتحدَّث عن وجود بعض الوثائق التي تُشكِّل خطراً على الفاتيكان، وثائق تمسُّ السَّيِّد المَسيح بأسلوب غير مُحدَّد، ويُقترَح بأنها كانت نوعاً ما من «دليل حاسم». لا أحد يعرف التفاصيل تماماً. لكن الإشاعات استمرَّت، واهتممتُ بتعقُّبها.

كان ذلك بعد ثماني سنوات من نَشْر كتاب «**الدّم المُقَدَّس، الكَأس المُقدَّسَة**» عندما استطعتُ - بمساعدة بعض العاملين في الحقل - أن أصل إلى مصدر الإشاعات، وإلى مالك الوثائق، التي كانت موضوع الإشاعات.

كان رجلاً إسرائيلياً عاش - لعدّة سنوات - في مدينة أوروبية كبيرة. كان رجل أعمال غنياً، لكنَّ حُبَّه الحقيقي كان للتُّحف القديمة ذات الرمزيّة الدِّينية، والتي جمعها بدون أيّ اعتبار لسعرها. وضَّح لي طريقة تفكيره: «كلُّ البشرية تبحث عن طريقة للحصول على اتصال مباشر مع الله. يمكننا أن نستخدم الرمزيّة لمساعدتنا في القفز للوصول إلى الله».

كان رجلاً مُثقّفاً جدَّاً، مُتكلّفاً بشكل تامّ، ذكياً جدَّاً، وشديد الحيلة، والحَدْس. فقط؛ الرجل الشجاع مَنْ يحاول أن يهزمه في صفقة تتعلَّق بالتُّحف القديمة. رحَّب بي في بيته، وقدَّم لي القهوة. وبينما كنتُ أجلس على الأريكة، نظرتُ إلى المنضدة المنخفضة أمامي، والتي كان سطحها من الزجاج الشَّفَّاف. تحتها كان هناك لوحة خزفية رمادية كبيرة: كان نموذجاً كاملاً لطقوس المعبد الكنعاني، جُمِعَتْ في آن واحد. الأحجار المُقَدَّسَة وُضِعَتْ في الأماكن المُقَدَّسَة، والعديد من الشخصيات الخزفية الصغيرة صُوِّرَتْ وهي تؤدّي العبادة الطقوسية. كلّ شخصية كانت فريدة، تؤدّي وظيفة مختلفة من الطقوس. حدَّقتُ في هذا، وأدركتُ بأنّه عمل فريد جدَّاً؛ حيث يمكن للمرء أن يُخْبَرَ كيف كانت تتمُّ الطقوس. لكنْ؛ بقدر ما عرفتُ، لم يرَ أيّ عالم - على الإطلاق - هذه القطعة؛ ليس بشكل رسمي، على أية حال.

البيت مُلئ بالخزائن التي تمَّ فيها التَّحكُّم بدرجة الحرارة والرطوبة؛ لأنّها تحتوي على العديد من القطع الفريدة؛ من النوع الذي يتمنى أن يمتلكها أيّ متحف في العالم. أخذني في جولة ضمن المنزل، وأَطْلَعَنِي على عدد من الكنوز المُعيَّنة قبل أن نعود للجلوس على الأرائك. هناك جلبت زوجته لنا المزيد من القهوة، وبدأ يُخبرني بعضاً من تاريخه.

في الماضي؛ كان صديقاً لكاندو، تاجر لفائف البحر الميت. كان السمسار بين كاندو والإسرائيليين، وكان قد اشترك في مسألة لفيفة المعبد، التي أفسدت علاقة كاندو بالإسرائيليين. كاندو كان يحاول بيع اللفيفة. صديقي ذهب بقطعة منها إلى يايغل يادين،

الذي أخبره بأنه يشتريها بأيّ سعر كان. المفاوضات كانت تتقدَّم عندما اندلعت حرب الأيـام السِّتَّة؛ بعد احتلال الضَّفَّة الغربية من قِبَل القوَّات الإسرائيلية في يونيو/ حزيران 1967، ذهب يادين إلى بيت كاندو في بيت لحم؛ ليستولي بنفسه على اللفيفة التي عرف بأنّها أُخْفِيَتْ في مكان ما هناك، عندما اعتُقِلَ كاندو للاستجواب لمدَّة خمسة أيام.

اللفيفة وُجِدَتْ - أخيراً - مَحْشُوَّة في المدخنة، ممَّا سبَّب إتلاف أطرافها.

كاندو الذي غضب من هذه المعاملة، رفض التعامل مع المزيد من الإسرائيليين، لكنّه أخـبر صديقي بأنّه كان يمتلك مجموعة كبيرة من اللفائف، والأجزاء، وبأنّه نقلها كلّها إلى دمشق.

قال - أيضاً - بأنه يوجد هناك كهوف أُخرى مجهولة إلى علماء الآثار، والتـي وجـد فيهـا البدويُّ المزيدَ من اللفائف. من المؤسف، البدوي كان يُقطِّع النصوص، ويبيعها بأجزاء مُمزَّقة. بهذه الطريقة يصبح سعرها أفضل. صديقي أخبرني بأنّه - خلال السنة الماضية - استلم قطعة طولها عشرون سنتيمتراً من لفيفة أكبر - وُصِفَتْ بشكل مُحدَّد بأنها طائفية، بدلاً من توراتية - لكنَّ سعر القطعة كان 500.00 دولار؛ وكامل اللفيفة عُرِضَ سـعرها بعـشرة ملايـين دولار. بالطبع؛ السعر كان قابلاً للتفاوض.

صديقي - بعد ذلك - روى لي قصّة حول يايغل يادين، كنتُ قد سمعتُهَا - أيـضاً - مـن مصادر أُخرى. **عندما نقَّب يادين في مسعدة، وجد هناك العديد من أجزاء نصوص. بالتأكيد؛ قام بترجمة عدد منها، لكنَّ الأخرى أُخذت إلى لندن؛ حيث وضعها في صناديق إيـداع في عـدَّة بنوك، تحت أسماء مُزيَّفة.**

قال صديقي - أيضاً - بأنّه باع ليادين قطعة كبيرة من لفيفة، عرف بأن يادين - بالتأكيد - أخذها إلى لندن؛ ليحفظها.

لسوء الحظّ، يادين مات عام 1984، ولم يترك أيـة سـجلّات عـن البنـوك التـي أودع فيهـا الصناديق، أو عن الأسماء التي سجَّلها بها.

لذا؛ إلى أن تفتح البنوك الصناديقَ، وتكتشفها، ستكون هذه النصوص مفقودة من الثقافة.

بعد ذلك؛ طرح ذلك الشخصُ موضوعَ صُحُف السَّيِّد المَسيح!.

عند ذلك، زوجته أصبحت في حالة هستيرية تقريباً، رفعت يـدَيْها في الهـواء، وصرخـت بصوت عال، وبغضب، بينما اندفعتْ إلى خارج الغرفة. أنا لا أستطيع أن أفهـم لُغتهـا، لـذا؛ لم أعرف ما كانت تقوله، ولكنّه كـان واضـحاً جـدًّاً بأنّهـا لم تكـن ترغـب بمناقـشة موضـوع هذه الصُّحُف.

أَخْبَرَنِي القصّةَ. في أوائل عام 1960، **في مسيرة بحثه عـن القطـع الأثريـة، اشـترى بيتـاً في المدينة القديمة في القُدْس. مضى قُدُمَاً في تنقيب الطبقة الـسُّفلية للقبـو، حفـر في المنطقـة التـي كانت – مرة – منطقة ضواحي المعبد في العهد المَسيحي القديم.**

في عام 1961، وجد وثيقتَيْن من ورق البُردي، تحملان نـصّاً آراميـاً، سـوية مـع عـدد مـن الأشياء التي سمحت له بأن يُحدِّد تاريخ الاكتشافات إلى عام 34 بعد الميلاد تقريباً.

تلك النصوص من ورق البُردي كانت رسـالتَيْن آراميَّتَـيْن كُتِبَتَـا إلى المحكمـة اليهوديـة، السّنهد ريم. صديقي وضَّح بأن الكاتب كان يدعو نفسه «bani meshiha» – أيْ «مَسيح بني إسرائيل».

أنا ذُهِلْتُ. هل كنتُ أسمع هذا حقّـاً؟ استمعتُ – بـاهتمام شـديد – إلى مـا كـان يقولـه صديقي. واصل التوضيح:

هذه الشخصية، «مَسيح بني إسرائيل»، كان يُدافع عن نفسه ضدَّ تهمة أطلقها عليه الـسّنهد ريم؛ كان من الواضح أنه اتُّهم بأنه يدعو نفسه «ابن الله»، وكان قد تمَّ إيقافه للـدفاع عـن نفسه ضدَّ هذه التُّهمة. في الرسالة الأولى، وضَّح المَسيح المُنتظَر بأنّ ما كان يعنيه ليس أنه «الله»، بـل أن «روح الله» كانت فيه؛ أيْ لم يكن جسدياً ابن الله، بـل بـالأحرى، كـان ابـن الله بـالتّبنّي بـشكل روحي. وأضاف أن كلَّ شخص يشعر بالمِثْل بأنه مُمتلئ بـ«الروح» فهو – أيضاً – «ابن الله».

بكلمة أُخرى، المَسيح الذي يجب أن يكون – كما نعلم – المُعلِّم المعروف بالـسَّيِّد المَـسيح، يُصرّح – بشكل واضح – في هذه الرسـائل بأنـه لم يكـن مُقَدَّسـاً، أو مهـما كانـت الظـروف، هو ليس أكثر من أيِّ شخص آخر. يمكننا أن نكون واثقين بأن هذا هو الشيء الذي لا ترغب الفاتيكان بإعلانه.

بينما كنتُ أستمع إلى هذه القصّة صُعِقْتُ بالتشابه مع حادثة تثير الكثير من الفضول وُصِـفَتْ في إنجيل يُوْحَنَّا (10: 33-35): في عبارة قصيرة، تـصف «اليهـود» وهـم يعتزمـون رَجْـمَ الـسَّيِّد المَسيح لتجديفه. اتَّهموه قائلين: «... فما أنتَ إلا إنـسان، وجعلـتَ نفـسكَ إلهـاً». أجـاب الـسَّيِّد المَسيح تحدّيهم بشكل هادئ مُقتبساً من المزمور 82: «أما جاء في شريعتكم أن الله قال: أنـتم آلهـة؟ فـإذا كـان الـذين تكلَّمـوا بـوحي مـن الله يـدعوهم الله آلهـة، عـلى حَـدّ قـول الـشريعة التـي لا ينقضها أحد...». هل هذا الإنجيل يُبلغ عن بعض فتات ذلك التحقيـق مـع المَـسيح مـن قِبَـل السّنهد ريم؟!

بعد أن اكتشف صديقي هاتَيْن الرسالتَيْن من ورق البُردي، أظهرها لعالمَيْ الآثار يايغل يادين، ونهمان أفيجاد، وسألهم عن رأيهما فيها. كلاهما أكَّدا بأنّ هذه الرسائل كانت أصيلة، ومُهمَّة.

لسوء الحظّ، أخبروا بعض العلماء الكاثوليكيين أيضاً - احتمال كبير أن أحد أعضاء المدرسـة التوراتية، مُستشاري اللجنة البابوية التوراتية - لأنَّ الخبر وصل إلى البابا يُوْحَنَّا الثّالث والعشرين. البابا استجاب بالطلب من الخبراء الإسرائيليين بإتلاف هذه الوثائق.

صديقي رفض القيام بذلك، لكنّه أُقنِعَ بأن يُقسِمَ بأنْ لا ينشرها قبل خمس وعشرين سنة. وتمَّ القيام بذلك.

في الوقت الذي قابلتُهُ فيه كانت السنوات الخمس والعشرين قد انتهت منذ مدّة طويلة، لكـن صديقي مايزال يرفض نَشْرَ تلك النصوص؛ لأنه شعر بأنّ تحريرها سوف لن يؤدّي إلا إلى مشاكل بين الفاتيكان و(إسرائيل)، ويُلهب مُعاداة السَّاميَّة.

أتفهَّم - الآن - لماذا انزعجت زوجته!

بشكل طبيعي، كنتُ مُستميتاً لأن أرى بنفسي صُحُفَ السَّيِّد المَسيح. أردتُ أن أكون متأكِّـداً بأنها وُجِدَتْ حقَّاً، وأردتُ أن أكون قادراً عـلى قـول «نعـم، هـي موجـودة، لقـد رأيتُهـا». لكـنَّ صديقي رفض؛ قال بأنّه لم يكن مُهيَّأ لاطّلاعي عليها في ذلك الوقت. لكنّه كان يمتلك العديد من الكنوز الأخرى، التي أثارت اهتمامي كثيراً، ولذلك، على مدى الشهور القليلة اللاحقة، سـافرتُ إليه عدَّة مرَّات، للدردشة، وللنَّظَرَ إلى ما اشتراه مُؤخَّراً. ثمّ في أحد الأيام، تماماً عنـدما وصـلتُ، خرج من الباب يضع معطفه.

قال لي: «تعال معي، الآن، هل لديك وقت؟».

أوه، بالطبع، لدي كلّ الوقت.

ذهبنا إلى جزء آخر من المدينة؛ حيث أخذني إلى خزانة كبيرة جدًّاً، تكفي للدخول إليها، وكان فيها أيضاً - كباقي الخزائن التي يمتلكها - تكييف للحرارة، والرطوبة. تبعتُهُ إلى الداخل. هناك أَطْلَعَنِي على وثيقتَيْن من ورق البُردي، مُؤطَّرَتَيْن، ويغطّيهما الزجاج. كلّ منها كان بطول حوالي ثمانية عشر بوصة، وبعرض تسع بوصات. أمسكتُ بهما. تلك كانت صُحُف المَسيح، الرسائل التي بَعَثَهَا السَّيِّدُ المَسيح إلى السّنهد ريم. هي موجودة. كانت بين يدَيَّ. انتابني الصمت، بينما كنتُ أتمتَّع - تماماً - بتلك اللحظة.

لكنّها كانت - أيضاً - إحدى تلك اللحظات الأكثر إحباطاً، عندما كنتُ أتمنَّى - قبل كلّ شيء - بأنْ أكون قادراً على قراءة اللغات القديمة، كبعض الخبراء. أعرف بأنّ ذلك أشبه بالحصول على صندوق كنز، دون الحصول على مفتاح لفَتْحه. من المؤسف أنه لم يكن بمقدوري عمل أيّ شيء.

على الرغم من خبرتي التجريبية لسنوات عديدة بالمخطوطات، إلا أنني قُهِرْتُ بأهمية ما كنتُ أحمله بين يدَيَّ.

كنتُ مذعوراً ومربوط اللسان، عندما فكّرتُ بالتغييرات في تاريخنا، التي قد تُسبّبها هذه الرسائل، عندما يتمُّ تحريرها بشكل عَلَني.

لكنْ؛ على الأقلّ، هي كانت في مكان آمن. ثم أعدتُهَا إليه، فابتسم، وذهبنا لتناول الغداء.

ليس لدي أية فكرة عمَّا تناولناه في ذلك اليوم؛ لأنني كُنتُ مُستغرقاً - بشكل تامّ - بنتائج ما رأيتُهُ للتَّوِّ.

أردتُ أن يعرف كلُّ شخص بموضوع الصُّحُف. أردتُ الوقوف في الشارع، والصراخ إلى كلِّ العابرين أنَّ «الدليل الحاسم» موجود، لقد رأيتُهُ، وحملتُهُ!

في ذلك اليوم؛ صمَّمتُ على بذل كلِّ جهد لتمرير تلك الرسائل إلى عالم خبير للتدقيق والترجمة، وكنتُ أعرف - تماماً - ذلك الشخص.

كما كنتُ أشكُّ عندما أخبرنا القسّ الدّكتور دوغلاس بارتليت عن مخطوطة تحتوي دليلاً قطعياً على أنَّ السَّيِّد المَسيح كان مايزال حيّاً في عام 45 بعد الميلاد.

كنتُ أشكّ - لمدّة طويلة - بأنّ هذا الدليل - بكلّ تأكيد - سيأتي بشكل دنيوي، بدلاً من وثائق توراتية.

إن ما يجعل هذه الوثائق مقبولة وموثوقة جدّاً هو طبيعة الحقيقية المحضة، كما في الشهادة البسيطة لرجل يدافع عن نفسه ضدّ تُهمة أمام المحكمة.

كما صرَّحتُ قبل ذلك، إنْ كنَّا نريد أن نفهم - تماماً - «المَسيح التاريخي» فإن الأدلَّة موجودة وسط وثائق دنيوية كهذه، والتي منها سنحصل على أفكارنا، وبصائرنا الأعظم.

في الكثير من الحالات، أرشيفات العالم الحالية من غير المحتمل أنها مُسَّتْ؛ وثائق أصلية توجد أميالاً بعد أميال في المكتبات العامَّة الضخمة، وفي مجموعات الأرشيفات العظيمة للفاتيكان، في استنبول، والقاهرة، ولندن، وباريس، وبرلين، وفي العديد من المُدُن الكبيرة الأخرى. اكتشافات الوثائق المجهولة أو المفقودة منذ زمن طويل هي موجودة - بانتظام - بين كلِّ تلك المجموعات.

أجزاء أو نصوص أطول - لربّما - ماتزال غير مُكتشفة، وبشكل خاصّ؛ ضمن المكتبات العامَّة الإسلامية؛ لأن العديد من العلماء المسلمين في الفترة المُبكّرة من القرون الوسطى درسوا النصوص السابقة، واقتبسوا أجزاء كبيرة منها في مقالات.

علاوة على ذلك، العديد من هذه النصوص جاءت من عمل أسبق في سوريا - باللغة الآرامية، لغة السَّيِّد المَسيح - ربما من الجاليات المَسيحية النَسْطوريّة[1]، ولاحقاً، من الأديرة التي كانت - منذ القرن الخامس بعد الميلاد، فصاعداً - تُشكِّل - في أغلب الأحيان - مأوى لجيوب المَسيحيين اليهود الباقين على قيد الحياة، ومأوى لمخطوطاتهم.

---

(1) نَسْطوريّ: ذو علاقة بمذهب نسطوريوس، الذي عُدَّ هرطقةً عام 431، والذي ذهب إلى أن الطبيعتَيْن الإلهية والبشرية ظلَّتا مُنفصلتَيْن في يسوع المَسيح. المُترجم.

لذلك، يجب أن يُؤخَذ بعين الاعتبار - وباحتمال كبير - أنه - في الحقيقة - بعض النصوص المُتعلّقة بحياة السَّيِّد المَسيح وزمانه القديم سيتمُّ العثور عليها ضمن بعض المخطوطات المُهمَلَة في إحدى تلك المجموعات.

وبعد ذلك، بالطبع، وكما لاحظنا، هناك هواة الجمع الخاصِّين، القادرين على الدَّفْع النَّقْدي، والحصول - في أغلب الأحيان - على الاختيار الأمثل للأشياء التي يتمُّ جَلْبُهَا من المكتبات العامّة القديمة، أو التي يتمُّ اكتشافها في الغُرف الخفية، أو في الخراب الموجود تحت أعماق الرمال.

كما نحن سنرى، سيكون هناك - حتماً - اكتشافات أُخرى.

الفصل الرابع عشر

تجارة الثقافة

كان الوقت مُبكِّراً في المساء. النور في دراستي كان على وشك أن يضمحلّ. السماء الإنجليزية كانت تستعدُّ للتلاشي عبر أُفُق الليل الدامس.

جلستُ أنا والأستاذ آيسنمان نتحدَّث بهدوء، لكنْ؛ كلانا كنَّا في ذهول. بعد ذلك؛ جاءت لحظة الانتظار: جهاز الفاكس عندي بدأ - فجأة - بعمله المزعج. كلانا انتابنا الصمت في انتظار ما كنّا على وشك أن نراه.

انتابني - بشكل سريع - تساؤل مُربك ومُرهق عن المفاجأة الغريبة المحتملة في تلك اللحظة. كنَّا نتوقَّع وصول جُزء من نصّ إحدى لفائف البحر الميت، والتي عمرها ألفا سنة من فندق في سويسرا. والآن؛ كان الفاكس يصلنا لحظة بلحظة.

عندما الصفحة الأولى ظهرت، آيسنمان سحبها بنفاد صبر من الآلة، نظر إليها سريعاً، وبعد ذلك؛ رماها بازدراء في حضني. فهمتُ فوراً بأنّه لا يوجد ما هو مثير للحماس. كانت نسخة من نصّ من لفيفة توراة يهودية - رُبَّما - عمرها مئة أو مئتَيْ سنة - شيء جيد امتلاكه، لكنها قد تكون نادرة بصعوبة، وهي - أيضاً، بالتأكيد - ليست جُزءاً من إحدى لفائف البحر الميت. كان واضحاً إلى كِلَيْنَا أنَّ المالكَيْن المُسلِمَيْن لهذا النصّ لم يكن عندهما أدنى فكرة على وجود أيِّ اختلاف بين الاثنتَيْن. لقد تفاجأنا بشدَّة. ضمان الحصول على النصّ الذي كنَّا نتمنى الحصول عليه كان مغامرة فاشلة. لكنّه كان لابُدَّ علينا أن نتابع تلك المغامرة على أية حال، بما أنه لا يمكن للمرء أن يعرف متى يظهر الشيء الصحيح المُهمّ. وفرص كهذه تحدث في أغلب الأحيان - كما اكتشفتُ بعد ذلك بقليل - في الحالات التي هي أقلّ توقُّعاً.

أثناء فصل الربيع اللاحق كنتُ أنا وزوجتي في وليمة غداء في بيت صديق أمريكي، كان يعيش على جزيرة في البحر الأبيض المتوسط مَيورقه[1]. وُجِدَ عدد من الضيوف الآخرين، بمَنْ فيهم رجل أعمال اجتمعتُ معه مرَّة أو مرَّتَيْن قبل ذلك.

قال فجأة، بعد أن انحنى باتجاهي: «قرأتُ كتابكَ عن لفائف البحر الميت». لقد تفاجأتُ. عرفتُهُ كرجل أعمال، يعمل ضمن حدود القانون (تقريباً)، والقراءة عن لفائف البحر الميت لم تبدُ - بالنسبة لي - على أنها إحدى اهتماماته. عاش في إحدى الدول الخليجية العربية مع زوجته الأخيرة، وقد أسَّس، وَفَقَدَ، عدَّة ثروات. المكان الذي كان فيه من تلك السلسلة في ذلك الوقت لم يكن مُهمّاً - بالنسبة لي - أن أحزره.

«أعرف أين يوجد المزيد من لفائف أكثر!».

«المزيد من لفائف البحر الميت؟!»، هكذا سألتُهُ، وأنا مازلتُ - نوعاً ما - غير مُهتمّ، وغير مُتوقّع بأنْ يصدر منه حديث شاذٌّ كهذا.

أجاب: «نعم، في الكويت». وأضاف بأسلوب بدا بريئاً، وكأنه صوت صادر من شخص آخر: «هل هي تساوي الكثير؟».

«نعم»، أجبتُ، وأنا أحافظ على مظهري اللامبالي، وبعد أن شُدَّ انتباهي فجأة، تابعتُ: «إن هي كانت من النوع الصحيح. فإن اللفائف الطائفية - أيْ تلك المُحدّدة للجالية اليهودية التي دوَّنَتْهَا، والتي تُفصِّل شرائعهم، أو مواقفهم نحو المعبد - هي لفائف ثمينة. وأيضاً تلك التي تُدعَى «peshers»، السجلَّات الأصلية لأحداث أقسام من النصوص التوراتية. إنّ النصوص التوراتية القياسية هي الأقلّ ثمناً».

لم يُجِبْ بأيّ شيء لدقيقة كاملة. انتظرتُ. أعتقد بأنني كنتُ ألتقط أنفاسي. قال أخيراً: «تحتاج للتَّحدُّث مع صديق لي في الاستخبارات ... » ثمّ ذكر اسم دولة خليجية، وأضاف: «لديه اتّصالات جيدة جدَّاً. لكنْ؛ دعني أتكلَّم معه أولاً».

قلتُ بشكل بارد: «حسناً، أرسل لي التفاصيل عندما تكون مستعدّاً».

---

(1) أكبر جزء البليار؛ شرق أسبانيا. المُترجم.

على مدى الأيام القليلة التالية لم أسمع أيَّ شيء، لذا؛ عدتُ إلى بيتي في إنجلترا. ولكنْ؛ قريباً - بعد ذلك - استلمتُ فاكساً يقول: «اتَّصل بسَعد»، وأعطاني أرقاماً مختلفة. ولكنْ؛ في نهاية الفاكس وَرَدَ تحديد: «هو لا يريد أن تصل اللفائف إلى الإسرائيليين». لاحظتُ بأنّ السياسة الحديثة تتدخَّل، كالعادة.

خابرتُ سعداً على الفور؛ لأستجوبَهُ، وأنا في ريبة من ادِّعائه بالوصول إلى بعض اللفائف. كان مندفعاً: عائلته كانت تعرف كاندو، تاجر الآثار في بيت لحم، الذي كان مصدر اللفائف الأصلية، والذي توقَّع العديد بأنه كان يمتلك العديد من اللفائف الأخرى.

كرَّر سعد ما سمعتُهُ مُسبقاً: «اللفائف المَعْنِيَّة موجودة في الكويت، لكنها بين يدَي أحد أفراد العائلة».

«هل بالإمكان أن تحصل لي على وَصْف جيد لها؟» سألتُ وأنا حريص على أن لا نقع في التشويش الذي عهدناه أنا وآيسنمان في وقت سابق في مسألة لفيفة التوراة. سعد وعدني بالاتصال بي لاحقاً.

بعد أسبوع أو أكثر اتّصل بي ومعه المعلومات التي طلبتُهَا منه: كان هناك لفيفتان مختلفتان، ولكنَّ كلَيْهما كُتِبَتَا على جلد رقيق. كنتُ مُتحمِّساً جدّاً الآن: بدا ذلك وكأنه شيء حقيقي. على أية حال، كنتُ بحاجة إلى دليل إضافي صغير آخر، قبل أن أتمكَّن من المضي قُدُمَاً.

قلتُ: «سعد؛ بإمكاني أن أزيد ثمن شراء هذه النصوص، ولكنْ؛ لكي نبدأ بالمفاوضات على السعر، أحتاج لمعرفة أيّ نوع من اللفائف هي، وما هو مقدار أهميتها، وقيمتها. هل بالإمكان أن تُرسل لي صورة لقَسْم صغير من النصّ الموجود على كلِّ لفيفة؟».

وعد سعد بأنْ يتصل بي ثانية، ولكنْ؛ قبل إنهاء المخابرة عاد إلى القلق نفسه الذي أبداه فيما مضى. طلب مني بأن أعده بأنْ لا تصل هذه اللفائف إلى الإسرائيليين.

أجبتُ بأنّ هذا الوعد هو مُستحيل؛ إذْ إنني لا أمتلك أية فكرة ماذا سيحدث لها بعد البيع، ولكنّي أخبرتُهُ بأنّ الأموال التي كنتُ آمل بتأمينها هي من مصدر أمريكي. بدا أن سعداً كان راضياً عن هذا الجواب.

بدأتُ بتجهيز الأموال على الفور، على افتراض أنّ السعر المطلوب - مبدئياً - سيكون في ما بين 1-2 مليون دولار. كما حَدَثَ بالمُصادفة، قبل حوالي عدّة سنوات، اتصل بي مجموعة من الخبراء الماليين الأمريكيين، وأوضحوا لي بأنّهم يرغبون في الاستثمار في المخطوطات القديمة بدلاً من الأسهم والبضائع، وطلبوا مني بأن أُعلمهم إذا حصلتُ على أيّ من هذه المواد، وخُصُوصاً لفائف البحر الميت. بما أن مصدر التمويل هذا وعد بأن يكون مفيداً جدَّاً في المستقبل، وافقتُ تحت شرط واحد: أن العلماء سيُسمَح لهم بالوصول إلى مثل هذه الوثائق للدراسة، والترجمة، إنْ كانت العملية مضمونة. إذا التزم المستثمرون بهذا الشرط، يمكن - بعد ذلك - أن يحتفظوا بكلِّ حقوق النشر. هذا بدا معقولاً بالنسبة لهم، لذلك؛ طمأنوني بأنّه - في الحقيقة - سيكون الوضع كذلك.

خابرتُ المستثمرين، وكما توقَّعتُ، ذلك أثار اهتمامهم. وعدتُ بالعودة إليهم، عندما أشاهد صور اللفائف، وعندما أستطيع أن أؤكِّد - تماماً - ما نوعها. ثمّ انتظرتُ سعداً ليرسل لي الصور. من المحزن، مازلتُ أنتظر؛ لم أسمع منه أيّ شيء ثانية. ربما ما أخافه هو تدخُّل مُستثمرين مجهولين بالنسبة له، وعدم ضمان المكان المُؤكَّد الذي ستنتهي إليه اللفائف.

في النهاية، ورغم ذلك، ومهما كان الوضع السياسي، نعرف بأنّ مثل هذه اللفائف هي موجودة في الكويت كاستثمارات لدى سعد، وعائلته، وآخرين. في النهاية؛ المال سيتنقَّل، وفي النهاية، ستصل إلى أيدي العلماء؛ لأن جودة الاستثمار تعتمد - فقط - على جودة الربح المحتمل، الذي يمكن الحصول عليه، حتى وإنْ مضى جيل كامل قبل أن يتمَّ البيع.

الجانب السلبي لإجراء العمل بهذه الطريقة هو أنّه بدون عناية خبيرة لهذه اللفائف فإنها - في النهاية - قد تُتلَف، وتتحلَّل بشكل سيِّئ. لا يسع المرء إلا أن يتمنّى حتى من رجل الأعمال الأكثر حداثة بأن يضع ذلك في عين الاعتبار، وأن يتّخذ الخطوات اللازمة لحماية استثماره.

من الواضح أنّ هاتَيْن اللفيفتَيْن كانتا - فقط - جزءاً من العديد من اللفائف التي عُرف بوجودها «هناك». ماجين بروسكي، المدير السابق لـ«موضع الكتاب المُقَدَّس» في القُدْس؛

حيث كانت لفائف البحر الميت معروضة ، أخبرني بأنّ لفائف أُخرى لم يرها العلماء بعد، موجودة بالتأكيد. أثرتُ اهتمامه عندما تكلّمتُ معه عن إحدى لفائف البحر الميت التي عُرِضَتْ على رئيس مركز وكالة المخابرات المركزية في دمشق مايلز كوبلاند. بعد ذلك؛ بروسكي بدء بعرض تسوية رديئة. قال: «إن حصلتَ على معلومات من هذا النوع، أنا سأبادلها معكَ بـ... »، وبعد ذلك؛ بدأ بالتلعثم، ويبحث عن لفظ دقيق بلُغته متابعاً: «أنا سأبادلكَ ببيانات إضافية عن لفائف مفقودة».

إشاعات قوية حديثة جدّاً من مصادر موثوقة – عادة – بدأتْ بالظهور على السطح بخصوص نصوص غنوسطية مُخبَّأة أُخرى معروضة للبيع. النصوص قادمة من منطقة نجع حمّادي؛ حيثُ تمَّ العثور على النصوص الغنوسطية الأصلية عام 1945. إنْ كانت – حقّاً – قادمة من المكتبة الرهبانية القديمة نفسها، إذاً؛ هناك فرصة تامَّة لأن تكون نصوصاً مجهولة بالنسبة لنا في الوقت الحاضر. بكلمة أُخرى، هي ستكون كنزاً نفيساً للعلماء، وستكون مصدراً للبيانات التي سيتمُّ استكشافها من قِبَل جيل جديد كامل من الأكاديميين. أتطلَّع – بحماس كبير – للكشف عن هذه النصوص.

صحيح أن الطريقة الغامضة التي يعمل فيها هذا السُّوق الشَّاذُّ هي مُحبطة للمسؤولين، والعلماء، رغم أنهم كلّهم ملتزمون بقيودها؛ لأنها – ولأسباب مختلفة – الطريقة الوحيدة للتَّمكُّن من الدخول إلى المادّة التي تُوزَّع – بشكل هادئ – ضمنه.

الصفقات تجري – عموماً – بشكل رصين، بل سرِّيّ. من الصعب الحصول على المعلومات الملموسة حول الإمكانية، أو عدم الإمكانية، وحول السعر، وحول ما إذا كانت الأشياء قد تمَّ تناقلها، أم لا. كلّ شيء يحصل بشكل شفهي. الاتفاقيات الشخصية، ما إنْ يتمُّ الدخول فيها، لا تُنقَضُ أبداً.

الصفقات كلّها ذات قيمة عالية، ولكنها تحدث قليلاً، تقريباً؛ وفقاً للنزوات. رغم أنه خلف الشَّكلية تكمن بين التُّجَّار النَّظْرة الحادَّة للرِّبْح، وبالقدر نفسه تكمن بين الجامِعِين النَّظْرة الحادَّة للقيمة: إلا أنَّ أيّاً منهم ليس بأحمق.

أولئك المشاركون كلّهم يتمسَّكون بالحقيقة الوحيدة في هـذا الـسوق: أنـه عنـدما يتـوفّر المال، ستظهر الآثار في النهاية، وستُقدَّم مساهمتها إلى تراث العالم الثقافي.

في العديد من سنوات ارتباطي بهذه السُّوق، سمعتُ عـدداً كبـيراً نـسبياً مـن القَـصَص، وقابلتُ بعض الرجال الذين بدأتْ عندهم تلك القَصَص.

إحدى القَصَص التي أثارتْ فـضولي تعلَّقـت بالمدينـة اليهوديـة القديمـة خيـبر في بـلاد العرب، تبعد حوالي تسعين ميلاً عن المدينة.

في عهد محمد، كانت مركز تجارة غنية، وكانت تتمتَّع بجدران وقلاع دفاعية قوية، ولكنْ؛ عندما جيشها قاتل ضدَّ محمد، هاجمها، واستولى عليها في النهاية.

بعد موت محمد، أغلب اليهود طُرِدُوا، والكثير ذهبوا للعيش في أريحا.

في وقت ما عام 1980، الحكومة العربية السعودية كانت تشيد طريقـاً في المنطقـة. جرَّافـة كشفت النقاب عن بعض الأطلال، وأظهرت بيتاً كان يعود - مرَّة - لعالم ثري، بالإضافة إلى مكتبته الشخصية، التي مُلِئَتْ بالمخطوطات والكُتُب المخطوطة - عدَّة مئات منها. مـن بينهـا - كما أُخْبِرتُ - كان ما هو لمُؤلّفين يونانيين، ورومان، والـبعض منهـا لم يكـن موجـوداً عـلى الإطلاق بأيّ شكل آخر.

لكنَّ القطعة الأكثر أهمية كانـت مخطوطـة لطبعـة قديمـة للـسجلَّات التاريخيـة اليهوديـة للمُؤرّخ جوزيفس.

كلّ النسخ الحالية الموجودة لدينا للمُؤرّخ جوزيفس يعود تاريخها إلى العصور الوسـطى، وكلّها فيها عبارات مُدْخَلَة مَسيحية، ومَنْ يعلم ما الذي تمَّ حذفه؟

هذه الكُتُب المخطوطة يسبق عمرها التلاعب السياسي الذي واجهناه مـسبقاً، بالإضـافة إلى أنها كانت في حوزة مُثقّف يهودي. يمكننا أن نفترض بأنّها أصلية. أُخْبِرْتُ بأنّها تحتوي على كلّ الإشارات الأصلية للصدوقيين، «الرجـال الـصالحين» - مـن الواضـح أنهـم المجموعـة نفسها التي أنتجت لفائف البحر الميت - الذين أُزِيْلَ كلُّ ذِكْر لهم من بين كلّ الطبعـات التـي بقيت موجودة للمُؤرّخ جوزيفس.

بالرغم من أن أكثر الموادّ اليهودية التي وُجِدَتْ في البلدان الإسلامية أُتْلِفَتْ بسبب السياسة الحديثة، والرغبة لقَمْع أيّ دليل يقترح بالوجود اليهودي الماضي في هذه المجتمعات، إلا أنه ماتزال بعض المواد موجودة، وتُعْرَضُ للبيع بشكل سرّيّ. قابلتُ مالك هذه النصوص، التي ملأت ستَّ حقائب. مايزال يُخزّنهم حتى الآن، ربما للربح المستقبلي. لسوء الحظّ، رفض كلّ مطالبي بأن أراها، أو أن أجعل عالماً يراها لتصنيفها.

في الحقيقة، رغبتي هذه سبَّبت لي - مرَّة - مشكلة حقيقية. ذكرتُ وجود هذه النصوص لعالم كنتُ أعرفه، ثمّ عرَّفتُ الرجلَيْن على بعضهما، على أمل أنهما سيُحرزان تقدُّماً، وربما سيُسمَح - فيما بعد - للعالم بالوصول إلى المجموعة لدراستها، ومن ثمَّ؛ نَشْرها. الأسبوع التالي - وبدون إخباري أيّ شيء حول ما كان يخطّط له - العالم ورئيس الجامعة التي درس فيها زارا عميلي، وعرضا عليه بناء مركز بملايين الدولارات ومُؤسّسة أكاديمية للاحتفاظ بهذه النصوص، إنْ هي - في الحقيقة - نُقِلَتْ إلى الجامعة.

عميلي اتصل بي في وقت لاحق من ذلك اليوم، في غضب شديد جدَّاً، لإخباري بأنّه طَرَدَ الأكاديميين من بيته، وبأنني إنْ وضعتُهُ في هذا الموقف ثانية، فهو لن يتكلَّم معي. عُوقِبْتُ بشكل مناسب، بالإضافة إلى خيبة أملي الطبيعية؛ لأن العالم اتصل بعميلي من وراء ظهري بتلك الطريقة. لكنني لم أتفاجأ كثيراً.

في الحقيقة، كان لابُدَّ أن أعترف بأنّ - من منظور العالم - ذلك كان - بالتأكيد - يستحقُّ المحاولة.

في النهاية؛ مع ذلك، الجهود أخفقت، وبقدر ما أعرف، المخطوطات ماتزال في الخَزْن.

إلى متى لعبة «جرّ الحبل» هذه ستستمرُّ بين العلماء والتُّجّار وهُواة الجَمْع؟!

لا أحد يعرف.

بشكل واضح؛ يوجد صفّ واسع من الاكتشافات التي أتمنّى بأن تصبح سهلة الوصول إلى عالم العلماء قريباً، لكنَّ الظروف المُهدِّئة التي تحفظهم في الخفاء هي واسعة النطاق ومُعقَّدة. بشكل خاصّ، المسألة القانونية.

في عام 1970، اليونسكو (منظّمة الأمم المتحدة للعلوم والتربيـة والثقافـة) عقـدت قمَّـة لتحرِّي طُرُق إيقاف التجارة غير الشرعية للآثار؛ لكي تـضمن حفـظ تـراث الـبلاد الثقـافي. النتيجة كانت اقتراحـاً أن الـدول الأعـضاء في اليونـسكو يعيـدون للـوطن أيَّ آثـار منهوبـة ومُصدَّرة يتمُّ اكتشافها في بلدان أُخرى. لسوء الحظّ، تأثير هذه الاتفاقية كـان ضـعيفاً عنـدما العديد من الدول إمَّا رفضتْ توقيعها، أو أنها احتاجت إلى العديد من السنوات لتنفيذها.

في عام 1995، مؤتمر أوروبي يتعلَّق بالـ«يوندرويت»[1]، وهو معهـد قـانوني دولي مقـرّه في روما، مُتخصِّص بتنسيق القوانين بين البلدان، تمَّ عقده لتطـوير اتفاقيـة اليونـسكو الـسابقة، التي حصلت عام 1970. ركَّزت هذه الاتفاقية - بـشكل محـدَّد - عـلى عـودة المـواد الثقافيـة المنهوبة. في حين تعاملت الاتفاقية السابقة مع الأشياء المسروقة مـن المتـاحف، أو الكنـائس، أو المؤسّسات الأخرى، اتفاقية عام 1995، أعلنت بأنّ كلّ المواد الثقافية التي يمتلكها شخص بشكل غير قانوني - سواء تمَّ التنقيب عليها أصلاً بشكل قانوني ورَسْـمي، أو نُهِبَـتْ - فهـي تُعَدُّ مسروقة. حتى إنْ تمَّ شراء هذه المواد بشكل بريء، فلابُدَّ أن تعود إلى بلد المنشأ. اشـترط القانون ما هو أكثر من ذلك؛ بأنّ المشتري - إن كان بريئاً - فإنه يُعـوَّض لأيِّ خـسارة ماليـة. هذا التخويل لتعويض المشترين الأبرياء وَضَعَ البلدان الأفقـر في موقـع ضـعف، وكنتيجـة، عدَّة دول أعضاء أخفقتْ في تصديق هذا القانون أيضاً.

مُقدّمة هذه القوانين، سواء صُدِّقَتْ، أم لا، جعلت جُمَّاع هذه المواد الخطـرة يـستمرُّون في إخفائها وكتمانها لدرجة أكبر بكثير.

كما لاحظنا مسبقاً، بعض بلدان الشرق أوسطية تتمنَّى إزالة كـلِّ دليـل تـاريخي للوجـود اليهودي في بلادهم. أيّة آثار تُزوِّد مثل هذه الأدلَّة يُفْتَرَض بأنها كانت قد حُطِّمَتْ عنـدما تـمَّ العثور عليها. بشكل طبيعي؛ أكثرها لم يُتلَفْ، وبدلاً من ذلك يتمُّ تهريبها للخارج في الحقائب الدّبلوماسـية، أو بالـصادرات، التـي تبـدو شرعيـة، ومـن ثـمَّ؛ يـتمُّ بَيْعهـا إلى الجـامعين.

(1) «Unidroit»؛ «International Institute for the Unification of Private Law»: المعهد الدولي لتوحيد القـانون الخاصّ. المُترجم.

إنْ تمَّ تطبيق قوانين اليونسكو، أو اليوندرويت بصرامة، عندها؛ سيتمُّ إعادة هذه المواد إلى البلدان التي ستُتلفها بكلّ تأكيد. لهذا السبب، إلى هذا المدى على الأقلّ، الجامعون يحتفظون بالمواد التراثية المُهمَّة.

المشكلة هي أنّهم لا يستطيعون إظهارها رسمياً إلى العلماء، أو لمؤسّساتهم الأكاديمية، أو المتاحف؛ لأن هذه الدعاية - بكل تأكيد - ستستحضر بنود اليونسكو، واليوندرويت.

تمَّ إطلاعي - مرّة - على رمز مَسيحي يهودي كبير منحوت بالحجارة لشمعدان بسبعة فروع، موضوع على صليب متساوي الأضلاع.

القطعة بالكامل تبلغ مساحتها ياردة[1] مُربَّعة. بعد ذلك، أَطْلَعَنِي المُقتني على صورة في كتاب قديم لرمز مماثل موجود أعلى حائط في الكِنِيْس[2] في سوريا. لقد اضطربتُ. قلتُ: «يبدو أنهما متشابهان ... »، أجاب: «نعم، هي القطعة نفسها. حطَّم السوريون ذلك البناء، وبنوا طريقاً في ذلك الموقع، لكنّي استطعتُ شراء النحت».

هل نحن - حقّاً - نريد إعادة ذلك النَّحْت إلى سوريا؟!

لكنَّ أمثلة كهذه لا تستطيع خَلْق العُذر لمُعظم هذه التجارة السِّرِّيَّة؛ لأن المادة - لوحاً مكتوباً، أو نقشاً - هي - فقط - جزء صغير من القيمة الثقافية للبلاد.

ما هو أهمّ بكثير للعلماء هو البيئة التي اكتُشِفَتْ فيها هذه المواد؛ لأنه البيئة هي التي تسمح لهم بجَمْع المعلومات حول الماضي.

لسوء الحظّ، السوق السِّرِّيَّة عملتْ بسِرِّيَّة تامَّة تقريباً، وعلاوة على ذلك، عندما يتمُّ حفر الموقع الأثري، فإنه انتهى، ولا يمكن جَمْعُهُ ثانية.

لذلك عندما تظهر المادة في السوق - بدون أيّة معلومات حول مصدرها - قيمتها إلى تراثنا الثقافي هي معدومة، وكذلك الموقع الذي منه أُزِيْلَتْ تلك المادة.

---

(1) الياردة: وحدة لقياس الطُّول، تعادل 3 أقدام، أو 36 إنشاً، أو 44,91 سنتمتراً. المُترجم.

(2) معبد يهودي. المُترجم.

هناك – في الحقيقة – كتلة من النصوص المكتوبة والمخطوطات والوثائق الدنيوية القيِّمة في السوق السِّرِّيَّة، هذا ما لا شكّ فيه. ومن المؤكّد أن معظم هذه المادّة المكتوبة ستسقط – في الوقت المناسب – في أيدي العلماء، الذين سيستطيعون ترجمتها. من هذه الحقيقة – فقط – يمكننا أن نتوقَّع بقدوم اكتشافات مُهمَّة.

لكنْ؛ كما رأينا، ترجمة النصّ هي – فقط – بداية لعملية أكثر أهمّيّة: مهمّة التفسير، مهمّة فَهْم ما يقصده النصّ من منظور الشعب الذي أنتجه. لهذا؛ البيئة هي كلُّ شيء: إنها تُزوِّد بمقياس لكُلٍّ من الحقيقة، أو التلفيق.

أثناء فترة كتابة هذا الكتاب، بحثتُ عن معرفة بيئة خاصّة جدَّاً، تلك التي لمصر، واليهوديّة، في القرن الأول من العصر الحديث، الفترة التي يوجد فيها بضع حقائق يمكننا أن نكون متأكِّدين منها. رأينا كيف يمكن السيطرة على السياق، وإجباره على دَعْم القصّة، التي – ببساطة – لا يمكن أن تكون حقيقية. السَّيِّد المَسيح التاريخي لا يمكن أن يأخذ صفة السَّيِّد المَسيح الدِّيني اللاهوتي التي نُسِبَتْ إليه.

أثناء رحلتنا؛ اكتشفنا بأنّ السَّيِّد المَسيح رَفَضَ النشاط السياسيَّ لمُؤيّديه الزَّيْلُوت (المُتطرِّفين). هذه معلومة مُهمَّة وحاسمة كانت مَخفِيَّة. رأينا – أيضاً – بأنه ليس هناك دليل بأنّه مات على الصليب؛ في الحقيقة، الدليل الباقي يقترح عكس ذلك. وإنْ هو لم يمتْ على الصليب، فماذا عن قيامه من الموت؟ ماذا عن لاهوته؟ ماذا يُجسِّد في الثالوث المُقَدَّس؟ هذه الادِّعاءات ستتفكَّك عندما يتوقَّف التلفيق.

اكتشفنا بأنّ هذه المزاعم كلّها حول السَّيِّد المَسيح جاءت في فترة مُتأخّرة جدَّاً، نتيجة تغليف مُموَّه لبعض الأحداث التاريخية، التي حُرِّفَتْ بتعمُّد؛ لكي تخدم جدول أعمال لاهوتياً صارماً، ذلك الذي يحافظ – حتى يومنا هذا – على عدد من الأفكار الشَّاذَّة، والغريبة جدَّاً. الأوّل من بين هذه الاعتقادات هو أن الرجال – فقط – هم الذين كانوا التلاميذ الأقرب للسَّيِّد المَسيح، وبأن النساء لا يستطعنَ العمل ككَهَنَة، أو أساقفة، أو باباوات. بهذا الاكتشاف، تنهار الهيمنة الذَّكَرية على التعاقب الرسولي، سويّة مع مفهوم تمركز التعاقب في روما.

وبشكل حاسم، اكتشفنا بأنه ليس هناك دليل - أيضاً - يقترح بأن السَّيِّد المَسيح كان ينوي أن يُعبَد كإله. بالعكس؛ تعليماته تُشير بأنّه أراد كلّ شخص أن يكون لديه الفرصة للسفر إلى العالم الآخر لإيجاد الروح المُقَدَّسَة، أو كما وصفها، السفر إلى مَلَكُوت السماء ليمتلئ بـ«روح الله». أين تعلَّم السَّيِّدُ المَسيح هذا كلَّه ؟ ليس في الجليل، كما استنتجنا، بل من المحتمل جدَّاً أنه تعلَّم ذلك في مصر؛ حيث يظهر أن الجالية اليهودية كانت أكثر تنوُّعاً من الجالية اليهودية في فلسطين، وأنها رَعَتْ نظرة باطنية أكثر إلى الدِّين.

علاوة على ذلك، لا شيء في نتائجنا يقترح بأنّ السَّيِّد المَسيح خطَّط - أبداً - لتأسيس دين، ناهيكَ عن تشجيعه للآخرين بكتابة كلماته، وتنظيمها في مجموعة رسمية من الأقوال. في الحقيقة، العكس هو الأرجح. أشكّ بأنّه لم يكن مُهتمّاً - مطلقاً - إذا نسي الناس؛ ما كان أكثر أهميّة إليه هو أن الناس يجب أن لا ينسوا الطريق إلى مَلَكُوت السماء، فكرة ليست مُقيَّدة إلى الدّيانتَيْن المَسيحية واليهودية: «أن تكون جاهلاً بالقداسة هي الرذيلة الأعظم» هكذا تعلن النصوص التي نُسِبتْ إلى الحكيم المصري هرميز الثلاثي العَظَمَة.

يجب أن يكون واضحاً - الآن - ذلك التاريخ سهل التَّأَثُّر: لدينا حقائقنا، ولكنّنا لا نمتلك - أبداً - ما يكفي منها؛ لكي نكون قادرين على وضع أيدينا على قلوبنا، وأن نقول - بكلّ أمانة - بأنّنا نعرف - بالتأكيد - ما حَدَثَ.

التاريخ كلّه أسطورة، قصّة خُلِقَتْ لفَهْم بعض الأحداث التي يمكننا أن نعرفها. الماضي فرضية وُضِعَتْ لتوضيح الحاضر، وتبريره.

بشكل من الأشكال؛ هذا لا يهمُّ؛ لأن الأساطير وُجِدَتْ لتنقل المعنى، وليس التاريخ. ولكنْ؛ في هذا العصر العلمي، نريد معرفة أن الأساطير التي نعيش بموجبها هي - على الأقلّ - مستندة على بعض الاقتراب من الحقيقة، هذا؛ إنْ لم تكن كذباً. نريد معرفة أن السَّيِّد المَسيح صُلِبَ حقّاً، وبأن القيصر كان - حقَّاً - قد قُتِلَ من قِبَل بروتوس، وأن بُولُس حصل على تجربة غامضة (حُلم) في طريقه إلى دمشق.

هذه الأحداث كلّها معقولة، وليس هناك سبب جوهري لماذا هي قد لا تكون حقيقية!

ولكنْ؛ ماذا نفعل باعتقادات أُخرى كتلك التي تقول بأن السَّيِّد المَسيح يمشي على الماء؟
السَّيِّد المَسيح قام من بين الأموات؟
بُطرُس يُؤسِّس الكَنيسَة الرومانية بالباباوات المعصومين؟

لا شيء من هذه الاعتقادات معقول، وليس هناك سبب جوهري يجعل أيّاً منها حقيقياً. رغم ذلك هناك الكثير ممَّنْ يمتلكون القدر نفسه من الإيمان بالمجموعتين كلتَيْهما من هذه المزاعم.

عالمنا الحديث مُسيطَر عليه من قِبَل «أديان الكُتُب» اليهودية والمَسيحية والإسلام. يمكننا أن نرى أن إسناد الحقيقة على كلمات مكتوبة يجعلها عُرضة لكلّ المشاكل في التفسير والترجمة، فضلاً عن ذلك التشويه الدِّيني. إنّ الخطر هو أن الكُتُب تُعزِّز الاعتماد على الإيمان، بدلاً من المعرفة؛ إنْ كان هناك أحد الأهداف الضمنية لرحلتنا هو اجتياز الطريق بأنفسنا ومُواجهة مشاقّه، ومتعه، وبصائره، بشكل مباشر، بدلاً من اجتيازه بشكل ثانوي، أو بديلي، من قِبَل الآخرين (المُؤرِّخين).

وبتلك البيّنة يجب عليَّ أن أُنهي رحلتنا، ليس لأنه ليس هناك المزيد للسفر إليه، بل لأننا سافرنا كثيراً - الآن - وقد آن الأوان لأن نتوقَّف وننظر إلى أيّ مدى وصلنا.

عند توقّفنا، يبقى - فقط - أن نقتبس من الفارسي العظيم جلال الدِّين الرومي، الذي - وهو يصل مباشرة إلى لُبِّ الموضوع، كما كانت عادته دائماً - صرخ إلى كُلِّ مَن استمع:

«جرار مياه النبع غير كافية. أنزلنا إلى النهر!».

أنْ نشربَ من النهر هو - بالنسبة لنا - حقّ الولادة.

لا تدعوا أحداً يحرمنا من تلك الحُرِّيَّة!



لمحة إلى المُؤلّف

وُلِدَ ميشيل بيجنت في نيوزيلنـدة **1948**، وتخـرَّج بدرجـة بكـالوريوس في علـم الـنَّفْس، في جامعـة كـانتير بـوري، في مدينـة كريستـشيرش (نيوزيلنـدة). وحـصل عـلى ماجيـستير في العلوم الرُّوحانية؛ التَّصوُفية، والدِّينية، من جامعة كنت، في إنكلترة.

منذ عام **1976**، وهو يعيش في إنكلترة، مع زوجته، وأولاده.

مُؤلَّفاته:

- كتاب (**من بشائر بابل**).
- وكتاب (**الآثار القديمة**).
- وهـو مُؤلِّـف مُـشارك بتـأليف الكتـاب الحاصـل عـلى أفـضل المبيعـات عالميـاً: (**الدّم المُقدَّس الكأس المُقدَّسة**)، وكتاب (**الأسطورة المسيحية**) مع «هنري لنكولن، وريتشارد لي».
- وكتاب (**الهيكل والمحفل الماسوني**).
- وكتاب (**خديعة مخطوطات البحر الميت**).
- وكتاب (**الألمانية السرِّيَّة**).
- وكتاب (**الإكسير والحجر**).
- وكتاب (**محكمة التفتيش**).

كمُؤرِّخ تاريخي وخبير رائد في حقل العلوم الغامضة؛ شَرَعَ بِبَحْث دام عقدَيْن من الزمن، للوُصُول إلى حقيقة السَّيِّد المسيح، وتُوِّج بحثه بإصدار هذا الكتاب الذي بين أيدينا:

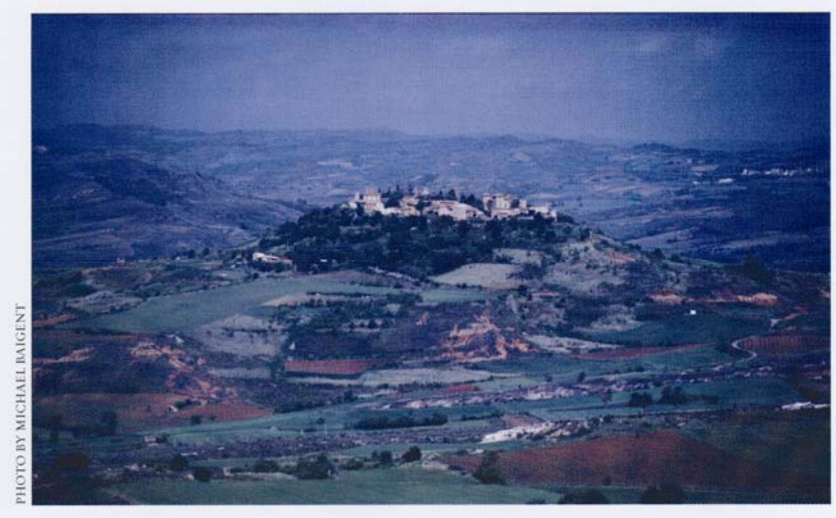
(**صُحُف المسيح** تكشف السرَّ الأعظم في التاريخ)

الصُّور والمواقع الأثرية المُهمَّة في الكتاب



الصورة النهائية لمراحل الصَّلْب في الكَنيسَة في رين لُو شاتُو في جنوب فرنسا. إنها من سلسلة قياسية،أُنْتِجَتْ للكنائس في القرن التاسع عشر من قِبَل شركة في تولوز. عادةً؛ كانت تُترَك بدون طلاء، لكنَّ هذه الصورة مزيّنة في أسلوب شاذّ ومُبهَم: يبدو وكأنّ القمر طلع، والليل حلّ، وعيد الفصح بدأ. لا أحد من الدِّين اليهودي سيمسُّ جثّة في هذا الوقت. هذه الصورة - إذاً - تُصوِّر السَّيِّد المَسيح وهو مازال حيّاً، ويتمُّ إخراجه من قبره، بدلاً من إدخاله إليه.

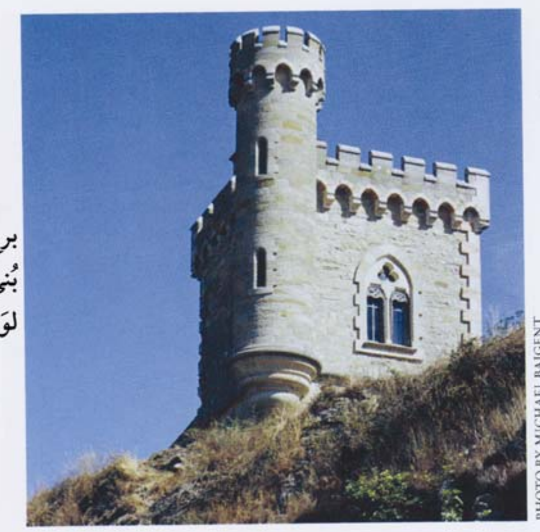
ما السِّرُّ العظيم الذي كان يكشفه كاهن هذه الكَنيسَة المدعو بيرنجر سونير؟



الكَنيسَة في قرية رين لُو شاتُو كانت مزخرفة بمزيج صارخ من الألوان والصور تحت إدارة سونير. المذبح - بشكل خاصّ - هو مثال رئيس عن رمزيَّته المُبذّرة، والغريبة.



قلعة صغيرة من القرون الوسطى موجودة - الآن - في قرية رين لُو شاتُو، ومازالت سكناً خاصاً، بالرغم من أنها مُخرَّبة جُزئياً.



برج مجدلا في قرية رين لُو شاتُو، الذي بُني من قِبَل الكاهن بيرنجر سونير لوَضْع مكتبته.



الكاهن السِّرِّيُّ لقرية رين لُو شاتُو، بيرنجر سونير، الذي كان مُقيماً فيها أثناء أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، حتى موته في عام 1917 . وفقاً للتقاليد المحلِّيَّة، هو رفض أداء الطقوس الأخيرة من قِبَل الكاهن.



القسّ الدّكتور دوغلاس بارتليت في مقابلة في منزله في أوكسفوردشير،إنجلترا، في عام 1982. أخبرنا القصّة الاستثنائية عن المخطوطة التي زوَّدتنا ببرهان بأنّ السَّيِّد المَسيح نجا من الصَّلْب، وأنه كان مايزال حيّاً في عام 45 بعد الميلاد.



الكَنيسَة في قرية رين لُو شاتُو كانت مزخرفة بمزيج صارخ من الألوان والصور تحت إدارة سونير. المذبح بشكل خاصّ هو مثال رئيس عن رمزيَّته المُبذّرة، والغريبة.



منبر الوعظ في كَنيسَة رين لُو شاتُو.



نقش بارز مُلوَّن مُبهَم في قاعدة المذبح، ضمن كَنيسَة رين لُو شاتُو، تُصوِّر مَريَم المَجْدَلِيَّة في القبر الفارغ للسَّيِّد المَسيح، تشبكَ يدَيْهَا معاً بفضول، وتبكي أمام شتلة مُبرعمة على شكل صليب، وُضِعَتْ جمجمة عند أسفله. هذه من الصعب أن تكون صورة دينية، يتمُّ وضعها على المذبح أمام القدَّاس الكاثوليكي، الذي كان يتمُّ تأديته.



نَقْش بارز مُلوَّن على الحائط الغربي لكَنيسَة رين لُو شاتُو يُصوِّر السَّيِّد المَسيح في قمّة تلّ نُثِرَ بالزهور، يدعو إليه كلّ الذين يعانون. حقيبة غامضة مع فتحة مُمزَّقة، تتمدَّد عند أسفل التلّ، وعلى ما يبدو لا ترتبط بأيّ من الشخصيات. هذا عنصر مُبهم آخر – لَحَدّ الآن – من تصاميم الكاهن سونير.



PHOTO BY MICHAEL BAIGENT

موقع المدينة اليهودية القديمة «جمالا» (Gamala) (الآن جملا) في مرتفعات الجولان؛ حيث أثناء الحرب اليهودية 66 – 73 بعد الميلاد، آلاف عديدة من الزَّيْلُوت القاطنين هناك – رجال، ونساء، وأطفال – فضَّلوا الانتحار بالقَفْز إلى الوديان التي في الأسفل، بدلاً من الوقوع في أَسْر الرومان. اعتقدوا بأنّهم إنْ ماتوا معاً، في نقاوة طقوسية، سيُبعَثُون معاً. الأَسْر من قِبَل الرومان ان يعني خسران تلك النقاوة، وبالتالي؛ فقدان فرصة العودة للحياة.

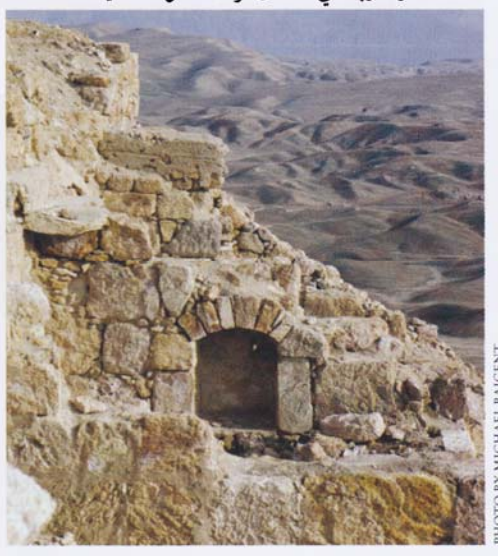
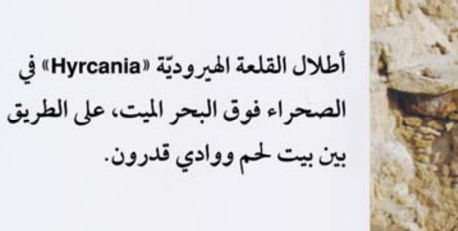
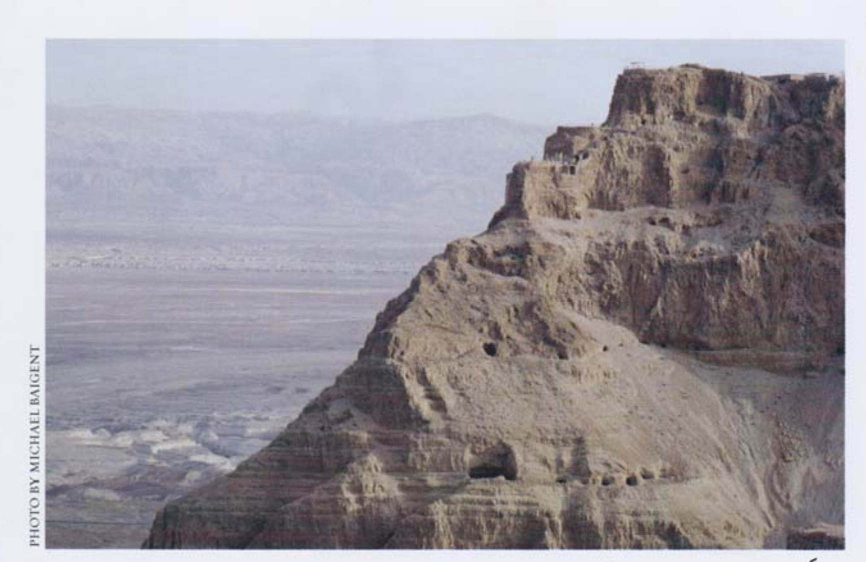


PHOTO BY MICHAEL BAIGENT



أطلال القلعة الهيروديّة «Hyrcania» في الصحراء فوق البحر الميت، على الطريق بين بيت لحم ووادي قدرون.



الحافَّة الشمالية لقلعة مسعدة تُظهر بقايا قصر هيرودس، والعديد من الكهوف المختلفة، ومداخل نَفَقية في التلّ.



أطلال قلعة الهيروديّين من مسعدة قرب البحر الميت، إسرائيل، تُظهر بقايا الطريق الضخم الذي بُنِيَ من قِبَل الرومان. تمَّ الاستيلاء عليها من قِبَل الزَّيْلُوت عام 66 بعد الميلاد، واحتفظوا بها حتى انتحارهم الجماعي عام 73 بعد الميلاد، بعد أن هاجمهم الرومان عبر الطريق، وحطَّموا دفاعاتهم. حوالي 900 من الزَّيْلُوت وعائلاتهم ماتوا.



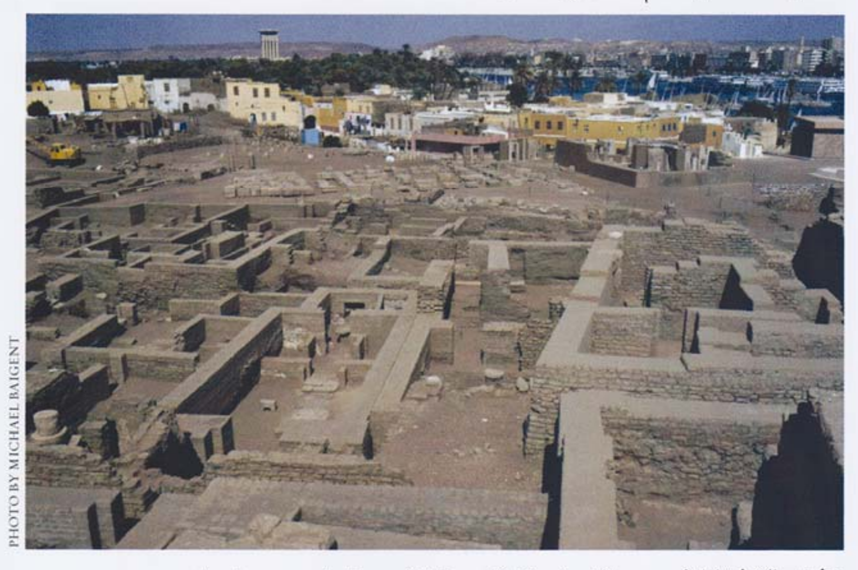
قلعة مونتسغور على جبلها الصخري الشديد الانحدار، المقرّ الأخير لحركة الكاثار الضلالية الغنوسطية في جنوب فرنسا أثناء القرن الثالث عشر. في 16 مارس/ آذار 1244، تمَّ أَخْذ 220 من الكاثار من القلعة من قِبَل الجيش المهاجم، وتمَّ إحراقهم وهم أحياء في حقل في الأسفل.



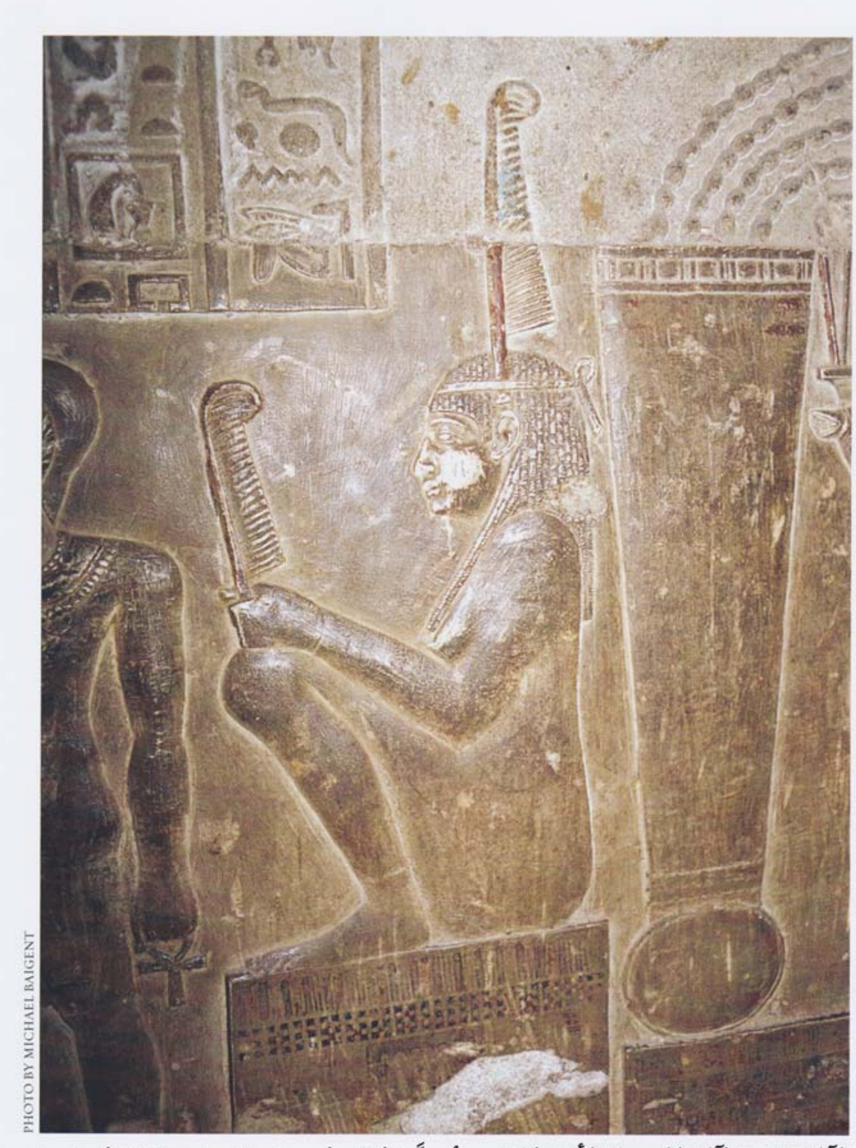
بين جدران القلعة والمنحدرات هناك بقايا قرية صغيرة لمُعلِّمي الكاثار البارزين، «المثاليين» من الجنسَيْن، كلَيْهما، والذين علّموا ما أصرّوا على أنه كان الرسالة الأصلية للسَّيِّد المَسيح.
هم عُوقبوا - باستمرار - من قِبَل محكمة التفتيش، وتمَّ إحراق عدَّة مئات منهم وهم أحياء.



بقايا البلدة اليهودية الكبيرة على جزيرة الفيلة في النيل في أسوان، جنوب مصر. هذه كانت - مرَّة - حدود الفراعنة؛ حيث كان هناك حامية عسكرية يهودية كبيرة، ومعبد ليَهْوَهْ . حُطِّمَت البلدة - تقريباً - عام 400 قبل الميلاد. يتمُ تنقيبها بشكل منهجي من قِبَل أعضاء المدرسة الألمانية لعلْم الآثار في القاهرة.



نظرة عامّة لبقايا البيوت والشوارع في المستوطنة اليهودية على جزيرة الفيلة.



الآلهة «مات» (آلهة الانسجام الأبدي) كما هي مُصوَّرة في قبو في معبد هاثور «Hathor» في دنديرا «Denderah»، الـ«مات» عُرِّفَ كَحَالَة من الانسجام والتوازن والحقيقة والعدالة والكمال التي تربط العالم الطبيعي بالعالم القُدْسي. الشبكة الواسعة للمعابد في مصر القديمة وطقوسهم اليومية والفرعون بنفسه، ذلك كلُّه وُجِدَ للحفاظ والحصول على هذه الحالة من الانسجام الأبدي لمصر.



PHOTO COURTESY THE BRITISH MUSEUM

عدَّ المصريون أن كلّ شخص عنده «Ba» (بَعْ)، وهو جسم روحي يتحرَّر بعد موت الجسد، وبإمكانه أن يتحرَّك بشكل مُستقلّ نحو هدفه القُدْسي. صُوِّر كطير يحمل رأس الشخص الميّت. هذا المثال هو من كتاب من البردي عنوانه «كتاب الموتى» للكاتب المَلَكي «عاني» حوالي 1250 قبل الميلاد. يُعَدُّ بأنّ هذا الجسم الروحي يمكن - أيضاً - تحريره قبل الموت الطبيعي، وذلك بالتلقين إلى أسرار الـ«Duat» (أسرار العالم الآخر، أو عالم الموتى).



PHOTO BY MICHAEL BAIGENT

اثنتان من الصور العديدة للبَعْ (روح الميت) نُقِشَتْ حول غرفة الانتظار لمُصلَّى أوزيريس، إله العالَم الآخر، في سقف معبد هاثور «Hathor» في دنديرا «Denderah».



الصورة المُبهمة في إحدى الأقبية السِّرِّيَّة التحت أرضية تحت معبد هاثور «Hathor» في دنديرا «Denderah»، وهو قبو لا يستطيع الوصول إليه إلا المُلقَّنون. الأيدي المرفوعة تُجسِّد الـ«كا» (Ka)، وهي الطاقة الحيّة الأساسية للإنسان، وفي هذه الحالة هي مرتبطة بعمود الـ«djed»، الذي يعني العمود الفقري لأوزيرس (أيْ قوّته). الأفعى التي تحملها الـ«Ka» في الأعلى تُمثِّل الزمن عادة. هل هذا يتعلّق ببعض الأسرار بأن الارتباط بين أوزيرس وطاقته الحيوية هما السبب في الحفاظ على وجود الزمن؟!

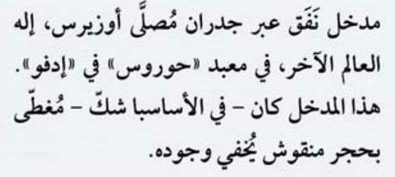


معبد هاثور في دنديرا، محفوظ بشكل جيد؛ لأنه بقي لمدّة ألفَيْ سنة – تقريباً – مُغطًّى بالكامل بالرمال.

النَّفَق الذي يمرُّ عبر الحائط وراء مُصلَّى أوزيرس في معبد «حوروس». في الأمام يمكن رؤية بعض الدرجات الضحلة.

PHOTO BY MICHAEL BAIGENT




مدخل نَفَق عبر جدران مُصلَّى أوزيرس، إله العالم الآخر، في معبد «حوروس» في «إدفو». هذا المدخل كان - في الأساسبا شكّ - مُغطّى بحجر منقوش يُخفي وجوده.



ما وراء الدرجات يوجد مدخل إلى غرفة تحت أرضية، تقع تحت معبد «حوروس» في «إدفو». الغرفة مُوجَّهة من الشرق إلى الغرب، وهي - على الأغلب - إحدى تلك الأماكن التي وُصِفَتْ من قِبَل الكُتَّاب القدماء على أنها مكان للشعائر السِّرِّيَّة لمعرفة أسرار «العالم الآخر».


PHOTO BY MICHAEL BAIGENT

«سيث» (seth) و«حوروس» يمنحان الحياة للفرعون في عمل طقوسي، يتمُّ تنفيذه من قِبَل كَهَنَة يرتدون أقنعة مناسبة. الواقع هو أن المشاركين لا يرتدون أحذية على الإطلاق، ممَّا يشير إلى أن هذه الطقوس تمَّتْ ممارستها في مكان مُقَدَّس.


PHOTO BY MICHAEL BAIGENT

ثوث، إله التلقين والمُرشد إلى «العالم الآخر»، يمنح الحياة الأبدية إلى الفرعون «سيتي الأول» (Seti I)، في معبد «سيتي الأول» في «أبيدوس» في مصر.


PHOTO BY MICHAEL BAIGENT

دَهْن الفرعون «سيتي الأول» على جدار المُصلَّى الذي في معبده في «أبيدوس».


PHOTOGRAPH COURTESY OF DR. PETER KINGSLEY

«بورتا روزا»، إحدى بوّابات المدينة القديمة التي ماتزال موجودة في خربة مدينة فيلا في جنوب إيطاليا. في القرن الخامس قبل الميلاد أسّس كاهن وفيلسوف يونانيّ قديم - هنا - تقليداً يستخدم تقنية خاصّة تُدعَى «الخلوة»، والتي تجعل الممارس يدخل في حالة من الصمت والسكون في الظلام الدامس في كهف أو غرفة تحت الأرض؛ لكي يحصل على رؤية مُقَدَّسَة. كشف الدليل الآثاري بأنّ هذه السُّلالة من الكَهَنَة استمرَّت لمدَّة 446 سنة على الأقلّ، ضمن زمن السَّيِّد المَسيح، وتعاليمه.



PHOTOGRAPH COURTESY OF DR. PETER KINGSLEY

أحد النقوش وُجِدَ في فيلا عام 1958، مكتوب عليها «أوليس (كاهن أبولو)، ابن أريسطون، المُعالج، إله العرش، سيد تقنيات الخلوة، في عام 280 م». آخر هذه السلسلة من النقوش يعود تاريخها إلى 446 سنة بعد الميلاد، ولكنَّ الأخرى، والتي - رُبَّما - تاريخها أحدث من ذلك التاريخ، ربما اختفت. من الواضح بأنّ هذه التقنيات في التلقين كانت معروفة ومتوفّرة في بداية العصر المَسيحي.

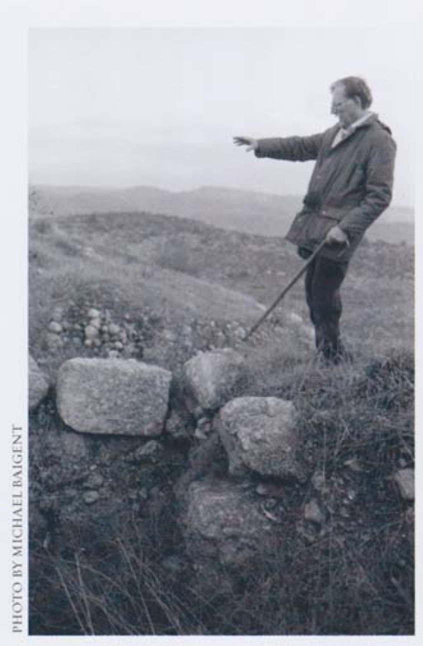




PHOTO BY MICHAEL BAIGENT

PHOTO BY MICHAEL BAIGENT

الأستاذ جيشون، خبير في تاريخ سِمعان ابن النَّجْم، الزعيم اليهودي الذي قاد الثورة ضدّ الهيمنة الرومانية عام 132 بعد الميلاد. أوليا كانت الثورة ناجحة، وطردت الجيوش الرومانية كلَّها من(إسرائيل)، لكنّها هُزِمَتْ عام 135 بعد الميلاد. وقُتِلَ ابن النَّجْم.

بقايا قلعة ابن النَّجْم قرب إموس «Emmaus» في (إسرائيل). بعد أن تمَّ احتلالها من قِبَل الرومان، وجد المدافعون مأوىً لهم في الأنفاق الموجودة تحت المبنى.



PHOTO BY MICHAEL BAIGENT

الأستاذ روبرت آيسنهان بجانب أحد الآبار ضمن القلعة. شكلها المنتفخ أسفل الأرض سمح لأولئك الذين يختفون في الأنفاق في الأسفل بأن يسحبوا الماء من دون أن يعرف الرومان.



PHOTO BY MICHAEL BAIGENT

تحت الرصيف الحجري لقلعة ابن النَّجْم كان هناك العديد من الأنفاق البسيطة؛ حيث عاش المدافعون، إلى أنْ تمَّ اكتشافهم من قِبَل الرومان.



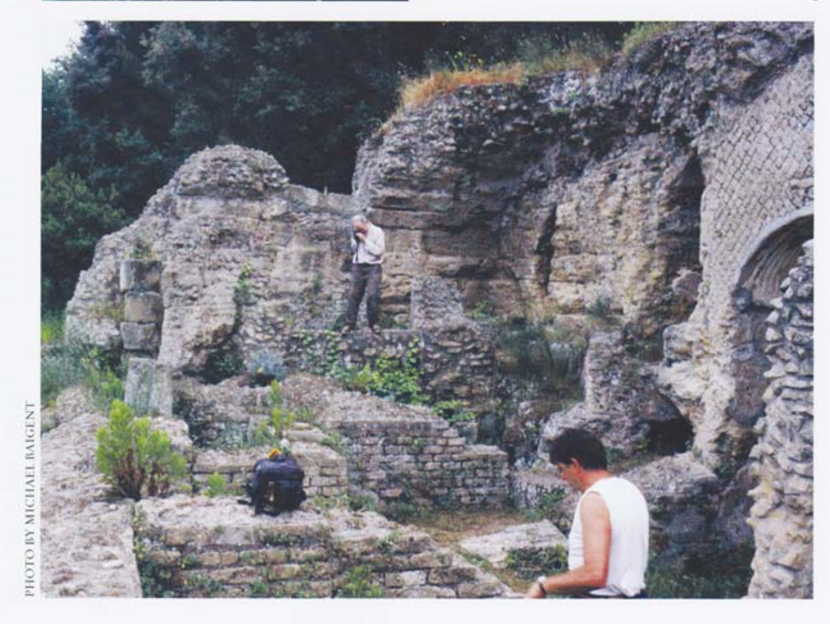
PHOTO BY MICHAEL BAIGENT

الأستاذ روبرت آيسنمان أمام المدخل المُغلق للنَّفَق المُؤدّي إلى أعماق التَّل. ما بعد هذا الباب المغلق، توجد أجساد المدافعين عن القلعة، الذين تقاعدوا أسفل هذا النَّفَق لتفادي أَسْرهم من قِبَل الرومان.



ميشيل بيجنت في الخندق العميق المُؤدِّي إلى المدخل الضَّيِّق للنَّفَق الغامض الذي يبلغ طوله ستّمئة قَدَم إلى المجمع الطقوسي التحت أرضي في «أوراكل الأموات» قرب نابولي في إيطاليا. هذا المدخل كان - لفترة طويلة - مُغلقاً من قِبَل السلطات الإيطالية، وفُتح - خُصُوصاً - لهذا التحقيق.

أستاذ الجامعة والكاتب روبرت تيمبل فوق الخندق الذي يؤدّي إلى مدخل المجمع التحت أرضي. بسبب طلباته الدائمة قامت السلطات الإيطالية بفَتْح هذا الموقع بعدأربعين سنة.



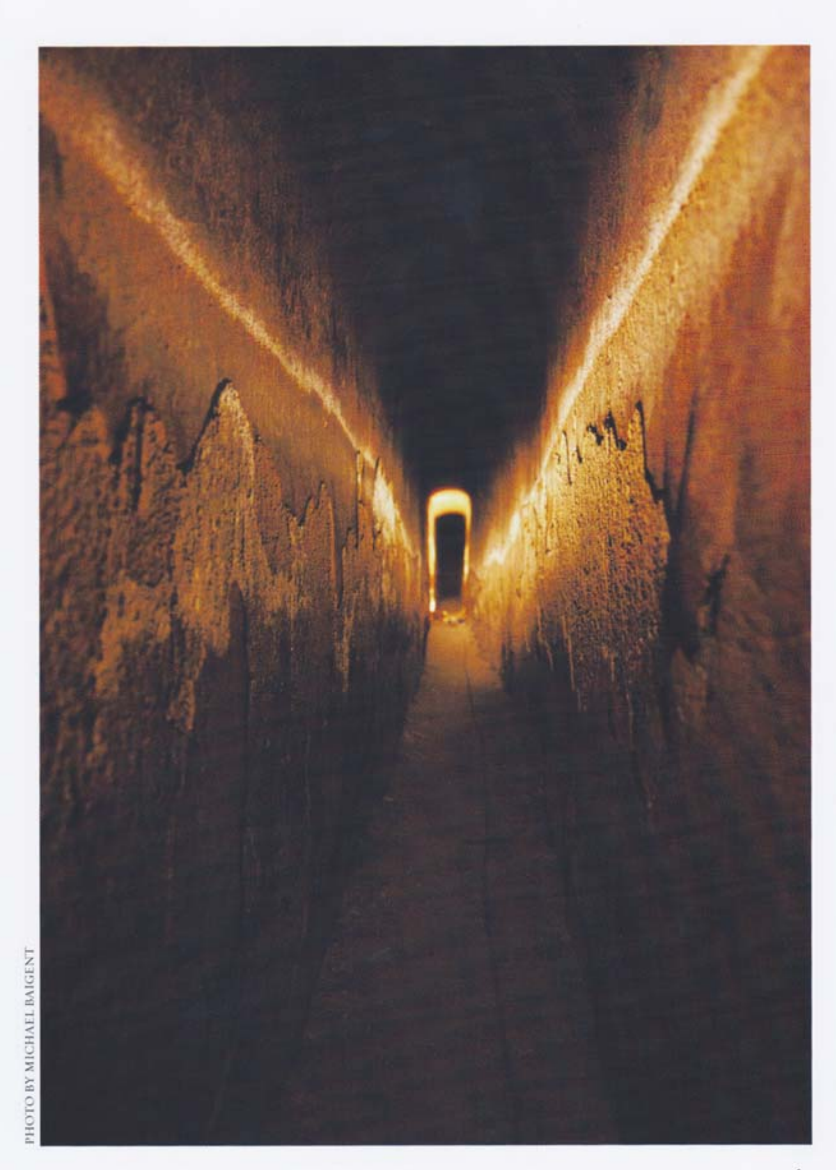


PHOTO BY MICHAEL BAIGENT

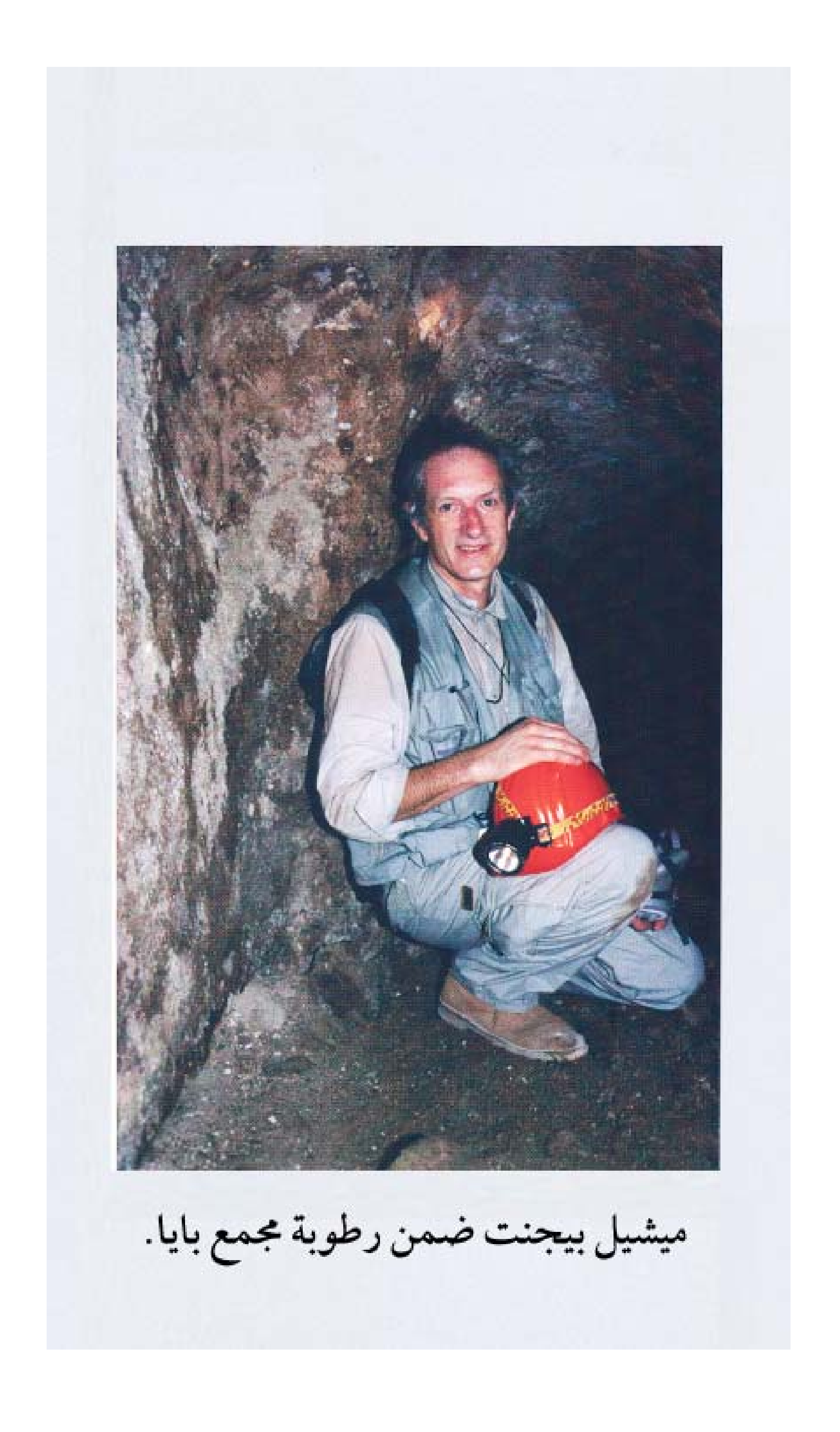
النَّفَق في منحدر بايا. يتّجه نحو الغرب، ومباشرة إلى الأسفل، ليصل – في النهاية – إلى طريق مائي تحتأرضي؛ ليمنح الوصول إلى سلسلة أُخرى من الأنفاق؛ لتُشكِّل – معاً – ما يبدو أنه معبد تحت أرضي مُلِئ بالكامل بالأنقاض منذ زمن الرومان قبل ألفَيْ سنة.



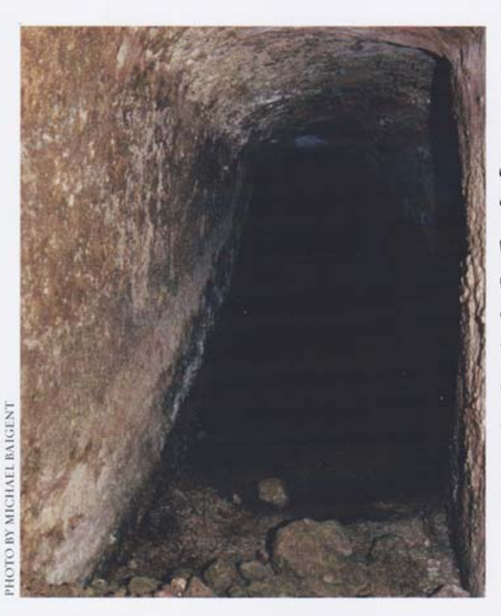
المدخل المغلق للمعبد التحت أرضي في بايا، وقد وُضِعَ قربانٌ أخضر حديث في الكُوَّة الصغيرة في الجهة السُّفلية اليُمنى. مهما كانت الطقوس التي يتمُّ تنفيذها في «أوراكل الأموات» المُعقّد هذا، فإنها كانت تُنفَّذ في هذا الملجأ المغلق. شيء ما حول هذا الموقع وهذه الطقوس قد أرعب الرومان، لذلك تمنّوا القضاء عليه إلى الأبد، وبأنْ لا يُستعمَل ثانية، وبالتالي؛ ملؤوه بالأنقاض. وهو - لحَدّ الآن - لم يُنقَّب.



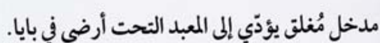
الأنقاض استقرّت خلال السنوات الألفيْن الماضية، ممَّا خلق فراغاً صغيراً، يسمح بالدخول زحفاً. بعد مئة وعشرين قَدَماً من مثل هذه الأنفاق يتمُّ تقسيم كلّ منها بشكل غامض إلى اثنَيْن، وبعد ذلك؛ تنتهي. التنقيب وحده القادر على اكتشاف سبب ذلك.



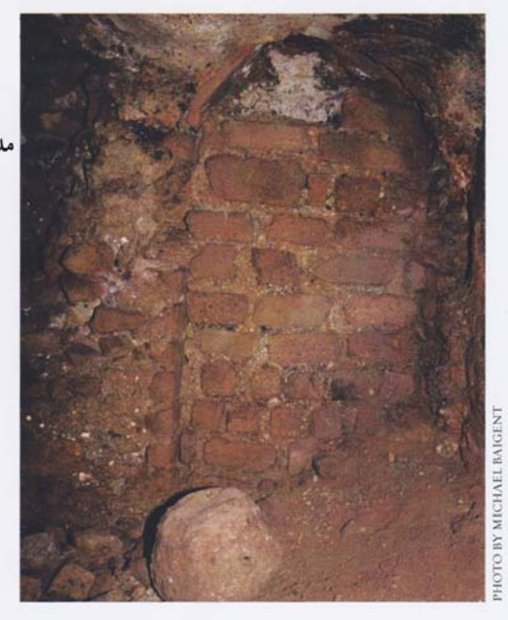
ميشيل بيجنت ضمن رطوبة مجمع بابا.



المَمرّ المائي في نهاية النَّفَق المُؤدّي إلى مجمع بايا، يُعَدُّ إلهاماً محتملاً لوَصْف فيرجل الذي قاله عن نهر الجحيم الرئيس، النهر الذي يفصل هذا العالم عن العالم الآخر. هناك درجات في النهاية البعيدة لهذا الممرّ، ممّا يُوضّح بأنّه في الأوقات القديمة كانت الطقوس تتطلّب التجذيف على طول هذا الممرّ المائي في مركب صغير (وصولاً إلى تلك الدرجات).

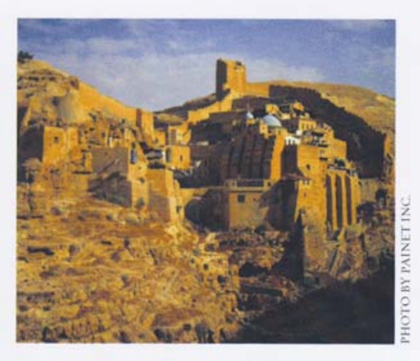


مدخل مُغلق يؤدّي إلى المعبد التحت أرضي في بايا.





النَّفَق عبر المنحدر الموجود في كيوما المؤدّي إلى الغرف التحت أرضية للعرَّافة المُتنبِّئة. هذا المجمع الغامض يبعد بضعة أميال من بايا.



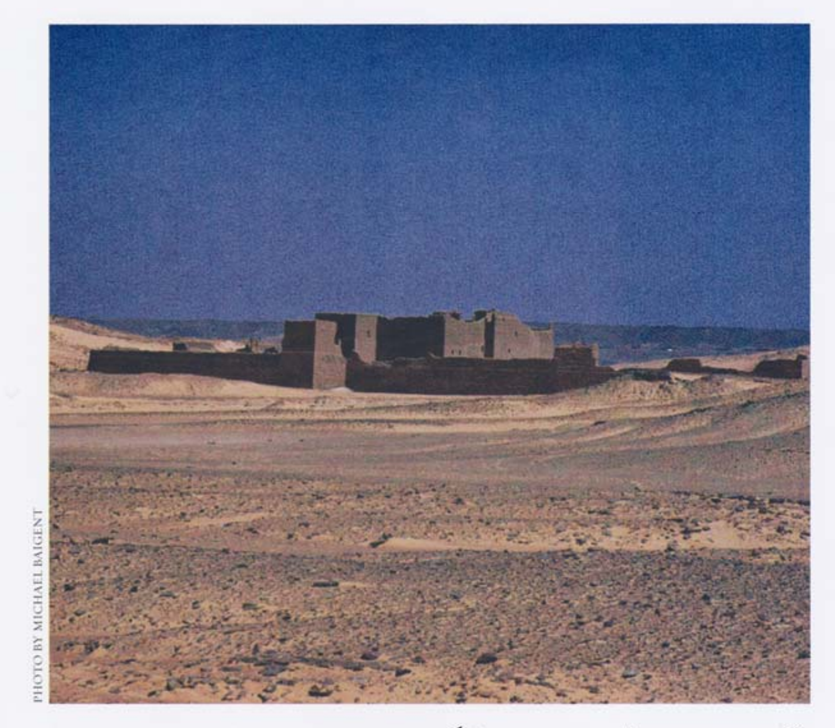
دَيْر «مار سابا» في وادي قدرون تحت بيت لحم. في عام 1958، اكتشف - هنا - الأستاذ مورتن سميث رسالةً تتكلَّم عن الفَهْم السِّرِّيِّ لتعاليم السَّيِّد المَسيح.



سُلّم يعقوب كما صُوِّر في «اللوحة الاستشفافيّة» من الدرجة الأولى في الماسونية. هذا الرمز هو تعبير قويّ عن المفهوم القائل بأن الأرض والسماء مرتبطتان بحميمية، وبأن ذلك الاتصال هو محتمل بين الاثنَيْن، وأن المكان المُقَدَّس هو المكان الذي يمكن منه المرور من أحد العالَمَيْن إلى العالم الآخر، ذهاباً، وإياباً.



الشجرة المُقَدَّسَة الآشورية فُهِمَتْ - فقط - من قِبَل المُلقَّنين، والتي هي المصدر الإلهامي لـ«شجرة الحياة».



الدَّيْر الصحراوي للقدِّيس جورج في الضَّفَّة الغربية لنهر النيل قرب أسوان، جنوب مصر. كانت مجتمعات صحراوية كتلك التي احتفظت بالنصوص، التي عُدَّتْ - لمدّة طويلة - ضلالية؛ مثل الإنجيل الغنوسطي، الذي وُجِدَ في الكُتُب المخطوطة في نجع حمّادي.



PHOTO BY MICHAEL BAIGENT

أعضاء فريق جامعة «لونغ بيتش» من ولاية كاليفورنيا أثناء المَسْح الشامل للكهوف، والسُّكَّان، والأدلَّة الزراعية، في المنحدرات الشديدة الانحدار، بجانب البحر الميت، جنوب قمران؛ حيث وُجِدتْ لفائف البحر الميت.

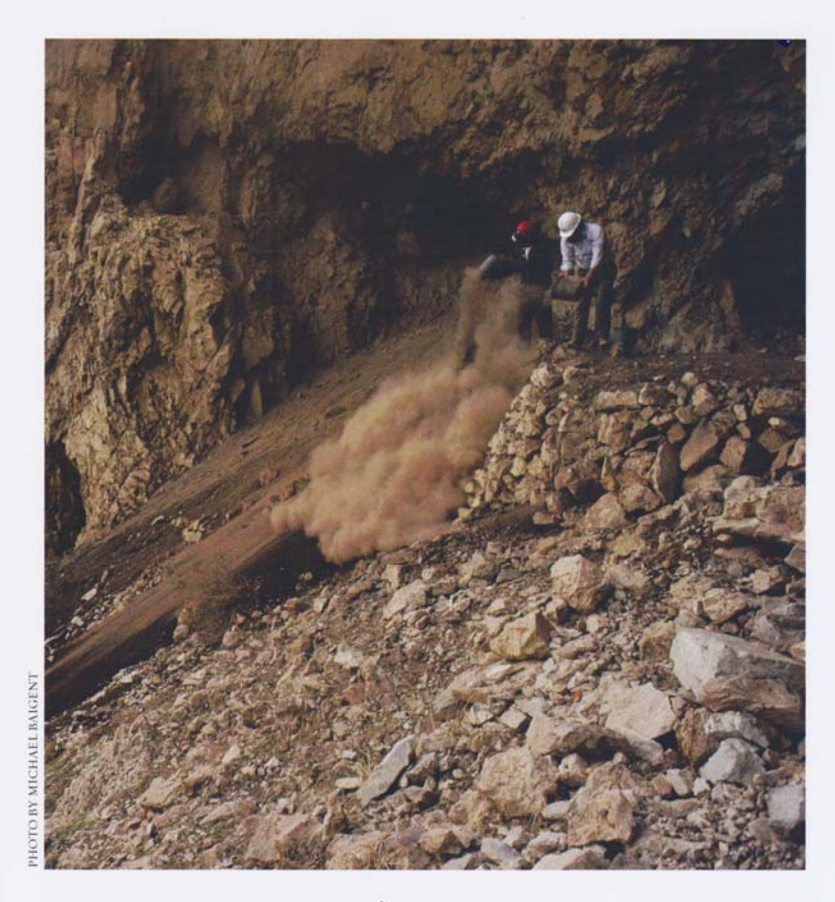


PHOTO BY MICHAEL BAIGENT

تنقيب الكهف 37، الذي يقع على ارتفاع ستّمئة قَدَم في المنحدرات إلى الجنوب من خربة قمران. تمَّ العثور على طبقتَيْن كانتا مسكونتَيْن، بالإضافة إلى قبرَيْن من العصر الحديدي.



غربلة كلّ الغنائم التي انتُزِعَتْ من الكهف 37 أثناء التنقيب. في هذا الأسلوب يتمُّ العثور على العديد من الأجسام الصغيرة، التي تُفْقَد عادة.

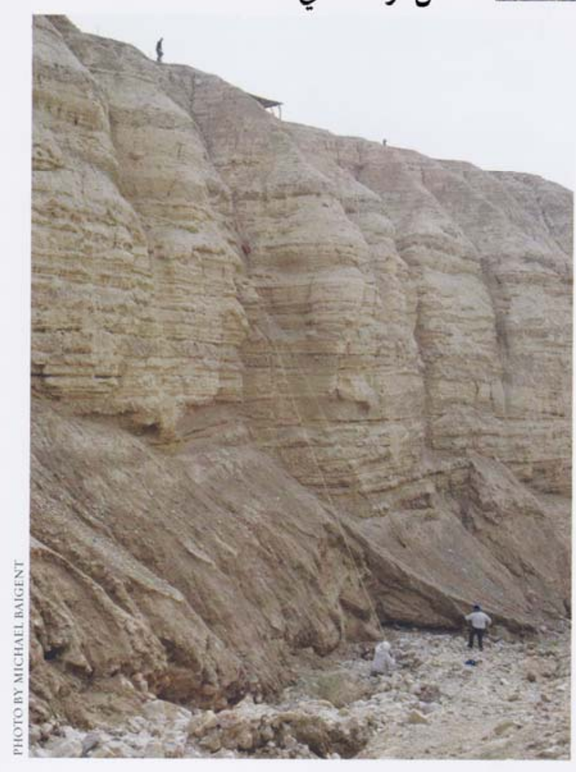


موقع مراقبة مُتقدِّم صغير، كان يخدم حامية الزَّيْلُوت في مسعدة فوق الرصيف المرفئي الحجري الهيروديّ في خربة مازن في نهاية وادي قدرون. من هنا؛ يمكن معرفة عدد القوّات الرومانية النازلة. بالرغم من أنّها المرَّة الأولى التي نكتشف فيها هذا الموقع، إلا أنه لم يُنقَّب لبضع سنوات.

طوني وود، وكريج ميلز. خبيران في عمل نظام الرادار الأرضي، أثناء مَسْح أطلال قمران قرب المكان الذي عُثِرَ فيه على مخطوطات البحر الميت. الهدف كان فَحْص الآثار القديمة، والبحث عن وجود أيّة كهوف إضافية قد تمتلك نصوصاً قديمة.


PHOTO BY MICHAEL BAIGENT

العملية الصعبة لاستخدام الرادار الأرضي لتصوير سطح الجرف بسرعة ثابتة، من أجل الحصول على ملفّ لما هو موجود داخل الجرف. أيّة كهوف موجودة ستظهر على شكل فراغات في الشاشة.


PHOTO BY MICHAEL BAIGENT



وادي قمران، يُظْهِرُ خرابَ المستوطنة والكهوف في أسفل المنحدر؛ حيث وُجِدَ - ضمنه - أعداد كبيرة من أجزاء النصوص.

مخرج النَّفَق الذي يجلب الماء من الوادي إلى مستوطنة قمران.

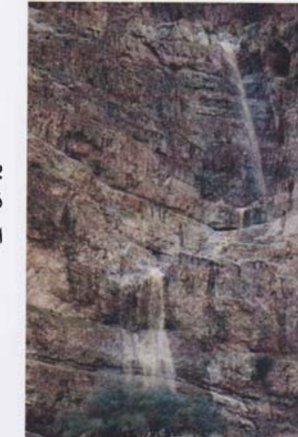


PHOTO BY MICHAEL BAIGENT

بعد مطر غزير في القُدْس، الماء يهبط من مرتفعات الوادي فوق خربة قمران. كان السُّكَّان في هذا المجتمع يجمعون الماء في مناسبات كهذه.

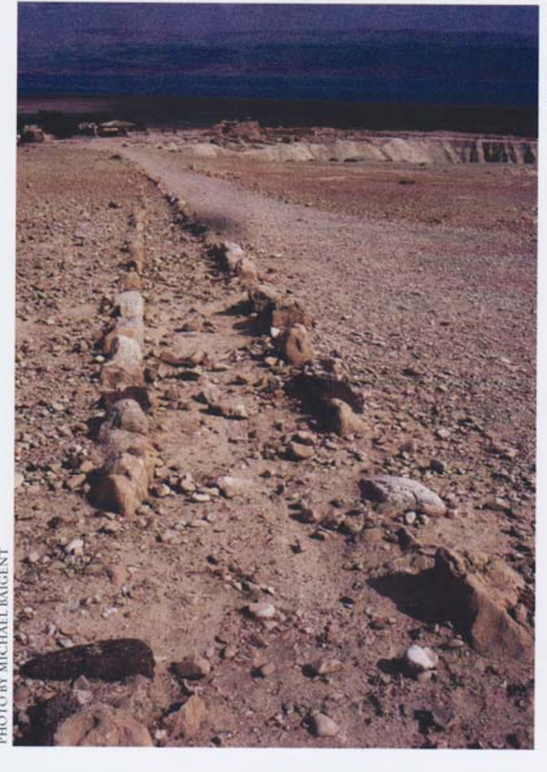
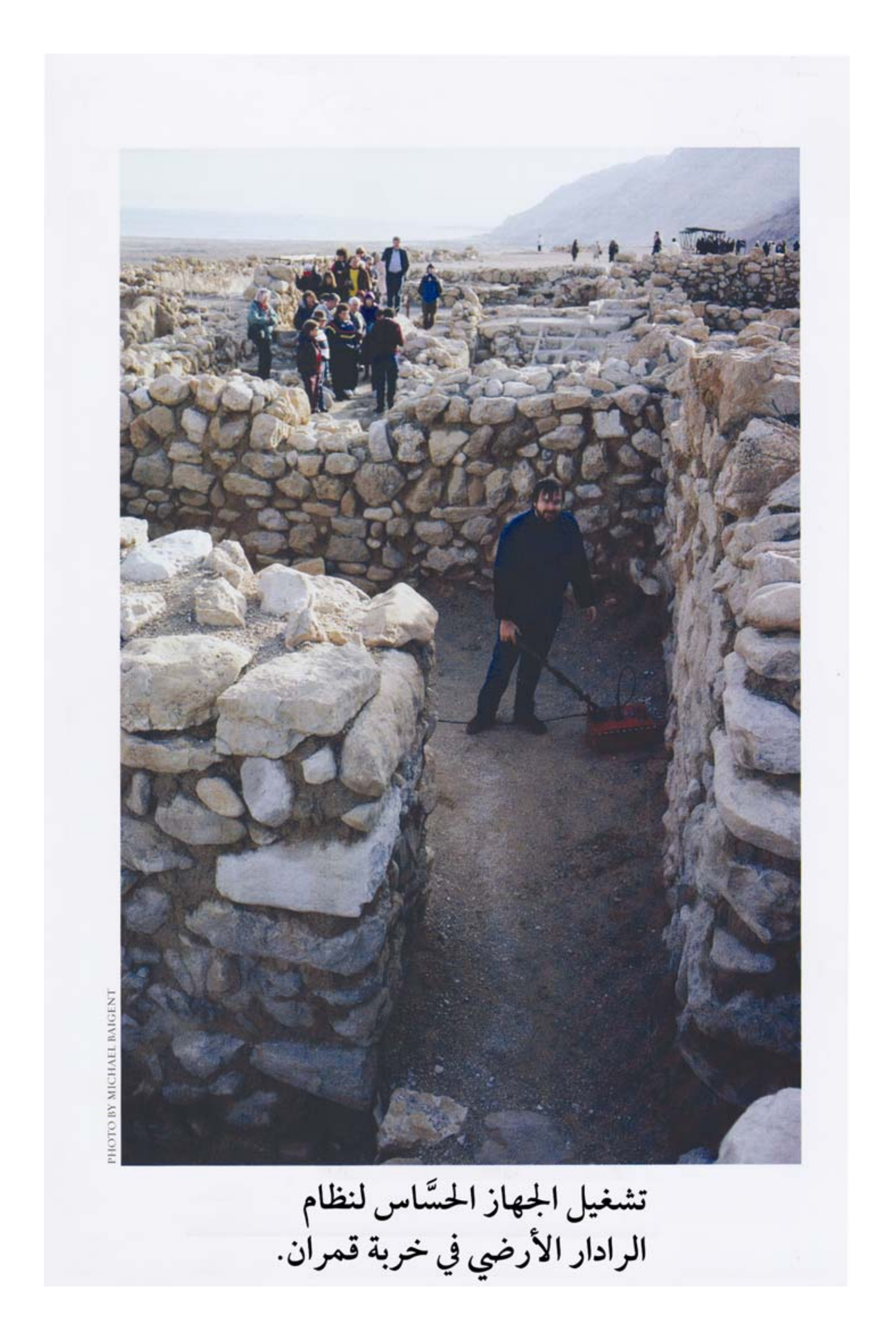


PHOTO BY MICHAEL BAIGENT

بقايا القناة المائية المُمتدَّة من النَّفَق إلى مستوطنة قمران.



تشغيل الجهاز الحسَّاس لنظام
الرادار الأرضي في خربة قمران.